من هدى القرآن

١٤

تفسير سور

الذاريات إلى الواقعة

تأليف

آية الله السيد محمد تقي المدرسي



سورة الذاريات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

فضل السورة :

في كتاب ثواب الأعمال بإسـناده عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ قال : «**من قرأ سـورة «الـذاريات» في يومه أو في ليلته أصلح الله له معيشته ، وأتاه برزق واسع ، ونـور له في قـبره بسـراج يزهر إلى يـوم القيامة**»

تفسير الثقلين / ج 5 / ص 120

الإطار العام

مثلما تـــذرو الأعاصـــير الحطـــام ذروا ، مثلما تحمل السـحب وقر الغيث إلى الأرض العطشى ، مثلما تجــري السـفن الثقيلة في البحر سـيرا ، وكما يقسّـم ملائكة الله أرزاق العباد أمرا أمـرا ، كـذلك وعد الله صـدق حقّا حقّـا. متى؟ في يوم الجزاء الذي لا ريب فيه.

هكــذا تنتظم آيــات ســورة الــذاريات حــول محــور المسؤولية الـتي يهـدينا إليها التـدبير القـائم في الخليقة ، وأنّ كــلّ شــيء خلق بقــدر ، وإلى أجل ، ولحكمة بالغــة. أفيترك هـذا الإنسـان الـذي سـخّرت له الأشـياء سـدى أو يمكن أن يكون خلقه عبثا بلا حكمة ولا هدف؟

كلّا .. قسما بالسماء المنتظمة كحلقات الدرع المتينة إنّ الرسالة حق ، وإنّما اختلفوا فيها أو انحرفوا عنها لأنّهم خرّاصون إن يتبعون إلّا ظنّا ، ولم يأخـذوا الأمـور بجد ، بل تغمرهم أمواج الأماني ، ساهين عمّا ينتظرهم ، ويســألون باستهزاء : متى يأتي الجزاء؟ هل يدرون أيّان يـوم الجـزاء عند ما يعرضون على النار عرضا ، وقبل أن

يلقـوا فيها يقـال لهم : «**ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هـذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ**».

أو ليس هـذا الجـزاء الحق كـان لإيقـاظ الإنسـان من سـباته ، وإنقـاذه من غمـرات السـهو؟ بلى. وفي الجـانب الآخر أنظر إلى المتقين الذين آمنوا بالجزاء فتجنّبـوا النـار وما يجـرّهم إليها في الـدنيا. أين تـراهم اليـوم؟ إنّهم في جنّـات وعيـون ، وكما أحسـنوا في الـدنيا بالعطـاء تـراهم اليوم يأخذون عطاءهم من ربّهم. أيّ عمل عظيم قاموا به فبلغوا هذه الـدرجات العلى؟ (**كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْـلِ ما يَهْجَعُونَ**) تبتّلا إلى الله ، وبالأسحار هم يستغفرون تطهّرا من الذنوب وتطلّعا إلى المغفرة والرضـوان ، وقد وضـعوا على أنفسهم في أموالهم حقّا مفروضا للسائل والمحروم غير الواجبات التي فرضت عليهم إحسانا وفضلا.

أفلا يكفي ذلك باعثا للصـــــــــــالحات ، داعيا إلى المكرمـــات. أفلا يكفينا ذلك باعثا للصـــالحات ، داعيا إلى المكرمات. أفلا يكفينا سهوا وغفلة وهزلا؟

وإذا نظـــرت إلى الأرض كيف مهّــدت للحيــاة ، وإلى النفس كيف انطــوت على عــالم كبــير اختصــرت آيــات الخليقة في كل خلية منها ، وإلى السماء كيف يتـنزّل منها رزق الله وما وعده الداعين من فضله .. لعرفت أنّه الحق كما أنّك لا ترتاب في نطقك.

ويضرب القـرآن مثلا من ضـيف إبـراهيم المكـرمين : كيف بشّروه بغلام عليم لأنّه أطـاع الله ، وحملـوا العـذاب إلى قــوم لــوط لأنّهم كــذّبوه. أو ليس ذلك دليلا على أنّ وعد الله صـادق ، وأنّ الـدين لواقع ، وأنّ الرسـالة حق لا يحتمل السهو واللهو والسخرية.

كما أنّ استجابة الدعاء لامرأة إبراهيم العجـوز العقيم لشاهد صدق على تدبير

الله للخلق ، وأنّ وعـــده لصـــادق عند ما أمرنا بالـــدعاء وضمن الإجابة.

ويقصّ السـياق عاقبة فرعـون الـذي كـذّب برسـالة موسى الـذي جـاءه بسـلطان مـبين فأخـذه الله وجنـوده فألقاه في اليمّ غير مأسوف عليه .. كذلك يشير إلى قصة عاد الذين أرسل عليهم ريحا مـدمّرة ، وقصة ثمـود الـذين أخذتهم الصيحة ، وقصة قوم نوح الـذين لفهم الطوفـان ، كلّ أولئك الـذين فسـقوا عن أمر الله فـدمّر عليهم ، فهل هذا سهو أم هزل؟

كلّا .. ما خلق الله الســـماوات والأرض إلّا بـــالحق والحكمــة. فما هي حكمة خلق الجنّ والإنســان (بما أوتيا من حرية القرار)؟

تعــال ننظر إلى الســماء الــتي بناها الله بقــوّة وإنّه لموسـعها ، وإلى الأرض فرشـها برحمته ، وخلق من كـلّ شيء زوجين ، لعلّنا نذكر وحدته وحسن تأليفه وتدبيره.

على أيّ بصـيرة تشـهد كـلّ هـذه الحقـائق؟ أو ليس على أنّه سبحانه المدبّر والسـلطان المهيمن؟ ألّا نفـرّ إليه لنـــأمن في كهفه عواصف الفتن ، وقواصف العـــذاب ، سالمين من فتنة الشركاء والأنداد الذين ينهبون في الـدنيا حقوقنا ويقودوننا في الآخرة إلى سواء الجحيم؟

من أجل هذا جاء الرسول وجـاءت سـائر الرسـالات ، ولكنّ الناس تمرّدوا وقـالوا عن كـلّ واحد منهم شـاعرا أو مجنونا ، فهل تواصوا بذلك أم هم قوم طاغون؟

ذرهم في غيّهم غـــير ملـــوم عليهم ، وتوجّه للقـــاء المؤمنين فذكّرهم. إنّ الذكرى تنفعهم.

وكذلك جـاء الرسل لتحرير الإنسـان من نـير العبودية الشركية إلى رحاب عبودية

الـــــــــربّ الواحد ، وإنّها لحكمة خلق الجنّ والإنس ، فما خلقهم الله لـيربح عليهم أو يعطـوه شـيئا ، تعـالى الله ذو القوة المتين أن يصل إليه نفع من عباده أنّى كان صغيرا.

إذا فما هي عاقبة هؤلاء الظـالمين والكـافرين؟ دعهم يسـتعجلون العـذاب فـإنّ نصـيبهم منه مضـمون ، وإنّهم لمعـذّبون مثل سـلفهم الغـابر ، وإنّ لهم الويل في يــوم المعاد عند ما يحيق بهم ما استهزءوا به.

وهكـذا تختم السـورة بما يبـدو أنّه محـور السـورة الأســـاس أي حكمة خلق الله للإنس والجن المتمثّلة في عبادته.

سورة الذّاريات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**وَالـــذَّارِياتِ ذَرْواً (1) فَالْحــــامِلاتِ وِقْـــراً (2)**
فَالْجارِيــاتِ يُسْــراً (3) فَالْمُقَسِّــماتِ أَمْـراً (4) إِنَّما
تُوعَدُونَ لَصادِقٌ (5) وَإِنَّ الـدِّينَ لَواقِـعٌ (6) وَالسَّـماءِ
ذاتِ الْحُبُـكِ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَـوْلٍ مُخْتَلِـفٍ (8) يُؤْفَـكُ
عَنْهُ مَنْ

---

(1) [الذاريات] : هي الرياح التي تذروا التراب وغيره.
(2) [فالحاملات وقرا] : الأشياء التي تحمل حملا ثقيلا سـواء كـانت تلك الحاملات التي تحمل الأمطار أو السفن الـتي تحمل الإنسـان وغـيره أو نحوهما ، تسير بسبب الذاريات.
(3) [فالجاريات] : أي السفن أو السحب.
(4) [فالمقســمات أمــرا] : هم الملائكة الـتي خلقها الله وجعلها تقسم أمور الكون.
(7) [الحبك] : أي الطرائق والطرق الحسنة.
(9) [يؤفك] : يصرف.

أُفِكَ (9) قُتِلَ الْخَرَّاصُـونَ (10) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْـرَةٍ ساهُونَ (11) يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12) يَـوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُـونَ (13) ذُوقُـوا فِتْنَتَكُمْ هـذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِـهِ تَسْـتَعْجِلُونَ (14) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كـانُوا قَبْـلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْـوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19)

---

(10) [الخرّاصون] : الخرّاص الذي يخمّن بدون علم.
(17) [ما يهجعـون] : الهجـوع النـوم ، أي قليلا من الليل ينـامون ، ف (ما) زائدة أو المراد قليلا من الليل لا ينامون ف (ما) نافية.
(18) [بالأسحار] : السحر هو الثلث الأخير من الليل.

يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ؟!

هدى من الآيات :

في سورة الـذاريات المكية الـتي تحتـوي على سـتين آية مباركة نقـــرأ قـــول الله ســـبحانه وتعـــالى في الآية السادسة بعد الخمسين : «**وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُـــدُونِ**» ، وكما ســـبق ونوّهنا إلى أنّ بعض الآيـــات القرآنية تعتبر محورا للسياق القرآني في السـورة ، وربما تكــون الآية الواحــدة في الســورة مفتاحا لفهم الســورة بأكملها ، والآية (المحـور) الـتي جـاءت السـورة من أجلها ومن أجل تكــــريس مفهومها ومضـــــمونها ، كما مثلا آية الشورى في سورة الشورى أو آية النور في سـورة النـور وآية الحديد في سورة الحديد أو ما أشبه.

ولعلّ الآية الكريمة : «**وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**» هي الآية (المحور) في سورة الـذاريات ، حيث تبعثنا نحن البشر إلى التوجّه بكلّيّتنا لـــــربّ العـــــالمين ، والتخلّص من الأثقـــال المادية والأصر النفســـية والأغلال الاجتماعية ، فـــارّين إليه من ذنوبنا وجهالتنا ، هــاربين إلى قوّته وقدرته من الضعف والعجز اللذين

نرتكس فيهما ارتكاسا.

وإنّ عبادة الله تعني التحـرّر من كـلّ عبودية أخـرى ، من عبودية الهوى والشـهوة والمـال والسـلطة ، والتقاليد والأعراف ، ممّا يمنح الإنسان الكرامة التامّة ، وآنئذ يرتفع إلى مستوى التقرّب إلى الله حتى يهب له الـربّ قـدرة لا تحد ، وحيــاة لا تنتهي ، جــاء في حــديث قدسي عن ربّ العــزّة ســبحانه أنّه يقــول : «**يا ابن آدم : أنا غــني لا أفتقر أطعــني فيما أمرتك أجعلك غنيّا لا تفتقر ، يا بن آدم : أنا حي لا أموت أطعـني فيما أمرتك أجعلك حيّا لا تموت ، أنا أقول للشـيء كن فيكـون أطعـني فيما أمرتك تقول للشيء كن فيكون**» [1].

إنّه آنئذ يكـــــون خليفة الله ليس في الأرض فقط بل في الطبيعة أيضا ، ففي الحـــديث عن الإمــــام جعفر بن محمد الصادق ـ عليهما السـلام ـ أنّه قـال : «**من خـاف الله عزّ وجل أخاف الله منه كلّ شيء**» [2].

بينما يكون العكس حينما يعبد غـير الله ، حيث يصـبح ضـعيفا حقـيرا أمامه ، لا يملك من حـول أو قـوة : «**ومن لم يخف الله عزّ وجلّ أخافه الله من كلّ شيء**» [3]

بينات من الآيات :

[1 ـ 4] تبدأ سورة الـذاريات بآيـات تشـير إلى ما في الكـون من مظـاهر قـدرة الله وتجلّيـات تـدبيره : فهـذه الدورة الحياتية الـتي تبـدأ بالريـاح تـذرو البـذور وتنشـرها لتتلاقح ، ثم تحمل السـحب الثقيلة بــالغيث وتجــري في السماء بيسر ، بالرغم من الوقر الذي تحمله ، ثم يقسّمها الله حسب مساحات الأرض بتقدير حكيم تفيض على

(1) كلمة الله / ص 140
(2) بحار الأنوار / ج 70 / ص 381
(3) المصدر

السـهول والـروابي والجبـال وعلى الأراضي البعيـدة كما القريبة.

وعشرات الألـوف من السـنن والأنظمة تتـولّى تـدبير هـذه الـدورة النباتية الـتي ينهض كـلّ عامل فيها بـدوره المرسوم ، وتتكامل العوامل حتى تبني حياة زاخرة بالخير والبركة.

أو ليس في ذلك عبرة تهدينا إلى ما ورائها من تقـدير وتـــدبير ، وأنّ الإنســـان الـــذي تخدمه هـــذه المنظومة المتكاملة من العوامل لا يمكن أن يخلق عبثا أو يــــترك سدى. إنّه هو الآخر جاء لحكمة بالغة ، ويـذهب وفق سـنّة نافذة ، وتحكمه سنّة الجزاء العادل.

هكذا تتواصل آيات الكتاب المبين ببلاغة معجـزة وفي أيمـان متلاحقة لتبصّـرنا بـأنّ الوعيد حق والجـزاء واقع لا ريب فيه ، وهذه من أبـرز غايـات القسم في آيـات الـذكر الذي سوف نجده بتكرار في فواتح السور الآتية ، وسـوف نذكّر ـ كما ذكّرنا مرارا ـ بغاياته المتنوعة.

(**وَالذَّارِياتِ ذَرْواً**)

إنّها الريـاح الـتي تنشر الغبـار والأوراق والبـذور. ما أقدرها من قوّة ، وما أعظم تدبير من سخّرها لبثّ البـذور في الفلوات والمفازات المتباعدة ..

تفكّر ما ذا لو سكنت الريح ، ولم تكن هـذه العواصف الهـوج والأعاصـير الرهيبة ، كيف كـانت تنتشر في الأرض بذور النباتات الطبيعية التي تكمل كلّ واحدة منها الأخـرى ، وهي جميعا ضـرورة قصـوى في دورات الحيـاة النباتية والحيوانية.

إنّنا نمـرّ عـبر أراضي شاسـعة ونجد آثـار الحيـاة في بقعة بقعة وقيعة قيعة ، ولا نعرف

ما وراءها من أسرار ذرو النباتات وتلاقحها ، وما في كلّ واحدة من دور عظيم في منظومة الحياة المتكاملة ، ولو فكّرنا وعلمنا لما وسعنا إلّا أن نهتف مسبّحين : الله أكبر.

(**فَالْحامِلاتِ وِقْراً**)

بعد ما تستقرّ البذور في رحم الأرض تجري الرياح إلى مراكز السحب فوق البحار والمحيطات وتحمل كتل الماء الثقيلة بعيدا عن مجال تكوّنها لتسقي الأرض من أعلى فلا يبقى موقع جافّا ، ويفيض موقع آخر فيضانا مضرّا. من الذي قدّر أمر هذه السحب ومواقع سقياها. أو ليس المدبّر الحكيم؟

(**فَالْجارِياتِ يُسْراً**)

هذه السحب تجري بيسر ، ثم تهطل فتمتلئ الروافد والأنهر ، وتجري فوقها السفن بيسر لتصبح أفضل وسيلة لتبادل البضائع بين الأمم منذ أن خلق الله الإنسان وحتى اليوم.

(**فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً**)

إنّهم الملائكة الذين يشرفون بأمر الله على تدبير هذه العوامل الحياتية.

جاء في الحديث أنّ ابن الكوّا (وكان خارجيّا) سأل أمير المؤمنين (ع) عن «**الذَّارِياتِ ذَرْواً**»؟ قال : الريح ، وعن «**فَالْحامِلاتِ وِقْراً**» فقال : هي السحاب ، وعن «**فَالْجارِياتِ يُسْراً**» فقال : هي السفن ، وعن «**فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً**» فقال : الملائكة [1].

---

(1) نور الثقلين / ج 5 / ص 120.

[5] إذا كـان معـنى القسم في كلامنا ــ نحن البشر ــ اتصال موضـوعة بـأخرى بصـورة اعتيادية فـإنّ معنـاه في كلام الربّ اتصالهما بالحق. أرأيت لو قلت : وعمري إنّـني صــادق ، ما ذا يكــون معنــاه؟ أو ليس معنــاه أنّك ربطت صدقك بعمرك ، وزعمت أنّهما موضوعتان متصلتان حــتى لو فقدت إحداهما (صدقك) كانت الثانية (عمرك) مفقودة هي الأخرى؟

وقد لا تكــون الموضــوعتان متصــلتين ببعضــهما في الواقع بل في اعتبارك أو تقديرك فقط.

بينما إذا جــاء القسم في كلام ربّنا فــإنّ اتصــاله بما أقسم له حق وواقع لا ريب فيه ، فــإذا قرأنا في القــرآن الكريم : «**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهـذَا الْبَلَـدِ الْأَمِينِ**» وتلونا بعـــدها : «**لَقَـــدْ خَلَقْنَا الْإِنْســـانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**» فـإنّ معـنى ذلك أنّ هنـاك اتصـالا واقعيّا بين خلقة الإنســان في أحسن تقــوم وبين ما ســبق من الـــــتين والزيتـــــون (اللـــــذين بهما طعامـــــه) ، (**وَطُورِ سِينِينَ**) (الذي يحمي البلاد من الأعاصير والأعداء ، ويوفّر الكثير من عوامل الحضارة) (**وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ**) (الــذي يــزرع الســكينة في نفــوس النــاس) بين كل ذلك وقوام خلق الإنسان.

كذلك في هذا السياق حينما أقسم الله بالريــاح الــتي تــذرو ، والسـحب الـتي تسـقي ، والسـفن الـتي تجـري ، والملائكة الذين يقسّمون أمرا ، فإنّ هناك ربطا بينها وبين الحقيقة التالية :

(**إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ**)

أوّلا : لأنّ ربّ السماء المدبّر لهـذه القـوى العظيمة لا يخلف وعـده ، وهل يخلف وعــده إلّا العـاجز ، وهل لنا أن نتصوّر شيئا من العجز في مقام ربّنا القوي القاهر

المقتدر الذي حمّل الرياح العاصفة هذه المقادير العظيمة من المـاء ، وسـاقها من فوقنا إلى حيث شـاء من الأرض الميتة فأحياهـا؟ كلّا .. إنّه صـادق الوعيد ، وحـقّ لنا أن نخشاه قبل أن يحلّ بأرضنا الدمار والبوار.

ثانيا : إنّ كـلّ تلك القـوى المحيطة بنا تـؤدّي دورها حسب تقدير العزيز العليم ، فكيف لا يخضع الإنسان لذلك التقدير؟ كيف ترك يتبع هواه؟ ولماذا جاءته النـذر من بين يديه ومن خلفه يحذّرونه من عـذاب شـديد؟ بلى. إنّه لم يـترك إلى الأبد ، إنّما ليـوم الفصل حيث ينتظـره الوعيد الصـادق. دعنا إذا نحـذر الآخـرة ، ونتقي ما يعرّضـنا فيها للعـذاب ، هكـذا تتصل حقـائق القسم السـابقة بحقيقة الوعيد الذي أنذر به البشر.

[6] (**وَإِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ الدِّينَ**)

(ذلك الجـزاء الأوفى الـذي بشّـرنا به لو اتقينا الـرب) حق ، ويقع في ميعاده المحدّد.

قالوا : (**الدِّينَ**) هو الجـزاء ، وأنّ يـوم الـدين هو يـوم الجزاء ، وإذا فالدّين ـ حسب هذا الرأي ـ يقع في الآخرة.

ولكنّ الأمثال التي يضربها القرآن فيما يـأتي من واقع التاريخ البشري في الـدنيا لا تخص بـالآخرة ، وحـتى كلمة الدّين عامّة تشمل الدنيا ، بلى. الجـزاء الأوفى في الحيـاة الأخرى أمّا الدنيا فالجزاء فيها محدود.

إنّ تقـدير الله حكيم ، وتقسـيم الملائكة الأمر يجـري وفق ذلك التقـــدير ، فكيف لا يتصل بســلوك البشر وما يختاره لنفسه من خير وشر.

الأمنة والخــوف ، التقــدّم والتخلّف ، الغــنى والفقر ، الصحة والمرض ، الوفرة والجدب ، كلّ ذلك يخضع لتقدير الــربّ الحكيم ، ولعــلّ وعي هــذه الحقيقة يفتح أبــواب المعرفة أمــام الإنســان ، ويعطيه مفك ألغــاز الخليقة من حوله ، ويضـــعه على المنهج الســليم في بحثه عن العلل والأســباب. إنّه باختصـــار ســـبيله نحو الحضـــارة. أليس التخلّف ناشئ من الفصل بين سلوك الإنسان وواقعه ، إذا فإنّ الخلاص منه يكون بمعرفة اتصالهما ببعضـهما اتصـال العلة بالمعلول.

أكثر الناس يجهلـون أو يغفلـون عن هـذه الحقيقة أنّ ظواهر الطبيعة وأحداثها تخضع لتقدير حكيم ، وأنّ سـلوك كلّ واحد من أبناء البشر يؤثّر ـ بقدره ـ في هذه الظـواهر ، لذلك فهم يتمنّون تحسّن حياتهم ، ولكن دون أن يســعوا إلى ذلك بتحســين ســلوكهم ، والقــرآن لا ينفك عن تأكيد هــذه الحقيقة لعلّنا نبلغ أهــدافنا بأقصر الســبل وآمنها ألا وإنّه إصلاح الذات لإصلاح الحياة.

[7] ثمّ يقسم الــربّ تبــارك وتعــالى بالســماء الــتي أحكمت احكاما ، والتي تشبه الدروع المحبوكة ، المتصــلة حلقاتها مع بعضها بمتانة وقوة.

(**وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ**)

لعــلّ القــرآن الحكيم يشـبّه الســماء بالــدرع ، وعندئذ يعطي لها هذا التشبيه صفات ثلاث :

الأولى : أنّها قوية متينة كما الدرع.

الثانية : أنّها تحفظ الأرض من النيـــازك والغــــازات السامة.

الثالثة : أنّ كراتها شبيهة بحلقات الدرع فهي متنــاثرة ولكنّها ترتبط مع بعضها

البعض برباط وثيق. إنّ الإنسان يزعم بادئ النظر أن لا صلة للشمس بالأرض وللأرض بالقمر أو أنّه لا علاقة بين أجرام المنظومات الشمسية ومنظومات المجرّات ، كلّا .. هناك ما يشبه غلالة من الجاذبية تربط بين جميع الكرات والمنظومات والمجرات كما تتصل حلقات الدرع تماما ..

[8] إنّ التفاعل بين أجرام السماء وأجزاء الأرض لا بد أن ينعكس على التكامل بين معارف الإنسان ، أو ليس العلم مرآة صافية لما في الواقع ، فلما ذا التناقض والاختلاف عند البشر؟ لماذا هذه الآراء المتباينة؟ وهذا الحشد الكبير من النظريات التي لا تستقر على أساس؟ أليس ذلك دليلا على مدى جهل البشر ، فلما ذا التعصب لآرائه في مواجهة بصائر الوحي؟ انظر إلى مواجهة بصائر الوحي؟

انظر إلى أقوالهم في الوحي ذاته. إنّهم لا يدرون كيف يبرّرون كفرهم بهذه الحقيقة التي تكاد تفرض نفسها عليهم فرضا! تراهم يقولون حينا : إنّه شاعر ، وحينا يقولون : بل هو مجنون ، ويزعمون حينا بأنّه مفتر كذّاب!

(**إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ**)

قالوا : المراد أنّهم اختلفوا في قضية الوحي أو الحشر أو الرسالة أو الولاية ، فيكون المعنى : إنّكم أمام قول (الوحي) قد اختلف فيه ، فما ذا يكون موقفكم ، هل تنكرونه كما كفر به الآخرون ، أم تسلّمون له كما قبله المؤمنون؟

[9] وهذا القول المتمثّل في الوحي الإلهي تسنده الحجج البالغة ، وإنّما يكفر به الذين تبعدهم ضلالات الشيطان عنه.

(**يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ**)

أمّا من لا يتعرّض للتضليل الشيطاني وكذبه ودجلة وأنواع إفكه فإنّه لا ينصرف عنه ، لأنّه حق لا ريب فيه.

[10] والذي يؤفك عن الحقيقة تحيط به الظنون والتصوّرات. أرأيت الذي لا يعرف وزن التمر على النخل فيطفق بالتخريص كذلك يخرص المنحرفون في فهم حقائق الخلق .. ويا ويلهم كيف يفسّرون بأذهانهم القاصرة ومعارفهم المحدودة قضايا الخليقة اللطيفة والغائرة.

(**قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ**) إنّها لعنته الأبديّة التي تلاحقهم ، وأيّ جريمة أكبر من ترك العلم إلى الجهل ، واليقين إلى الظن ، والوحي إلى التخرّص ، وهل ابتلي الإنسان بمصيبة أكبر من الضلالة ، وفتنة أشدّ من الجهالة؟

ولعلّ الآية تشمل كلّ أنواع التخريص والقول بغير علم أنّى كان.

وقالوا في معنى الآية : إنّها دعاء بالقتل والفناء ، لأنّ فائدة وجود الإنسان علمه فإذا ترك علمه كان الموت أولى له. وقالوا : تعني اللعنة والطرد من رحمة الله.

[11] أرأيت الذي تغمره أمواج الماء؟ هل يقدر على أن يبصر شيئا أو يقرّر أمرا؟ كذلك الذين تحيط بهم أمواج الخيالات والتخرّصات ساهون عن الحقائق.

(**الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ**)

إذا تخلّص فكره من دعايات أبواق الشيطان أحاطت به موجة من إثارة الشهوات ، وإذا انحسرت عنه الأماني الخادعة طغت عليه موجات القلق والاضطراب والخشية من المستقبل ، وهكذا تغمره أمواج الهواجس غمرة بعد غمرة

حتى الموت.

[12] وبسبب تلاحق غمرات الهواجس والظنون على أفئدتهم يسهون عن حقيقة الموت وواقع الحساب ، ولا ينفكّون يبعدونه عن أذهانهم ، ويتساءلون : متى هو؟

(**يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ**)

إنّهم يستبعدونه أو يستهزءون به ، وبالتالي لا يأخذونه مأخذ الجدّ ، ربما لأنّهم غرقوا في الأفكار الساهية.

[13] وإنّه آت لا ريب فيه ، وما دام الأمر كذلك فعلينا الإعداد له لأنّه رهيب. أو ليس الذي يمتطي صهوة الزمن يسار به وإن كان واقفا؟ أو ليس «كلّ متوقّع آت ، وكلّ آت قريب دان» [1] كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام؟

وماذا يستعجلون من يوم الدّين ، هل يستعجلون منه اللهيب الذي يحرق أبدانهم؟

(**يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ**)

كما يعرض الذهب على النار ، ويبدو أنّ الكفّار يعرضون في البدء على جهنّم ثم يلقون فيها ، ولعلّ ذلك لكي يقرأ عليهم حكم خلودهم في النار وسبب ذلك ، كما يتلى على المحكوم بالإعدام الحكم وحيثيّاته قبل تنفيذه.

[14] في تلك اللحظة الرهيبة يبلّغون الجواب عن سؤالهم الذي اقترن

---

(1) نهج البلاغة / الخطبة 103.

بالسخرية ، ويكون الجواب بالطبع مطابقا للسؤال :

(**ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ**)

هـذه هي النـار الـتي كنتم بها تسـتهزؤون. إنّها الفتنة التي تمثّلت في الدنيا في صورة أوامر ونـواهي وواجبـات ومحرّمات. إنّها اليوم ظهرت على واقعها نارا متفجّرة.

(**هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ**)

من هـذا الجـواب نعـرف طبيعة سـؤالهم ، وأنّه كـان مليئا بالسخرية والأفكار.

[15] في جانب آخر من الصـورة نجد المتقين الـذين حفظوا أنفسهم من أسباب الاحـتراق بالنـار ، نجـدهم في جنات وعيون.

(**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ**)

لكـلّ جنة نعيمها ، ولكـلّ عين شـراب معلـوم ، وهم يسيحون فيها يتلذّذون بما تشتهيه أنفسهم.

[16] (**آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ**)

كما أخـذوا في الـدنيا بتعـاليم ربّهم مسـلّمين لها يأخذون اليوم ثوابه العظيم.

وقالوا : الأخذ هنا بمعـنى التملّك ، كـأن نقـول : فلان أخذ البلاد ، فالجنة ليست بحكم المـوقّت بل ملكهم الدائم.

وقالوا : صيغة الكلمة «**آخِـذِينَ**» تـدلّ على اسـتمرار أخذهم به ، لأنّ نعم الجنة لا يمكن أخذها مرة واحـدة لأنّها لا نهاية لها.

وقالوا : الأخذ يكون برضا وقبول ، فهم راضــين بنعيم الجنة أيّ رضا.

والكلمة كما يبدو تحتمل كلّ هذه المعاني وأكثر.

هـذا الأخذ كـان في مقابل عطـائهم ، إنّهم في الـدنيا قبل الآخرة كانوا محسنين.

(**إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ**)

فإحسـانهم على أنفسـهم بالطاعـات ، وعلى النـاس بالإنفاق والصدقات ، كان ثمن أخذهم ثواب الله العظيم.

فإحسـانهم على أنفسـهم بالطاعـات ، وعلى النـاس بالإنفاق والصدقات ، كان ثمن أخذهم ثواب الله العظيم.

[17] سعي المتقين في النهـار يهـدف الإحسـان ، أمّا إذا آووا إلى مســاكنهم اتخــذوها محرابا للعبــادة وفرصة للتهجّد ، فتراهم صافّين أقدامهم يجأرون إلى ربّهم ، تكـاد أرواحهم الطاهرة تفارق أبدانهم شوقا إلى الله وفرقا من عذابه.

إنّ معرفتهم بـربّهم وتطلّعهم إلى القـربى منه لا تـدع أجسادهم تستريح إلى الفراش ، وهل يســتريح من يطلب أمرا عظيما.

وإنّ خشــــيتهم من غضب ربّهم وشــــديد عذابه تقضّ مضاجعهم فتتجافى جنـوبهم عنهـا. أرأيت الـذي حكم عليه بالإعدام غدا كيف ينام ليلته؟

(**كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ**)

قـالوا : الهجع النـوم ليلا ، ولعـلّ الكلمة تـوحي بثلاثة ظلال حسب ما جاء في اللغة من مفرداتها :

الأوّل : عدم السكون التام في النـوم ، وبسـبب تعلّق قلوب المتقين بالآخرة لا تسكن تماما في الليل بل تسكن جوارحهم دون جوانحهم ، ومنه التهجاع النومة

الخفيفة.

الثـاني : النـوم في أوّل الليل دون آخـره. قـالوا : الهجعة : النومة الخفيفة من أوّل الليل.

الثالث : النوم المتقطّع في بعض الليل. قالوا : الهجع من الليل : الطائفة منه ، ويقـال : زارني بعد هجع من الليل [1].

والآية تدل بظاهرها على أنّ نومهم في كل ليلة قليل حسبما تدلّ على ذلك آيات أخرى كقوله سبحانه : «**قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً**» [2] وقوله : «**وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً**» [3] وقوله : «**أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ**» [4].

وللآية تفسير آخر : أنّ هؤلاء لم يكونوا يتركون قيام الليل إلّا قليلا ، وجاءت به الروايات فقد أثر عن محمّد بن مسلم أنّه سأل الإمام الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : «**كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ**» فقال : «كانوا أقلّ الليالي تفوتهم لا يقومون فيها» [5].

ولا يتنافى التفسيران ، فهم يقومون كلّ الليالي إلّا قليلا ، وإذا قاموا إلى الصلاة لا ينامون إلّا قليلا.

وقد تواترت النصوص الدينية في التحريض على قيام الليل والتبتّل إلى الله في

---

(1) انظر المعجم الوسيط / ج 1 / ص 973 ـ 974.
(2) المزمل / 2.
(3) الإنسان / 26.
(4) الزمر / 9.
(5) وسائل الشيعة / ج 3 / ص 279.

رحم الظلام حيث تسكن النفوس ، وتنام العيون ، وتتساقط الحجب بين العبد وربّه ، ويخلو الحبيب بحبيبه .. ويخيّل لمن يتلوها أنّ قيام الليل واجب كسائر الفرائض.

جاء في الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال لسليمان الديلمي :

«**يا سليمان لا تدع قيام الليل ، فإنّ المغبون من حرم قيام الليل**» [1].

وعنه عليه السلام :

«**ليس من عبد إلّا ويوقظ في كلّ ليلة مرّة أو مرّتين أو مرارا ، فإن قام كان ذلك ، وإلّا فجاء الشيطان فبال في أذنه. أو لا يرى أحدكم أنّه إذا قام ولم يكن ذلك منه (قيام الليل) قام وهو متخثّر ثقيل كسلان؟**» [2].

وعنه عليه السلام :

«**إنّي لأمقت الرجل قد قرأ القرآن ثم يستيقظ من الليل فلا يقوم حتى إذا كان عند الصبح قام يبادر بالصلاة**» [3].

ولماذا نجد البعض يوفّق لقيام الليل بينما لا يوفّق غيره؟ تجيب النصوص الدينية أنّ ذنوب النهار تقيّد الرجل عن ذلك ، وبالذات الكذب والغيبة.

يأتي رجل إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) يقول : إنّي قد حرمت الصلاة بالليل فقال :

(1) وسائل الشيعة / ج 3 / ص 278
(2) المصدر
(3) المصدر / ص 279.

«**أنت رجل قد قيّدتك ذنوبك**» [1].

وفي حديث مأثور عن الإمام الصـادق (عليه السـلام) أنّه قال :

«**إنّ الرجل ليكذب الكذبة فيحرم بها صلاة الليل ، فإذا حرم صلاة الليل حرم بها الرزق**» [2].

أمّا إذا قرّر الرجل القيام بالليل تائبا إلى الله فإنّ الله سـبحانه يغفر بـذلك ذنوبه الـتي اقترفها بالنهـار .. هكـذا يقول الإمام الصادق (عليه السلام) فيما روي عنه :

«**صـلاة المـؤمن بالليل تـذهب بما عمل من ذنب بالنهار**» [3].

ومثلما تتسـاقط الـذنوب عن المتهجّد بالليل فـإنّ الأمراض تطرد من جسده ، جـاء في الحـديث عن الإمـام الصادق (عليه السلام) :

«**عليكم بصـلاة الليل فإنّها سـنّة نـبيّكم ، ودأب الصالحين قبلكم ، ومطردة الداء من أجسادكم**» [4].

كذلك تجلب صلاة الليل الرزق ، حـتى جـاء في النصّ المـأثور عن الإمـام الصـادق (عليه السلام) :

«**كذب من زعم أنّه يصلّي بالليل ويجوع بالنهـار. إنّ الله ضمن بصلاة اللّيل**

---

(1) المصدر.
(2) المصدر / ص 278.
(3) المصدر / ص 269
(4) المصدر / ص 271.

قوت النهار» [1].

كما أنّ قيام الليل يزيد من شرف المـؤمن ، جـاء في الحـديث المـروي عن رسـول الله (صـلّى الله عليه وآلـه) عن جبرئيل أنّه قال :

«شرف المؤمن صلاته بالليل ، وعزّه كـفّ الأذى عن الناس» [2].

ونختم حـديثنا عن صـلاة الليل بحـديث رائع عن عليّ بن محمد النوفلي عن أحد الأئمة (عليهم السلام):

«إنّ العبد ليقـــوم في الليل فيميل به النعـــاس يمينا وشـمالا ، وقد وقع ذقنه على صـدره ، فيـأمر الله أبـــواب الســـماء فتفتح ، ثم يقـــول للملائكة : انظروا إلى عبدي ما يصيبه في التقـرّب إليّ بما لم أفترض عليه راجيا مـني لثلاث خصـال : ذنب أغفـره له ، أو توبة أجدّدها له ، أو رزق أزيده فيـه. اشـهدوا ملائكتي أنّي قد جمعتهنّ له» [3].

[18] تتجـاذب الإنسـان قـوى الخـير وقـوى الشر ممّا يجعله في صـــراع دائم لا ينفك عنه حـــتى لقـــاء ربّه ، ولا ينجو أيّ إنسان ـ أنّى كان قويّ الإيمان نافذ البصيرة ـ من السـقوط في وهـدة الـذنوب ، ولكنّ المهم هو القيـام بعد السقوط ، فبينما نجد أكثر الناس يسترسلون مع الضغوط حتى تهديهم إلى سواء الجحيم فإنّ الصالحين يعودون إلى نقائهم كلّما دنّستهم الخطايا ، ويتطهرون بالتوبة إلى ربّهم الغفور .. وهؤلاء هم أصحاب الجنة.

---

(1) المصدر

(2) المصدر / ص 273.

(3) المصدر / ص 272.

(وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

وعند السـحر يكـون العـالم المحيط بالإنسـان في سبات عميق ، حتى الـذين أسـهرهم المـرض أو اللعب أو ما أشـبه يخلـدون إلى السـكون ، والإنسـان بـدوره يعيش السـكون في داخله ، تـتراجع شـهواته ، وتهـدأ أعصـابه ، وتقـلّ هواجسه ووساوسه ، ويعـود إلى نفسه ، وتكـون الفرصة مواتية لمراجعة حساباته ومحاكمة أعماله وأقواله في محكمة عقله ووجدانه ، وهنالك تتجلّى له أسماء ربّه ، ويجد كأنّ خالقه القاهر فوقه البصير به والأقـرب إليه من حبل الوريد يحاسـبه : لما ذا ابتعـدت عـني عبـدي؟ أو لم أكن نعم الـربّ لك ، فلما ذا كنت بئس العبـد؟ هل غيّـرت معك عـادة الإحسـان فأشـركت بي وخضـعت لعبـادي من دوني؟

وكم هي رائعة يقظة الضمير بعد السـبات ، وانتفاضة الإرادة بعد الخـوار؟ الله ما أحلى العـودة إلى دار الأنس بعد الغربة في نفق العصيان ، ما ألذّ حكاية الاعـتراف بعد الطيش والتمرّد!

من هنا كانت نفـوس المتقين تتطلّع إلى تلك السـاعة المتّقدة حبّا وشوقا وقربا. ألم تسمع رواية الرسول (صلّى الله عليه وآلـه) أنّه قـال : «**الركعتـان في جـوف الليل أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها**» [1].

أوسـمعت زين العابـدين علي بن الحسـين (عليه السـلام) يسـأل : ما بـال المتهجّـدين من أحسن النـاس وجها؟ فقال : «**لأنّهم خلوا بالله فكساهم من نوره**» [2].

(1) المصدر / ص 276.
(2) المصدر.

وكــلّ واحد منّا بحاجة إلى الاســتغفار لكي لا تــتراكم فــوق قلبه أدران الخطايا والغفلة فيقسو وينغلق ويصــبح غلفا لا يرجى له علاج .. ولكي لا يفاجئه الأجل فتضيع عنه فرصة التوبة إلى الأبد.

ولا بد أن نسـعى لفـرز العمل الصـالح عن السـيئات بالاستغفار حتى لا يختلط علينا الحقّ والباطل ، وذلك بـأن نحــدّد بالضــبط طبيعة العمل الــذي قمنا به ، ولا نخضع لتزيين الشيطان أو تسويل النفس الأمّارة بالسوء ، فنـبرّر كـلّ ما قمنا به ، ونلبسه ثـوب الشـرعية بتحريف نصـوص الدين حسب أهوائنا ، فنكـون ــ لا سـمح الله ــ ممّن اتخذ إلهه هواه.

إنّ المــؤمن يتهم نفسه أبــدا ، ويســتجلي قيم الحق ومـوازين الشـرع حـتى يقيس بها أعماله ، فـإذا اشـتبهت عليه قضــــية ســــعى إلى معرفة الحق بمراجعة الفقه والسؤال من أهل الذكر.

أمّا الذين يسـتغفرون لـذنوب مجهولة ، بينما يـبرّرون ذنوبهم التي يمارسـونها يوميّا ، فـإنّهم لا يتطهـرون بالتوبة بل يزيـدهم الإصـرار على تلك الـذنوب قسـوة في القلب وضلالة في الفكر.

إذا اغتـابوا مسـلما كفّـروه ليـبرّروا ذنبهم ، فهل ينفع مثل هؤلاء الاستغفار؟

وإذا أكلــوا أمــوال النــاس بالباطل زعمــوا أنّهم مضطرون إلى ذلك ، ولا اضطرار عندهم غـير حبّ الراحة ، فهل تنفعهم التوبة شيئا؟

وإذا خضــعوا للســلاطين تشــبّثوا ببعض النصــوص المتشـابهة ، وتركـوا المحكم من آيـات الجهـاد في سـبيل الله والكفر بالطاغوت.

وإذا غشّوا وكذبوا واحتكروا وأكلـوا الربا اعتـبروا ذلك تجارة وشطارة ونجاحا وفائدة رابحة ، وهكذا ..

كلّا .. الحلال عند الله لا يصـبح حراما بأعـذار واهية ، والحـرام لا يضحى حلالا .. والاسـتغفار ينفع الفقهـاء ومن اتبعهم ممّن يلـتزم بمقـاييس الكتـاب ومـوازين الشـرع تماما. نسأل الله أن يجعلنا جميعا منهم.

[19] لنفـاذ بصـائرهم يعلم المتقـون أنّ حبّ الـدنيا رأس كلّ خطيئة ، فيسعون لتزكية أنفسهم منه ، بالإنفـاق المنظّم الـذي يفرضـونه على أنفسـهم أكـثر من الحقـوق الشـرعية ، فالواحد منهم يجعل ثلث أمواله الـتي يغنمها لله ، والآخر ربعه ، وهكذا حسب ظروفهم المعيشية.

(**وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**)

والسائل هو الذي يسكب ماء وجهه أمامك فلا تحرمه من عطائك مهما كان قليلا ، فقد جاء في الحديث المروي عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) :

«**لا تقطعـوا على السـائل مسـألته ، فلو لا أنّ المساكين يكذبون ما أفلح من ردّهم**» [1].

وروي عن الإمام الباقر (عليه السلام) :

«**لو يعلم السـائل ما في المسـألة ما سـأل أحد أحـــدا ، ولو يعلم المعطي ما في العطية ما ردّ أحد أحدا**» [2].

(1) نور الثقلين / ج 5 / ص 598.
(2) المصدر.

أمّا المحروم فهو الذي ضاقت عليه مذاهب الاكتساب ، فكلّما سـعى لم يقـدر على تـأمين معاشه ، ويسـمّى بالمحارف ، جاء في حديث مأثور عن الإمـام البـاقر (عليه السلام)

(الْمَحْرُومِ) الرجل ليس بعقله بـأس ، ولا يبسط له في الرزق ، وهو محارف» [1]

قالوا : المحارف الذي لا يتيّسر له مكسـبه قـال رجل محـارف (بفتح الـراء) أي محـدود محـروم ، وهو خلاف قولك : مبارك [2].

ويبدو أنّ المحروم هو الذي حرم رزقه ، سواء بسبب جائحة ، كما جـاء في الآية حكاية عن أهل الجنة الـتي احترقت : «**بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ**» ، أو بسبب إدبار الحياة عنه ، وقلّة حظّه في المكسب.

ويبقى سؤال : ما هذا الحق الذي في أمـوال المتقين ، هل هو الزكـاة المفروضة كما قـال البعض أم أنّه حق آخر؟

يبـدو أنّه حق غـير الحقـوق الشـرعية ، لأنّها مفروضة على أموال كلّ الناس دون المتقين منهم ، لذلك جـاء في الحديث المروي عن أبي بصير قال : كنّا عند أبي عبد الله (الإمام الصادق عليه السلام) ومعنا بعض أصحاب الأموال فذكروا الزكاة فقال أبو عبد الله :

إنّ الزكـاة ليس يحمد بها صـاحبها ، وإنّما هو شـيء ظـاهر ، إنّما حقن بها دمه ، وسـمّي بها مسـلما ، ولو لم يؤدّها لم تقبل له صلاة ، وإنّ عليكم في أموالكم

(1) المصدر / ص 123
(2) القرطبي / ج 17 / ص 38.

غير الزكاة.

فقلت : أصـــلحك اللـــه! وما علينا في أموالنا غـــير الزكاة؟ فقال : سبحان الله أما تسمع الله عزّ وجلّ يقـول في كتابه : «**وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُـومٌ لِلسَّـائِلِ وَالْمَحْـرُومِ**»؟ قـال : قلت مــاذا الحق المعلــوم الــذي علينـا؟! قـال : هو الشــيء الـذي يعمله الرجل في ما له يعطيه في اليوم أو في الجمعة أو في الشـهر قـلّ أو كـثر غير أنّه يدوم عليه [1].

(1) وسائل الشيعة / ج 4 / ص 28.

وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (21) وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ (22) فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23) هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25) فَراغَ إِلى أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قالَ أَلا تَأْكُلُونَ (27) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ

---

(26) [فراغ] : ذهب إبراهيم (ع) بتسلل وخفية لأن يحضر لهم طعاما ، فإن من أدب الضيافة أن يتسلل الضيف لإحضار الطعام والتسلل لأجل ان لا يمنعه الضيف عن الإحضار.
(28) [فأوجس] : أضمر في نفسه.

**(28) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَها وَقالَتْ
عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ
الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (30) قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ
(31) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32)
لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِنْدَ
رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34) فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ (35) فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ
الْمُسْلِمِينَ (36) وَتَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ
الْعَذابَ الْأَلِيمَ (37) وَفِي مُوسى إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى
فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (38) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقالَ
ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39) فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ
فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40) وَفِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ
الرِّيحَ**

---

(29) [صرّة] : صياح شديد من الصرير بمعنى الصوت.
[فصكّت] : لطمت.
(34) [مسوّمة] : معلّمة.
(39) [بركنه] : الركن الجانب الذي يعتمد عليه ، وفرعون كان يعتمد على جنوده وملكه.
(40) [اليم] : البحر.
[مليم] : آت بما يلام عليه.

الْعَقِيمَ (41) ما تَـذَرُ مِنْ شَـيْءٍ أَتَتْ عَلَيْـهِ إِلاَّ جَعَلَتْـهُ كَالرَّمِيمِ (42) وَفِي ثَمُـودَ إِذْ قِيـلَ لَهُمْ تَمَتَّعُـوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَـوْا عَنْ أَمْـرِ رَبِّهِمْ فَأَخَـذَتْهُمُ الصَّـاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُــرُونَ (44) فَمَا اسْــتَطاعُوا مِنْ قِيــامٍ وَما كانُوا مُنْتَصِرِينَ (45) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كـانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (46)

---

(41) [الــريح العقيم] : ســمّيت عقيما لعقمها من الرحمة ولأنها لا تلد خيرا.

(42) [كــالرّميم] : الــرميم هو ما تفتت من حجر أو بنــاء أو غيرهما ، وقيل كالشـيء الهالك البـالي وهو نبـات الأرض إذا يبس وديس ، وقيل هو العظم البالي السحيق.

(44) [فعتوا] : أي خرجوا عن أمر ربهم ترفّعا عنه واستكبارا.

وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ

هدى من الآيات :

مثلما تتصل حقائق السماء والأرض بما في بــدنك ، لا بد أن تتواصل عبرها وآياتها وما في عقلك من وعي ، ويبدو أنّ الموقنين وحدهم يبصرون آيات الله في الأرض ، وفي النفس وفي الســماء الــتي قــدّر الله فيها الــرزق ، وجعل فيها ما نتطلّع إليه من فضله ، وما نحذر من نقماته .. وفي قصة ضـيف إبــراهيم تصــديق ذلك ، فقد جــاءوه بالبشــــرى (حيث رزق من عجــــوز عقيم غلاما عليما هو إسـحاق) ، وأرسـلوا إلى قـوم لـوط المجـرمين بالعـذاب متمثّلا في حجــارة من طين قد هيّـأت لأولئك المســرفين (الشاذّين جنسيّا).

وكــان العـذاب مقـدّرا بحكمة بالغة ، فلم يشــمل بيتا واحدا كان فيه مسلمون وهم آل لوط الذين أخـرجهم الله منها سحرا ، وقد ترك هذا البيت كما آثـار تلك القرية لكي يكونا آية بيّنة لمن يخشى العذاب (أمّا قساة القلب فـإنهم لن يستفيدوا من هذه الآية).

وقصة فرعــون هي الأخــرى عــبرة لمن يعتــبر حيث أرسل الله إليه موسى بحجة بالغة ، ولكنّه تـــــــولّى بكل وجوده وقواه (حتى أنّه لم يعرف كيف يفسّر كفره) فقال : هــذا ســاحر أو مجنــون ، فأخــذه الله وجنــوده بقوّته ، ونبذهم في البحر بذنوبهم.

ومأساة عـاد كـانت أيضا عـبرة هامّة حيث أرسل الله عليهم الـريح العقيم الـتي أتت على كـلّ آثـار الحيـاة في بلادهم (بما كفروا بنعمة الله وكذّبوا رسله).

وكذلك فعل بثمود الذين عتوا عن أمر ربّهم فأخــذتهم الصــاعقة (نــار فيها عــذاب) ، وبــالرغم من أنّهم كــانوا ينتظرونه لم يقدروا على الدفاع ، ولم ينصــرهم أحد ، وما كان يمكن نصرهم أبدا.

وبعد أن يشـير السـياق إلى قصّـة نـوح يختم الـدرس الذي نستوحي منه سنّة الجزاء في الخلق ، وأنّها لا تختص بقــوم ولا بــذنب ، فكــلّ فسق وجريمة وإســراف يلقى جزاءه ، وهذا الجـزاء دليل هيمنة الـرب وعدالته وقدرته ، وكلّ ذلك يهدينا إلى الجزاء الأكبر في الآخرة.

بينات من الآيات :

[20] لو اطلعت ضـحى من فــوق ربــوة على مــروج خضــراء ، تحيط بها أشــجار مثمــرة ، وعلى اليمين منها ابتسم لك حقل من ورود متنوّعة ، لا بد أنّ جمـال المنظر يشغلك عن تذكّر الحقيقة التالية : أنّه لو لا ضياء الشـمس الــذي ينعكس على الطبيعة إذا ما ظهــرت هــذه الألــوان الجذّابة عليها. أليس كذلك؟

وإذا تـذكّرت هـذه الحقيقة عـرفت آنئذ أنّ كـلّ ورقة زاهية من هــذه الــورود وكــلّ نبتة خضــراء رائعة في تلك المروج علامة واضحة على وجود ضياء الشمس.

أصـحاب البصـائر يتـذكّرون هـذه الحقيقة ، وينفـذون بعقولهم إلى غيب الواقع

المشـهود فيما يتصل بخـالق الطبيعة ، ويعرفـون أنّ كـلّ شـــيء في الخليقة آية ظـــاهرة لخالقها العظيم ، كما أنّ انعكاسات النور شاهدة على وجـود مصـدره (الشـمس) ، وتعالى الله عن الأمثال.

ومن هنا كانت آيـات الله في الأرض تتجلّى للمؤمـنين بصـورة أبهى وأسـنى ، أمّا غـيرهم فـإنّ جمـال المظهر يشغلهم عن ينبـوع النـور والجمـال والبهـاء ، لأنّ نظـرتهم قاصـرة ، وهمّتهم محـدودة ، فلا تتجـاوز الحقـائق الجزئية والدّانية.

(**وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ**)

المنهج القـرآني الـذي يكشف حجب العنـاد والـريب والغفلة عن بصـائر النـاس ، ويجعلهم يتفكّـرون في غيب السـموات والأرض ، ولا ينظـرون فقط إلى ظـاهر الحيـاة الـدنيا ، بل يجعلـون كـلّ ظـاهرة جسـرا إلى غيبها ، وكـلّ حدث نافذة إلى رحاب الحقيقة الأكبر منه.

بلى. هـــذا المنهج القـــرآني المعجز يصل الإنســـان بالخليقة عبر جسر الإيمـان ، حـتى ليصـبح كـلّ شـيء من حوله ناطقا يناجيه بسر الكائنــات ، ويتنــاجى هو معه بلغة العارفين.

إنّ حقـــائق الخلق ، من حجر وشـــجر وأحيـــاء .. من ســحب تلبّد الســماء ، وغيث يســقي الأرض ، وعواصف ورعد وبرق .. من أمواج البحر ، وشـعاع الشـمس ، ونـور القمر ، إنّها جميعا في وعي المؤمنين تجلّيات لأسماء الله ، ومنافذ إلى غيب قدرته وحكمته .. رحمته وعزّته .. جماله وجلاله .. فلا ينظرون إلى شيء إلّا عبر هذه الرؤية ، ممّا يجعله مســبّحا بحمد ربّه ، ناطقا بآياته ، داعيا إليه ، يبثّ في روعهم حكمة الحيـــاة ، ويعكس جمالها وجلالها ، ويهديهم إلى سرّها العظيم.

فهم إذا نظروا إلى الأرض وحجم هذه الكرة الوحيـدة التي تحتضن الحياة فيما نعرف من الكرات يتساءلون : ما الـذي قـدّر حجمها ، وطبيعة حركتها حـول نفسـها وحـول الشمس ، والمسافة المحدّدة التي تفصلها عنها .. حتى لو أنّها اقتربت أو ابتعدت تباطأت أو تعجّلت لما أمكن نشـوء الحياة فيها أبدا؟

وسمك الأرض بهذا القدر المحدد بدقة ما الذي نظمّه حـتى لو كـانت أسـمك عشـرة بوصـات لما وجـدت مـادة الأوكسـجين الضـرورية للحيـاة .. ولو كـانت البحـار أعمق عـدة بوصـات من عمقها الحـالي لابتلعت كل ما في الجو من هذه المادة الضرورية؟

وكـذلك الغلات الـواقي المحيط بأرضـنا لو كـان أدق قليلا ممّا هو عليه لكـانت الأرض معرضة لملايين الشـهب المتوجهة إليها من الفضـاء الخـارجي ولاسـتحالت الحيـاة عليها .. والغازات المتنوعة التي نحتاج إلى كـلّ واحد منها بـذات النسـبة الموجـودة في الجو ، والـتي تكـونت عـبر السنين المتطاولة من مصادر عديدة. أليست شاهدة على حكمة المدبّر سبحانه؟ [1]

[21] وإذا عـدت إلى نفسك الـتي هي خلاصة مباركة لكل ذلك العالم الكبـير الواسع ، فإنّك تجد آفاقا من العلم لا تحد ، وشـــواهد لا تحصى على حسن التـــدبير لخالقها الـرحمن ، ولكنّنا بحاجة إلى بصـيرة نافـذة لكي لا تحجبنا حاجات الجسم العاجلة المحـدودة عن الغـور في أعماقها الزاخرة بالمعرفة والحب والأحاسيس الزاكية.

(**وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ**)

---

(1) راجع تفسير نمونه (بالفارسية) / ج 22 / ص 331 ـ 332.

كيف لا نبصر ما في أقــــرب الأشـــياء إلينا ، وهل يســتحق الإكــرام من يغفل عن آيــات الله في ضــميره ووجدانه .. في عواطفه الخــيرة .. في إرادته الماضــية .. في عقله الوقّــاد .. في تركيبة عينه وإذنه .. في أعصــاب دماغه .. في حلقه وما أطبقت عليه شفتاه من لسـانه ذي الوظــائف المتعــدّدة ، إلى أضراسه وأســنانه ، إلى حلقه وبلعومه؟

دعنا نتفكر قليلا في هـــذه الشــبكة المعقّـــدة من الأعصـــاب ، وهـــذه المنظومة الواســـعة من الأوردة والشرايين التي تقدّر بعشرات الألوف من الكيلومترات .. وإلى هــذا الحشد الهائل من الخلايا الــتي تقــدّر بعشــرة ملايين مليار ، وكلّ خليّة عـالم عظيم تعكس آيـات الصـنع الالهي. أو تـدري ان الخلية الواحـدة هي في الواقع مدينة صناعية ضخمة بحيث لو اسـتطاع الإنسـان فرضا تقليـدها لكان عليه ان يبـني مصـانع في سـاحة ألف هكتـار يزرعها بمختلف الاجهزة المعقدة والمتطورة؟ [1] ، ولكن أين تلك البصيرة التي تنفذ إلى أعماق وجود الإنسـان لعلها تهتـدي إلى بعض آيــات الله العظيمة .. وتــؤمن بــالبعث من بعد الموت من خلال الإيمان بقدرة الله وحكمته؟

[22] وبعد ذكر الأرض وآياتها ، والإنسـان وما فيه من تجلّيات القـدرة ، يـذكّرنا السـياق بالسـماء وآياتها ، وكيف يرزقنا الله منها ، فهــذا الغيث ألا تــرى كيف يتــنزل من السماء بـرزق مبـارك ، وهـذه الأشـعة الـتي تبثّ إلينا من الشمس والنجوم وما فيها من فوائد عظيمة نعرف بعضها ونجهل الكثير؟ كلها آيات التدبير الدقيق. أفلا نتذكر؟

(**وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ**)

وفي السماء تلك الإمكانـات المسـتقبلية الـتي يهـدينا الــرب إليها ففيها من البركــات أضــعاف ما ننتفع به حاليّا كما فيها من النقمات ما ينبغي اتقاؤها بالعمل

---

(1) راجع المصدر / ص 333

الصالح ، ويبدو أنّ الآيات التالية تأويل لهـذه الكلمة ، حيث أنّ ربنا سبحانه قد وعد ـ ووعـده الصـدق ـ إبـراهيم بـأن يرزقه ذريّة كما أوعد قوم لـوط بالعـذاب فجاءته الملائكة بهما جميعا.

وقـال البعض : معـنى «**وَما تُوعَـدُونَ**» الجنة جعلها الله في السماء. ولعل هذا صـحيح في بعض ريـاض الجنة أما الجنة جميعا فعرضها كعرض السماوات والله العالم.

وفي الآية تفسير آخر : هو ان الله قد قـدر عنـده في السـماء (الجهة الأعلى) كل أرزاق العبـاد فلما ذا الحـرص والتكالب؟

بلى. السـعي واجب ولكن الفـرق كبـير بين السـعي وراء الرزق بل وحـتى الكد والكـدح من أجله وبين التهالك عليه (الذوبان في بوتقتـه) حـتى لا يكـون لـدى المـرء هم سـواه ، فتمسخ شخصـيته ، وتختصر انسـانيته في آلة اقتصادية ، كلا .. ان للإنسان تطلعات سامية وانما الـرزق وسيلة البلوغ إليها فقط. لـذلك جـاء في الحـديث المـأثور عن النبي صلّى الله عليه وآله أنّه قال : «**الرزق لا يجره حرص حريص ولا يصرفه كره كاره**» [1].

بل اننا نجد ان الرزق يرتبط بجوانب عديدة من حيـاة الإنسـان منها السـعي والكـدح. فمن ألغى سـائر جـوانب حياته واختصر نفسه في البحث عن الطعـام لم يوفق فيه كيف؟

أليست الأمة الجاهلة المفككة الـتي لا تهتم بالسياسة ولا تعي التطورات الكبرى في العالم ولا تتكامل عواطفها أدبيا وفنيا هذه أمة متخلفة ، وهل نصيب الأمة

---

(1) نور الثقلين / ج 5 / ص 126.

المتخلفة غير الفقر والمسكنة حتى لو واصل أبناؤها الليل والنهار في طلب الرزق؟

وكما في الأمة كـذلك في الفـرد فمن تـدانت عزيمته وهمته ، وضاق أفق علمه ووعيه ، وساءت أخلاقه وآدابه ، لم ينفعه اجتهـــاده في طلب الـــرزق. بينما الآخر الـــذي تســـامت همته ، وازداد علمه ووعيه ، وحســـنت أخلاقه وآدابه اكتفى بقليل من الجهد المركز ، وحصل على الكثـــير من المكاسب أليس كـــذلك؟ من هنا جـــاء في الحديث المأثور عن الامام الصادق عليه السلام :

«والذي بعث جـدي بـالحق نبيا إنّ الله تبـارك وتعـالى يـرزق العبد على قـدر المـروة ، وان المعونة تـنزل على قـدر شـدة البلاء» [1] ، وقـال عليه السـلام : «كف الأذى وقلة الصخب يزيدان في الرزق» [2] ، وروي عن الرسول صـلّى الله عليه وآله انه قــال : «التوحيد نصف الــدين ، واستنزل الرزق بالصــدقة» [3] واخطر ما في التهالك على طلب الدنيا انه يشغلك عن ذكر الله ، والتسامي إلى قربه ، والنظر إلى آيـات قدرته في نفسك والخليقة ، والاجتهـاد في طلب الآخرة التي هي دار مقرك.

وكلمة أخيرة :

لان ما وعــدنا الله من رحمته في الســماء فقد أمرنا بالتوجه إليها عند الدعاء. جـاء في حـديث مـأثور عن أمـير المؤمنين عليه السلام انه قال :

«**إذا فــرغ أحــدكم من صــلاته فلــيرفع يديه إلى السماء ، ولينصب في الدعاء**». فقال ابن سبا : يا أمير المؤمنين أليس الله في كل مكان؟ قـال : «بلى». قـال : فلم يرفع يديه إلى السماء؟ فقال : «أو ما تقــرأ : «**وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ**»

(1) المصدر / ص 125.
(2) المصدر / ص 126
(3) المصدر

فمن أين تطلب الـــرزق إلّا من موضع الـــرزق ، وموضع الرزق وما وعد الله عزّ وجلّ السماء» [1].

[23] أقـــرب الأشـــياء إليك نفسك ، وتتجلى النفس لـــذاتها حين تفكر ، وأعظم لحظـــات التفكر هي عند ما تنطق ، وإذا قال بعضهم : أنا أفكر فاذا أنا موجــود. وقـال آخر : الإنســـان حيـــوان نـــاطق فلأن التفكر حالة يقظة النفس لــذاتها ، أما النطق فهو ذروة هــذه اليقظــة. وقد يشك العقل في معطيــات الحــواس لان بعض أحاســيس الاذن طنين الــدم من داخل البــدن ، والبصر قد يزيغ واليد قد تصاب بـالبرد دون سـبب خـارجي. أما النطق فلا يشك العقل فيه لأنه من أعظم آيـــات الله في البـــدن ، ومن أصـعب الفعاليـات عند البشر ، حيث يشـترك فيه الجسم والـروح معـا. انه قمة الـوعي عند الإنسـان ، لا يشـكّ فيه أحد حتى المثاليون والسوفسطائيون يزعمون بــأنّهم على يقين من انهم ينطقون ، وعلى ثقة بما يقولون.

من هنا يحلف القرآن يمينا بـرب السـماء ان وعد الله حق ، وأن البعث والنشور حق ، كما أن نطق الإنسان حق عند نفسه.

(**فَوَ رَبِّ السَّـماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَـقٌّ مِثْـلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ**)

وحين يكون القسم بربّ السماء والأرض يكون أقرب إلى وعينا ــ نحن البشر ــ لأننا نعــرف شـيئا من ضـخامة السماء والأرض ، فلا بد أن نهتدي بذلك إلى بعض جــوانب قـدرة الــرب وتـدبيره إذا عرفنا انه ــ سـبحانه ــ هو رب السماء والأرض.

ثم يكون التأكيد بالغا حيث يضاف إلى القسم ان ولام التأكيد ، ويشـــتد التأكيد بــأن يضــرب له مثل الحق بحالة النطق.

---

(1) المصدر / ص 124

وقـــال البعض : ان النطق هو ســـمة أساســـية في حضـارة الإنسـان ، فمن دونه كيف كـانت التجـارب تنتقل من شخص لآخر ، ومن جيل لجيل ناشئ.

وقـــالوا : ان القسم هو على ضـــمان الـــرزق وعلى استجابة الدعاء اللذين ذكرا في الآية السـابقة ، ويبـدو لي أنه على كل الحقـائق الـتي تواصـلت في الآيـات السـابقة وأبرزها حقيقة الجزاء في الدنيا والآخرة.

[24] وهذا مثل ظـاهر لما في السـماء من رزق ومن وعد مســتوحى من قصة إبــراهيم الخليل (عليه الســلام) حينما جاءته الملائكة يبشــرونه باســتجابة دعائه في نفسه (بغلام) وفي قوم لوط (بإهلاك الكافرين).

إن استجابة الدعاء في الذرية التي نـزلت بها الملائكة كـــانت أعظم نعمة ينزلها الله على بشر ، فلقد وهب الله له غلاما زكيّا يرفع اسمه ، ويصبح امتدادا لرسـالته كما أن الوعد بإهلاك قوم لوط كان أعظم ما ينتظره الرسول بعد أن يكمل رسالته.

(**هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ**)

ان الضـــيافة كـــانت جانبا هامّا من ثقافة العـــرب ، وكانت للضـيف مكانة خاصة عنـدهم ، ولعله لـذلك يتخـذه القــرآن وســيلة لبيــان الحقــائق التاريخية ، ويقــول عن ضيوف إبراهيم :

(**الْمُكْرَمِينَ**)

لقد أكرمهم إبراهيم بضيافته وخدمته لهم.

[25] (**إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ**)

حينما دخلوا عليه قالوا : سلاما ، فرد سـلامهم قـائلا : سـلام ، وكـأنهم اسـتأذنوه فـأذن لهم. ولكنه لم يعـرفهم ، فقال لهم : انا لا نعرفكم أو أسرّه في نفسه.

(**قَوْمٌ مُنْكَرُونَ**)

حيث نظر إليهم فعـرف بـأنهم ليسـوا من أهل بلـده ، ولعل صورهم لم تكن مطابقة مع صور البشر ، انما كـانوا يشبهون البشر فقط.

[26] بعد ذلك جلسوا ، فتسلل نـبي الله الكـريم إلى أهله :

(**فَراغَ إِلى أَهْلِهِ**)

أي ذهب بخفية. وهذه من الآداب الـتي تتعلق بـإكرام الضـيف ، إذ ليس من اللائق أن يقـول المضـيف لضـيفه : أتأكل كذا ، أو ماذا تشرب؟

(**فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ**)

جلب لهم عجلا قد شوي على النــار ، ولعله فعل ذلك بـالرغم من قلة عـدد الضـيوف (3 أو 4 أو على الأكـثر 9) لمزيد من الإكرام ، أو لأنهم كـانوا ضـخاما ، أو لكي يطعم بفاضل طعامهم سائر المساكين ، وهذا كان ولا يــزال من سنن الكرماء.

[27] (**فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ**)

ودعــــاهم إلى الطعــــام ، فلم ير أيــــديهم تصل إلى العجل.

(**قالَ أَلا تَأْكُلُونَ**)

[28] (**فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً**)

ولعل السبب في إحساسه بالخوف منهم انه كان من عـادة من يضـمر شـرا ألّا يأكل من بيت عـدوه حـتى لا يتصف بالغدر.

وهكذا قالوا : من لم يأكل طعامك لم يحفظ ذمامك.

(**قالُوا لا تَخَفْ**)

وما لبثوا أن بشّـروه بتحقّق أمنيته الـتي كـادت تخيب لكبر سنه. وقد جاءت البشارة بعد الخوف ليكون أبلغ أثرا وأحلى.

(**وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ**)

ويبدو أن الغلام ليس مجرد الذكر من الأولاد ـ حسب بعض علماء اللغة ـ بل «يلحظ في المادة معنى أخص من النشـاط لما هو أصل الحيـاة ، فيقـال : غلم كفـرح : هـاج شهوة ، والغلمة : شهوة الضراب ، ومن هـذا يطلق الغلام على الفتى الذكر الطار الشارب ، لاكتمال حيويته» [1].

وإذا صح هذا التفسير فقد بشـرته الملائكة بولد ذكر ، يرعاه الـرب حـتى يبلغ أشـدّه ، ولعل وصـفه ب «**عَلِيمٍ**» يـدل على ذلك ، إذ من المعـروف أن الغلام لم يولد عليما ، بل نمى حتى أضحى كذلك عند ما أصبح غلاما.

يا لها من بشـــارة كـــبري لمن بلغ من العمر عتيّا ، وحسب التوراة ، وبعض المفسـرين : كـان قد جـاوز سـنة المائة ، أما زوجته سارة فقد بلغت التسعين.

انه قد قضى عمرا ممتـدا ، يـدعو إلى ربه ولم يـؤمن به إلّا قليل ، والآن حيث يكاد يودع الحياة لا يفكر إلّا فيمن يحمل مشعل الدعوة ، ويحقق آمال داعية التوحيد

---

(1) معجم ألفاظ القـرآن الكـريم الصـادر عن المجمع العلمي / ج 2 / ص 272.

الكبير الذي كـاد يكـون وحيـدا في عـالم كـان يغـوص في دنس الشرك ، وظلام الجاهلية.

يا لها من بشـارة عظيمة : ان يسـتجيب الـرب لعبـده رأفة به ، وتخليدا لذكره في الآخرين ، فيرزقه ولدا يرعـاه حتى يصبح غلاما ويعلمه حتى يضحى عليما.

[29] وسـمعت زوجته (سـارة) بهـذه البشـارة ، ربما لقربها من الضيوف حيث كـانت تخـدمهم ، أو لأنها جـاءت إليهم فأخبرت بها.

(**فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ**)

تصيح صياحا يشبه صوت الـريح لما أصـابها من فرحة مزيجة بالعجب!!

(**فَصَكَّتْ وَجْهَها**)

أي ضربته ـ على عادة النساء العجائز عند مـواجهتهن لموقف لا يحتملنه ــ وعبّـرت عن عمق تعجبها من هـذه البشارة العظيمة ..

(**وَقالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ**)

فهل ألد وأنا عجـوز يـائس؟! بل كيف ألد وأنا امـرأة عقيمة ، ولم أنجب في شبابي؟!

[30] (**قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ**)

نعم هكذا قال الله القدير ، فـالرزق بيـده ، ولأنه أراد إثبات هذه الحقيقة أنّه وهب عجوزا عقيما غلاما عليما.

(**إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ**)

ولم يــذكر القــرآن شــيئا عن رد فعل إبــراهيم (عليه السلام) لمـاذا؟ ربما لأن انجـاب رجل كبـير في مثل سـنه ممكن عقلا بعكس امرأة عقيم في مثل عمرها ، والــدليل على ذلك أن إبـــراهيم (ع) تـــزوج بهـــاجر فـــأنجبت له إسماعيل (ع).

والمعـروف أن الولد كـان (اسـحق) وتـدل على ذلك الآية المباركة : «**وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ**».

وهذه الحادثة توحي ببصائر ثلاثة :

أولا : إن الله قــادر على تغيــير ما نعرفه من الســنن بقضائه النافذ ، وحكمه الذي لا يرد.

ثانيا : إنه يسـتجيب دعـاء من دعـاه بفضـله وبوسـائل غـــير معروفة لـــدينا ، وعلينا ألّا نقنط من رحمته في أشد حالات الأزمة ، وألّا نحـرص على الـدنيا خشـية المسـتقبل فهو الرزّاق ذو القوة المتين.

وإلى هـــذا تشـــير الرواية المـــأثورة عن الإمـــام زين العابدين (عليه السلام) : «قال : خرجت حـتى انتهيت إلى هذا الحائط ، فاتكيت عليه ، فاذا رجل عليه ثوبان أبيضــان ، ينظر في وجهي ، ثم قــال لي : يا علي بن الحســين! ما لي أراك كئيبا حزينا؟! أعلى الدنيا حزنك فرزق الله حاضر للــبر والفــاجر ، فقلت : ما على هــذا أحــزن ، وإنه لكما تقـول ، قـال : يا علي بن الحسـين! هل رأيت أحـدا سـأل الله عزّ وجلّ فلم يعطـه؟! قلت : لا ، قـال : نظـرت فـاذا ليس قدامي أحد» [1].

ثالثا : إن كلّ ذلك دليل يهدينا إلى البعث بعد المــوت. أليست العقبة الرئيسـية عند الكفـار به هي جهلهم بقـدرة الله على إحياء الموتى ، أو خرق الأنظمة السائدة على

(1) نور الثقلين / ج 5 / ص 126.

الخليقة ، فهـــذه القصص تزيل عنهم هـــذه العقبة ، مما يمهد الطريق أمامهم للإيمان بالآخرة.

[31] بشـارة إبـراهيم (ع) بـالغلام العليم جـانب من وعد الله ، أما الآخر فهو عــذاب الاستئصــال الــذي صب على قوم لوط.

وحين عـــرف إبـــراهيم الملائكة ســـألهم عن الأمر العظيم الــذي نزلــوا من أجله ، إذ حسب نصّ مـأثور عن الإمـام الصـادق (عليه السـلام) : «**كـانوا أربعة أملاك : جبرئيل وميكائيل وإســـــــرافيل وكروبيل عليهم السلام**» [1]. ومثل هؤلاء لا ينزلون إلّا لخطب جلل.

(**قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ**)

لا بد انكم تقومون بعمل عظيم في الأرض فما هو؟

[32 ـ 33] (**قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْـرِمِينَ* لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ**)

ونتســـاءل أولا : ما هو هـــذا الطين؟ .. هل هو ذلك الطــوب الــذي بـنيت به مـدينتهم باعتبـار ان المدينة قد ارتفعت ثم هبطت مـرة أخـرى سـاعة تـدميرهم؟ أم هو حمم بركـــان تفجّر عليهم فشـــبهت بـــالطين؟ أم أصل الحجـارة الـتي أهلكـوا بها كـانت من الطين؟ .. لا نـدري بالضبط ، ولكن الظاهر من الآية أنه ذات «السجيل» التي جـاءت في آية أخـرى ، والـتي قـالوا : انها معربة فارسـية وأصلها (سنك كـل) أي حجـارة من الطين ، والأقـرب انها قطعات من طين متصلب ومتحجر.

---

(1) المصدر / 127.

ثانيا : مـاذا كـانت جـريمتهم الـتي اسـتحقوا بها ذلك العـذاب الشـديد؟ يبـدو انهم كـانوا قد تـدرجوا في عـدّة مراحل ، حـتى بلغـوا الـدرك الأسـفل ، والـذي مثّل في الشذوذ الجنسي ، اما غيره فقد جاء في الحديث : «**انهم لم يكونوا يتنظّفـون من الغائط ، ولا يتطهـرون من الجنابة ، بخلاء ، أشحّاء على الطعام**» [1].

[34] وان هذا الهبوط المستمر كان بسبب إسـرافهم المقيت.

(**مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ**)

يبدو من هـذه الآية ان الإسـراف ينتهي بالإنسـان إلى الجريمة ، فهو يسرف حـتى يسـتوعب حقه ، فيبـادر على الاعتـداء على حقـوق الآخـرين ، وفي الحـديث عن الامـام علي عليه السـلام : «ما رأيت نعمة موفـورة إلّا وإلى جانبها حـقّ مضـيع» لان من يأكل أكـثر من حقه يأكل ـ وبشكل طبيعي ـ حقوق الناس ، والحجارة الـتي أصـابتهم كـانت مسـومة ، قد عـرفت باسـمهم ، ولعل كل حجـارة كـانت باسم واحد منهم ، فلم تكن تطيش هنا وهنـاك ، لأنها كانت مسجلة باسمه وحسب جريمته.

[35] وكما كـانت مسـومة باسم المجـرمين كـانت بعيدة عن المؤمنين الذين أخرجوا من تلك البلاد.

(**فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**)

ولكن من كان فيها من المؤمنين؟

[36] (**فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**)

[37] وبعد أن خرجـوا من تلك القـرى ، أرسل الله الحجارة المسومة ، فأهلكتهم.

---

(1) المصدر / ص 129.

أين كانت قرى قوم لوط؟ يقـال انها واقعة اليـوم في الأردن ، على مقربة من البحر الميّت ، وانها كانت تسمى ب : (سدوم) ، وأنها هي المؤتفكات أي القرى المنقلبة.

ويقال ان إبراهيم (عليه السلام) الـذي بعث لوطا إلى تلك القــرى ليــدعوهم إلى ربهم كــان يســكن في مدينة (حبرون) قريبا من (سدوم) وقد شـاهد آثـار العـذاب حين نزل عليها.

ويـزعم البعض : ان بعض الآثـار قد ظهـرت في قـاع البحر الميت ، مما يدل على أنه يغطي قـرى قـوم لـوط ، ولا ريب أن تلك المناطق تشـهد بـذلك العـذاب الـرهيب ، الذي نزل بأولئك المجرمين ، بيد أن هذه الآثار كثـيرة في أرضنا ، وان عبرها كافية للإنسان ليرتـدع عن غيه ، بيد أن أكثر النـاس في غفلة منها ، وإنما يتعظ بها الخـائفون من عذاب الله.

(**وَتَرَكْنا فِيها آيَةً**)

علامة بيّنة بما وقع فيها ، قيل : أنّها آثارهم في القرية الخربة ، وقـال البعض : إنّها الحجـارة المسـوّمة ، ويظهر من حـديث مـأثور عن النـبي (صـلّى الله عليه وآلـه) عن جبرئيل (عليه السـلام) أنّ الآية بيت لـوط حيث قـال وهو يروى كيف دمّر بأمر الله تلك القرى

«**وإنّي نوديت من تلقاء العرش لمّا طلع الفجر : يا جبرئيل! حـقّ القـول من الله ، تحتّم عـذاب قـوم لوط فاهبط إلى قرية قوم لـوط وما حـوت فاقلبها من تحت سـبع أرضـين ، ثمّ أعـرج بها إلى السـماء فأوقفها حـــتى يأتيك أمر الجبّـــار في قلبها ، ودع منها آية بيّنة من منزل لوط عبرة للسيّارة**» [1].

(1) المصدر / ص 128

حقّا : إنّها آية بيّنة أن تدمّر كلّ تلك القرى شر تــدمير ويبقى بينهما بيت واحد عبد الله فيه ســالما. أولا يهــدينا ذلك إلى أنّ الــدمار لم يكن بســبب زلــزال طــبيعي ، بل عذابا مقدّرا لجرائم ارتكبوها؟

(**لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ**)

أمّا الغافلون فهم لن ينتفعوا من مثل هذه الآية.

وهذه القصّة تذكّرنا بسنّة الجـزاء ، وأنّ الله لم يخلقنا عبثا ، وأنّه سوف يحاسبنا ليجازينا إن خيرا فخير وإن شرّا فشر.

[38] ومثل آخر يهدينا إلى حقيقة المسؤولية والجزاء أيضا نقرأه في قصّـة فرعـون الـتي بقيت هي الأخـرى آية بيّنة للناس.

(**وَفِي مُوسى إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى فِرْعَـوْنَ بِسُـلْطانٍ مُبِينٍ**)

لقد أرسل الله موسى إلى طاغوت عصـره فرعـون ، وزوّده بسـلطان مـبين يتمثّل في كلمة الحق والعصا واليد البيضاء.

[39] ولكن ماذا كان جواب فرعون؟

(**فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ**)

كذّب بموسى وسلطانه بكلّ وجوده وقواه سواء قـوّة جسده أو قوّة جيشه.

(**وَقالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ**)

لقد احتار كيف يفسّر حقيقة الرسالة إذا أنكرها ، فإذا كان صاحبه ساحرا

يبحث عن مـال ومقـام فلما ذا يتحـدّى سـلطانه؟ لمـاذا لا يخضع له كما فعل سـائر السـحرة؟ وإذا كـان مجنونا فما هــذه الحجّة البالغة لديه والســلطان المــبين؟ ما هــذه المعاجز التي تتوالى على يديه؟

وهذا الترديد شـائع عند كـلّ الـذين يكفـرون بـالحق ، ويعاندون أمام الحجج البالغة ، ذلك أنّ الحق يفرض نفسه على الساحة حتى لا يكاد أحد يقدر على التهرّب منه.

[40] أنظر إلى عاقبة أمرهم ، لقد أخـذهم الله بقوّته فلم يقدروا على الفرار من جزائه العـادل بمثل ما تهرّبـوا من الحق الذي دعاهم إليه ، ثم ألقـاهم في البحر كما ينبذ شيء يسير لا وزن له ولا قيمة.

(**فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ**)

ولا يلام غيره. أفلم ينـذره الله ، وأتمّ الحجّة عليه فلم تنفعه شيئا؟

(**وَهُوَ مُلِيمٌ**)

تلاحقه لعنة الله والملائكة والناس إلى يوم القيامة.

[41] وإذا تكرّرت صورة أخذ الطغاة والمجرمين فإنّ السنّة واحدة ، وتلك السنّة تصبح عبرة لمن شاء أن يعتبر ، ففي أرض الأحقـاف الواقعة ـ حسب المفسّـرين ـ بين حضرموت وعمان كانت قبائل عـاد تطغى وتفسد وتبطش بالناس كما الجبّارون ، وجاءهم النـذير فلم يسـتجيبوا له ، فأرسل الله عليهم الــريح لا لكي تلقّح ثمــارهم أو تحمل الغيث إلى أرضـــهم العطشى ، بل لكي تبيد ما أتت عليه من زرع وضرع وإنسان وأثاث وبناء حــتى لا تخلّف وراءها شيئا فهي عقيم.

(وَفِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ)

وقـالوا في معـنى العقيم : أنّه الـذي لا ينتج غيثا ولا لقاحا. ولعلّ العقيم هو الذي لا يذر شيئا بعده فتكـون الآية التالية تفسيرا له.

[42] ويبدو أنّ الإعصار كان يحمل نارا وسمّا ، وهكذا لم يـدع شـيئا قائما على حاله بل أبـاد الأرض وما عليها وجعلها رميما.

(ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ)

قالوا : من الرّمة العظم البالي ، والرّمة الحبل البالي ، والـرّم ما يقع على الأرض من التبن ، وقـال : البعض الـرميم الرمـاد ، وقـال آخر : إنّه الـذي ديس من يـابس النبات. إنّه التراب المدقوق ، وقال ابن عباس : كالشـيء الهالك البالي.

ويبدو لي أنّ الكلمة توحي بانعدام الشيء ، فإذا كـان البناء يتهدّم ، وإذا كان العظم أصبح مهشّـما ، والحبل باليا ، والتراب رمادا لا حياة فيه .. وإذا صحّ هذا التفسـير فـإنّ تلك الأرض لا تصلح لإعادة الحيـاة فيها أبـدا ، وهـذا عاقبة طغيانهم وتحدّيهم لرسالات ربّهم.

[43] ومن جنوب الجزيـرة العربية إلى شـمالها حيث سـكنت قبائل ثمـود في منطقة (حجـر) نقـرأ ذات القصة ، ونجد ذات العـبرة ، وتتجلّى حقيقة المسؤولية والجزاء.

لقد كفـروا بالرسـالات ، وتمـرّدوا على رسـولهم ، وعقـروا الناقة ، فـأمهلوا ثلاثة أيّـام ، فلم يقـدروا على الفرار ، ولا نصرهم ما أشركوا به ، ولا نفعتهم الحيلة ، بل دمّروا بالصاعقة شرّ تـدمير .. وهكـذا كـانت في ثمـود آية بيّنة.

(**وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ**)

قالوا : إنّها الأيّام الثلاثة التي أمهلوا فيها. ولعلّ المراد الفرصة الــتي ســنحت لهم في الحيــاة الــدنيا ، والحرية المحدودة التي منحوا ليبتلي الله إرادتهم ، ولكنّهم خـالفوا رسوله بعقرهم الناقة التي كانت آية مبصرة لهم.

[44] (**فَعَتَوْا عَنْ أَمْـرِ رَبِّهِمْ فَأَخَـذَتْهُمُ الصَّـاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ**)

[45] وبــالرغم من أنّ الصــاعقة نــزلت بهم بعد أن أنـــذروا بها ، وعلمـــوا بوقوعها ، ونظـــروا إليها بـــالعين المجرّدة ، فإنّهم لم يقدروا على مقاومتها أو الفرار منها.

(**فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ وَما كانُوا مُنْتَصِرِينَ**)

فلا قدروا على مقاومتها بأنفسهم ، ولا كان يقــدر أحد على نصرهم.

[46] العذاب الذي تـوالى على المجـرمين في الـدنيا نذير لنا بأنّ عذاب الله واقع ، وأنّ الجـزاء حق لا ريب فيه ، وأنّه لا أحد يستطيع أن يهرب من مصيره الـذي يرســمه بعمله.

(**وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ**)

كذّبوا بآيات الله فأخذهم بالطوفــان ولم تبق منهم إلّا العبرة.

(**إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ**)

تجاوزوا حدود الله ، وفسقوا عن أمره ، فـاختطفهم ، العذاب وفقا لسنّة الله التي لن تجد لها تبديلا.

**وَالسَّـماءَ بَنَيْناها بِأَيْـدٍ وَإِنَّا لَمُوسِـعُونَ (47) وَالْأَرْضَ
فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ (48) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا
زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ (49) فَفِـرُّوا إِلَى اللـهِ إِنِّي
لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ
إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (51) كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُـولٍ إِلاَّ قـالُوا سـاحِرٌ أَوْ مَجْنُـونٌ (52)
أَتَواصَوْا بِهِ بَـلْ هُمْ قَـوْمٌ طـاغُونَ (53) فَتَـوَلَّ عَنْهُمْ
فَما أَنْتَ بِمَلُـومٍ (54) وَذَكِّرْ فَـإِنَّ الـذِّكْرى تَنْفَـعُ
الْمُؤْمِنِينَ (55) وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ
(56) ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُـونِ (
57) إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**

---

(47) [بأيد] : بقوة ـ من آد ـ يئيد.

(58) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (59) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (60))

---

(59) [ذنوبا] : نصيبا من العذاب ، وأصل الذنوب الدلو المملوء ماء وجيء به للاشارة إلى كثرة ذنوبهم.

وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ

هدى من الآيات :

إذا كان محور سورة «الذاريات» أن الهدف الاساسي من خلقة الجن والانس هو عبادة الله فان خاتمة الســورة تبين ذلك بعد ان تمهد له بتوجيهنا : الى السماء كيف بناها ربنا بقوة ، ولا يزال يوسـعها ، وإلى الأرض كيف فرشـها ، ومهـــدها لنا أفضل تمهيد ، وإلى ســـنة الزوجية في كل شيء مخلوق ، تذكرنا بالخالق الغني المقتدر.

ثم يأمرنا بالاســتعاذة بالله والفــرار اليه من ضـعفنا ، وعجزنا ، وشرور أنفسنا ، وشرور العالم المحيط بنا.

ولكي لا نستسلم للضغوط يذكرنا : ان الرسول نــذير مــبين من عند الله ، وانه يحــذّر من مغبة الشــرك بالله ، والكفر بالرسالة ، واتهـام الرسـول بأنه سـاحر أو مجنـون كما فعل الغابرون جميعا. حتى لكأنهم تواصـوا بـذلك بينما الحقيقة أنهم جميعا كانوا قوما طـاغين ، فـاذا تـولى عنهم الرسول لا يكون ملوما لأنهم جحدوا بالرسالة ولكن

يجب الاستمرار في رعاية المؤمنين بالتذكرة لأنها تنفعهم.
وبعد هـذا التمهيد الـذي فيه تـذكرة بآيـات الله في الخليقة ، وتبصرة بـدور الرسـول في الإنـذار والبلاغ فقط فيما يتصل بالكفـار ، ودور التـذكرة فيما يتعلق بـالمؤمنين .. ذكّرنا الله بـأهم غاية في الخلق وقـال : «**وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**» وحقيقة العبادة التسليم لله وتهيئة النفس لاستقبال نـور معرفته ، وتطهيرها من دنس الشرك والفواحش الباطنة ، ثم العمل بكتابه.
وعبـادة الله دليل رحمته ، وهكـذا كـان الخلق بهـدف التفضل على المخلـوقين ، ولا تصل أية فائـدة من خلقه اليه ، فهو لا يريد منهم رزقا ولا طعاما ، بل هو الـرزاق الذي يغمرهم بنعمه ، وهو ذو القوة الدائمة الـتي لا تـزول فلا يحتاج الى نصرهم.
وفي الخاتمة يحـذر ربنا الظـالمين بـأن نصـيبهم من العذاب مضـمون لهم ، فلا يسـتعجلوه ، كما يحـذر الكفـار من ويلات اليوم الموعود.

بينات من الآيات :

[47] هل نظـرت الى السـماء في ليلة صـافية .. هل حـاولت مـرّة إحصـاء نجومهـا؟ لا ريب انك لو فعلت ذلك كللت ، لأنه كلما أدرت عينك رأيت نجمة غـائرة في الفضـاء اللامتنـاهي ، وإذا علمنا ان كل مجموعة نجـوم تشـكل مجـرة واحـدة؟ لا بد أن نـذهل فعلا مما اكتشـفه العلم من عدد نسبي لعدد المجـرات الـتي تبلغ المليـارات .. فهل يأتي يوم يستطيع الإنسان أن يحصي نجوم السماء علما بـأن ضـخامة نجمة واحـدة منها قد تبلغ حـدا لو ألقى كوكبنا الأرضي فيها لضـاعت كما تضـيع حبة الرمل في الصحراء.
أي قوة بنت هذه السماء؟!

(**وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ**)

والأيد هي القـوة ، ولعل كلمة البنـاء تـوحي بالتـدريج في الخلق والمتانة فيه ، والصلة بين جزء وجزء فيما بــني ، وكل ذلك صحيح في أمر السماء.

(**وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ**)

ذهب المفسرون مذاهب شتى في معنى هـذه الكلمة ، فقد قـال ابن عبـاس ان معناها : إنّا لقـادرون ، وقيل : وإنّا لذو سعة ، وقيل : وإنّا لموسعون الـرزق على خلقنا ، وقال الضحاك : اغنيناكم دليله : «**عَلَى الْمُوسِعِ قَـدَرُهُ**» وقيل : جعلنا بينها وبين الأرض سعة [1].

ولعل هذا الاختلاف دليل صعوبة استيعاب ظـاهر الآية في تلك البيئة العلمية التي كادت لا تعترف إلّا بالأرض وما فوقها من أجــرام علوية محــدودة ، وإنا لنجد مثل هــذا الاختلاف في كثير من الآيات التي تهدي الى حقيقة علمية كانت غامضة في تلك الأيام.

علما بـأن المعـنى الظـاهر للآية هو : ان ربنا المقتـدر يوسع بنــاء الســماء دائما ، وهــذا ينســجم مع الحقــائق العلمية التالية :

1 / ان الأرض وسـائر الكـرات تمتص المـواد الأثيرية المبثوثة في الفضاء ، كما لو كانت أجهــزة تنظيف عملاقة تكنس الفضاء مما يسمح لها بالنمو دائما ، وقد قـالوا : ان حجم المـــواد المبثوثة في الفضـــاء هو بحجم الاجـــرام الموجـودة الآن. أي أنها كافية لتكـون المـادة الأولية لخلق أجرام جديدة بعدد وبفخامة الأجرام الموجودة وربما أكثر.

---

(1) القرطبي / ج 17 / ص 52

2 / ان السماء في حالة امتداد دائم وكأنها كـانت في يوم ما كرة واحدة ، وحـدث فيها انفجـار عظيم قبل (15) مليارد سنة ثم بـدأت تتمـدد ، وتتسع الفجـوة بين أجرامها بصورة منتظمة وسريعة ، وكما يقول جـورج كـاموف : ان الفضاء المحيط بنا الذي يتشكل من مليارات المجرات هو في امتـداد سـريع. وفي الحقيقة ان عالمنا ليس سـاكنا ، وان انبساطه لأمر مؤكد.

وان معرفة هذه الحقيقة هي مفتاح ألغـاز العـالم ، إذ أن العالم لو كان في حالة امتـداد الآن فلا بد انه كـان في وضع انقباض وتركيز شديد في يوم من الأيام [1].

وقد حدد بعضهم سرعة انبسـاط الاجـرام ، وتباعـدها عن بعضها ب (66) ألف كيلومتر في الثانية الواحدة [2].

والعجيب انها كلما ابتعدت عن بعضها ازدادت سرعتها كما قالوا.

الى أي مـدى سـتظل السـماء تنبسط وتمتد وتتباعد أجرامها وأين ستقف وما هي عاقبة أمرها؟

علم ذلك كله عند اللـه. إلّا ان هـذا التوسع العظيم لا يجـري دون تـدبير وهيمنة من لـدن سـلطان العـالم الـذي يحفظ توازنه ، ويدبر أموره (سبحانه).

3 / يـرى بعض علمـاء الفضـاء : ان هنـاك أجراما سماوية تتكـون مع الـزمن ، وقد اكتشـفوا في بعض زوايا هـذا الفضـاء الـرحيب ما يبـدو عنـدهم بـدايات تكـون الشموس التي تبدو أكـثر لمعانا من الشـموس الموجـودة بكثير.

(1) تفسير نمونه / ج 23 / ص 374 / نقلا عن جورج كـاموف في كتابه خلقة العالم.

(2) المصدر / ص 373 / نقلا عن فرد هويل.

إن ألغاز السموات لا تزال كثـيرة ولعل الإنسـان يحل المزيد منها كلما تقـدم في صـنع أدوات جديـدة لتصـوير أجـرام السـماء ، وتحليل الأشـعة الـتي تصل منها ، وربما يعي الإنسان يومئذ أبعاد هذه الآية وأمثالها بصورة أفضل.

4 / ويقول الأستاذ بيار روسو ، في كتابه المؤلف عام 1963 (من الـــذرة إلى النجم) : إن المجـــرّات تقع في تسلسل النظـام الفلكي فـوق النجـوم ، فـالمجرة مجتمع يتألف من مئات ملايين ، أو مئات مليارات النجوم ، أو قل بالأصح : عـــددا لا يمكن أن يحصى حـــتى بأضـــخم وأدق الكمبيوترات من النجوم.

والمجرّة التي نحن جزء منها تحتـوي على ما لا يقـلّ عن مـــائتي مليـــار نجم ، يضـــاف إليها كتلة من المـــادة المبعثرة بين النجوم تـتراوح بين 30 خ و 40 خ من الكتلة العامة.

ونكتفي هنا بالقول : إن عـدد المجـرات لا يحصى كما يبـــدو ذلك في الصـــور الفوتغرافية المـــأخوذة بواســـطة المقاريب الكبرى.

ثم يتحدث عن تكوّن النجوم من الغيوم (أي المواد ما بين النجوم) : ووجود غيوم من المـادة الكونية يحمل على الإعتقاد بأن النجوم خـرجت من الغيـوم عند تكثفها تصـبح نجوما ، وليست هذه الظاهرة مجرد افتراض لأن الفلكيين عـثروا في السـماء على تحـول من هـذا النـوع تم خلال سنوات معدودة.

أما الآن فما يجب أن نحفظه من هـــــذه النظـــــرة السريعة على العالم المجريّ أمران :

الأول : هو أن النجـــوم لم تكن موجـــودة منذ الأزل لكنها نشأت عن المادة الكونية في أوقات معينة.

الثـــاني : انها لم تتكـــون جميعها في آن واحد ، وأنها تتابع تكونها في أيامنا هذه ،

ويعتقد الثقـات من علمـاء الفلك : أن عمر النجـوم يـدور حول 15 مليارد سنة.

وإذا حدّدنا عمر المجـرة بخمسة عشر مليـارد سـنة ، فلا يعني ذلك أن الكون محتـوم بهـذه البداية ، ونحن نعلم الآن أن المادة تتحول بلا انقطـاع إلى طاقة (وبتعبـير أصح إلى اشـعاع) وفي داخل الظـاهرات الهائلة العاصـفة في الآفـاق الفضـائية تعيد هـذه الطاقة تكـوين المـادة بـدون انقطاع ، وإن كان سياق إعادة الخلق هذا في غاية البطء.

[48] كيف مهد الله الأرض لحيـــــــــاة البشر ، كيف تحطمت الصخور التي تكونت أصلا منها حتى أضحت ترابا مرنا ، يصـنع منه المسـاكن ، ويشق فيه الطـرق ، ويـزرع فيه ما يشاء؟ ولو كانت صـلبة كصـخور كـوكب الزهـرة أو رخوة كـتراب القمر هل كنا نرتـاح عليها ، وكيف أودع في ضـميرها ما نحتـاج إليها من مـواد تخصب زراعتنا ، وتطهّر أجواءنا وتمتص ما يضربنا؟!

(**وَالْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ**)

بلى. يا ربنا! أنت نعم الممهد والمهيئ للأرض لعيشــنا سبحانك.

[49] وبين السماء الـتي هي آية قـدرة الله ، والأرض الـتي هي آية رحمة الله نجد الأحيـاء والنباتـات والأشـياء الـتي جعلها الله يكمل بعضـها بعضـا. فـاذا كـانت الأرض تكمل الشــمس ، ويكملها القمر ، فــان البحر يكمل فوائد البر ، وهكذا السـهل والجبل ، والإنسـان وسـائر الأحيـاء ، وكل أنــواع النبــات يكمل بعضــها بعضا كما يكمل ســائر المخلوقات.

(**وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ**)

وتتجلى هـــذه الزوجية في أروع صـــورها بين الـــذكر والأنثى ، التي نراها في الإنسان

والحيوان والنبات ، بل وفي كل شيء مخلوق حتى الـذرة المتناهية في الصـغر تجد فيها الجـانب المنفي (المتمثل في الالكترون) والجانب المثبت (المتمثل في البرتون).

وهـذا التكامل عنـوان الحاجة المشـتركة بين المخلوقات والتي هي بدورها تهدينا الى بصيرتين :

الف / الحاجة بـذاتها نعمة ، والتحسس بها وقـود التحـرك ، واشـباعها لـذة الوجـود ، فلو افترضـنا حيـاة بلا حاجة الى الطعام والشـراب والراحة والجنس فهل كـانت لـدينا رغبة فيهـا. انها أخت المـوت ، وكلما ازدادت ، واشتدت ، وتنوعت الحاجة كلما ازدادت وتنوعت واشتدت اللذة في قضـائها .. أليس الشـبع بعد الجـوع ، والأمن بعد الخوف ، والنكاح عند الشبق أشد لذة وأعظم؟!

بـاء / التكامل وخصوصا بين الـزوجين دليلنا الى ربنا ، لان كل شيء يحتاج الى غيره ، فلا يتصـور فيه الاسـتقلال والالوهية لشهادة كل محتاج انه فقير محدود ومـدبر ، وان له ربا غنيا ، واسعا مدبرا.

ثم ان تـدبير التكامل ، وتـأليف الـتزاوج ، وتنظيم شؤونهما دليل الى المدبر المنظم سبحانه.

وهو في الوقت ذاته شاهد على أن المدبر غير محتاج ، وانه غير محدود ، وانه لا ندّ له ولا نظير.

جـاء في الحـديث عن الامـام الرضا (عليه السـلام) : بتشعيره المشاعر عرف ألّا مشعر له ، وبتجهيره الجـواهر عرف ألّا جوهر له ، وبمضادّته بين الأشـياء عـرف ألّا ضـدّ له ، وبمقارنته بين الأشياء عرف ألّا قرين له ، ضـادّ النـور بالظلمة ، واليبس بالبلل ، والخشن بـاللين ، والصـرد بالحرور ، مؤلفا بين متعادياتها ، مفرقا بين

متـــــــدانياتها ، دالة بتفريقها على مفرقها ، وبتأليفها على مؤلفها ، وذلك قوله : «**وَمِنْ كُـلِّ شَـيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ**». ففــرق بين قبل وبعد ليعلم ألّا قبل له ولا بعد له ، شـاهدة بغرائزها ألّا غريـزة لمغرزها ، مخـبرة بتوقيتها ألّا وقت لموقّتها ، حجب بعضــها عن بعض ليعلم ألّا حجاب بينه وبين خلقه [1].

(**لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**)

فتزدادون معرفة بالله كلما أحسستم بالحاجة ، وكلما قضــيت لكم. حقّا إن معرفة الله هي الهــدف الأســمى لخلقة العالم. أو ليست المعرفة هي السبيل الى التقــرب الى الله ، والأنس بمناجاته ، والفلاح بذكره.

[50] ولكن كيف نتســامى الى الله وقد أحــاطت بنا عوامل النقص والعجز ، فمن نفس أمّـارة بالسـوء تسـول لنا الـذنوب وتسـوفنا التوبة ، الى شـيطان يغوينا يـزين لنا الموبقات ، ويملأ أفئدتنا بالتمنيات والوساوس والظنــون ، والى طغـاة الأرض الـذين يضـيقون علينا مـذاهب الحيـاة حتى نسلم لهم أمورنا ، ونشـركهم في ديننا ودنيانا ، والى مجتمع فاسد ، وتربية مفسدة ، وثقافة ضـالة .. و.. و. كل هذه العوامل تهبط بنا الى واد سحيق. فكيف نتسامى الى الله ، ونحرز الفلاح؟!

القرآن الكريم يجيب على ذلك :

(**فَفِرُّوا إِلَى اللهِ**)

استعيذوا به من كل شر تـذكروه ، نـاجوه ، واعتمـدوا مناهجه التي أوحى بها ، أطيعوا من أمركم بطاعته ، والوا من أمركم بولايته.

---

(1) نور الثقلين / ج 5 / ص 130

والادعية المـأثورة عن أهل بيت الرسـول صـلّى الله عليه وآله زاخرة بمعاني الاسـتعاذة بالله ، والالتجـاء اليه ، والفرار من سخطه : وإليك بعضا منها :

«الحمد لله ، والحمد حقه ، كما يستحقه ، حمـدا كثيرا ، وأعوذ به من شر نفسـي. إنّ النفس لأمـارة بالســوء إلّا ما رحم ربي ، وأعــوذ به من كل جبــار فاجر ، وسلطان جائر ، وعـدو قـاهر. اللهم اجعلـني من جنـدك فـان جنـدك هم الغـالبون ، واجعلـني من حزبك فـــان حزبك هم المفلحـــون ، واجعلـــني من أوليائك ، فـــان أوليـــاءك لا خـــوف عليهم ولا هم يحزنون» [1].

ونحن نفر الى الله ونســـــتعيذ به ليس فقط من تلك العوامل ، بل وأيضا من سخطه وعذابه كما نقرأ في دعاء سيد النبيين محمّد (صلّى الله عليه وآله) :

«أعـوذ بنـور وجهك الـذي أضـاءت له السـموات والأرضون ، وانكشفت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الأولين والآخــرين من فجــاءة نقمتك ، ومن تحويل عافيتك ، ومن زوال نعمتك» [2].

ونقرأ في الدعاء المأثور عن الصادقين عليهما السلام :

«اللهم إنّي إليك فقـــير ، ومن عـــذابك خـــائف مستجير. اللهم لا تبـدّل اسـمي ، ولا تغيّر جسـمي ، ولا تجهد بلائي ، ولا تشـــمت بي أعـــدائي ، أعـــوذ بعفـــوك من عقابك ، وأعـــوذ برحمتك من عـــذابك ، وأعـوذ برضـاك من سـخطك ، وأعـوذ بك منك ، جل ثناؤك. أنت كما أثنيت على نفسك ، وفوق ما يقـول القائلون» [3].

(**إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ**)

---

(1) مفاتيح الجنان / دعاء يوم الثلاثاء.
(2) مفاتيح الجنان / أعمال النصف من شعبان.
(3) المنتخب الحسني / ص 747

وهكذا فالإنسان بين خطرين : أحدهما يسـير وسـريع الانقضـــاء ، والثـــاني عظيم دائم ، فلينظر لنفسه كيف يختار؟ فلو استسلم للضـغوط ، وأشـرك بالله فانه يتجنب الخطر اليسير ، ويحيق به الخطر الأكـبر ، بينما لو فر الى الله واستجار بذمامه المنيع فانه ليس فقط يتجنب الخطر العظيم المتمثل في غضب الله الجبـــار ، وعظيم عذابه ، بل ويغيثه الرب وينقذه من الخطر الآخر.

[51] وهكـذا بعث الله النـذير المـبين ليـدعوهم الى نفسه ، وليحذرهم من عاقبة التمرد عليه ، والإشراك به.

(**وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ**)

فانه لا ينقذكم من أخطار الدنيا ، ويسـبب لكم غضب الرب وعذابه.

(**إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ**)

وكم تكـون خسـارة الإنسـان كبـيرة ، وندمه عظيما حينما تصم أذنه عن هذا النذير المبين.

[52] ما الذي جعل البشر يكفرون بهذا النذير المـبين ، ويخسرون أنفسهم وإلى الأبد؟

إنه الطغيان الذي انطـوت عليه أنفسـهم ، انها الذاتية المقيتة ، لـذلك تـراهم يتّهمـون النـذير بتهم متناقضة لكي يبرروا كفرهم به.

(**كَـذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُـولٍ إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ**)

[53] كانت تلك تهمة هدفها الطغيان والكفر ، يكررها كلّ الكفار على امتداد التاريخ ، حتى ليخيل للإنسان ان بعضهم يوحي لبعض بذلك ، بيد أن الحقيقة اشتراكهم جميعا في تلك النفسية الطاغية التي تفرز مثل هذه التهم.

(**أَتَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ**)

ان ذات التهم التي افتراها قوم نوح قبل ألوف السنين ضد نبي الله العظيم (عليه السلام) نجدها اليوم مثلا على السنة الذين يخالفون الدعاة الى الله ، المنذرين الناس عذابه ، ذلك أن أشياء كثيرة تتغير في حياة البشر إلّا انها لا تمس جوهر وجوده ، والغرائز التي تنطوي عليها نفسه.

وهكذا ينبغي ألا ننزلق ـ نحن الذين نتلوا آيات القرآن ـ في هذا الوادي فكلما دعانا الى الخير داع ، أو أنذرنا عن الشر منذر اتهمناه في عقله أو في نيته.

ولعل أخطر شر يجب أن نفرّ منه الى الله ، ونجأر اليه ليخلصنا منه هو هذا الطغيان الذي تنطوي عليه أنفسنا (أعاذنا الله من شرورها).

[54] وحين يبلّغ الرسول قومه الإنذار تتم الحجة عليهم ، وتنتهي عندئذ مسؤوليته ، فلا يظن أحد أن الرسول يكون وكيلا عنه ، ومسئولا عن هدايته بطريقة أو بأخرى. كلا .. انه لا يلام على كفرهم بعد الإنذار المبين.

(**فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ**)

[55] بلى. المؤمنون يظلّون موضع رعاية وعناية من لدن رسول الله ، الذي لا يني يذكّرهم بربهم ، لأنهم يستفيدون من الذكرى.

(**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**)

وقد روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) انه قال :

«لما نزل : (**فَتَـوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُـومٍ**) لم يبق أحد منا إلّا أيقن بالهلكة حين قيل للنــبي (**فَتَــوَلَّ عَنْهُمْ**) فلما نزل (**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَـعُ الْمُـؤْمِنِينَ**) طـابت أنفسنا» [1].

[56] ما هي الغاية الأســـــمى لخلق الجن والانس؟ الخليقة سـخرت للإنسـان ، الشـمس والقمر ، والسـحاب والرياح ، والسـهل والجبل ، والانعـام والطيـور والأسـماك و.. و.. كلها مســخرات للإنســان. أو لا نتفكر هل الممكن أن تكون خلقة البشر بلا هدف؟

كل شــيء يخــدم هـدفا ، بل لكل جزيئة من جزيئـات وجود كل شيء غاية. أفيمكن ألّا تكون لوجـود الإنسـان ـ سيد مخلوقات كوكبنا ـ أية غاية؟!

أو يتخذ رب الســـماوات والأرض من الخلق لعبا ـــ سبحانه ـ وهو الغني الحميد ، العليم الحكيم؟!

تعـــالوا إذا نتفكر : هل خلق أي عضو من أعضـــاء أجسـادنا عبثا ، حـتى ولو كـانت قطعة من المصـران ، أو غـدّة صـغيرة ، أو حـتى خلية واحـدة ، وإذا كـان الجـواب بــالنفي حسب كل معلومــات الطب والفســلجة ، فكيف يكون مجمل خلق الإنسان بلا هدف؟!

فما هو الهدف اذن؟

أو يكفي ان نجعل الهــدف الطعــام والشــراب. دعنا نستنطق عقولنا ، ووجدان

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 132

قلوبنا؟! أو نقتنع من أنفسنا أن نأكل ، ونشـرب ، ونتمتـع. أو لأنا نجد فراغا كبيرا لا بد أن نملأه بغير اللذات العاجلة.

اننا نسـعى جميعا نحو العلم والفضـيلة ، ونعطي لهما قيمة أسمى من قيمة الـثروة والقـوة ، ونتسـاءل : ما هي أعلى درجات العلم؟ أو ليست معرفة الله الذي نعـرف به حقيقة أنفسنا ، والواقع المحيط بنا. فمن دون معرفة الله تبقى كل الأسئلة حائرة.

كـذلك أسـمى درجـات الفضـيلة تقـوى الله ، وابتغـاء مرضاته ، والقرب منه.

وتتلخص معرفة الله وتقـواه في كلمة العبـادة ، الـتي يجعلها القرآن الكريم غاية خلقة البشر فيقول :

(**وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**)

فما هي العبادة؟ قالوا : أصل العبودية الخضوع والذل ، والتعبيد : التذليل ، يقال : طريق معبّد [1] ، ويبدو لي أن أصل معنى العبودية ليس التذلل والخضوع ـ كما قـالوا ـ بالرغم من أن ذلك من لوازمها ، بل صـلاح الشـيء بحيث يكون مهيأ للاسـتفادة أو بتعبـير آخر : عـدم وجـود ما يمنع الانتفـاع منه ، ولـذلك قيل سـفينة معبّـدة وو انما سـمي الطريق معبّدا لأنه خال من الثغرات والعـثرات ، والا فـان كل الطـــرق وكل الاراضي خاضـــعة وذليلة ، فلما ذا لا تسـمى بالمعبـدة؟ وإنما سـمي الرقيق عبـدا لأنه لا يمتنع عن طاعة مـــولاه ، وهكـــذا يكـــون أصل الكلمة الطاعة والتسليم.

فما معنى عبادة الله وما هي أبعادها؟ هنالك حقائق لا بد أن نعرفها لكي نعرف شيئا عن عبادة الله :

(1) القرطبي / ج 17 ـ ص 56.

أولا : أولئك الــذين يخضــعون لغــير الله ، ويتخــذون أهـــــواءهم إلههم من دون الله ، أو يعبـــــدون الطغــــاة والمترفين ، أو يقدسون التراث والتقاليد انهم بعيدون عن هـدف الخلق ، لأن عبـادة الله تعـني تحرير الإنسـان من الشركاء من دونه ، ولعل الآية التالية تشير الى ذلك :

«**أَفَحَسِـبَ الَّذِينَ كَفَـرُوا أَنْ يَتَّخِـذُوا عِبـادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيـاءَ إِنَّا أَعْتَـدْنا جَهَنَّمَ لِلْكـافِرِينَ نُـزُلاً**» [1] ، وقـال سـبحانه : «**يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُـرُوا نِعْمَتَ اللـهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْـرُ اللـهِ يَـرْزُقُكُمْ مِنَ السَّـماءِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**» [2].

وجـاء في الحـديث المـأثور عن الامـام الصـادق عليه السـلام : «إن الله عز وجل ما خلق العبـاد إلّا ليعرفـوه ، فاذا عرفوه عبدوه ، فاذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه» فقال له رجل : يا ابن رسـول اللـه! بـابي أنت وأمي فما معرفة اللـه؟ قـال : «**معرفة أهل كل زمـان إمامهم الذي تجب عليهم طاعته**» [3].

وحسب هذا الحديث يكون تحـرّر الإنسـان عن عبـادة غــير الله الغاية الأســمى للخلق ، كــذلك نجد توحيد الله المحور الرئيسي لكل سور الذكر وآياته.

ثانيا : ان عبـــادة الله لا تتم إلّا بمعرفته ، وان معرفته لا تكتمل إلّا بعبادته ، لأن في معرفته الـــــــــتزلف إليه ، والتقرب من رضـاه ، ولـذلك جعلت معرفة الله أو معرفة آياته هــــدفا من أهـــداف الخلق حســـبما قرأنا في النص السـابق ونقـرؤه في قوله سـبحانه : «**اللـهُ الَّذِي خَلَـقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ وَأَنَّ اللـهَ قَـدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً**» [4].

---

(1) الكهف / 102
(2) فاطر / 3
(3) عن علل الشرائع / تفسير البصائر / ج 41 / ص 134
(4) الطلاق / 12

ولكن كيف يمكن بلــوغ كمــال المعرفة الالهية ، من دون التسليم له ، وطاعته ، وعبادته ، علما بـأن معرفته لا تكون إلّا به ، وكيف يكون غيره دالا عليه ، وبنوره أشرقت السموات والأرض ، أو يكـون لغـيره من الظهـور ما ليس له حتى يكون هو المظهر له سبحانه؟!

وهو لا يمنح معرفته إلّا لمن سلم له ، وعبـده وحـده ، وهكــذا تكــون العبــادة هــدفا للخلق لأنها الســبيل الى المعرفة.

ثالثا : هل يمكن أن يبلغ الإنســان الفلاح في الــدنيا والآخرة من دون شريعة واضحة يسـير عليها ، وهل يمكن تطبيق الشريعة بغـير الايمـان بالله ، والتسـليم لأوامـره ، وهل يمكن تطهـير القلب من أدرانه ، وتحريـره من أغلاله بغير معرفة الله ، التي تجعل النفوس في رحـاب قدسه ، بعيدة عن الأنانية والشح ، والغضب ، ونـائرة الشـهوات؟! كلا .. إن معرفة الله ، والتسليم له هما السـبيل الى طـرد جنـــود الشـــيطان من القلب ، وتنظيفه من وساوسه ، وظنونه ، وأمانيه ، وتخلّقه بــأخلاق الــرب ، وتأديبه بآدابه الســامية من الكــرم ، والإيثــار ، والإحســان ، والتقــوى ، وحب الخـير واهله ، لـذلك نجد في آيـات الـذكر ما يـوحي بأن هدف الخلق هو الخلق الرفيع. لنقرأ الآيات التالية :

في تسع آيــات قرآنية جعل الله الشــكر هــدفا لنعمة الخلق أو سائر النعم كقوله سبحانه :

«**وَجَعَــلَ لَكُمُ السَّــمْعَ وَالْأَبْصــارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**» [1].

«**لِتَجْرِيَ الْفُلْـكُ فِيـهِ بِـأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُـوا مِنْ فَضْـلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**» [2].

---

(1) النحل / 78.
(2) الجاثية / 12

كما جعلت التـذكرة غاية الخلق في قوله سـبحانه في هذه السورة :

«**وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ**» [1].

وهكذا جعل التعقل هدفا في قوله سبحانه :

«**وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**» [2].

كما جعل الابتلاء هدفا أساسيا للخلق في آيات عديـدة كقوله سبحانه :

«**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَـنُ عَمَلاً**» [3].

والامتحـان بـدوره سـبيل لتكامل الإنسـان ، وتطهـيره من الجوانب السلبية التي فيه.

التكامل .. الهدف الأسمى

من خلال البصـائر الـتي ذكـرت نعـرف : أن تسـامي الإنسـان في معـارج القـرب من الله سـبحانه هو الهـدف الأسـمى لخلقه ، ويتمثل ذلك في تحريـره من نـير العبوديـات ، وتطهـير قلبه من غـلّ الهـوى والشـهوات ، وتساميه في مدارج المعرفة بالله سبحانه ، والتقـرب إليه بالصالحات.

وإذا تسـامى الإنسـان الى حيث القـرب من الله فـان رضـوان الله وغفرانه ورحماته وسـائر نعمائه وآلائه يكـون كل ذلك قد سبقته هناك لتشـمله ، ومن هو أولى من الله بأن يقـري عبـده الـذي حل بجنابه ضـيفا ، ومن هنا جعلت الرحمة هدفا للخلق في آية

---

(1) الذاريات / 49

(2) غافر / 67

(3) الملك / 2

كريمة حيث يقول سبحانه :

«**وَلَـوْ شـاءَ رَبُّكَ لَجَعَـلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِـدَةً وَلا يَزالُـونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِـذلِكَ خَلَقَهُمْ**» [1].

[57] ولكن الغاية الـتي نتحـدث عنها ليست بمعـنى العلّة التي لدينا فنحن إذا فعلنا شيئا فلا بد من علّة تـدفعنا إليه ، وغاية نسعى إليها. فالعطش علة الشـرب ، والجـوع علة الاكل ، والرقة علة العطف ، أما الارواء والشـــــبع والإحسان فهي أهداف وغايات.

وتعـالى الله عن أن يكـون لفعله سـبب يدفعه ، وعلة تجأره ، وتجـبره. إنه الغـنيّ الحميد ، عطـاؤه محض رحمة منه ، وفضله محض إرادة ، لا يبرمه إلحاح الملحين ، وكما جاء في الدعاء :

«**تقـدس رضـاك أن تكـون له علة منك فكيف تكون له علة مني. إلهي أنت الغـني بـذاتك أن يصل إليك النفع منك ، فكيف لا تكون غنيّا عني**» [2].

وان اللام الـذي جيء بها في سـياق بيـان الهـدف من الخلق «**لِيَعْبُدُونِ**» ليس بمعـنى : أن الله سـبحانه سـعى نحو هذه الغاية بهـذه الوسـيلة ـ وهو الغـني بذاته ـ وانما بمعنى : أنه قدّر وقضى ليكون ذلك وسيلتنا اليه ، وطريق سعينا ابتغاء مرضاته ، ومدارج كمالنا في وجودنا ، كما أن الطهارة غاية الوضوء ، وذكر الله هدف الصلاة ، والتقـوى نتيجة الصـيام ، فـان العبـادة غاية الخلق ومحتـوى ما أمر الإسلام به من واجبات.

---

(1) هود / 118 ـ 119

(2) دعاء عرفة للإمام الحسين (عليه السلام) / المنتخب الحسني / ص 925.

ولعله لــذلك أكد ربنا على أنه غــني بذاته عن خلقه ، وعن أي فعل يمارسونه فقال سبحانه :

(**مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ**)

فلا يتصـور أي فائـدة تصل الى الله ــ سـبحانه ــ من خلال خلقه ، وحــــــــــــــــــــــــــتى ما قيل (بأن الله سبحانه كـان كـنزا مخفيا ، فـأراد أن يعـرف) لم أجد مصدره وحتى لو كان لهذه الكلمة مصدر موثوق فـان علينا تأويله بما لا يتنــــــــافى ونص الآية الكريمة ، وحكم العقل بأن الله لا تصل اليه منفعة من لدن خلقه والظهـور بعد الخفـاء نـوع من المنفعة ، ولـذلك نقـرأ في الـدعاء المـأثور : «**كيف يسـتدل عليك بما هو في وجـوده مفتقر إليك ، أيكون لغيرك من الظهـور ما ليس لك حـتى يكـون هو المظهر لك مـتى غبت حـتى تحتـاج الى دليل يدل عليك**» [1].

ويبدو أن الفـارق بين الـرزق والإطعـام هو أن الـرزق يستمر ، بينما قد يكون الطعـام مـرة واحـدة ، وقد لوحظ في كل منهما معنى الاستفادة والمنفعة ، وكـأن المـرزوق يعتمد في بقائه على الـرزق أو الطعـام الـذي هو مفـردة من مفردات الرزق.

[58] وكيف يحتاج الى الرزق من يعتمد عليه الخلائق جميعا في حيــاتهم ، فلو لا دوام فضــله ، وتــواتر نعمه ، وتواصل رزقه لم يبق شيء مخلوق.

(**إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ**)

والرزاق لا يكون مرزوقا.

(1) المصدر / 924

(**ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**)

فلا ضعف فيه حتى يحتاج الى الطعام ، ولا نقص حتى يحتاج الى إتمام ، وقوته ليست عرضية بل هو متين شديد ، فهو ســـبحانه لا يغلب ولا تلحقه مشـــقّة في أفعاله أو رهق.

وربما تدل الآية على أن رزق الله ـ سبحانه ـ يتـوالى على عباده بعبادتهم ، وكذلك قال ربنا سبحانه على لسان نبيه الكريم نـوح ـ عليه السـلام ـ : «**فَقُلْتُ اسْـتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً* يُرْسِلِ السَّـماءَ عَلَيْكُمْ مِـدْراراً* وَيُمْـدِدْكُمْ بِـأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَـلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَـلْ لَكُمْ أَنْهاراً**» [1].

[59] ولتبقى مصـائر الغـابرين عـبرة للأجيـال ، ولا بد أن نعرف أنّها خاضعة لسنّة إلهية لا تتبدل ولا تتغـير ، فلقد أهلك الظـالمين لظلمهم ، وســوف يهلك من ســار على دربهم عاجلا أو آجلا.

(**فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبـاً مِثْـلَ ذَنُـوبِ أَصْـحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ**)

وما لهم يستعجلون الله ورسوله في عذاب يصـيبهم ، تقدم أو تأخر وهل يستعجل أحد هلاكه؟!

قالوا : الذّنوب : الفرس ذو الـذنب الطويل ، وسـمي به الدلو الكبير الذي يربط في نهايته الحبل لتسهيل عملية التفريغ ، ويبدو ان العرب كانوا يتعاونون في نزح مثل هذا الدلو على أن يكون كل ذنوب لطائفة منهم وأنشدوا :

---

(1) نوح / 10 ـ 12

لكم ذنـــوب ولنا ذنـــوب فـــــإن أبيتم فلنا القليب

وهكـذا اسـتخدمت الكلمة بمعـنى النصـيب ، ولعله النصـيب الـذي يشـترك فيه طائفة من النـاس ، فيكـون معنى الآية : إن لهم نصيبا من الذنوب يصيبهم بعد نصـيب السـابقين. أي ان لهم دورهم فلينتظـروا ولا يسـتعجلوا ، كما أن لكل قـوم دورهم في تقسـيم المـاء ذنوبا لهـؤلاء وذنوبا لأولئك على الترتيب.

وقال بعضهم : باعتبار أن الذنوب هو في الأصل الدلو الذي يصب فان العذاب يصب عليهم صبا.

ويبقى سؤال : لماذا اسـتخدمت كلمة الظلم فيهم مع انهم كـــانوا كـــافرين؟ يبـــدو ان الظلم أعم من الكفر والشرك ، يشملهما ، ويتسع لغيرهما فيكون المعـنى : ان عاقبة الظلم ســواء كــان بدرجة الكفر والشــرك أو أقل منهما وخيمة ، تستنزل النقمة على صاحبه.

[60] أما الكفّار فلهم الويل في يوم الوعيد الصادق ، الذي أنذروا به في فاتحة السورة.

(**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ**)

انهم هـالكون في ذلك اليـوم ولا يأسف لمهلكهم أحد أبدا ، انما تلحقهم اللعنة لأنهم مسئولون عن هلاكهم.

وفي نهاية تلاوتنا لســورة «الـذاريات» نسـتعيذ بالله من كل شر ، ونفر الى جنابه من كل خــوف ، ونبتهل اليه ضارعين :

«**اللهم اني أسألك من كلّ خير أحاط به علمك ، وأعوذ بك من كلّ شر**

أحـــاط به علمـــك. اللهم إني أســـألك عافيتك في أمــوري كلّها ، وأعــوذ بك من خــزي الــدنيا وعــذاب الآخرة» [1].

(1) المنتخب الحسني / ص 105.

سورة الطور

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

في كتـاب ثـواب الأعمـال بإسـناد ، عن أبي عبد الله وأبي جعفر (عليهما السـلام) قـالا : «**من قــرأ ســورة (الطور) جمع له خير الدنيا والآخرة**».

تفسير نور الثقلين / ج 5 / ص 135

الإطار العام

قسما بالطّور ، والكتاب المسطور. قسما بالبيت المعمور ، وبالسقف المرفوع. قسما بالبحر المسجور : إن عذاب الله حق ، وإنّه واقع بالتأكيد.

بهذه الكلمات الصاعقة تفتتح السورة التي جاءت لشفاء الإنسان من مرض الجدل ، وما أكثره جدلا! متى يصدق بهذه الحقائق. أفي (**يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً ، وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً**) ، وهل ينفعه التصديق يومئذ حيث يصب الويل للمكذبين؟

إنهم لم يكونوا يأبهون بالنذر ، كانوا سادرين في لعبهم ، فهل لهم أن يستمروا كذلك يوم يدعون الى نار جهنم دعّا ، وهل لهم أن يكذبوا بنارها التي تتّقد أمامهم؟!

أم يقولون يومئذ : انها خيال وسحر زائف؟! ليس المهم ما يقولون ، ولا أنهم يصبرون يومئذ على النار أم لا يصبرون ، لأنهم مواقعوا النار يصلون لهيبها بما كانوا يعملون.

هكــذا تتواصل الآيــات تســتزيح من نفس الإنســان حــالات الجــدل واللعب والتهــرب من الحقــائق بالاعــذار التافهة ، ولكي لا يســتريح الإنســان إلى الرخــاء الظــاهر والأمن الموقّت الـذي يعيشه اليـوم لا بد أن يتحسس ذلك اليوم الذي يهـتز فيه كل شـيء ، من السـماء الـتي كـانت سقفا محفوظا ، إلى الجبال التي كانت ركنا شديدا.

ثم يرسم الســـياق لوحة بارعة الجمـــال تتجلى فيها صورة أهل الجنة وهم يتنعمون في جنات واسعة ، بعيدين عن عــذاب الجحيم ، يــأكلون ويشــربون بما عملــوا من الصـالحات في حيـاتهم الـدنيا ، وقد اسـتراحوا على سـرر مصـفوفة ، وزوجهم الله بحـور عين ، وحـولهم الصـالحون من ذريتهم ، ووفر الله لهم النعم من الفاكهة واللحم والكـأس الكـريم ، ويتـذاكرون نعم الله عليهم أفليس قد كانوا مشـفقين في أهلهم ، وجلين من عـذاب جهنم ، فقد وقاهم ربهم بمنه عذاب السموم.

وبعد أن نشاهد هذه اللوحة التي تثير اشتياق النفوس الكريمة يتنـاول السـياق ما يبـدو انه الموضـوع الرئيسي للسورة ، وهو معالجة حالة الجدل في الحقائق الواضحة ، وذلك بتسفيه الاعذار التي يتشبّث بها الإنسان للتهرب عن قبـول الحق ، وهي مظـاهر مـرض الجـدل الخطـير .. لقد قالوا : إنّ الرسول كاهن أو مجنون ، وقالوا بل هو شـاعر فــإذا مــات انتهت دعوته ، وقــالوا انه افــتراه .. كل تلك الدعايات تتلاشى حينما يضعها الإنسان في إطار الحقــائق الكبرى ، ويتصور نعم الله التي يسبغها عليه (من (**الطُّورِ وَكِتابٍ مَسْطُورٍ وَالسَّـقْفِ الْمَرْفُـوعِ**) و.. و..) وعند ما يتحسس يــوم القيامة عند ما (**تَمُــورُ السَّــماءُ مَــوْراً ، وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً**) ، كذلك تتلاشى أفكار مشابهة مثل التفكير في عدم الحاجة إلى البارئ.

ويتســاءل الســياق : إذا هل هم خلقــوا أنفســهم؟ أم أنهم خلقــوا من غــير شــيء؟ ومن الــذي خلق الســموات والأرض؟ كلّا .. (**بَلْ لا يُوقِنُونَ**) ، وهذه هي مشكلتهم

الأولى. ومن يريد الفـــرار من الحقيقة الواضـــحة لا يجد أمامه سوى هذه الخرافات.

ويمضي الـذكر الحكيم في بيـان ضـلالاتهم وتفنيـدها : فمن يا ترى يسـيطر على خـزائن السـموات والأرض؟ ثم يقولون : ان لله البنـات فهل لهم البنـون ولله ما يعتبرونه الأدنى أي البنات! ما لهم كيف يحكمون؟!

أم تــراهم يخشــون من دفع غرامة إن هم آمنــوا. أو يطالبوا بـأجر. أم أنهم يعلمـون الغيب بوضـوح فيعتمـدون عليه في تخرصاتهم.؟

وبهـذه التسـاؤلات الحـادة المتتالية يسـتثير القـرآن عقولهم ووجدان ضمائرهم حـتى يـروا بطلان تلك الأفكـار بأنفسهم.

ثم يقـول : «**أَمْ يُرِيـدُونَ كَيْـداً**» ، ويبـدو أن هـذا هو جـواب التسـاؤلات ، ولكن ، يعلمـوا أنهم هم المكيـدون ، وأنّه لا إله إلّا الله الواحد لا شــــــريك له ، ولا علاج لمثل هؤلاء إلّا عند ما يرون العذاب فيقولـون سـحاب مركـوم ، فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون.

وبعد أن يذكّر القرآن أولئك الكفّـار بـأنّ عـذاب الـدنيا نذير لعذاب الآخرة يأمر الرسول والمؤمنين بالصـبر لحكم الله فإنّه وهم في رعاية ربّ العــزة ، ويــأمره وإيــاهم بالتسبيح ليلا وعند الأسحار.

سورة الطّور

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(وَالطُّورِ (1) وَكِتابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ
مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ
(5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6) إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ (7)
ما لَهُ مِنْ دافِعٍ (8) يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً (9)
وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً (10) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

---

1 [والطور] : الطور هو جبل سيناء ، وقيل : هو جبل بمدين.
3 [رقّ] : الرق هو الجلد الرقيق المدبوغ.
4 [البيت المعمور] : قيل : انه بيت الله الحرام ، ، وقيل : انه الضراح في السماء الرابعة ، وقيل السابعة ، وهو بيت يلي البيت الحرام فوقه.
5 [السّقف المرفوع] : السماء.
9 [تمور مورا] : المور الاضطراب : وهو تردد الشيء جيئة وذهابا.

(11) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (12) يَوْمَ يُــدَعُّونَ
إِلى نـــارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (13) هـــذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها
تُكَذِّبُونَ (14) أَفَسِـحْرٌ هـذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِـرُونَ (15)
اصْـلَوْها فَاصْـبِرُوا أَوْ لا تَصْـبِرُوا سَـواءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّما
تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ (16) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ
وَنَعِيمٍ (17) فاكِهِينَ بِما آتـاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقـاهُمْ رَبُّهُمْ
عَـذابَ الْجَحِيمِ (18) كُلُـوا وَاشْـرَبُوا هَنِيئـاً بِما كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ (19) مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْناهُمْ
بِحُـــورٍ عِينٍ (20) وَالَّذِينَ آمَنُـــوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ
بِإِيمــانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَما أَلَتْنــاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ
مِنْ شَـــيْءٍ كُـــلُّ امْـــرِئٍ بِما كَسَـــبَ رَهِينٌ (21)
وَأَمْـــدَدْناهُمْ بِفاكِهَـــةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْـــتَهُونَ (22)
يَتَنــازَعُونَ فِيها كَأْســاً لا لَغْــوٌ فِيها وَلا تَــأْثِيمٌ (23)
وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُـونٌ (24)
وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ

---

13 [يدعّون] : الدّع الدفع بعنف وقوة.
21 [وما ألتناهم] : ما أنقصناهم.
23 [يتنازعون] : يتعاطون ، وقيل : على سبيل المزاح والمفاكهة.

(25) قــالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْــلُ فِي أَهْلِنا مُشْــفِقِينَ (26)
فَمَنَّ اللـهُ عَلَيْنا وَوَقانا عَـذابَ السَّـمُومِ (27) إِنَّا كُنَّا
مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (28)

---

266 [مشــفقين] : خــائفين من العــذاب ، إذ من لا خــوف له لا يعمل صالحا إلّا في الأندر النادر.
27 [عذاب السموم] أي النار النافذة في المسام وثقب الجسد.

إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ

بينات من الآيات :

[1 ـ 6] للقسم الـذي يـرد في القـرآن ، ويـتركّز في السور المكية التي تعـالج أكـثر ما تعـالج عقائد الإنسـان ، عدّة أهداف ، أبرزها :

1 ـ الربط بين العقيـدة الـتي يـدعو الله النـاس إليها وبين حقـائق العـالم ، وأصل القسم هو إبـداء الصـلة بين شـــيئين ، فـــالحلف بالله على فعل أمر أو عـــدم فعله ، صـدقه أو كذبه ، هدفه الربط بين عقيـدة الإنسـان بـالرب وبين ذلك الأمر لاقناعه بـــه. أمّا القـــرآن ففيه نـــوع من التجاوز لهـذه القاعـدة ، لأنّ كلام الله لا يحتـاج إلى إثبـات من خارجه ، وإنّما الهـدف من القسم فيه هو بيـان الصـلة بين الغيب والشـــهود ، بين ما يجهله البشر من حقـــائق الخلق وبين ما هو ظاهر منها.

يقـول تعـالى : «**وَاللَّيْـلِ إِذا يَغْشى * وَالنَّهـارِ إِذا تَجَلَّى* وَما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى**» (1) وقـال : «**وَالشَّـمْسِ وَضُـحاها* وَالْقَمَـرِ إِذا تَلاهـا* وَالنَّهارِ**

(1) الليل / (1 ـ 4).

إِذا جَلَّاها* وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشاها* وَالسَّماءِ وَما بَناها* وَالْأَرْضِ وَما طَحاها* وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها* فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها* قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها* وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها» [1] وقال : «**وَالضُّحى * وَاللَّيْلِ إِذا سَجى * ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى**» [2] ففي المثال الأوّل يربط القرآن بين الليل حين يلفّ الدنيا بظلامه ، والنهار عند ما يظهر ظهورا تامّا بأنواره ، وما بينهما من اختلاف نجده بصورة أخرى عند الذكر والأنثى ، وبين اختلاف السعي والمذاهب عند الناس .. وفي المثال الثاني يربط بين عظمة الشمس والقمر ، والليل والنهار ، والسماء والأرض ، والنفس وطبيعتها ، وبين فلاح من يزكّيها وخيبة الذي يغمسها في رواسب الذنوب والانحراف .. وفي المثال الثالث نجد ربطا بين الضحى بإشراقه الذي هو وقت الحركة والنشاط ، والليل الذي هو وقت الراحة والسبات ، وبين الحقائق التالية : أنّ الوحي لم ينقطع عن النبي ، وأنّ الآخرة أفضل من الدنيا ، وأنّ عطاء الله يعوّض للإنسان متاعبه وتضحياته وأكثر من ذلك حتى يرضى به.

وعند التدقيق في الأمثلة المتقدمة نجد أنّ المقسم به يمثّل الشهود (الجانب الظاهر من الحقائق) بينما المقسم عليه يمثّل الغيب (الحقائق الخافية أو المعنوية) ، والصلة بين الاثنين قائمة في عالم التحقيق ، ولكنّنا ربما جهلناها أو غفلنا عنها ، فتأتي الآيات لتوضّحها وتذكّرنا بها ، وهذا ما نجده في سائر آيات القرآن.

2 ـ وفي القسم القرآني علاج لغرور البشر ، ليخرج من كبره وقوقعة ذاته الى رحاب الحقائق ، ذلك أنّ القسم ينطوي على تذكيره بما حوله من مخلوقات عظيمة ، كالبحار التي هي أعمق منه ، والسماء التي هي أوسع منه ، والجبال التي هي

(1) الشمس / (1 ـ 4).
(2) الضحى / (1 ـ 5).

أطـول وأضـخم من جسـمه ، وهـذا التوجيه والألفـات إلى الحقـائق الـتي تلتقي كلّها عند التـذكير بالله ، لا شك أنّه سوف يحدث في نفسه انبهـارا إيجابيّا بعظمة الخـالق ممّا يقوده إلى التسـليم إليه .. والقـرآن يصـرّح بهـدف تحطيم كبريـاء الإنسـان من وراء ذلك عند ما يقـول : «**وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحـاً إِنَّكَ لَنْ تَخْـرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُـغَ الْجِبالَ طُولاً**» [1].

3 ـ كما تـبيّن الآيـات من خلال القسم في كثـير من موارده حسن التدبير وسلامة الصنع في الخلق ، وبالتـالي دلالة ذلك على هدفية الحيـاة ، هـذه الحقيقة الـتي ينبغي للإنسـان إدراكها ، وتكـييف تفكـيره وسـلوكه وفقها ، فهل يعقل أن تكون مفردات الحياة (الجبل ، والكتـاب ، والجلد الذي يسطّر عليه ، وبيت العبادة ، والسماء ، والبحر) كلّها ذات حكمة وهدف إلّا الإنسان حتى يخوض ويلعب؟! كلّا .. إنّه الآخر خلق لهـدف فلا بد أن يتعـرّف عليه ، ويسـعى لتحقيقه ، وإلّا راح طعمة لنـار جهنّم تقع به ألـوان من العذاب لا يدفعها عنه شيء.

(**وَالطُّورِ**)

قسـما بالجبل وما يمثّله من مظـاهر قـدرة الله وحكمته ، وأيّ جبل هو طور في اللغة ، ولكن أبرز الجبال وأعظمها والـتي يتوجّه لها هـذا القسم بصـورة خاصة هو طور سيناء الـذي تلقّى النـبي موسى (ع) عنـده الـوحي ، والـذي نتقه الله ورفعه على رؤوس بـني إسـرائيل حينما عصـوا الرسـول ، وكـذلك جبـال مكّة الـتي تلقّى فيها نبينا محمد (ص) الوحي عند غار حراء ، فذكر الطور إذن يـذكّر المؤمـنين بآيـات وجـوانب كثـيرة من قصة رسـالة إلهية عظيمة .. لهذا نجد ذكره يقترن بذكر الكتاب الذي

---

(1) الإسراء / (37).

أنـزل على جنباته ، لـذلك يقسم الـربّ مباشـرة بالكتـاب فيقول :

(**وَكِتابٍ مَسْطُورٍ**)

وهـــذا التلازم نجـــده في دعـــاء لفاطمة عن أبيها (صلوات الله عليهما وآلهمـا) فيه : «الحمد لله الـذي خلق النور ، وأنـزل النـور على الطـور في (**كِتـابٍ مَسْـطُورٍ ، فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ**) ، بقدر مقدور ، على نبيّ محبور» [1].

ولأنّ الكتاب بذاته لا يتم به النفع مهما بلغ من الكمال إذا كان معطّلا ومطويّا جـاء القسم به حـال كونه منشـورا يرى ما فيه من الآيات.

(**فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ**)

والرق هو الجلد الرفيق اللامع ، يقال ترقـرق الشـيء إذا لمع ، وهو أفضل ما يكتب عليه من الجلد.

ثم يقسم الله بالبيت الـذي يعمر بالعبـادة كما يريـدها أو بالبناء فيقول :

(**وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ**)

ومن أبرز تجلّيات هذه الآية بيت العصمة والنبوّة الذي قال عنه تعالى : «**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَـعَ وَيُـذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصـالِ* رِجـالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجـارَةٌ وَلا بَيْـعٌ عَنْ ذِكْـرِ اللـهِ وَإِقـامِ الصَّـلاةِ وَإِيتـاءِ الزَّكـاةِ يَخـافُونَ يَوْمـاً تَتَقَلَّبُ فِيـهِ الْقُلُـوبُ وَالْأَبْصـارُ**» [2] والـذي قـال : «**إِنَّما يُرِيـدُ اللـهُ لِيُـذْهِبَ عَنْكُمُ الـرِّجْسَ أَهْـلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِـيراً**» [3]

وهكذا بيوت العلم والعبادة ، وأبرزها الكعبة

---

(1) نور الثقلين / ج (5) ص (136).

(2) النور / (36 ـ 37).

(3) الأحزاب / (33).

المطهّــرة ، وقيل انّه بيت في الســماء ، ولا تنــاقض بين القـولين ، فالكعبة هي تجـلّ دنيـوي ظـاهر لـذلك الـبيت ، وانعكاس له في الأرض.

روي عن الامام الباقر ـ عليه السلام ـ أنّه قـال : «**إنّ الله وضع تحت العــرش أربع أســاطين ، وســمّاهنّ الضـراح ، وهو (الـبيت) المعمـور ، وقـال للملائكة : طوفوا به ، ثم بعث ملائكته فقال : ابنوا في الأرض بيتا بمثاله وقـــدره ، وأمر في الأرض أن يطوفـــوا بالبيت**» [1].

وفي رواية أخــرى عن النــبي (ص) قــال : «**الــبيت المعمور الذي في السماء الـدنيا يقـال له الضـراح ، وهو بفنــاء الـبيت الحـرام لو سـقط لسـقط عليه ، يدخله كلّ يوم ألف ملك لا يعودون فيه أبدا**» [2].

وفي رواية عن أبي عبد الله (ع) في حـديث المعـراج قـال : «**فلمّا فـرغ مناجاته ردّ الى الـبيت المعمـور ، وهو في السماء السابعة بحذاء الكعبة**» [3].

ويضيف القرآن قسما آخرا فيقول :

(**وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ**)

فما هو السقف ، وما هي دلالته؟

قد تصدق هذه الكلمة على سقف البيت أو المسجد ، إلّا أنّ أظهر المصاديق والذي وردت فيه الأدلّة هو السماء ، قال تعالى :

---

(1) نور الثقلين / ج (5) ـ ص (136).

(2) المصدر.

(3) المصدر.

«**وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ**» [1] وعن الصادق (ع) : «فخلق السماء سقفا مرفوعا ولولا ذلك لأظلم على خلقه ، بقربها ، ولا حرقتهم الشمس بدؤبها وحرارتها» [2] وقد أيّد صاحب المجمع (ر ض) ذلك عن علي (ع) [3] ، وفي السقف دلالة على السلام والأمن.

وقد يكون من المصاديق الظاهرة والقريبة للكلمة طبقة الغلاف الجوي المحيطة بالأرض ، حيث تصدّ النيازك والشهب عن الوصول الى الأرض ، كما تمتصّ وتحجب كميّات من الوحدات الحرارية والضوئية الساقطة على الأرض من الشمس وغيرها ، والتي من شأنها لو سقطت بكلّها أن تضر بالحياة عليها.

(**وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ**)

قيل : يسجر يوم القيامة [4] ، يدلّ عليه قوله تعالى : «**وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ**» [5] أي صيّرت محمية كالنار والتنّور ، ويبدو لي أنّ المسجور الممتلئ والمتلاطم الموج ، وهكذا في المنجد قال : سجّر التنّور : ملأه وقودا وأحماه ، والماء النهر ملأه ، والبحر فاض ، وسجّر البحر هاج وارتفعت أمواجه [6].

والعلاقة بين هذه الأشياء التي أقسم بها الربّ قد تكون علاقة المعنى بالمادة ، والمدنية المادية بحضارة القيم ، فلو أخذنا ريشة ، وحاولنا رسم صورة أو تصوّر عن مجموع ما ذكر لكان التالي : جبال عمران مدني السماء البحار (ذات الأثر

---

(1) الأنبياء / (32).

(2) نور الثقلين / ج (5) ـ ص (138).

(3) مجمع البيان / ج (9) ـ ص (163).

(4) نور الثقلين / ج (5) ـ ص (138) عن تفسير علي بن إبراهيم.

(5) التكوير / (6).

(6) المنجد / باب سجر.

الكبـير في تحضّـر الشـعوب) ذلك المجتمع الـذي تحكمه رسـالة الله (الكتـاب) ، وهـذه هي معـالم الحضـارة الأساسية.

[7 ـ 8] ومن الغلط أن يعتمد الإنسان على نعم الله ، ويسـخّرها دون أن يحسب حسـابا للعـذاب فيضـلّ أو يتعاطاها بعيـدا عن بصيرة الايمـان ، إنّما ينبغي أن يكـون من العقلاء ، «**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هـذا بـاطِلاً سُـبْحانَكَ فَقِنا عَـذابَ النَّارِ**» ، وهكذا من التعرّف على هدفية كلّ شيء حوله يهتـدي إلى هدفه في الحيـاة فيسـعى له ، ومن الشـهود الـذي يـراه ويتحسسه ينفذ ببصـيرته إلى الإيمـان بـالغيب .. ومن هنا تكون العلاقة واضحة ووثيقة بين ما تقدّم من الآيات وهـذا التأكيد على العذاب.

(**إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ**)

ويبدو أنّ المقصود بالعـذاب هو المعـنى الشـامل كما في الـدنيا وما في الآخـرة يـدل عليه قوله في آخر هـذه السـورة : «**وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُـوا عَـذاباً دُونَ ذلِـكَ وَلكِنَّ أَكْثَـرَهُمْ لا يَعْلَمُـونَ**» ذلك أنّ عـذاب الـدنيا نفحة من عذاب الآخرة ، ودليل عليه ، ونذير ملموس من نذره.

والوقوع هنا ليس بمعنى الحدوث ، بل بمعنى التحقّق والواقعية ، فكما أنّ الجبـال والكتب والـبيت والسـماء والبحـار كلّها حقـائق لا يشك الإنسـان في وجودها ، فـإنّ عذاب الله هو الآخر واقع حق ، يـراه المخلصـون بـاليقين وبالآيات والإشارات الدالّة عليه في الدنيا ، فيعملـون على تجنّبه ، ويقيهم الله منه «**وَوَقـاهُمْ رَبُّهُمْ عَـذابَ الْجَحِيمِ**» [1] ، بينما يعمى عنه الآخرون ، فيتخذون الحياة خوضا ولعبا ، فيقعون في

---

(1) الطور / (18).

العـذاب دنيا وآخـرة ، ولا يكتشـفون هـذه الحقيقة الـتي ذهلـوا عنها إلا عند المـوت «**فَكَشَـفْنا عَنْـكَ غِطـاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**» [1].

إنّ السعي من قبل الإنسان لتصحيح مسـيرته والعمل الصـالح يكـون مجـديا قبل تورّطه في النتـائج العملية لأخطائه ، أمّا إذا حـلّ به العـذاب فلن يجد وسـيلة للوقاية عنه ، وبالذات إذا كان عذابا من الله.

(**ما لَهُ مِنْ دافِعٍ**)

[9 ـ 10] ومـاذا عسى أن تبلغ قـدرة هـذا الإنسـان الضـعيف والمحـدود حـتى يقـدر على تحـدّي الله ودفع عذابـه؟ أم يحسب أنّه عـذاب وغضب يصـدر عن إنسـان مثله حـتى يكـون ردّه ممكنـا؟ كلّا .. إنّه من الرهبة والعظمة بمكـان تمـور به السـماء مـورا على سـعتها وسـمكها الـذي لا تصل إليه عقولنا ، وتسـير الجبـال المتأصّلة في الأرض عن مواقعها.

(**يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً**)

أي تتحرك بسرعة هائلة ، ويتداخل بعضـها في بعض ، كما يتداخل مـاء البحر الهـائج في بعضه ، إلّا أن المـور هو الحركة السريعة من دون ضوضاء.

(**وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً**)

وبالتدبّر في القرآن نخلص الى أنّ للجبال يوم القيامة ثلاث حالات عبر مراحل ثلاث متتاليات أيضا ، وهي :

الأولى : الحركة من مكانها والسـير ، كما في هـذه الآية ، وفي قوله تعالى :

---

(1) ق / (22).

(**وَإِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ**) [1].

الثانية : تحوّلها الى جزئيات وذرّات صغيرة يقول تعالى : (**وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ**) [2] ، (**وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلاً**) [3].

الثالثة : وأخيرا تتلاشى ، قال تعالى : (**وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً**) [4] ، وقال حاكيا التتالي في هذه المراحل : (**وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً**) [5] ، ويبدو أنّ الجاذبية تنعدم يوم القيامة فتفقد الأجسام وزنها ، وحيث تقع في الفراغ من الجاذبية تتفكّك جزيئاتها فتصير أجساما وذرأت صغيرة ثم تتلاشى وتضحى كالسراب.

[11] وحين تواجه النفس البشرية حقائق عظيمة تثقل عليها تتهرّب منها بالتكذيب بها زاعمة أنّ ذلك يجديها نفعا ، ويوقفها القرآن أنّ التكذيب ليس لا يغني عنها شيئا ، بل هو بذاته يستدرج عذابا عظيما ، فلا فرار إلّا إلى الله والتسليم للحقائق.

(**فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**)

وبما أنّ المكذّبين يعتمدون على قيم وعلاقات مادية ، يزعمون أنّها تنفعهم شيئا عند ما يكذّبون بالحقائق ، فقد نسفها نسفا ، وبيّن أنّ النظام الكوني على عظمته لا يستقرّ يوم القيامة فكيف بهذه العلاقات والقيم؟

---

(1) التكوير / (3).
(2) القارعة / (5).
(3) المزمل / (14).
(4) طه / (105).
(5) النبأ / (20).

[12] ويسقط المكذّبون من حسابهم حقيقة الجزاء ، فلا يشعرون بالمسؤولية ، ممّا يجعل حياتهم عبثية ، بعيدة عن الضوابط والكوابح ، هائجة في غمرات اللهو واللعب.

(**الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ**)

وهذا التعريف لشخصية المكذّبين يهدينا الى حقيقـتين هامتين :

الأولى : إنّ المكذّب ليس الذي يقول ببطلان الرسالة الاسلامية وحسب ، بل هو كلّ إنسان لا يتحمّل المسؤولية في الحياة.

الثانية : إنّ المكذّبين إنّما يكـذّبون بالرسـالة من أجل التهـرّب من تحمّل المسـؤولية ، أو ليست الرسـالة تـدعو الى الجدّ والجهاد والإنفاق و.. و.. ، إذن فليكفروا بها لكي لا يتحمّلوا شيئا من ذلك! ولكن أين المفرّ من عذاب الله؟

[13] ولأنّ الحديث عن هؤلاء الفريق من الناس فـإنّ جرس الخطاب يأتي عنيفا وغليظا.

(**يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا**)

والـدعّ ربما يكـون الـدفع بعنف وجفـوة وتكـرار ، وقد يؤيّده قوله تعالى : (**أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالـدِّينِ* فَـذلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ**) [1] ، ولعلّ احتمال شمول كلمة «الدع» لمعـنى التكـرار يـأتي نصّـا من وجـود المفعـول المطلق الجنس لا المفرد ، فلم يقل الله : ويدعّون دعّة ، إنّما قال «دعّا» ، ولعلّ المكذّبين يحاولون يومئذ الخلاص من جهنم لعظيم عـــذابها ، فلا يتقـــدّمون إليها ، فيـــدفعون نحوها مكرهين المرة بعد

---

(1) الماعون / (1 ـ 2).

الأخرى.

[14] وعند ما يوقفون عليها يأتيهم الخطاب :

(**هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ**)

وهي جزء من تكذيبهم العام للحقائق الـتي جـاءت بها الرسالة.

[15] وهناك حيث يرون جهنم ويصلون بنارها يسألون :

(**أَفَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ**)

إنّ الحقـائق الغيبية الـتي يتحـدّث عنها الـوحي الالهي ظاهرة كظهور الحقائق الشاخصة أمام الإنســان ، بل هي في بعضــها أشــدّ تجلّيا ووضــوحا ، ولكنّ بصــيرة البشر محجوبة بالغفلة والشهوة ، وقلبه محاط بالجحود والكـبر ، فتراه لا يصدّق بها ، ويفسّر آياتها وعلائمها بما لها من قوة التأثير عليه بأنّها ضـرب من السـحر ، عجبا لهـذا الإنسـان الخصم اللدود كيف يتعالى على الحقائق وينكرها ، ويزعم أنّ آثارها على نفسه ليست ســوى الخيـال المركّز الـذي يسمّى بالسـحر ، فهل يسـتطيع أن يفسّـر نـار جهنم أيضا بأنها سحر؟

[16] إنّ النـار حـقّ جلي يـراه المتقـون في كـلّ إثم ومعصـية ، فالكـذب والغش والنفـاق والخيانة و.. و.. كـلّ ذلك في بصـيرتهم قطعـات من نـار جهنم ، لهـذا تجـدهم يتجنّبــون الموبقــات اتقــاء جهنم ، أمّا المكــذّبون فهم محجوبون عن هذه الحقيقة ، لذلك تجـدهم يتخبّطـون في النــار من حيث لا يشــعرون ، بــاقترافهم الــذنوب الــتي تتجسد غــدا نــارا حامية ، وتتوضح لهم هــذه الحقيقة في الآخــرة عند ما تتحــوّل جــرائمهم الى تلال من الأفــاعي والعقارب.

(**اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)

الآخرة بعكس الدنيا تماما ، فلا الصبر والاحتمال ينفع ثمّة ولا التحدي والمواجهة ، بينما يتألّم المرء في الدنيا فيتحمّل الألم بالصبر فيجديه سكينة ، كما يستمطر بذلك رحمة الله ، وقد يتحدّى الألم بعمل مضاد فيرتفع ويخفّف عنه ، أمّا الآخرة فإنّ الاستسلام للعذاب لا يخفّف عنه ، كما أنّ مواجهته لا تجديه نفعا ، ذلك أنّ العذاب الذي يصلاه المكذّبون في الآخرة هو بالضبط أعمالهم الدنيوية ، وهناك حساب ولا عمل.

بلى. يستطيع الإنسان أن يتقي النار في الدنيا باجتناب السيئات وبالتوبة منها ، ومتى ما عرف الإنسان بأنّه هو الذي يحدّد مستقبله بنفسه ترك الاسترسال مع الظروف والخوض في اللعب ، ونظر إلى الحياة نظرة جادّة ، وانطلق نحو تحمّل المسؤولية بثبات.

[17] وهذا الايمان نجده عند المتقين.

(**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ**)

إنّ الحياة الدنيا (دار الابتلاء) تشبه الى حدّ بعيد حقلا مزروعا بالألغام ، والفرق بين المتقين فيها وغيرهم أنّهم آمنوا بهذه الواقعية فاتبعوا هدى ربّهم ، وساروا ضمن الخط المرسوم لهم ، فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم ، ولقّاهم نظرة وسرورا ، بينما كذّب الآخرون بذلك فصاروا طعمة للعذاب ، ووقودا لجهنم.

[18] إنّ الله خلق الناس ليرحمهم ، كما صرّح بذلك في قوله : (**إِلَّا مَنْ رَحِمَ**

رَبُّكَ وَلِـذلِكَ خَلَقَهُمْ) [1] ، وما على الإنسـان لكي ينـال الرحمة إلّا أن يتقي ما يسخط الله فهنالك تشمله رحمات الله.

(**فاكِهِينَ بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ**)

مهما بلغ الإنسان في الدنيا من الملك والغـنى فإنّه لا يحسّ بتمـــام الراحة ، إمّا لنقص في النعم أو لنقص فيه ، فلذّته محـدودة ، وهي تتعب صـاحبها مهما أوتي من ثـراء عـريض ، وآخر ما قرأنـاه في ذلك أنّ واحـدا من أصـحاب البلايين دفع أخيرا مبلغ ربع مليون دولار وسيارة ثمنا لقتله بعد فشل في عـدة محـاولات انتحـار ، ففعل الأجـير ذلك مأثوما. هكذا لا تتم نعم الدنيا لأحد.

بينما في الجنة يبلغ المؤمن غاية اللذة ، فهو لا يعـاني من نقص ينغّص عليه ، كما أنّ الله يرزقه حالة الرضى بنعمته ، فلا يحس بالشبع ، إنّما يستلذّ ويستلذّ بالنعيم أبدا وبلا ملل.

قـال الامـام الصـادق (ع) عن رسـول الله (ص) مبيّنا ثـواب المـؤمن : فـيرفع رأسه فـإذا هو بزوجته قد كـادت يـــذهب نورها نـــور عينيه ، قــــال : فتناديه : قد آن لنا أن تكون لنا منك دولة ، قال : فيقـول لها : ومن أنت؟ قـال : فتقول : أنا ممّن ذكر الله في القـــرآن : (**لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَـدَيْنا مَزِيـدٌ**) ، فيجامعها في قـوّة مائة شـاب ، ويعانقها سبعين سنة من أعمار الأوّلين ، وما يـدري أينظر إلى وجهها أم إلى خلفها أم إلى ساقها [2] وفي حديث آخر : «**فيعتنقان مقدار خمسمائة عام من أعـوام الـدنيا لا يملّها ولا تملّه**» [3].

---

(1) هود / (111).

(2) موسوعة بحار الأنوار / ج (8) ـ ص (214).

(3) المصدر / ص (159).

وقـال الامـام الصـادق (ع) : «**إنّ الرجل في الجنة يبقى على مائدته أيّـــام الــــدنيا ، ويأكل في أكلة واحدة بمقدار أكله في الدنيا**» [1].

ومن أعظم النعم الـــتي يبلغها المتقــــون هي نعمة الشكر لله الـتي تزيـدهم نعيما إلى نعيمهم (**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**) ، ويكـون الاحسـاس بـالنعيم وبالتـالي الشـكر أعمق عند الاطّلاع على أهل الجحيم بين ألـــــــوان من العذاب ممّا يذكّرهم بلذة النجاة منها ، وهذا يوضح العلاقة الوثيقة بين ذكر الله للتفكّه بـالنعيم ، وذكر نجـاة المتقين من النار.

(**وَوَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ**)

[19] كما تتميّز الجنة عن الــدنيا بإباحة نعيمها جميعا لأصـحابها ، فلا حـرام فيها ، ولا مكـروه ، ولا تكليف ، ولا مسئولية ، إنّما يأكلون ويشربون ما يشاءون.

(**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً**)

ولا يكون الأكل أو الشرب هنيئا إلّا إذا كان ذاته طيّبا ، ومذاقه لذيذا ، وكان نافعا لا يعقبه ضـرر ، ولا يتصل به ما يسـلب صـاحبه الراحة أو الاطمئنـان أو المتعة ، ولكن لا طريق إلى تلك النعم إلّا بالعمل الصالح ، لذلك يترافق مع دعـوة المتقين الى النعيم «**كُلُـوا وَاشْـرَبُوا**» بيـان لهـذه الحقيقة :

(**بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)

هــذا هو الســبب الوحيد الى الجنة ، فمن يتقي الله يقيه عـذاب الجحيم. وعند المقارنة بين جـزاء أهل النـار وبين هذه الآية نرى القرآن يعبّر هناك عن سبب

---

(1) نور الثقلين / ج (4) ـ ص (614).

العذاب بقوله : (**ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**) ، بينما يعبّر عن سـبب الرحمة هنا بقوله : (**بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُـــونَ**) بإضـــافة كلمة الباء الدالة على البعضية ، مما يدلّ بـأنّ الجـزاء هنـاك هو ذات أعمـــالهم ومســـاو لها نوعا وكمّا ، بينما ثـــواب الله لأصحاب الجنة مضـاعف ، وإنّما عملهم سـبب ووسـيلة له فقط.

[20] (**مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ**)

قـال الـراغب في مفرداته : والســرير الـذي يجلس عليه من الســـرور ، إذ كـــان ذلك لأولي النعمة ، وجمعه أسـرة وسـرر ، وسـرير الميت تشـبيها به في الصـورة ، وللتفـاؤل بالسـرور الـذي يلحق الميت برجوعه إلى جـوار الله تعالى وخلاصه من سـجنه (يعـني الـدنيا) [1] ، وسـرر المتقين في الجنة تكـون مرتبة في نظـام بحيث يتقـابلون فيها لا يســتدبر أحــدهم الآخر ، ويعمّق ذلك النظــام حالة السرور ، لأنّ النفس تهوى الترتيب.

(**وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ**)

عند التعمّق في هـذه الآية والـتي سـبقتها نجد علاقة بين النعم الثلاث التي يذكرها القرآن جزاء للمتقين ، فأولا ذكر الاباحة في الأكل والشرب كجـزاء لالـتزامهم بـالحلال والحــرام في الــدنيا ، وكبحهم لشــهوات البطن ، ثم ذكر الاتكـاء على السـرر مما يرمز الى الراحة جــزاء تـركهم الراحة وتحمّلهم أعباء المسؤولية في الدنيا ، وأخيرا يـذكر نعمة الحور العين جزاء وفاقا لتجنّبهم الحــرام من الجنس ، وهذا التدبر يتصل بعمق مع كلمة المتقين.

[21] ولأنّ المتقي كـأيّ إنســان آخر يتطلّع إلى خـير أسرته ، يعرج القرآن ليعالج

---

(1) مفردات الراغب / ص (234).

هذه المسألة علاجا مبدئيّا ، وذلك بإعطاء المؤمنين وعدا بإلحاق ذريتهم بهم في الجنة ليتمّ لهم السرور ، ولكن بشرط أن يتبعوهم بإيمان.

(**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**)

وهكذا الإسلام لا يرى وسيلة الى الجنة سوى العمل الصالح ، فلا يتم التحاق الذرية لمجرد الانتساب ، بل بالاتباع الواعي لمسيرة الجيل المتقدّم «بإيمان» ، أمّا مجرّد الانتماء النسبي أو حتى الاتباع الأعمى لا يغني شيئا حسب منهج القرآن ، بغضّ النظر عن كون العمل صالحا أو فاسدا.

إنّ المنطلق في ممارسة العمل الصالح ينبغي أن يكون منطلقا سليما. أترى لو مارس أحد الطقوس الدينية بغير نية التقرب ، بل لأنّه ولد في أسرة مسلمة أو يعيش في مجتمع مسلم ويتماشى مع المحيط ، أو خوفا من سلطان ، أو لأهداف مصلحية ، فهل يكون عمله مقبولا عند الله؟

إنّ الانتماء الحقيقي للصالحين ليس بالنسب والحسب ، ولا بالانضمام الى تجمّعهم ، إنّما بالعمل الخالص لوجه الله.

يقول تعالى : (**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ**) [1] ، والقرآن يضرب أمثلة لهذه الحقيقة من تاريخ أقرب العباد إليه وهم الأنبياء ، يقول تعالى : (**قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ**) ـ وأغلظ له الخطاب قائلا ـ (**فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ**) [2] وقال : (**ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ**

---

(1) العنكبوت / (9).
(2) هود / (46).

الـدَّاخِلِينَ* وَضَـرَبَ اللـهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُـوا امْـرَأَتَ فِرْعَـوْنَ إِذْ قـالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْـدَكَ بَيْتـاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَـــوْنَ وَعَمَلِـــهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَـــوْمِ الظَّالِمِينَ) [1].

بلى. إنّ الانتمـاء النسـبي إلى المقـرّبين والصـالحين يزيد ذريتهم شرفا ، ويضاعف لهم الجـزاء ، إكراما لآبـائهم ، وإكمالا للنعم عليهم ، فلعلّ واحدا من الذرية لا ينهض به عمله ليبلغ درجة آبائه هنالك قد تدركه شـــفاعتهم فيلتحق بهم بدعائهم ليجتمع شمل الاسرة في مقام أمين ، ولعـلّ تتمة الآية تدلّ على ذلك حين يقول ربّنا :

(**وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ**)

فما ينقص الله من أعمـــال الأوّلين شـــيئا حين يلحق الآخرين بهم إكراما لهم.

(**كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ**)

وكــــون الإنســــان مرهــــون بما كسب دليل على أنّ شـفاعة الصـالحين لـذراريهم الـتي تهـدي إليها هـذه الآية ليست بعيدة عن سنّة الجـزاء ، فهم إن لم يتبعـوا آبـاءهم لم يدخلوا معهم الجنة.

ولعلّنا نجد انعكاسا وتفسـيرا لهـذه الآية في الحـديث المـروي عن الرسـول (ص) إذ قـال : «**من سـنّ سـنّة حسنة عمل بها من بعده كان له أجره ومثل أجورهم ، من غـير أن ينقص من أجـورهم شـيئا**» [2] فالآبـاء يضاعف لهم الجزاء لأنّهم ساهموا في هدايتهم الى ربّهم.

(1) التحريم / (10 ـ 11).
(2) ميزان الحكمة / ج (4) ـ ص (566) نقلا عن كنز العمّال.

ومن هذه الآية نهتـدي إلى أنّ القـرآن يعـارض صـراع الأجيال ، بل ويسعى لامتصـاص هـذا الصـراع وتحويله الى صلة الحب والتعاون والتكامل ، فهو يرسم للجيل السـابق شـعارا تجـاه اللاحقين هو قوله تعـالى : (**وَالَّذِينَ تَبَـوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُـؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِـهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُـونَ**) [1] ، كما يرسم شـعارا للجيل الصاعد تجاه السابقين فيقول : (**وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُــونَ رَبَّنَا اغْفِــرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَــبَقُونا بِالْإِيمـانِ وَلا تَجْعَـلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُـوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ**) [2].

والآن دعنا نقرأ شيئا من الأخبـار الـواردة في تفسـير هذه الآية الكريمة.

عن الامام الصادق (ع) في قوله عـزّ وجـلّ : «**الآية**» قال : «**قصرت الأبناء عن عمل الآبـاء فـألحق الأبنـاء بالآباء لتقرّ بذلك أعينهم**» [3].

وعن أبي بصـير قـال : قـال أبو عبد الله (ع) : «**إذا مـات الطفل من أطفـال المؤمـنين نـادى منـاد في ملكـوت السـموات والأرض ألا إنّ فلان ابن فلان قد مات ، فإن كان قد مـات والـداه أو أحـدهما أو بعض أهله من المؤمــنين دفع إليه يغــذوه ، وإلّا دفع إلى فاطمة (ع) تغـذوه حـتى يقـدم أبـواه أو أحـدهما أو بعض أهل بيته من المؤمنين فتدفعه إليه**» [4].

[22 ـ 23] ويعود السياق يحدّثنا عن نعيم الجنة.

---

(1) الحشر / (9).
(2) المصدر / (10).
(3) نور الثقلين / ج (5) ـ ص (140).
(4) المصدر / ص (141).

(**وَأَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ**)

وهما معا غــــذاء متكامل ، وهـــذه النعمة لا تنفذ ولا تنقطع عن المتقين ، بل وتصلهم بالشـكل والحجم والنـوع الذي تهواه نفوسهم ، فالعنـان هنـاك مطلق للشـهوة يبلغ الشخص ما يريد وما يتخيّل ، وفي الرواية عن النبي (ص) قال : «فـإذا اشـتهوا الطعـام جـاءهم طيـور بيض يـرفعن أجنحتهنّ فيـــأكلون من أيّ الألـــوان اشـــتهوا ، جلوسا إن شـاؤوا أو متكـئين ، وإن اشـتهوا الفاكهة تسـعّبت (تـدلت واقتربت) إليهم الأغصان فأكلوا من أيّها اشتهوا» [1].

(**يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً**)

قـال الـراغب : والتنـازع والمنازعة : المجاذبة ، ويعبّر بهما عن المخاصـــمة والمجادلة ، قـــال تعـــالى : (**فَـــإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ**) ، وقال : «**فَتَنـــازَعُوا أَمْـــرَهُمْ بَيْنَهُمْ**» [2] ، أمّا المؤمنـــون فلا مخاصـــمة بينهم. إنّهم يمرحـــون مع بعضـــهم ، ويتبـــادلون كؤوس المحبة.

والكـــأس الـــتي يشـــربونها ليست مســـكرة تســـلب عقولهم فيلغون ، ولا هي حرام عند الله.

(**لا لَغْوٌ فِيها وَلا تَأْثِيمٌ**)

[24] وفي الأثناء ترى الغلمـان الـذين ملّكهم الله في طواف دائم عليهم ، يخدمونهم ويسرّون نـاظرهم ، جـزاء لاجتهادهم في طاعة الله وخدمة الناس في دار الدنيا.

---

(1) بح / ج (8) ص (214).

(2) مفردات الراغب / ص (509).

(**وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ**)

ويشـير القـرآن هنا إلى صـفتين مهمـتين (يريـدهما المخـدوم) في الغلام ، إحـداهما الطاعة ، وغلمـان الجنّة للمتقين يطيعونهم في كلّ شيء ، ولا يكونـون عليهم فهم «لهم» دائما ، والأخرى الشمائل الحسـنة (الجمـال) وذلك مما تميل إليه فطـرة الإنسـان ، ويـرتجى به الخـير عند صـاحبه ، قـال رسـول الله (ص) : «اطلبـوا الخـير عند حسان الوجوه فإنّ فعالهم أحرى أن تكون حسنا» [1] ، ولا ريب أنّ الجمـال وحـده ليس ذا اعتبـار في الإسـلام ، إنّما إذا اجتمع مع طهارة القلب وحسن السـيرة ، قـال الامـام علي (ع) : «لا ينفع الحسن بغير نجابة» [2] ، وقد جمع الله الاثنين في غلمان المتقين.

[25 ـ 26] ويتعمّق إحسـاس أهل الجنة بنعيمها ولذّته عند تذكّر نعمة النجاة من النار.

(**وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ**)

عن حالهم في الـدنيا ، وصـفة التشـاور والتفاعل بين أفراد المجتمع المؤمن من الصـفات الحضـارية ، وهي في الآخرة امتداد لما كانوا عليه في الدنيا ، فهم مقبلون على بعضهم ، وعلى العكس من ذلك فإنّ التمزّق والتـدابر من معالم التخلّف عند الأمم والمجتمعات.

(**قالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ**)

إنّ خشية الله هي التي تبعد الإنسان عن حياة الهـزل واللعب إلى حياة الجدّ

(1) بح / ج (74) ص (187).
(2) غرر الحكم.

والســـعي والنصب ، وتـــزرع في قلبه التقـــوى ، ومن ثمّ تدفعه نحو تنفيذ الحق بعــزم راســخ. إنّها القــوّة المحرّكة التي تدفعه نحو التطبيق المستمر والمتقن لمناهج الـوحي ، وبما أنّ الخــوف من القــوى الأخــرى ، والغــرور بالـذّات وبالعمل ، وحبّ الراحة ، وضــغط الشــهوة ، وما أشــبه ، كلّها قيود تكبّل الإنسـان عن السـعي والتسـليم لله ، فـإنّ خشية الله تحرّر الإنسان من كلّ تلك القيود.

وربما تقابل كلمة المشـــفقين في هـــذه الآية كلمة المسرور الـتي جـاءت في قوله تعـالى : (**وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَـهُ وَراءَ ظَهْـرِهِ* فَسَـوْفَ يَـدْعُوا ثُبُـوراً* وَيَصْـلى سَـعِيراً* إِنَّهُ كـانَ فِي أَهْلِـهِ مَسْـرُوراً**) [1] والـتي تعـني الفرح والاختيال ، والله لا يحبّ المختـال ولا الفــرح ، ذلك أنّ هـذا النـوع من السـرور (عـدم الجد والمبـالاة) يضـلّ سـعي الإنســان أو يعطّله تماما عن الكــدح إلى ربّه ، بل ويدفعه نحو أهداف تافهة أو فاسدة.

[27] وإشـفاق المتقين ليس لأنّهم لا يعملـون بطاعة الله ، وإنّما لايمانهم الراسخ بـأنّ العمل وحـده لا يـدخلهم الجنة ، ولا يخلّصــهم من العــذاب ، إلّا بفضل الله ، وتتأكّد لهم هــذه الحقيقة عند الحســاب ، وحينما يصــيرون إلى النعيم.

(**فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنا**)

فأدخلنا الجنة.

(**وَوَقانا عَذابَ السَّمُوم**)

وهو الحرّ الشديد الذي يلفح الوجوه في النار.

[28] وما كـان المتقـون يغفلـون دور الـدعاء الـذي يزكّي نفوسهم ، ويرفع

(1) الإنشقاق / (10 ـ 13).

أعمالهم ، ويستنزل فضل الله ورحمته.
(**إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ**)
ولم نكن نعتمد على عملنا وحـــــده ، إنّما نتوكّل على الله ، ونسأله القبول والرحمة.
(**إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ**)
والبرّ : فاعل الخير والإحسان.

**فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ (29) أَمْ
يَقُولُـونَ شـاعِرٌ نَتَـرَبَّصُ بِـهِ رَيْبَ الْمَنُـونِ (30) قُـلْ
تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31) أَمْ تَـأْمُرُهُمْ
أَحْلامُهُمْ بِهذا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طـاغُونَ (32) أَمْ يَقُولُـونَ
تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُـونَ (33) فَلْيَـأْتُوا بِحَـدِيثٍ مِثْلِـهِ إِنْ
كانُوا صادِقِينَ (34) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْـرِ شَـيْءٍ أَمْ هُمُ
الْخالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُـوا السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ بَـلْ لا
يُوقِنُـــونَ (36) أَمْ عِنْـــدَهُمْ خَـــزائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ
الْمُصَــيْطِرُونَ (37) أَمْ لَهُمْ سُــلَّمٌ يَسْــتَمِعُونَ فِيــهِ
فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (38) أَمْ لَـهُ الْبَنـاتُ
وَلَكُمُ الْبَنُونَ (39)**

---

30 [نتربّص] : ننتظر.
33 [تقوّله] : اختلقه.

أَمْ تَسْـئَلُهُمْ أَجْـراً فَهُمْ مِنْ مَغْـرَمٍ مُثْقَلُـونَ (40) أَمْ
عِنْـدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُـونَ (41) أَمْ يُرِيـدُونَ كَيْـداً
فَالَّذِينَ كَفَـرُوا هُمُ الْمَكِيـدُونَ (42) أَمْ لَهُمْ إِلـهٌ غَيْـرُ
اللهِ سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (43) وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً
مِنَ السَّـماءِ سـاقِطاً يَقُولُـوا سَـحابٌ مَرْكُـومٌ (44)
فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْـعَقُونَ (45)
يَـوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْـدُهُمْ شَـيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَـرُونَ (
46) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذاباً دُونَ ذلِكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لا يَعْلَمُـــونَ (47) وَاصْـــبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ
وَإِدْبارَ النُّجُومِ (49))

---

40 [مغرم] : التزام غرم.
44 [كسفا] : قطعا.
45 [يصعقون] : يموتون.

سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ

هدى من الآيات :

يعـالج هـذا الـدرس الحجب الـتي منعت الكفّـار عن الايمان بالرسالة. إنّهم لم يعرفـوا كيف يمكنهم أن يـبرّروا موقفهم من الوحي ، فقالوا عن الرسـول بأنّه كـاهن ، ثم اتهموه بالجنون ، بل وسمّوه شـاعرا ، ثم أكّـدوا ضـلالتهم بعد ما تبيّن لهم بطلان التهم السابقة وقـالوا بأنّه سـاحر ، ولكنّ الأمر ليس كـــذلك ، إنّما هم طـــاغون لا يريـــدون الايمان بالحق تهرّبا من المسـؤولية فبحثـوا لمـوقفهم عن تـــبرير فلجئـــوا إلى تلك التهم الرخيصة ، فمـــوقفهم كما تـبريراتهم إذا ليس بمعقـول ، والجـدال معهم لا ينبغي أن يكـون جـدلا عقليّا ، إنّما ينبغي أن يهـزّ ضـمائرهم ، لـذلك نجد في الآيـات تهديـدا مبطّنا بالعـذاب : «**قُـلْ تَرَبَّصُـوا فَـإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِـينَ**» كما نجد في الآيـات من جهة أخرى إثارة للكفار نحو التفكّر في الخلق من حــولهم ، ليكبحوا جماع الغرور في أنفسهم ، ويخرجـوا من قوقعة الذات إلى الآفاق الواسعة.

إن استشــارة عقل الإنســان نحو التـدبّر في الآفـاق (الطبيعة والقوانين التي

تحكمها) ركيزة أساسية للتربية والتوجيه في نهج القرآن ، ولكنّ ربط هذا التدبر بما يجري داخل النفس البشـرية هو المهم في المنهج ، لذلك يبدو واضحا في كثـير من الآيـات أنّ القرآن يريد بناء جسر بين الآفاق حـتى أبعد مـدى فيها وبين النفس حتى أعمق غور منها.

بينات من الآيات :

[29] تزدحم التهم والاشاعات ضد كلّ مصلح رسـالي بمجـرّد أن يرفع راية الإصـلاح ، فـإذا به يـدعى كاهنا أو مجنونا أو عميلا يتصل بجهـات خارجية ، من أجل تحطيمه أو الضغط عليه في اتجاه التخلّي عن رسالته ، فيجب إذن أن لا يفاجأ أيّ عامل إذا ما تعرّض لذلك في مسيرته ، بل يعتبره أمرا طبيعيّا ، ويسـتمر في حركته حـتى يبلغ إحـدى الحسـنيين ، متـوكّلا على ربّه ، ومهتـديا بوحيه ، واثقا بنفسه.

ورسولنا الأكرم محمّد بن عبد الله (ص) وهو الأسـوة العظمى لنا ، كـان عرضة لمختلف الـدعايات والتهم ولأنواع شتى من الأذى ، وإذا لم تكن ثقته بربه وبرسـالته وبنفسه ثقة عميقة لم يسـتمر ، ومع ذلك أمـره الله بالاستمرار في دعوته قائلا :

(**فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ**)

وهـذه الآية تنفي عن النـبي (ص) جميع التهم الـتي وجّهت اليه بالتالي :

1 ـ أنّ رسالته تثير دفائن العقول البشرية بالتذكرة.

2 ـ أنّ التذكرة التي جاء بها الرسول ليست من عنده ولا من أحد ، إنّما هي نعمة من الله تصـله عـبر الـوحي ، ومن دونها لا يكون رسولا ولا مذكّرا.

وبهذين الدليلين نهتدي إلى أنّ الرسـول ليس بكـاهن لأنّ الكـاهن هو الـذي يتنبّأ بالمسـتقبل دون أن يسـتثير العقل ، فتراه يصيب مرة ويخطئ مرات ، بينما لا نجد ولا خطأ واحـدا في آيـات الله ، وليس بمجنـون لأنّ ما يصـدر عن المجنـون لا يلتقي مع العقل ، بينما تلتقي الرسـالة معه بكلّ مفرداته دون اسـتثناء ، وهو يعتمد خطّة واضـحة في تحرّكه هي رسالته ، وليس بمجنون ـ حاشا لله ـ لأنّه ينبعث عن منطلقـات إيمانية وعقلية ، وحسـابات علميّة بالغة الدقة نافذة الحكمة.

كما يتميّز النـبي بالشـجاعة والتوكّل والثقة ، بينما المجنون لا يعتمد على شيء ، وليس الرسول بشاعر لأنّه يسـتثير العقل ، بينما يعتمد الشـاعر على إثـارة مشـاعر الإنسـان ، وأداته الخيـال والمبالغة ، وأخـيرا ليس بسـاحر لأنّ الساحر إنّما يلعب بخيال البشر ، ويسحر عيونهم ، ولا يفلح السـاحر حيث أتى ، فهل رأيت سـاحرا يقـود أمّة أو يصـنع تاريخا أو حـتى يجمع ثـروة طائلة أو يكتسب جاها عريضـا؟ كلّا .. لأنّ السـاحر لا يعيش حقـائق الحيـاة حـتى يسـخّرها لمصـلحته أو لقضـيّته بل يتقلّب في سـحره مع التمنّيات والظنـون ، هـذا أولا ، وثانيا تلتقي التهم الموجهة إلى النبي (ص) في كون المـذكورين يعتمـدون على قـوى ليست مشروعة في نظر العرب أنفسهم ، فالكاهن يعتمد على اتصاله بالشياطين أو على مجرّد الحدس ، والمجنون هو الذي سحرته الجن فهي تـوحي له بتصـرّفاته وأقواله ، والذي اعترته الآلهة بسـوء كما قـالوا من قبل لهـود (ع) : «**إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ**» والشاعر هو الـذي يحس بما لا يحس به الآخـرون ، ويتلقّى الإلهـام من الآلهة أو قوى أخرى كالجن ، والسـاحر هو الـذي يسـتغني بالشـياطين والعفـاريت أو يسـخّرهما ، أمّا الرسـول (ص) فهو يتصل عبر الوحي بالله خالق الخلق ويعتمد عليه.

والقرآن إنّما يثبت هذه التهم ليعكس للرسـاليين عـبر التاريخ طبيعة المسيرة التي ينتمون إليها من جانب ، ومن جانب آخر لبيان اعتراف الأعداء بجوانب من

شخصـية الرسـول (ص) ، فهم بهـذه الاتهامـات يعـترفون ضــمنيّا بقوته وتـأثيره في النــاس ، فتهمة الكهانة تعكس صـدقه ، وتهمة الجنـون تعكس شـجاعته ، وتهمة الشـعر تعكس بلاغته وقوته على الاقنــاع ، وتهمة الســحر تعكس تـــأثيره العملي في المجتمع ، إلّا أنّهم يســـعون بهـــذه التسميات إلى النيل من شخصـيته ، وتحـوير الحقيقة لكي لا يتأثّر به أحد.

[30 ـ 31] إنّ الحــيرة الــتي وقع فيها المشــركون والكفّــار وعــدم ثبــاتهم على تهمة معينة دليل واضح على اتباعهم الظنـون لا العقل في تقـييم رسـالته وشخصـيته ، ممّا يــدلّ على أنّه جــاء بحركة جديــدة لم يســتطيعوا لها تفســيرا ولا تــأويلا ، وقد يــدلّل اتهــامهم له بالشــعر بعد الكهانة والجنون ـ مع كون الشـاعر في نظر العـرب أعلى ثقافة من الآخرين ـ على تنازلهم أن الأخريتين الماضيتين.

(**أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ**)

ولكنّ الرسول يختلف عن الشـاعر ، ورسـالته ليست شعرا للأسباب الأساسية التالية

1 ـ إنّ الشــاعر ــ وفي ذلك العصر بالــذات ــ يعبّر تعبيرا بليغا عن الثقافة القائمة ، بينما الرسـالة خارجة عن إطــار الثقافة الفاســدة الواقعية الشــائعة في المجتمع ، والــذي يقـرأ أشـعار العـرب يلاحظ فيها وبوضـوح تعبـيرا صريحا عن الروح القبلية ، وعن الأضـغان والفرقة وسـائر مفردات الثقافة القائمة على الواقع ، كقول الفرزدق :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

أو كقول جرير :

فغضّ الطـــــــرف إنّك من ثقيف فلا كعبا بلغت ولا كلابا

2 ـ أنّ الشعر يعبّر في كثير من الأحيان عن المصالح والأهـــواء الشخصـــية ، بينما الرســـالة كلّها قيم ، وربما تعارضت مع شهوات الإنسان.

3 ـ إنّ الشـعراء عنـدهم ثقافة ولكنّها لا تسـتمر مع الـزمن وعـبر الأجيـال ، أمّا الرسـول فخطه يبقى أبـدا ، والمسـتقبل لرسـالته الـتي لا تبلى ، ولا يتجاوزها تقـدّم البشـــرية ، ولعـــلّ الســـبب في ذلك أنّ الشـــاعر ثقافته مربوطة به تموت عند موته أو بعده بقليل ، بينما الرسالة يرعاها الله ، وليست متصلة بشخص الرسول حتى تـذهب بذهابه ، ولـذلك أمر الله تعـالى نبيّه (ص) بتحـدّي الكفّـار والمراهنة على أنّ المستقبل في صالحه ولرسالته.

(**قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ**)

والتربّص هو الانتظار ، ولكن مع توقّع شيء ما يحدث ، ومنه قوله تعـــالى :

(**لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسائِهِمْ تَـرَبُّصُ أَرْبَعَـةِ أَشْـهُرٍ فَـإِنْ فاؤُ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**) [1]

والكفّـار ينتظـرون نهاية للرسـالة بمـوت النـبي (ص) في أيّ لحظة ، بينما يعلم النـبي أنّ الرسـالة تـزداد على الزمن بهاء وإشراقا.

[32] ثم يأتي القرآن على بيان المنطلقــات الحقيقية للكفر بالرسالة مؤكّدا بأنّ التهم الـتي وجّهوها للرسـالة لا أســاس لها حــتى عند أصــحابها ، بل جــاؤوا بها رغبة عن الحق ، وتهرّبا من المسؤولية.

(**أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا**)

والحلم هو الجانب العملي من العقل ، والحليم الــذي يستخدم عقله في مواقفه

---

(1) البقرة / 226

وأفكـــــــــاره فلا ينطلق في أيّ موقف أو حكم من ردّات الفعل وإثـارة المواقف المضـادة ، والكفّـار كبشر لـديهم منـــــاهج عقلانية ولكنّهم خرجـــــوا عن دائرتها فصـــــاروا يعارضون الرسـول ويتهمونه بالكهانة والجنـون أو بالشـعر والسحر ، ليس لأنّهم وجـدوا ما عنـده بـاطلا ، وإنّما نتيجة اتباع الهوى والطغيان وردود الفعل.

(**أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ**)

و «**أَمْ**» هنا ليست بمعـنى التخيـير وعـدم التأكّد ، بل هي تأكيد لما بعدها ، ولعلّ السبب أنّ الاحتمالات السابقة واضــــــحة البطلان مما يبعث الســـــامع إلى البحث عن الاحتمـال الصـحيح ، ويتسـاءل : إذا لمـاذا يعـارض هـؤلاء الرسالة؟ ويـأتي الجـواب بصـيغة احتمـال ، ولكنّ السـامع يتقبّله رأسا ، فيكون كما لو أنّه هو الذي اكتشف الحقيقة.

ومن عموم هـذه الآية نسـتفيد فكـرة كثـيرا ما يشـير القــــرآن إليها ، وهي أنّ الاحتيـــــاط من العقل ، فينبغي للمـؤمن أن لا يسـتعجل في رفض فكـرة يسـمعها ، بل يفترض إمكـان صـحتها ، ثم يفكّر فيها مليّا ، ويتخذ موقفه منها على ضوء تفكير موضوعيّ دقيق.

وإنّ الـذين رفضـوا الرسـالة لم يعتمـدوا في رفضـهم على العقل بل على الطغيـــان ، لأنّ العقل يقيّد الشـــهوة ويقنّنها ، بينما الطغيان يسيّرها ، بل ويجعلها هي القانون ، ولو أنّهم اتبعوا هـدى عقـولهم لآمنـوا بها ، لأنّها تهـدي إلى العقل كما يهدي العقل إليها.

[33] ومن نتـائج اتبـاعهم الهـوى في تقـييم الرسـالة والنـــبي (ص) اتهـــامهم له بأنّه لا ينطق عن الله ، وأنّ ما عنده ليس رسالة من الرب ، إنّما هي من صنيع فكره. إنّ

عقـولهم تهـدي إلى صـحة ما جـاء به ، ولكنّهم لا يريـدون إلزام أنفسهم بالمسؤولية ، لذلك تراهم يبحثون عن تبرير لعــدم إيمــانهم ، فقــالوا : نحن نــؤمن بعظمة الرســول وبعظمة ما جــاء به ولكنّه من عبقريته ، ولســنا ملــزمين باتباع ما تفتقت عنه عبقريّـات البشر ، إنّما نحن ملزمـون باتبــاع وحي الله وحسب ، وهــذا هو منهج المستشــرقين وكثير من المسيحيين في تقييم الإسلام والرسول الأعظم (ص).

(**أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ**)

[34] ويتحــدّاهم القــرآن بأنّه إذا كــان القــرآن من عبقرية الرسول فهو بشر مثلهم فهل يسـتطيعون صـناعة كلام يشبه القرآن؟

(**فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ**)

وتنكير كلمة «**بِحَدِيثٍ**» يدل على التبعيض ، فالتحـدي إذن واقع على جزء من القـرآن كالسـورة أو الآية ، وتبقى هـذه المعجـزة الالهية الخالـدة تتحـدّى ضـلال البشر عـبر الـزمن وفي كـلّ جيل من الانس والجن ، يقـول تعـالى : (**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَـأْتُوا بِمِثْـلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِـهِ وَلَـوْ كـانَ بَعْضُـهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**) [1]

[35 ـ 36] ومن الحـديث المنطلق من واقع التشـريع ينتقل الســياق إلى الحــديث من واقع الخلق ، فبعد أن أثبت بـأنّ الرسـالة ليست من صـنيع البشر فلا هي كهانة ولا جنــون ولا شــعر ولا مخالفة للعقل ، وأنّ الـدليل على كونها من الله عدم قدرة البشر على المجيء ولو بحـديث واحد يشــبهها ، نجد الســياق هنا ينعطف لاثبــات وجــود الخالق عزّ وجل عبر تساؤلات ثلاث :

الأولى : أن يكونوا (الكفّار وعموم الخلـق) قد خلقـوا من غير خالق.

---

(1) الإسراء / 88.

الثانية : أن يكونوا هم الذين خلقوا أنفسهم.

الثالثة : أن يكونــوا هم الــذين خلقــوا الســماوات والأرض.

(**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ**)

والتعبـير هنا عن الخـالق بالشـيء ليس من بـاب أنّه سبحانه يشـبه الخلق ، وإنّما لاثبـات أنّه حق فالشـيء في مقابل العدم ، ففي مقام الربوبية ليس لنا سبيل إلّا بقـدر الخـروج من حـدّ النفي والتعطيل ، أو بتعبـير آخر : نفي النفي وإعـدام العـدم ، أمّا أن نثبت ـ وراء ذلك ـ لربّنا القـــدوس ذاتية معلومة أو موهومة أو متخيلة فلا ، فهو شيء أي أنّه حق قائم قيّوم ولكن لا كالأشياء الكائنة التي يحيط بها العلم ويتصوّرها القلب.

وليس أحد يعتقد في نفسه ولا يعتقد فيه الآخـــرون العقلاء بأنّه مصـداق لأحد هـذه الفـروض الثلاثة ولا الـتي سـتأتي بعـدها ، ذلك أنّ المخلـوق لا يـأتي من الفـراغ ما دامت شواهد الصنع ظـاهرة فيه ، بل لا بد له من خـالق ، وواضح أنّه لا يمكن للشيء أن يخلق نفسه إنّما يحتاج إلى صانع غيره ، ويكفي الإنسان شـاهدا على نفسه بأنّه ليس الخـالق أن ينظر حوله إلى الســماوات والأرض هل يعقل أن يكون قد خلقهما هو أو بشر مثله؟

(**أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ**)

ان المشكلة مشكلة نفسية ولو كـانت عقلية لا نحلت بشــيء من التفكــير في مثل هــذه الفرضــيات انهم لا يريدون الايمان لكي لا يلزموا أنفسـهم بمسـؤولياته ، اذن فالنقص موجود فيهم لا في حجج الحق التي تقوى عليهم!

[37] ثمّ دعنا عن حديث الخلق ولنسـأل : مـاذا لـدى الكفّار من الملك والسيطرة

حتى يتكبّرون على الحق اعتمادا عليهما؟ إنّ أكـثر من 99 خ من ثـــــروات البشر وقدراته هي رزق مباشر من عند الله. والـذي يحتـاج الحصـول عليه من الـثروة مع السـعي أقل من 1 خ ، وما هي نسبة ما يقع في أيدي الناس حـتى يتفاخروا به ويكون سببا لكفرهم؟

(**أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ**)

والخزائن هي أماكن حفظ الـثروات ومقاليـدها ، ومن مصــاديق الخــزائن المنــابع الأوّلية للــثروة في الحيــاة ، كمناجم المعادن ، وينابيع الغيث ، ومصادر الطاقة ، ومواد الحياة في الأرض ، وهي جزء بسيط جـدا من خـزائن الله التي خلقها ووزّعها في الكون.

وإذا نظرنا إلى جــانب التــدبير في الحيــاة فلن نجد ســلطة فعليّة تحكمها غــير ســلطان الله ، فالإنســان لا سـلطان له حـتى على حياته الشخصـية إلّا قليلا ، فطالما تصـوّر نفسه متمكّنا وقـادرا فوجد العكس ، وطالما قـرّر شيئا فاكتشف عجزه المضي فيه.

(**أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ**)

بــالطبع لا ســيطرة لهم على الحيــاة فليحــاولوا دفع الموت عن أنفسهم إن استطاعوا.

[38] ويسترسل الـــوحي في طـــرح الســـؤال تلو السؤال ، وهذا جزء من منهج القرآن في علاج الانحرافات النفسية والعقائدية لـدى البشر ، أن يضـعه أمـام الحقيقة من خلال أسئلة تسوق الاجابة الموضـوعية عليها إلى ذات الحقيقة ، كما يحـاول بها ضـرب الفلسـفات والاعتقـادات المنحرفة عنده.

(**أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ**)

إنّ الذي ينبغي الطاعة له والتسليم لقيادة ليس الذي يملك ظاهرا من الثروة والسيطرة قدرا ضئيلا لا يقاس إلى ما عند الله ، وهم معترفون بأنّهم لا يملكون أداة لالتقاط الغيب ، فما ذا في أعماق الأرض وأغوار الفضاء ، وما الذي تخبّؤه الأقدار ، وماذا يحدث غدا ، وما هي الأرواح والملائكة والجن وعالمهم؟

وإنّما القيادة والفضل لمن يتصل بالله عبر الوحي وهو الرسول (ص) ، ولعلّ اختيار كلمة «**فِيهِ**» في الآية وتجنّب التعبير بكلمة «به» لأنّ الاستماع لا يكون بسبب السلّم بل في السلّم الذي يعرجون فيه.

وإذا كانوا يزعمون أنّهم مطّلعون على الغيب إذا دعهم يأتوا عليه بحجة داحضة.

(**فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ**)

كالقرآن بشموليته ، وكماله ، وروعة أسلوبه ، وهيمنته على عقل الإنسان ونفسه ، ولن يستطيعوا إلى ذلك سبيلا.

[39] وكيف يأتي هؤلاء ببرهان قاطع وهم لا يتبعون إلا الظن ، ولا يعتقدون إلّا بالباطل ، وإلّا فكيف قالوا بأنّ البنات لله ولهم البنون؟! ما هو دليلهم على ذلك؟

(**أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ**)

وفي سورة الزخرف نجد علاجا أشمل لهذه العقيدة المنحرفة لدى المشركين ، يقول تعالى : «**أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ* وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ* أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ* وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ**

سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ* وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَـــــدْناهُمْ ما لَهُمْ بِــــــذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ» [1]
وهنا يشير السياق مجـرّد إشـارة إلى سـفاهة هـذا القـول ويسوقه مثلا لضلالاتهم الدالة على بعدهم عن الغيب.

[40] والرسل لا يطـالبون النـاس بـالأجر بـإزاء تعبهم ونصـبهم من أجلهم حـتى يمكن الكفّـار تفسـير رفضـهم الرسالة بأنّهم لا يقدرون على إعطاء الأجر.

(**أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ**)

إنّ الرسـول لا يتطلّع إلى أهـداف ماديّة مصـلحيّة من وراء قيادته للنـــاس. إنّه ليس كالـــذين يتســـلّطون على المجتمع من أجل فرض الضرائب وامتصاص خيرات البلاد والعباد ، إنّما يريد أن يعطيهم شـيئا هو الغـنى بعد الفقر ، والأمن بعد الخوف ، والوحدة بعد الفرقة ، وبعبارة أخــرى يريد أن يتقدّم بهم نحو الحضارة الربّانية التي فيها خيرهم ، وهـذا ما تتميّز به رسـالات الله عن الـدعوات البشــرية المادية حيث لا يجد فيها المجتمع إلّا الكلفة والغـــــــــرم الثقيل.

[41 ـ 42] ثم يشــير القــرآن إلى حاجة فطرية عند الإنســـان تــدعوه إلى معرفة الغيب والاتصــال به ، وكـلّ إنســـان يخشى من الغيب ، ويعلم بأنه لا ســـبيل له اليه ، لأنّ الاختيار في هذا الأمر ليس مرتبطا به ، إنّما يختار الله من يشـاء من عبـاده ، «**وَما كـانَ اللـهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلكِنَّ اللـهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُـــلِهِ مَنْ يَشــاءُ**» [2]
والبعض يـدّعي الاتصـال بـالغيب ولكن دون أن يـدّعي أنّه قـــادر على معرفة أبعـــاد الغيب بحيث تمكّنه من كتابته بوضوح كما كتب الرسول أبعاد الوحي ، أي أنّهم

(1) الزخرف / 16 ـ 20
(2) آل عمران / 179.

ليست عندهم معرفة شـاملة واعية بـالغيب ، إنّما يتبعـون الظنون وجانبا من أخبار الشياطين.

(**أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ**)

بلى. إنّهم لا يعتمـــدون على الغيب ، إنّما يعتمـــدون على الكيد ، وكلمة «أم» الـــتي تـــأتي في الآية للتأكيد لا الاحتمال والتردّد.

(**أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً**)

والكيد هو القـوّة المخططة والمقنّنة كالاسـتراتيجيّة ، وإنّما نكّر الله الكيد ليجعله دالا على أنّه لا ينفع أيّ نـوع أو أيّة درجة منه.

(**فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ**)

لأنّهم مهما بلغــوا من المكر والحيلة فلن يســتطيعوا الغلبة على الحق (سنن الله في الخلق ومشيئته القاهرة) ومنهجه المتكامل إذا اتبعه المؤمنــون ، والتــاريخ شــاهد على هذه الحقيقة.

[43] ويعـود القـرآن إلى بيـان الانحرافـات النفسـية العميقة عند الإنسان فيقول :

(**أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ**)

إنّ الله منزّه عن الشركاء ، والإنسان يشرك به غيره للتهــرّب من المســؤولية ، وليس اعتمــادا على عقيــدة راسـخة بيّنة ، إنّه إذا لم يـدع شـريكا مع الله فهو ملـزم بالتسـليم لرسـالته عقلا وضـميرا ، لـذلك نجـده يسـعى لتخليص نفسه من هذا الالتزام بالشرك.

[44] ولأنّ العقائد المنحرفة عند الكفّار والمشركين ، والـتي استعرضـتها الآيـات الماضـية ، تنتهي كلّها إلى غاية واحدة هي محاولة التملّص من المسـؤولية ، فـإنّ القـرآن لا يني يؤكّد المسؤولية من خلال بيان سنّة الجزاء الحاكمة في الحياة ، ففي الـدنيا تجلّيـات عديـدة لهـذه السـنّة ممّا يؤكّد وجود حياة أخرى للجزاء أيضا ، ولكنّ الإنســان حينما يكفر أو يشــــرك لا تهديه العلامـــــات إلى الحقيقة ، بل يفسّرها تفسيرا ماديّا منحرفا ، بل حتى لو رأى آية ظاهرة فسّرها تفسيرا بعيدا.

(**وَإِنْ يَـرَوْا كِسْـفاً مِنَ السَّـماءِ سـاقِطاً يَقُولُـوا سَحابٌ مَرْكُومٌ**)

وفي سورة الأحقاف يضرب القرآن لنا مثلا على هــذا النـــوع من التفســير عند الكفّـــار فيقـــول : (**فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قـالُوا هـذا عـارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُـوَ مَا اسْـتَعْجَلْتُمْ بِـهِ رِيحٌ فِيها عَـذابٌ أَلِيمٌ تُـدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِـأَمْرِ رَبِّها فَأَصْـبَحُوا لا يُـرى إِلَّا مَسـاكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ**) [1].

[45] وحينما يصل الإنسـان إلى هـذه الحالة النفسـية من الضـلال والجحـود تصـعب هدايته إلى الحق ، لأنّه لن ينظر إلى الآيات نظرة عقلانية مجرّدة ، إنّما سـينظر إليها من خلال أفكـــاره ، ويســـعى جاهـــدا لاســـتلابها دلالاتها الواقعيّة الحقّة ، لذا لا ينبغي للداعية أن يصرّ ويبخع نفسه لهدايته ، إنّما يـــبيّن إليه الحق ثم يتركه يواجه مصــــيره بنفسه ، لأنّ الإصــرار الزائد عن حــدّه قد يسـبّب حــالات وصـــــفات خاطئة كالديكتاتورية والغصب ، أو أن يغيّر هو من الدّين ليدخلهم فيه.

(**فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ**)

إشارة إلى العذاب الـذي ينتظر الكفّـار يـوم القيامة ، فلأنّهم كفروا بالآخرة

---

(1) الأحقاف / 24 ـ 25

وغفلوا عنها في حياتهم فإنّهم يفاجأون بذلك.

[46] وإذا كان مكرهم وكيدهم في الدنيا نفعهم بعض الشـيء وخـدم مصـالحهم ، فربما انتصـروا عسـكريّا على المؤمنين ، أو ظهروا على البلاد وأضلّوا الناس عن الحق ، فـإنّهم في الآخـرة لا ينفعهم المكر شـيئا ، ولا يـدفع عنهم خطرا.

(**يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً**)

كما أنّ القوى الأخرى التي اعتمدوا عليها في كفـرهم وكيـدهم للحق والمؤمـنين لا تعينهم ، وإن أعـانتهم فهي لا تبلغ بهم سبيلا إلى الغلبة والنصر.

(**وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ**)

[47] ولكنّ دعوة الله لرسوله (وللمؤمنين من خلاله) إلى ترك الظلمة والكفّار يلاقون عذاب الآخرة لا يعـني أنّ الدنيا لهم ، يلعبون فيها كيفما شاءت أهواؤهم ومصـالحهم ، كلّا .. إنّما يلقـــون فيها نصـــيبا من العـــذاب متمثّلا في غضب الله المباشر أو على أيــدي أوليائه ، ولكنّه مهما بلغ لا يكون كعذاب الآخرة.

(**وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذاباً دُونَ ذلِكَ**)

أي غـــيره ، وأقـــلّ منه ألما ، وهو دليل على عـــذاب الآخرة ، قـال تعـالى : (**كَذلِكَ الْعَـذابُ وَلَعَـذابُ الْآخِـرَةِ أَكْبَـرُ لَـوْ كـانُوا يَعْلَمُـونَ**) [1] وقـال : (**وَلَنُـذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**) [2] ، ولكنّهم لا ينظرون إلى الآيات ببصيرة الايمان ومن ثمّ لا يصلون إلى الحق.

---

(1) القلم / 33
(2) السجدة / 21

(**وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**)

وبالتـالي فـإنّ جهلهم يـوقعهم في العـذاب الـدنيوي والأخروي معا.

[48 ـ 49] وبعد أن عـالج القـرآن مشـكلة التكـذيب بالعــذاب والكفر بالله من الناحية النفسـية والعقلية ، أكّد ضرورة الاستمرار والاستقامة على الحق في سبيل الله.

(**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ**)

وحيث حـذف متعلّق الصـبر دلّ ذلك على كـلّ معانيه (الصــبر عند البلاء ، والصــبر على الطاعة ، والصــبر عن المعصية) ، فيجب إذن على المـؤمن أن يتنـازل عن جميع تطلّعاته ومصـالحه وآرائه في سـبيل رسـالته ، مهما كـان الصبر على ذلك صعبا ، وأن يترك العجلة في الأمــور ، بل يصـبر حـتى يـأتي أمر الله متمسّـكا بمنهج الـوحي ، وهـذا يوحي بأنّ على المؤمن تطـبيق أحكـام الله أثنـاء الصـبر ، وليطمئنّ أنّ عين الله تحرسه وتسدّد خطاه.

(**فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا**)

وعيـــون الله تتجسّـــد في ســـننه وملائكته وإرادته المباشــرة الــتي تؤيّد المؤمــنين ، وكما يقــاوم المــؤمن الضــغوط ، ويســتمر في الطريق ، ويلــتزم بحــدود الله وأوامـره بعامل الصـبر ، فإنه يسـتمدّ إرادته من الاتصـال بالله في الصلاة ، ولو تدبّرنا في القـرآن فإنّنا لا نكـاد نجد دعـوة إلى الصـبر إلّا وقد اقـترنت بها دعـوة إلى الصـلاة أيضا ، إذ بهما نســـتعين على الأمــــور ، بلى. قد تختلف التعابير من موضع إلى آخر ، فتأتي تـارة صـريحة كما في قوله تعــالى : (**وَاسْـتَعِينُوا بِالصَّـبْرِ وَالصَّـلاةِ**) [1] ، وأخـرى دون ذلك بالدعوة

---

(1) البقرة / 45

إلى التسبيح أو الركوع والسجود كمظهر أو جوهر للصـلاة ، أو بإضـــافة أمر آخر مثل ضـــرورة الاحســـاس بالرعاية الالهية كما في هذه السـورة ، ولكنّ الحقيقة واحـدة وهي اقـتران الصـبر بالتبتّل ، وفي هـذه الآية نجد شـاهدا على ذلك فبعد أن دعا الله رسـوله للصـبر والاطمئنـان لرعايته أمره بالتسبيح.

(**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ**)

قال علي بن إبراهيم : «لصلاة الليل» [1]

(**وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ**)

قال الباقر والصادق (عليهما السلام) : إنّ رسول الله (ص) كان يقـوم من الليل ثلاث مـرات ، فينظر في آفـاق السماء ، ويقرأ الخمس من آل عمـران الـتي آخرها «**إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ**» ثم يفتتح صلاة الليل[2]

والتسبيح هو تعظيم الله عزّ وجل وتنزيهه ، وما أحوج الإنسان وهو يقاوم مختلف الضغوط في مسـيرته حـتى لا ينهـزم أمامها إلى ذلـك. ولمـاذا يستسـلم الإنسـان إلى الضـغوط؟ أليس لأنّه يجـدها أكـبر من إرادتـه؟ إذن فهو بحاجة إلى تذكّر الله ليقاوم الهزيمة والانبهار في داخله.

(**وَإِدْبارَ النُّجُومِ**)

يعني نافلة الصبح ، عن زرارة عن أبي جعفر (ع) قال : قلت له «**وَإِدْبـــارَ النُّجُــومِ**» قـــال : «**ركعتـــان قبل الصبح**» [3]

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 143

(2) المصدر

(3) المصدر / ص 144

وقد يكون القيام عموم الصـلاة ، ولكنّ القـرآن يخصّ بالذكر صلاة الليل ونافلة الصبح لغرض ما.

سورة النجم

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

في كتـاب ثـواب الأعمـال باسـناده الى أبي عبد الله (ع) قال : «**من كان يد من قراءة والنجم في كل يوم أو في كل ليلة عـاش محمـودا بين النـاس ، وكـان مغفورا له ، وكان محبوبا بين الناس**».

بحار الأنوار / ج 92 / ص 305

الإطار العام

بالرغم من أنّ كثيرا من آيات هذه السورة تحدّثنا عن الـوحي ممّا يـدع القـارئ يظنّ لأوّل الأمر أنّها تعـالج هـذا الموضوع ، إلّا أنّ المتدبّر يـرى أنّ السـياق يهـدف معالجة المسـؤولية البشـرية ، وتـزداد هـذه الفكـرة وضـوحا عند التأكيد على المسؤولية المباشرة للإنسـان عن أفعاله وأن ليس له إلا سعيه ، وأنّه سوف يراه إن عاجلا في الـدنيا أو آجلا في الآخرة.

والعلاقة بين هــاتين الفكــرتين (فكــرة المســؤولية وفكرة الوحي) علاقة عضـوية واضـحة ، ذلك أنّ إحسـاس الإنسان بمسؤوليته نتيجة مباشـرة لإيمانه العميق بـالوحي ، وهل تنزّل الوحي برسـالات الله للأمم على الأنبيـاء عـبر التاريخ إلّا لإتمـام الحجة على النـاس ، وتقرير مسـئوليتهم أمام الله؟

كما نجد في السورة خطا موازيا لهذا السـياق يهـدف تصـحيح منهجيّة التفكـير عند الإنسـان ، إضـافة إلى علاجه العقائد المنحرفة معالجة مباشرة.

سورة النجم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**وَالنَّجْمِ إِذا هَوى (1) ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَـوى**
(2) وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى (3) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى
(4) عَلَّمَـهُ شَـدِيدُ الْقُـوى (5) ذُو مِـرَّةٍ فَاسْـتَوى (6)
وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى (7) ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى (8) فَكانَ قابَ
قَوْسَـيْنِ أَوْ أَدْنى (9) فَـأَوْحى إِلى عَبْـدِهِ ما أَوْحى (
10) ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى (11) أَفَتُمارُونَـهُ عَلى ما
يَرى (12) وَلَقَدْ رَآهُ

---

5 [شديد القوى] : هو الله وقيل جبرئيل (ع).
6 [مرّة] : قوّة ، وأصل المرة خلط في العروق كالصـفراء والسـوداء ، وسمّي مرة لقوّة البدن به ، أو المراد بذي مرّة : الحصافة في العقل والرأي.
8 [فتدلى] : أصل التدلّي استرسال مع تعلّق وهو مثل تـدلّي الـدلو في البئر.

نَزْلَـةً أُخْـرى (13) عِنْـدَ سِـدْرَةِ الْمُنْتَهى (14) عِنْـدَها جَنَّةُ الْمَأْوى (15) إِذْ يَغْشَـى السِّـدْرَةَ ما يَغْشى (16) ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى (17) لَقَدْ رَأى مِنْ آيــاتِ رَبِّهِ الْكُبْرى (18)

---

14 [سدرة المنتهى] : سدرة في الأفق الأعلى بلغها الرسول (ص).

إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى

هدى من الآيات :

تهـدينا آيـات الـدرس الأوّل إلى علاقة الرسـول (ص) بربّه من خلال الوحي ، هذه الميزة التي تميّـزه عن دعـاة النظريـــات البشـــرية ، وعما تتفتق به عقـــول النوابغ من أفكار. إنّه لا ينطق إلّا بـإذن الله ، ممّا يجعله حجة وقـدوة للبشرية في كلّ مكان وزمان ، وهو على يقين تـــام بنبوته ، لا يشك في ذلك طرفة عين أبدا.

ولا شك أنّ هـــذه منزلة رفيعة بلغها النـــبي الأعظم (ص) دون ســائر البشر وأعلى من ســائر الأنبيــاء ، ولكن ذلك لم يصـيّره إلها ، بل تـدلّى ، وذلك يعـني أنّه أرفع من الخلق ، وأدنى من الخالق.

بينات من الآيات :

[1] (**وَالنَّجْمِ إِذا هَوى**)

قد يكون القرآن يقصد هنا نجما معيّنا أخبر المسلمين بسقوطه في المستقبل ، كما تشير الروايات إلى ذلك ، ولكنّنا بالنظر إلى الظاهر وإلى الهدف من وراء هذا القسم نستطيع اعتباره شاملا لكلّ نجم ، وإنّما عرّف الله المقسم به ب (ال) لأنّه أبلغ من التنكير في القسم كما قيل ، ولكن لماذا يقسم القرآن بالنجم حين يهوي؟

أولا : ربما لأنّ الكثير من الناس كانوا يعتقدون بأنّ النجوم ثابتة لا تتغيّر ، وقد اتخذها بعضهم آلهة من دون الله ، وسقوطها أبطل هذا الإعتقاد الضال.

ثانيا : قد لا يكون المقصود من الهوي السقوط والانتشار ، كما في قوله تعالى : (**وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ**) [1] ، (**وَإِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ**) [2] كعلامة ليوم القيامة ، وإنّما الميل إلى طرف من الأفق ، الأمر الذي يجعله أفضل هداية وتعريفا للإنسان بالطريق.

[2] وكما أنّ النجم رمز للهداية فإنّ الرسول (ص) هو علم رفيع لهداية البشرية ، كما قال الإمام علي (ع) : «**ألا إنّ مثل آل محمّد (صلّى الله عليه وآله) كمثل نجوم السماء ، إذا خوى نجم طلع نجم**» [3] ، ولكنّ الرسول (ص) يختلف عن النجم في أنّ دلالته وهدايته للناس تبقى قائمة في رسالته وسيرته حتى بعد موته ، أمّا النجم فإن دلالته تنتهي بهويه ، كما يقول الإمام علي (ع) : «**أيّها الناس حذوها من خاتم النبيين** (صلّى الله عليه وآله وسلّم) : إنّه يموت من مات منّا وليس بميّت ، ويبلى من بلي منّا وليس ببال» [4] ، وأولى بالعاقل أن يتبع هدى الرسول الذي يتبع الحق ، ولا يكذب أهله ، لا أن يتبع ظنون نفسه ، ولا تخرّصات

---

(1) التكوير / 2
(2) الإنفطار / 2
(3) نهج البلاغة / خ 100
(4) نهج البلاغة / خ 87

الكهنة والمنجّمين.

(**ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى**)

الضـــــلالة هي الانحـــــراف عن أصل الطريق ، بينما الغواية ـ حسبما يبدو ـ الانحراف عن سـواء الطريق ، فقد يضل الواحد طريقه إلى مدينة شـــــرقية فيتجه غربا ، وقد يغـوي عنها فلا يتجه إليها عـبر خط مسـتقيم .. ولم يضل النبي طريقه نحو الله فيختار ـ حاشـاه ـ طريقا آخر ، كما لم يتنكّب عن الخط المسـتقيم ولا شـيئا قليلا ، فلم يكن كأبينا آدم ـ عليه السلام ـ الـذي قـال عنه ربّنا : «**وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى**» [1].

[3 ـ 4] بلى. لقد زعم البعض أنّ عصـمة النـبي (ص) محدودة في الشؤون المتصلة بالرسـالة نفسـها وحسب ، ولكن السؤال : إذا كيف نعرف أنّ ما يتحدّثه الرسـول هل هو جزء من الرسالة ، أو هو شأن من الشؤون التي يخطأ فيها؟ كلّا .. إنّ الله قد عصم الأنبياء جميعا ، وأيّدهم بـروح القدس ، حتى تتمّ حجته على خلقه ، ولا يبرّروا مخـالفتهم لهم بعـــدم الثقة بـــأنّ كلامهم من عند الله ، وقد قـــال سبحانه : «**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْـهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ**» [2] ، وقـال : «**عـالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِـهِ أَحَـداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْـلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْـهِ وَمِنْ خَلْفِـهِ رَصَـداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ**» [3].

إنّ الإنسان تنازعه من داخله قوّتان : نور العقل الذي يهديه إلى الحق ، وشـــهوات الهـــوى الــتي تدفعه باتجـــاه الباطل ، ولقد أدّب الله نبيّه (ص) إلى أن اعتصم من آثـار الهوى ، وجسّد الحق لا يزيغ عنه لحظة ولا قيد شعرة.

---

(1) طه / 121

(2) الحاقة / 44 ـ 46

(3) الجن / 26 ـ 27 ـ 28

إنّ العقل المحض لا يخطئ أبـــدا ، ولـــذلك اعتـــبره الإسلام رسولا باطنا كما أنّ الأنبياء كـانوا رسلا ظـاهرين ، وحجة خفيّة كما الرسالات حجة ظاهرة.

(**وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى**)

ومن عمق الأدب القــرآني وبلاغته أنّه لم يكتف بكلمة «**وَحْيٌ**» بل أضــاف إليها كلمة «**يُــوحى**» الفعل المبــني للمجهــول ، وذلك لأنّ الــوحي قد يكـــون من فعل نفس الإنســان ، أمّا إذا بـني للفاعل المجهـول فإنّه يكـون من طـرف آخر ، والآية التالية تـبيّن المـوحي وهو الله شـديد القوى ، نفيا لاحتمال أن يكون الرسول يتلقّى رسـالته من قـــوى يتصل بها كـــالجن أو بعض الكهنة ، كما ادّعى عليه الجاهلون «**وَقالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُـونٌ**» [1] ، كلّا .. إنّه يتلقّى رسالته عبر الوحي من الله ، وهذا الاتصال هو الذي يمـدّه بالعصـمة ، وحـديث عصـمة الرسـول حـديث طويل بحثه الدارسون ، وقد اختلفوا فيه كثيرا ، وأنا أترك الخوض في هذا الموضوع بالصورة التي بيّنها الكثير ، وأقتصر هنا على الحـــديث عنه من زاوية هامّة جـــدا ، وهي دراسة حيـــاة الرســـول (ص) ، لأنّ ذلك كما اعتقد ســـوف يكشف لنا شخصيته الفذّة ، وكيف أنّها لم تتأثّر بأيّ عامل هوى ، إنّما كانت دائما وأبدا صنيعة العقل والوحي.

لقد عـاش (ص) في مكّة المكرّمة ـ قبل أن يظهـره الله على المشـــركين فيها ـــ تلاحقه عصـــابات الضـــلالة والبغي من قـــريش ، يحـــاولون أن يخـــدعوه عن دينه ، ويصرفوه عن رسالته ، بالإرهاب تارة وبـالترغيب أخـرى ، حـــتى بلغ الأمر بهم أن عرضـــوا عليه الســـلطة المطلقة عليهم وعلى أمـــوالهم ، ولكنّه لم يخش إرهـــابهم ، ولم تحرّفه عروضـــهم المغرية ، إنّما تســـامى على ذلك كلّه ، وأجـابهم : «**والله لو وضـعتم الشـمس في يميـني ، والقمر في يســاري ، على أن أتــرك هــذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه**» ،

---

(1) الدخان / 14

واضطر من شدّة ضغوطهم وأذاهم إلى الهجرة عن مكة ، وكانت القبائل جميعها ترفض إيواءه عداوة له أو خوفا من قريش ، وسـار نحو الطـائف لعلّه يجد مفزعا فيها ، ولكنّه اصـطدم بحقـدهم الـدفين ضـدّه وضـدّ رسـالته ، حيث طردوه وأدموا ساقيه الشريفتين بالحجـارة ، لكنّه مع ذلك كـان يتحـدّى الواقع المر ، ويسـمو بروحه الطـاهرة إلى آفاق الإيمـان بالله ، فقد جـاء في الخـبر أنّه رفع يديه إلى السماء وقال : «**اللهمّ اهد قومي فـإنّهم لا يعلمـون ، إلهي إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي**».

وحينما هـاجر إلى المدينة المنـوّرة انطلق منها يقهر القوى العسكرية المضادة ، فحطّم كبريـاء قـريش ، ودمّر حصـون اليهـود من أعـداء الرسـالة وغـيرهم ، وإلى حين رفعه الله إليه كـان قد جهّز جيشا ليقاتل الـروم القـوة العظمى يومـذاك ، وبين هـذا وذاك بـنى أمّة وحضـارة لا زالت البشـرية ولن تـزال كلّما تقـدّم بها الـزمن والتطـوّر تجد نفسها دون عظمتها. وهو مع ذلك لم تتغيّر أخلاقه ولا سـيرته في العيش ، إنّما بقي وهو الحـاكم العظيم يربط حجر المجاعة على بطنه ، ويتواضع للصغير والكبير ، أترى من هـذه حياته ، ومن جعله الله أسـوة مطلقة وصـفها بالحسن إلّا أن يكـون معصـوما؟ ثم أليست العصـمة أن لا يتأثّر الإنسـان بالعوامل السـلبية ، ولا يخـرج عن خطّه ولا قيد شـعره؟ بلى. إذن فلنـدرس حيـاة الرسـول الأعظم (ص) هل نجد فيها ولو كلمة أو تصرّفا يخالف الحق؟

إنّ من السـهل على العاقل أن يميّز الـذي ينطق عن الهوى عمّن ينطق عن العقل ، فالذي ينطق عن الهـوى لا يصـدق دائما ، ولا يكـون حديثه موافقا للعقل ، إنّما يكـون تعبـيرا عن شـهوات صـاحبه ، ومتناقضا متقلّبا حسب الظروف والمصالح.

ثم لننظر إلى الرسالة التي جاء بها النـبي هل تخـالف العقل والحـق؟ وهل فيها شـيء من التنـاقض؟ كلّا .. إذن فهي معصومة ، ومن عند الله ، (**وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ**

غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) [1].

ثمّ أنه كــان ينقل ما يــنزل عليه من الله بامانة تامّة إلى المجتمع لا يغيّر شيئا أبدا ، وحتى الآيات التي تشـتمل على لومه كـان يثبتها في الرسـالة ، ويبلّغها للنـاس ، ولو كـان يتبع أهـواءه لكـان يخفيها عليهم ، ومن هـذه الآيـات قوله تعـالى : (**وَإِنْ كـادُوا لَيَفْتِنُونَـكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً* وَلَـوْ لا أَنْ ثَبَّتْنـاكَ لَقَـدْ كِـدْتَ تَـرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَـيْئاً قَلِيلاً* إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِـدُ لَـكَ عَلَيْنا نَصِيراً**) [2] وقوله : (**عَفَا اللـهُ عَنْـكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَـكَ الَّذِينَ صَـدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكـاذِبِينَ**) [3] ، والآية الكريمة : (**لَيْسَ لَـكَ مِنَ الْأَمْـرِ شَـيْءٌ أَوْ يَتُـوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَـإِنَّهُمْ ظـالِمُونَ**) [4] وأشـدّ من ذلك كلّه قوله تعـالى : (**وَلَـوْ تَقَـوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيـلِ* لَأَخَـذْنا مِنْـهُ بِـالْيَمِينِ* ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْـهُ الْـوَتِينَ* فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ**) [5].

وأخيرا : لم يكن النـبي يبلّغ الرسـالة للآخـرين فقط ، بل كـــان هو يطبّقها أيضا ، وقبل غـــيره ، بما فيها من واجبات تقتضي أن يخالف الإنسان أقوى منعطفات الهوى ، فهو يتقـدّم المؤمـنين في أمر حاسم وخطـير كالقتـال. أترى لو كان يتبع أهواءه يصنع كلّ ذلك؟

[5 ـ 6] وكيف يتبع الرســول هــواه ، فيخفي بعض الــذي أنــزل عليه ، أو يتقــوّل على الله بــدافع الشــهوة والمصلحة ، وهو يعلم ما عنده من البطش والشدة؟

---

(1) النساء / 82
(2) الإسراء / 73 ـ 75
(3) التوبة / 43
(4) آل عمران / 128
(5) الحاقة / 40 ـ 47

(**عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى**)

ذو الإرادة المطلقة النافذة في الحياة ، وهذه ضـمانة لتنفيذ الحق الذي جاء به القرآن وتطبيقه على الحياة.

(**ذُو مِرَّةٍ**)

أي مطلق العلم والحكمة ، ممّا يجعل الرسـالة (الـوحي) كاملة دقيقة لا يلحقها نقص ولا عيب ، ولأنّ الرسـول كـان يتلقّى رسـالته وعلمه من صـاحب هـاتين الصفتين فقد تكامل بالتأييد والعلم الإلهيين ..

(**فَاسْتَوى**)

وفي الآية أقوال شتى : فقال الكثير من المفسّرين : أنّ من علّم رسول الله هو جبرئيل الذي هو شـديد القـوى ، وهو أيضا ذو مرّة وقد استوى.

وفي كلمة «**ذُو مِرَّةٍ**» قال البعض : أنّ معناها صاحب قوّة ، وقال آخرون : ذا عقل ، وقيل : صـاحب خلق حسن ، أمّا عن الإسـتواء فقـال البعض : أنّ معنـاه أنّ جبرئيل اسـتوى هو والرسـول ، وقـال البعض : أنّ الرسـول قد اسـتوى ، وقـال البعض : بل الله هو الـذي اسـتوى على عرش القدرة.

ولعل التفسـير الـذي اخترنـاه آنفا هو الأقـرب ، لأنّ السياق لا يحدّثنا شيئا عن جبرئيل ، ثم أنّ الإسـتواء الـذي يهتم به سياق السـورة متصل بالرسـول ، لأنّه يحـدّثنا عن الرسول وليس عمّن علّمه.

[7] وبهـذا الاتصـال أيضا سـمى النـبي محمد (ص) بروحه طهـــرا وعرفانا وزلفى إلى أفق الحـــقّ الأعلى ، فصار سيّدا لأفضل خلق الله وهم النبيّون (عليهم السلام) ،

ولقد كـــان عروجه إلى الله في تلك الرحلة المشـــهودة تجسيدا لذلك السمو.

لقد كـان (صـلّى الله عليه وآلـه) يتلقّى الـوحي عـبر جبرائيل حينا ، وبصـــورة مباشـــرة حينا ، ولعـــلّ أعظم ساعات التلقّي كانت حينما رفعه الله إلى مقـام قـال عنه رفيقه جبرئيل : «**مكانك يا محمّد فلقد وقفت موقفا ما وقفه ملك قط ولا نبي**» حـتى لم يبق بينه وبين ربه واسـطة ، ودنى من الله قربا فكـان كما قـال الإمـام الصـادق (ع) : بينهما حجـاب يتلألأ بخفق ، فنظر في مثل سمّ الإبرة إلى ما شـاء الله من نـور العظمة ، فقـال الله تبارك وتعالى : «**يا محمّد! قال : لبيك**» [1] وكلّمه تكليما ، كما كلّم موسى بن عمران (عليه السلام).

(**وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى**)

يطـوف معه جبرئيل وهو على الـبراق ، يصـعد من سماء إلى أخرى ينظر إلى آيات الله ، ويزداد برؤيتها يقينا وصعودا في آفاق الإيمان حتى بلغ السماء السابعة.

(**ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى**)

حتى بلغ حجب النور ، يقول النبي (ص): «**فقال لي جبرئيل : تقـدّم يا محمّد ، وتخلّف عـني ، فقلت : يا جبرئيل! في مثل هذا الموضع تفارقني؟! فقال : يا محمّد إنّ انتهاء حدّي الذي وضعني الله عزّ وجلّ فيه إلى هذا المكـان ، فـإن تجاوزته احـترقت أجنحـتي ، بتعدّي حدود ربّي جلّ جلاله ، فزخّ بي في النور زخّة حتى انتهيت إلى حيث (ما) شاء الله من علـوّ ملكه**» [2].

ويخالف الفكر الإسلامي الأصـيل النظـرة الفلسـفية ، أو ما يسمّيها البعض

---

(1) بحار الأنوار / ج 18 ـ ص 306
(2) المصدر / ص 346

بالعرفانية في علاقة الخالق بـالمخلوق ، فبينما تـرى هـذه وحدة الوجود وإمكانية الحلول ، تعـالى الله عمّا يصـفون ، تفصل النظرية الإسـلامية بين الإثـنين ، وتـرى أنّ الخـالق غـير المخلـوق ، وأنّه لا يمكن بـأيّ حـال من الأحـوال أن يصل الإنســان إلى مقــام الربوبية ، مهما بلغ من الفضل والعلم والإيمان ، بل المجـال مفتـوح أمـام البشر للتكامل في معـــارج القـــرب من ربّه ، أفقا أفقا ، ودرجة درجة ، دون أن ينتهي ذلك أبـــــدا ، لأنّ «**الله خلو من خلقه ، وخلقه خلو منه**» [1].

إنّ القـرآن يقـرّ رحلة المعـراج ودنـوّ النـبي (ص) من ربّه ، ولكنّه يعتبره دنوّا معنويّا لا ماديّا ، ويقول بأنّه (صلّى الله عليه وآله) تدلّى في علـوّه ، كما الـدلو حينما يتـأرجح في البـئر فلا هو إلى قعـره حيث المـاء ، ولا هو إلى أعلاه حيث الأرض ، إنّما بين الإثــنين ، وهكــذا ســمى الرســول الأكرم (ص) حتى ارتفع عن سائر الخلق بقر به من الله ، ولكنّه لم يصل إلى مقام الربوبية ، فهو فوق الخلق ودون الخالق ، وفي الخبر عن ثابت بن دينار قـال : سـألت زين العابـدين عليّ بن الحسـين (عليهما السـلام) عن الله عـزّ وجـلّ جلاله هل يوصف بمكـان؟ فقـال : «تعـالى الله عن ذلك» ، قلت : فلم أسرى بنبيّه محمّد (ص) إلى الســماء؟ قـال : «ليريه ملكــوت الســماوات وما فيها من عجـائب صنعه وبدائع خلقه» ، قلت : فقول الله : «**ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى**» قال : «**ذاك رسول الله (ص) دنا من حجب النور ، فرأى ملكوت السماوات ، ثمّ تدلّى فنظر من تحته إلى ملكوت الأرض**» [2].

وفي حـديث آخر عن يـونس بن عبد الـرحمن قـال : قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر (ع) : لأيّ علّة عـــرج بنبيّه إلى الســماء ومنها إلى ســدرة المنتهى ، ومنها إلى حجب النور وخاطبه وناجاه هناك ، والله لا يوصف بمكان؟ فقال (ع) : «**إنّ الله لا**

(1) التوحيد ـ للصدوق / ص 143
(2) بحار الأنوار / ج 8 / ص 347

يوصف بمكان ولا يجري عليه زمان ، ولكنّه عزّ وجلّ أراد أن يشرّف به ملائكته وسكّان سماواته ، ويكرمهم بمشاهدته ، ويريه من عجائب عظمته ما يخبر به بعد هبوطه ، وليس ذلك على ما يقوله المشبّهون ، سبحان الله وتعالى عما يصفون» [1]

وقد يكون التدلّي الأخذ من المعرفة والعلم ، كقولنا تدلّى فلان إذا أرسل دلوه في البئر ، واغترف منه ماء ، فإنّ الرسول كان يتدلّى معرفة من بحار العلم والنور التي مرّ بها في ملكوت السماوات السبع أثناء رحلة المعراج ، قال الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام في جواب له على سؤال رجل عن هذه الآية ومعنى «**فَتَدَلَّى**» : «إنّ هذه لغة في قريش ، إذا أراد الرجل منهم أن يقول : قد سمعت يقول : قد تدلّيت ، وإنّما التدلّي الفهم» [2] وكلّما فهم الإنسان الحقائق ، وازداد معرفة بربّه ، كلّما تقرّب إليه ودنى منه ، ولعلّ مرور الرسول في عروجه بملكوت السماوات ، ومشاهدته لما فيها من الآيات التي كانت تعرّفه بربّه أكثر فأكثر كلّما صعد في الأفق نحو الحدّ الذي وصل إليه وتجلّى له فيه نور ربّه ، كان تهيئة له ليرى التجلّي الأعظم لله في نوره الذي قرب منه الرسول (ص).

(**فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى**)

أبدا ليس الله بعيدا عن خلقه. أولم تقرأ في الدعاء : «**وأنّ الراحل إليك قريب المسافة ، وأنّك لا تحتجب عن خلقك إلّا أن تحجبهم الأعمال دونك**» [3].

ولكنّ الإنسان هو البعيد عن ربّه. أو ليس قد تراكمت على نفسه حجب الغفلة والجهل والمعاصي ، فكيف يتلقّى نور ربّه؟!

(1) تفسير نور الثقلين / ج (5) / ص (185).
(2) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 151
(3) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 152

وهب أنّه طهر قلبه من كلّ ذلك فكيف تستقبل هـذه النفس المحـدودة العـاجزة أنـوار عظمة الخـالق دون أن يتصدّع قلبه. أو ليست قدرة الاحتمال عند النفس البشرية محـــدودة؟ وهل تصـــبر العين على التركـــيز في قـــرص الشمس طويلا؟ كلّا ..

لقد تجلّى الـربّ لحظة للجبل فجعله دكّا ، ولم يصـبر قلب موسى ذلك النبي العظيم لرؤية الجبل الذي تدكـدك بتجلّي الرب فخرّ صعقا ، فيا تـرى كيف صـمد قلب محمّد (صلّى الله عليه وآلـه) لنـور ربّه ، وأيّ مقـام سـام تعـالى إليه نبيّنا الأكرم حتى كان قاب قوسين من ربّه أو أدنى؟!

ولم يحدّد القرآن المسافة بالضـبط ، لعلّه لبيـان حالة التصاعد والتنازل الـتي يتعـرّض لهما الإنسـان في القـرب والبعد من ربّه ، كما قال عن قوم يونس «**وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ**» ، ولكنّه قـال «**قـابَ قَوْسَـيْنِ أَوْ أَدْنى**» في مقـــام الرســـول لأنّه في حالة تصـــاعدية من الإيمان لا تنازلية.

وكلمة أخيرة :

قـال تعـالى «**قابَ قَوْسَـيْنِ أَوْ أَدْنى**» معبّـرا بهـذه الوحدة القياسية العرفية عن قـرب الرسـول للدلالة على شـــدّة القـــرب المعنـــوي من الله ، ولتأكيد الفاصـــلة بين الخـــالق والمخلـــوق ، وقد قـــالوا في قـــاب قوســـين : أنّ القاب هو المسافة بين المقبض والسّية.

[10] وهنالك حيث اقـــترب الرســـول من ربّه ، وتهيّأ من الجـــانبين ، أوحى الله إليه أمـــرا أبهمه في النصّ ب «**ما**» دلالة على العظمة.

(**فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى**)

قال عليّ ابن إبراهيم (ر ض) : «وحي مشافهة» [1] ، وقال الصادق (ع)

(1) مفاتيح الجنان / دعاء أبي حمزة الثمالي.

لأبي بصـــير : «**يا أبا محمّد ما جـــاءت ولاية علي من الأرض ، ولكن جاءت من السماء مشافهة**» [1].

[11 ـ 12] وإذا كـان الرسـول رأى نـور ربّه بعينه لمّا دنى منه ، فإنّه رأى ربّه ببصيرة الإيمـان في وحيه المـنزل عليه ، ورؤية القلب أجلى وأصدق من رؤية البصر ، بل إنّ هذه الرؤية القلبية كانت تأكيدا وتصـديقا لما رآه بعينه من النور.

ولا يمكن أن يــرى الإنســان ربّه بعينه مشــافهة ، ولا بعقله لأنّه هو الآخر نعمة محدودة من الله ، إنّما يــرى ربّه بربّه من خلال تجلّيه في آيـــات الخلق والـــوحي ، وفي الدعاء نقرأ إشارة إلى هذه الحقيقة عند قول الإمام (ع) : «**يا من دلّ على ذاته بذاته ، وتـــــنزّه عن مجانسة مخلوقاته ، وجــلّ عن ملاءمة كيفيّاته ، يا من قــرب من خطرات الظنون ، وبعد عن لحظات العيون**» [2].

وقلب الإنســان حينما يــرى شــيئا فإنّه لا يخطئ في رؤيته ، ذلك أنّ وجدان الإنسان يصدّق الحق.

(**ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى**)

من الحق النازل عليه من عند الله ، بل هو على يقين وقناعة راســخة ، لا يمكن أن تزلزله الشــبهات وجــدليّات الجـاهلين ، وأقـوال الرسـول (ص) وسـلوكيّاته الشخصـية والاجتماعية كلّها تـدلّ على أنّه لم يكن يتكلّف في إيمانه ، وإنّما كان ينطلق من قناعة صادقة.

(**أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى**)

---

(1) المصدر / ص 150.

(2) مفاتيح الجنان / دعاء الصباح

إنّكم لا يمكن أن تحرّفـوا مسـيرته ، أو تـدخلوا إلى نفسه الشك في رسالته ، لأنّه على اليقين.

قال محمّد بن الفضيل سألت أبا الحسن (ع) هل رأى رسول الله (ص) ربّه عزّ وجلّ؟ فقـال : نعم ، رآه بقلبـه. أمّا سـمعت الله عز وجل يقـول : «**ما كَـذَبَ الْفُـؤادُ ما رَأى**» لم يـره بالبصر ، ولكن رآه بـالفؤاد [1] ، وسـئل الرسول (ص) عن الآية نفسها فقال : «**قد رأيت نورا**» [2].

[13 ـ 15] (**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى**)

وذلك يحتمل معـاني ، منها : أنّ الرسـول كـان يـرى الله متجلّيا في كتابه (الـوحي) ، ثم رأى تجلّيا آخر لربّه عند ما عـرج به جبرئيل (ع) إلى الأفق الأعلى ، ودنى من ربّه فخاطبه مشـافهة ، وقد يكـون المعـنى : أن جبرئيل عرج بالنبي إلى حيث أوحى له الله ما أوحى ، وهناك رأى ببصره نـور الله ، وبقلبه رأى ربّه ، ثم عـرج به إلى مقـام آخر رأى فيه تجلّ ثان لله عزّ وجل ، وهو قوله تعالى :

(**عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى**)

وهي شـجرة في السـماء السـابعة (عن علي بن إبراهيم) [3] «**وإنّ غلظ السدرة لمسيرة مائة عام من أيّام الدنيا**» [4] عن الباقر (ع) ، وربما سمّيت بهـذا الاسم لأنّها الموضع الذي ينتهي الملائكة إليه بأعمـال العبـاد [5] ، ولأنّها منتهى ما يمكن أن يبلغ

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 153
(2) المصدر
(3) المصدر / ص 155
(4) المصدر / ص 154
(5) المصدر

إليه مخلوق قربا ودنوّا من ربّه. [1]

وقيل : هي شجرة طوبى [2] ، وقال عليّ بن إبراهيم (رض) هي الشجرة : «**التي يتحدث تحتها الشيعة في الجنان**» [3] ، ولعلّها البرزخ بين عالمي الدنيا والآخرة.

والآية الكريمة تشير إلى هذا التفسير ، قال تعالى :

(**عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى**)

[16 ـ 17] وهناك تجلّى نور الربّ لنبيه الأعظم (ص) فغشي السدرة ، كما تجلّى من قبل لموسى بن عمران (ع) ففاض نور الوحي على تلك الشجرة التي أوحى الله إليه عندها.

(**إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى**)

من نور ربّها ، وعندها ثبّت الله فؤاد نبيّه ليرى ذلك النور ، ويبصر به آياته ، قال الإمام أبو جعفر (ع) : «**فتجلّى لمحمّد نور الجبّار عزّ وجلّ ، فلمّا غشي محمّدا (ص) شخص بصره ، وارتعدت فرائصه ، فشدّ الله عزّ وجلّ لمحمّد قلبه ، وقوّى له بصره ، حتى رأى من آيات ربّه ما رأى**» [4] فلأنّ الله ثبّته استطاع أن يستوعب الحقائق.

(**ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى**)

(1) المصدر / ص 155 وص 156 رقم 44
(2) بحار الأنوار / ج 18 ـ ص 289
(3) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 156
(4) المصدر / ص 154

والزيغ هو الانحراف ، قال تعالى : (**فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ**) [1] يعني لمّا انحرفوا عن الحق ، وقال : «**رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا**» [2] أي لا تحرفها عن الحق ، وقال : (**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ**) أي انحراف (**فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ**) [3] ، ولكنّ زيغ البصر هنا يعني انحرافه بعامل الخوف ، ويشبهه قول الله : (**إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا**) [4].

أمّا الطغيان فهو الزيادة السلبية في الشيء ، ومنه طغيان الحاكم إذا بالغ في الظلم ، وطغيان النهر إذا فاض ماؤه ، وطغيان البصر أن يرى الإنسان الشيء أضخم من حجمه ، والرسول لم يزغ بصره ، بل كان مطمئنّا ركّز نظره في الحقيقة لم ينحرف عنها بما ثبّته الله تعالى ، ولم تطغ عينه فكان ما رآه صغيرا ولكنّه صوّره لنا أكبر من حجمه عند ما رجع من عروجه.

[18] إنّ الآيات التي رآها كانت كبيرة بالفعل.

(**لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى**)

كسدرة المنتهى التي تظلّ الورقة منها الدنيا بأجمعها ، ويقف عليها ملك يسبّح الله لا يفتر عن ذلك ، وكنور الله الذي تجلّى للنبي (ص) عندها ، وهكذا الكثير من الآيات التي تعرّضت إليها أحاديث الإسراء والمعراج ، إلّا أنّ الكبر في الآيات لا ينصرف إلى حجمها وحسب ، إنّما هي قبل ذلك كبيرة في دلالتها على الحق.

---

(1) الصف / 5
(2) آل عمران / 8
(3) آل عمران / 7
(4) الأحزاب / 10

وكلمة أخيرة :

إنّ الآيـات الـتي رآها الرسـول (ص) لا يلمّ بها الكلام مهما كان طـويلا وواضـحا ، وقد لا تسـتوعبها أذهاننا ، لأنّ الكثـير منها حقـائق غيبيّة مجـرّدة ، لـذلك يـأتي ذكرها في القرآن كما في الأخبار ذكرا إجماليّا.

**أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَنـاةَ الثَّالِثَـةَ الْأُخْـرى (
20) أَلَكُمُ الـذَّكَرُ وَلَـهُ الْأُنْـثى (21) تِلْـكَ إِذاً قِسْـمَةٌ
ضِـــيزى (22) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْـــماءٌ سَـــمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ
وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنْ يَتَّبِعُــونَ إِلاَّ
الظَّنَّ وَما تَهْــوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَــدْ جــاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ
الْهُدى (23) أَمْ لِلْإِنْسـانِ ما تَمَنَّى (24) فَلِلَّهِ الْآخِـرَةُ
وَالْأُولى (25) وَكَمْ مِنْ مَلَـكٍ فِي السَّـماواتِ لا تُغْنِي
شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللـهُ لِمَنْ يَشـاءُ
وَيَرْضى (26) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِـالْآخِرَةِ لَيُسَـمُّونَ
الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثى (27) وَما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ
يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَـقِّ شَـيْئاً
(28) فَـأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَـوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُـرِدْ إِلاَّ
الْحَياةَ**

---

22 [ضيزى] : جائرة ، من ضاز يضيز إذا جار.

الدُّنْيا (29) ذلِـكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُـوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى (30)

أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى

هدى من الآيات :

المسافة بين الحق والباطل وبين الهـدى والهـوى هي بالـذات المسـافة بين الحـقّ والتمنّيـات ، وبين السـعي والأحلام ، وإذا عرفنا الفـــارق بين واحــــدة من هـــذه المفارقات فإنّها ستكون مقياسا لنا نعرف بها مثيلاتها.

فالـذين يعيشـون على التمنّيـات هم الـذين يعبـدون الأصنام ، زاعمين بأنّ عبادتهم لها سوف تغنيهم عن الحقّ الواقع ، وهم الذين يزعمـون بأنوثة الملائكة وبنـوّتهم لله ، وأنّهم يشـفعون لهم من دون إذنه تعـالى ، وهم كـذلك الـذين يتبعـون الظن طلبا للتخلّص من مسـئولية الحـقّ والعلم.

ففي الدرس السـابق بيّن القـرآن وبوضـوح كـاف أنّ الوحي رؤية مباشرة وحضور النبي (ص) عند الله بدئ كلّ حق وبـديع كـلّ واقع سـبحانه ، وكـذلك شـهوده الـواعي للملك المـنزل من عنـده وهو جبرئيل (ع) ووعيه وعرفانه لآيات الله ، وبالتالي

فإنّ مسافة لا متناهية تفصل بين واقع الحضـور والشـهود والعلم عند الرسـول وبين الأهـواء والظنـون عند أولئك الكفّار.

وهنا يلج السياق في الحديث المفصّل ببيان الضلالات الـتي وقع فيها المشـركون بابتعـادهم عن الهـدى ، واعتقادهم بالأصنام ليس عن قناعة ، بل لأنّهم أرادوا منها الشفاعة ، والفـرار من المسـؤولية ، والآيـات تنسف هـذا الضـلال بالتأكيد على أنّ الملائكة مع كـرامتهم عند الله لا يملكـون الشـفاعة إلّا من بعد إذنه ورضـاه ، فكيف بهـذه الأصـنام الحجرية الـتي لا تبصر ولا تسـمع ، ولا تنفع ولا تضر ، بل يسـتوجب الإعتقـاد بها الغضب والعـذاب؟! بلى. إنّهم يتمنّـون ذلك ويزعمـون ، والظن لا يغـني من الحق شـيئا ، إذ ليس في هـذا العـالم إلّا الحق ، وإنّما الحق أن يبلغ الإنسان ما يسعى إليه.

بينات من الآيات :

[19 ـ 20] الجهل أرضية أكثر العقائد الفاسدة ، فلأنّ المشـركين لم يعرفـوا عظمة الله وآياته طفقـوا يعبـدون الأصـنام ، ولـذلك نجد القـرآن بعد تأكيد علم النـبي (ص) بربّه من خلال الـوحي يـأتي على بيـان فسـاد عقائد المشـركين بالآلهة المزيّفة الـتي عبـدوها من دون الله ، بتوجيههم إلى العلم وتبصّـر الحقـائق دون الاسترسـال مع الأهواء ، ويقول مستنكرا هذا الضلال :

(**أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى* وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى**)

وهي من أهمّ وأشهر الأصنام التي عبـدها المشـركون في الجاهلية ، فأمّا «**اللّاتَ**» فقيل أنه صنم لأهل الطـائف جعلـوا له سـدنة وكهنة وحجّابا ، وزعمـوا أنّه تـأنيث لله سبحانه وتعـالى ، وقـالوا : إن كـان لأهل مكّة بيتا يزورونه ويطوفون حوله كلّ عام فنحن لنا هذا الإله ، وكـانت قبيلة ثقيف التي تسكن الطائف تقدّسه

وتحترمه ، وأمّا «**الْعُــزَّى**» فقيل أنّه تــأنيث عزيز ، وهو شجرة بين الطائف ومكة يقدّسونها ويعبـدونها ، وقيل عن «**مَناةَ**» أنّه بين مكّة والمدينة (ولعلّ التعبير مستوحى من الأمنيـة) وكـانت قبيلـتي الأوس والخـزرج وأخـرى غيرهما يزورونه ويطوفون حوله ، وربما كانوا يحرمـون عنـده في طريقهم إلى مكّة المكرّمة.

والمشركون عبدوا هذه الأصنام ولم يروا عليها برهانا قاطعا ، إنّما نطقــوا عن الهــوى ، واتبعــوا الظن ، أمّا الرسول فهو على بصيرة من أمـره ، وهـدى من ربّـه. إنّه آمن بالله من خلال وحيه الذي تنزّل عليه ، الذي كـان من الدلالة والحجّية أن رآه متجلّيا فيه ، كما رآه متجلّيا في مشاهدات المعراج.

[21 ـ 22] وربما كان المشركون يعتقـدون بـأنّ هـذه الأصـنام هي رمـوز لملائكة في السـماء ، فهم يقدّسـونها لكي تقـرّبهم إلى تلك الملائكة ، وهي بـدورها تشـفع لهم عند الله ، كما قالوا : «**ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى**» [1] ، وحيث يعتقد الجاهلون بأنّ الملائكة إناث فقد سمّوا هذه الأصنام تسمية الأنثى ونسبوها إليه عـزّ وجل ، والقرآن يستنكر هذه النسبة التي لا تقوم على أساس من العلم والحق.

(**أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى**)

وحيث يعتقد المشركون بأنّ الـذكر أفضل من الأنـثى فكــان ينبغي على ضــوء عقيــدتهم أن يتقرّبــوا إلى الله بالأحسن لا الأسـوأ ، ومن هـذا المنطلق تكـون قسـمتهم ظالمة حتى حسب معتقداتهم الضالة.

(**تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى**)

بعيدة عن الحق ، وهم لم يـروا الملائكة ولم يشـهدوا خلقهم حتى يزعموا بأنّهم

---

(1) الزّمر / 3

كــانوا إنـــاث! ، وهنا تتضح منهجية القـــرآن ، فهو يحطّم العقائد المنحرفة من بناها الأساســــــــية ، وذلك يزيل القدسية التي يعتقدونها في أصـنامهم ، ببيـان أظهر الأدلّة على زيفهم وانحرافهم ، مع أنّ الأظهر قد لا يكون هو أهمّ الأدلّة ، وقد لا يعـــبر عن كـــلّ الحقيقة ، ولكنّه يحطّم القدســية الــتي أضــفوها على معتقــداتهم ورموزها من الأصنام والطغاة ، وبعد أن تزول عقبة القدسية الموهومة عن طريق النفس يتحــــــرّر الفكر ، وينطلق للبحث عن الحقيقة ، فيطرح القرآن الحقائق الأعمق للنظر فيها.

[23] وبعد التمهيد المتقــدّم الــذي اســتهدف إزالة قدسية معتقدات المشـركين ينسف القـرآن أفكـارهم من أساسها نسفا ، وذلك ببيان أنّها لا رصيد لها أبدا من الواقع والحق ، وأنّها لا تقوم إلّا على الأوهام والظنون.

(**إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْـماءٌ سَـمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآبـاؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ**)

فهي لا واقعية لها ، بل هي مجــرّد أســماء ورمــوز لا مسمّيات لها ، ولعلّ معنى ذلك أنّ قوّة هذه الأصنام نابعة من ظنــونكم وأوهــامكم ، لا من واقع حق وراء ذلــك. أو ليس ما يتصــوّره البشر من صــور خيالية قائمة بنفسه ، ويكفي لإزالتها مجرد توقّف الخيال عن تصوّرها؟

تصوّر الآن نهرا من لجين مذاب ، واختر له اسـما مثلا (نهلجين) ، ثم أوقف عملية التصـوّر ، مـاذا يبقى من هـذا الــذي ســمّيته (نهلجين)؟ لا شــيء ، كــذلك حين يوقف المشــرك توهّمه لقدســية الأصــنام لا يبقى منها شــيء ، وكــذلك الطغـاة (وهي الأصـنام البشـرية) تـزول قـوّتهم وهيبتهم بمجــرّد إحســاس المستضــعفين بواقع أمــرهم وانتزاع وهم القدسية عنهم. أليس كذلك؟

ثمّ أنّ هذه الأسماء لا شرعية لها ، لأنّ الشرعية تأتي من عند الله وحــده ، وليس هنــاك دليل على أنّ الله أمر بعبادتها أو التوسّل بها إليه.

ومجرّد عدم وجود دليل (وسلطان مبين) من عند الله يسمح للإنسان بالتسليم لقـوّة سياسـية (صـنم حجـري أم بشري) يكفي دليلا على حرمة هذا الأمـر. أو ليس الله قد خلقنا ، ونحن عبيده. أفينبغي للعبد أن يطيع غير مولاه؟!

وإنّما قال تعالى : «**أَنْتُمْ**» وأضـاف إليها «**وَآبـاؤُكُمْ**» لكي يؤكّد مســئوليتهم هم عن انحــرافهم ، وأنّه لا يجــوز إلقاء مسئولية الانحراف على آبائهم وحـدهم ، ونسـتوحي من هذه الآية أنّ منهج المشركين الخاطئ خليط من أمور ثلاثة :

الأوّل : وراثة الضــلالة من الآبـــاء ، بينما الشـــرعية الحقيقية يأخذها الإنسان من ربّه لا من آبائه.

الثـاني : الظنـون ، وهي الإفـرازات السـلبية للـذهن البشري حينما تعمل فيه المؤثّرات الخاطئة.

الثــــالث : أهــــواء النفس ، ودورها : أوّلا : التمهيد للظنــون ، وثانيا : ترســيخها كما ترســيخ ذلك التقــديس الخاطئ للآباء ، لأنّها تلتقي معه.

(**إِنْ يَتَّبِعُـونَ إِلَّا الظَّنَّ وَما تَهْـوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَـدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى**)

وبالتـدبّر في هـذه الآية وما سـبقها يتضح لنا أنّ حركة الإنسـان نحو الزيغ تبـدأ من أهـواء النفس ، الـذي يتحـوّل إلى تمنّي ، والتمنّي إلى ظن (خيال) ، ثمّ تتحوّل التمنّيـات إلى عقيدة وفكرة ، ثم يـؤطّر البشر ذلك برمـوز وأسـماء يزعمها ، فالأصنام

إذن ليست رمـوزا للملائكة ولا للقـوى الطبيعية ، إنّما هي تجلّيات للأهواء النفسـية والمصـالح المادية ، فحينما يحبّ الإنسـان الـثروة يحبّ الـثري ، ويتخيّل لهـذا الحب رمـزا ومـذهبا ، ثمّ حينما يعبـده فهو لا يعبد الصـنم ولا الـثرى أو الثروة ، إنّما يعبد أهـواءه وشـهواته ، وهكـذا الـذي يعشق الجمـال أو الجنس ، ولو قمنا بدراسة تحليلية عن الأوثـان والأصنام التي عبدها الجاهلون في شبه الجزيرة العربية ، أو تلك الـتي علّقوها في الكعبة ، أو الأخـرى الـتي تقـدّس وتعبد هنا وهناك ، لخلصنا إلى نتيجة واحدة وهي أنّها ترمز إلى قوى اجتماعية واقتصادية وسياسية أو ثقافات وتقاليد وأسـاطير عند أصـحابها ، وأنّ عبادتها ليست إلّا عبـادة للأوهام والأهواء المتجذّرة في نفوسهم.

وهـذا الضـلال ليس نتيجة انعـدام الهـدى أو غموضه ، فقد جـاءهم الهـدى من ربّهم ، وعلى لسـان أفضل خلقه وأبلغهم وهم الأنبيـاء ، ولكنّهم تركـوا العقل إلى الجهل ، والعلم إلى الظن ، والهدى إلى الهوى.

[24] ولو تسـاءلنا عن سـبب هـذا الإختيـار الضـال لوجـدناه محـاولتهم التهـرّب من ثقل المسـؤولية بالأعـذار المختلفة التي جاءت السـورة لعلاجها ، ويبـدو أنّ السـياق يمهّد لـذلك ويقرّبنا شـيئا فشـيئا منه ، فمن أهـداف الرسـالات الإلهية جميعا ترسـيخ المسـؤولية ، وتعرية الإنسان من حجب التبرير والأهواء التي يحاول أن يتخلّص من المسؤولية باسمها.

(**أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى**)

التمنّي هو خـداع الإنسـان لنفسه بشـيء جميل من خلال الظنـون والأوهـام الـتي يصـنعها بتخيّلاته ، فالجـائع يتمنّى الشبع فيتخيّل القرص ، والعطشـان يتمنّى الارتـواء فيتـوهّم الأنهـار الرقراقة ، والشـبق يتخيّل نفسه يلصق بمعشوقته ، وهذه حالة طبيعية في

الإنسان ، تعطيه التوازن في الحياة ، وكلّما كانت الحقائق والتطلّعات التي يصبو إليها كبيرة وهامّة كلّما كانت تمنّياته تأخذ أشــكالا وأبعــادا جديــدة ، إلّا أنّ المبالغة في التمنّي تضرّ به لأنّه يخرجه من التعـايش الـواقعي مع الحيـاة إلى الأوهام والأسـاطير ، ومن السـعي الجـاد نحو الهـدف إلى مجـرد الظنّ والهـوى. أتـرى لو جلس أحد في بيته وتمنّى وصـول الـرزق إليه هل يتحقّق ذلك لـه؟ وهكـذا لو مشى في الدنيا خبط عشواء ، فإنّ مجرّد تمنّياته ـ المنطلقة من أهوائه والظنون والمبنية على اعتقاده بالأصنام ـ لن تـدفع عنه المشـاكل والـويلات ، ولن تنقـذه من العـذاب ، بلى. للإنسان سعيه وعمله خيرا أو شرّا ، وهذا ما سنجد الآيات تنتهي إليه كمحصّلة نهائية لعلاج فكرة التمنّي ، قال الإمام الصادق (ع) : «**تجنّبـوا المـنى ، فإنّها تـذهب بهجة ما خـوّلتم ، وتستصـغرون بها مـواهب الله جـلّ وعـزّ عنـــــدكم ، وتعقبكم الحســـــرات فيما وهمتم به أنفسكم**» [1].

[25 ـ 26] وبطلان فكرة التمنّي ليس مختصا بالآخرة وحسب ، بل يشـــمل الـــدنيا أيضا ، ذلك أنّ الله الـــذي خلقهما رسم خريطتهما ، وأركز فيهما سبلا وســننا واقعية تجريـــان على أساســـهما ، وليس على أســـاس الأحلام والتمنّيـــــــــات ، يقـــــــــول تعـــــــــالى : (**لَيْسَ بِأَمـانِيِّكُمْ وَلا أَمـانِيِّ أَهْـلِ الْكِتـابِ مَنْ يَعْمَـلْ سُـوءاً يُجْـزَ بِـهِ وَلا يَجِـدْ لَـهُ مِنْ دُونِ اللـهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً**) [2].

(**فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولى**)

الله هو الحق ، وهو الآمر به ، وســـلطانه الـــدائم ، وتـــدبيره المهيمن ، وقضـــاؤه النافذ ، كـــلّ أولئك ضـــمانة لتنفيذ الحق رغم تمنّيات البشر المعاكسة له ، وليس في

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 242

(2) النساء / 123

ظـلّ حكومة الله مجـال لظنـون الإنسـان وتمنّياته ، ومن يـزعم أنّه يتخلّص من سـنن الله وحاكميته بالاعتمـاد على أمانيه فهو يخطئ ، لأنّه ينازع الله في سـلطانه سـبحانه ، ولكي يعمل أمنياته لا بد أن يخـــرج من ســـلطان الله ، ويبحث له عن حياة تغني فيها الأمنيـات ، ولن يحصل ذلك لأنّ الحيـــاة كلّها له عـــزّ وجـــلّ ، أو يبحث له عن حكومة يمكنها أن تواجه ســـــلطانه وإرادته ، ولن يجد إلى ذلك ســـبيلا ، وحـــتى الملائكة المـــوكّلين بالطبيعة لا تغـــني شفاعتهم شـيئا ، لأنّ قـوّتهم من الله وليست ذاتية ، وهم لا يشفعون إلّا لمن شاء وارتضى.

(**وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً**)

لو افـــترض أنّهم بـــادروا للشـــفاعة ، فكيف بتلك الأصنام؟! بلى. إنّ شـفاعتهم والأوليـاء تنفع بإذنه تعـالى ، ولأفراد مخصوصين يرضى لهم الله الشفاعة.

(**إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى**)

وإذنه لا يحصل بسبب ضغط قوى أخـرى ، تعـالى عن ذلك علـــوّا كبـــيرا ، إنّما يـــأذن بإرادته العليا ، كما أنّه لم يجعل الشـفاعة بعيـدة عن القـوانين والسـنن الـتي خلق الحياة وفقها ، ومن هذه القوانين أن يكون الشفيع مرضيّا عنده.

وهكذا يحدّد القرآن الشفاعة بحدّين :

(أ) حدّ للشافع الذي لا يكون إلّا من يرتضـيه الله ، فلا تجـــوز الشـــفاعة أساسا إلّا للأنبيـــاء والأوليـــاء والملائكة المقـرّبين ، أمّا الأصـنام الحجرية والبشـرية فليست أهلا للشفاعة أبدا.

جاء في الحديث عن الرسول الأعظم (ص) :

«الشـــفاعة للأنبيـــاء والأوصـــياء والمؤمـــنين والملائكة» [1].

وعنه (ص) : **«ثلاثة يشـفعون إلى الله عـزّ وجـلّ فيشفعون : الأنبياء ، ثمّ العلماء ، ثمّ الشهداء»** [2].

(ب) حدّ لمن يشـفعون له ، فلا يشـفع من وصل إلى درجة الشـفاعة إلّا لبعض النـاس ممّن يـأذن الله له بـأن تشمله الشـفاعة وممّن رضي الله عنـه. قـال عـزّ وجـلّ : (**وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى**) [3].

وروى عن الإمـام الصـادق (ع) : **«اعلمـوا أنّه ليس يغـــني عنكم من الله أحد من خلقه شـــيئا ، لا ملك مقـــرّب ولا نـــبي مرسل ، ولا من دون ذلك ، فمن سرّه أن ينفعه شـفاعة الشـافعين عند الله فليطلب إلى الله أن يرضى عنه»** [4].

وعن الرسـول الأعظم (ص) : **«الشـفاعة لا تكـون لأهل الشك والشرك ، ولا لأهل الكفر والجحود ، بل يكون للمؤمنين من أهل التوحيد»** [5].

وعن الإمــــــام الصــــــادق (ع) : **«لو أنّ الملائكة المقرّبين والأنبياء المرسـلين شـفعوا في ناصب ما شفّعوا»** [6].

ولا تنفي الآية بقوله تعالى «**لا تُغْنِي**» الشفاعة كلّيّا ، وإنّما تنفي حتميتها ، كما تؤكّد على ضــرورة أن لا تكــون علاقة الإنسان بالغير حتى العباد المكرمين

---

(1) بحار الأنوار / ج 8 ص 58
(2) المصدر / ص 34
(3) الأنبياء / 28
(4) بحار الأنوار / ج 8 ص 53
(5) المصدر / ص 58
(6) المصدر / 42

كالملائكة والأوليــاء من النــاس مضــادّة لعلاقته بربّه ، ولا بــديلا عنها ، بل امتــدادا لها ، وقوله «**لِمَنْ يَشـاءُ**» يهــدينا إلى أنّ الشفاعة قضية شخصية تتوجّه إلى الإنسان الفــرد بذاته بعيـــــدا عن النظر الى انتمائه ، فقد ينتمي اجتماعيّا إلى فريق الضــالين ولكنّها تناله ، وقد تفوته بــالرغم من انتمائه إلى فريق المؤمــنين ، والــذي يحــدّد الشــفاعة هو علم الله النافذ إلى حقيقة الإنسان.

[27] ثمّ يقول تعالى :

(**إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِـالْآخِرَةِ لَيُسَـمُّونَ الْمَلائِكَـةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثى**)

والسـؤال : لمـاذا يسـمّي المشـركون الملائكة إناثا ، وما هي علاقة ذلك بالكفر بالآخرة؟

لعلنا نجد الجواب في أنّ الأنثى رمز العطف والحنـان ، وهم يسـمّون الملائكة بـذلك رجـاء عطفهم وشـفاعتهم لهم عند الله ، وبهـذا الإعتقـاد يحـاول المشـركون تـبرير ممارسـتهم للـذنوب في الـدنيا ، واقنـاع أنفسـهم بإمكانية التخلّص من مسئولياتها في الآخـرة بالتوسّـل بمن يعطف عليهم وهم الإنــــــاث من خلق الله وهم الملائكة حسب زعمهم ، وهذا كفر صريح بالآخرة كدار للجزاء العادل.

[28] (**وَما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَ**)

وهو الإفـــرازات (التصـــوّرات والأفكـــار) الناتجة من إعمال الإنسان لخياله بعيدا عن البراهين الواقعية.

(**وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً**)

ونفي البعض ينفي الكل ، وليس العكس ، وهو أبلغ في النفي ، فلا شيء من الحق يغنيه الظنّ أبدا ، والقرآن هنا يستثير قضية وجدانية هي قبح كلام الإنسان

فيما لا يعلم ، وقد تحـدّث هـؤلاء عن طبيعة الملائكة وذلك جزء من الغيب المحجوب عن علم البشر بشهادة وجدانه. أو ليس الإنســـان ينفذ عقله إلي معرفة الأشـــياء عـــبر حواســـه؟ أو ليس لكـــلّ علم أداته ووســـيلته ، فما هي الحاسة الـتي نعلم بها غيب السـموات والأرض ، وما هي الأداة الـــتي نعـــرف بها طبيعة الملائكة ، وأنّهم إنـــاث لا ذكور؟!

إنّها مشكلة البشر. إنّه يهوى شـيئا فيتمنّـاه ، ثم يظن أنّه واقع فيسعى وراء ظنّه خادعا نفسه.

[29] وإنّما اتبع هؤلاء الظن لأنّهم اختـاروا الـدنيا على الآخرة ، فاكتفوا بالظن بدل العلم والحق ، وبـالتمنّي بـدل السـعي ، وكـلّ ذلك لأنّهم لم يعـترفوا بالمسـؤولية ، ولم يبتغـوا مرضـاة الـربّ ، ولو آمنـوا بـالآخرة ، وظنـوا أنّهم ماثلون أمام ربّهم للحساب غدا عن كلّ صـغيرة وكبـيرة ، إذا عرفـــوا أنّ الطريق إلى الحق هو العلم وليس الظن ، ولكنّهم آمنوا بالدنيا فقط ، والدنيا هي حياة اللامسؤولية ، وعلى الداعية الرســـــــالي أن لا يبخع نفسه عليهم ، بل يتركهم وشأنهم.

(**فَـأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَـوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُـرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا**)

لأنّ مشـكلة هـذا النـوع من البشر ليس عـدم قناعته بالحق ، فهو يعلم بأنّه الهدى والصواب ، ولكنّه يتـولّى عنه ابتغاء الـدنيا ، وإنّما أمر الله بـالإعراض عنهم لكي لا يتـأثّر المؤمن بهم سلبيّا ، فيغيّر من رسالته صوب الدنيا ، تنـازلا عن بعض أهدافها ، أو من أجل إقناعهم باتباعها ، ثم أنّه لا ينبغي للمـؤمن أن يبـدّد جهـوده الغالية فيما لا يرجو نفعا منه ، بل فيما يخدم الرسالة ، ويقدّم المؤمنين خطوة إلى الإنتصار.

وقد قـال تعـالى : «**عَنْ ذِكْرِنا**» وهي للتعظيم ، ولم يقل عن ذكري ، لأنّ

الضـمير المفـرد يسـتخدمه الله في موضع إثبـات التوحيد وتأكيـــده ، أو في مجـــال الرحمة والعطف ، والحـــال أنّ هؤلاء تكبّـروا عن الحق ، وتولّـوا معرضـين عنه ، فالمقـام مقام التعالي والتكبّر عليهم ممّا يتناسب واستعمال ضمير التعظيم (أو ما يسمّى بضمير الجمع) ، ذلك لأنّ إعراضهم لا ينـال شـيئا من عظمة الله ، كما أنّ إيمـان المؤمـنين لا يزيده سـبحانه شـيئا. وسـمّى القـرآن هنا بالـذكر لأنّه في مقام علاج العقائد ، وهي قضايا وجدانية ، ولفظ الذكر بما يحويه من إيحــاءات وإشــارات لعلاقة القــرآن بــالفطرة البشرية أخدم للمعنى من غيره في هذا الموضع.

كما تنطــوي نهاية الآية : «**إِلَّا الْحَيــاةَ الـدُّنْيا**» على فكرتين مهمّتين :

الأولى : إنّ المؤمن يفترق عن الكافر والمشـرك في قضية أساسية هي أنّ الأوّل يريد الدنيا والآخرة ، ويسـعى لهما معا ، موفّقا بين الحق الـذي يجب عليه الالـتزام به ، وبين نصيبه الذي أحلّ الله له من الدنيا.

والثانية : إنّ على المـؤمن أن لا يضـعف أمـام أعـداء الله أو يتملّق إليهم لأنّهم ظفروا بشيء من حطام الدنيا ، فـــذلك حظّهم ، بل يجب عليه أن يستمسك برســـالته ، ويتصلّب في ولائه للحق ، ويعرض عنهم ، لأنّهم لا يملكون إلّا هذه الدنيا الزائلة.

[30] وإنّ عـدم إرادة المعرضـين عن الـذكر للحيـاة الآخــرة ليس ناشــئا من حسن اختيــارهم ، وإنّما لجهلهم بتلك الحياة وما فيها من الثـواب ، ولو علمـوا يقينا ما فيها من الفـــوز لأرادوها واشـــتدّت فـــاقتهم إليها ، وعظمت رغبتهم فيها ، ولكنّهم حصـروا أنفسـهم وحبسـوا عقـولهم في سجن الدنيا ، وهـذه من معضـلات الإنسـان أنّه يصـنع لنفسه سقفا من العلم ، ويكبّل عقله بأغلال الهـوى وإصر الشـهوات عن الانطلاق في رحـاب العلم والحق ، وصـدق الإمام علي (ع) حيث قال : «**كم من عقل أسير تحت**

هوى أمير» [1].

(**ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ**)

وهذه الآية تؤكّد بأنّ الإيمان بـالآخرة حجر الزاوية في تفكير الإنسان المؤمن.

ولكي يتم إعـراض المـؤمن عن الجـاهلين يحتـاج إلى أمور أهمّها :

1 ـ العلم بـأنّهم على باطل ، وقد بيّن القـرآن ذلك حينما أكّد بـأنّهم (**إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَما تَهْوَى الْأَنْفُسُ**) ، ثم ضـرب أمثلة على ذلك كموقفهم من الملائكة ، وكفرهم بالآخرة ، وتولّيهم عن الذكر.

2 ـ اليقين بـأنّهم ضـعفاء في المحصّـلة النهائية بخسرانهم الآخرة.

3 ـ المعرفة بأنّ حساب النـاس ليس من مسـئوليات المؤمـنين ، إنّما الله يفصل بينهم ، ويعلم المهتـدين والضالين.

(**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى**)

إذن فغلبة الضـالين على المؤمـنين عند الجـدال أو عدم غلبة المؤمنين عليهم لا يغيّر من الواقع شيء ، فأهل الباطل هم أهل الباطل وأهل الحـقّ هم أهله ، ذلك أنّ كلام النـاس ليس مقياسا ، إنّما الحق والباطل هما المقياس بذاتهما.

ثمّ أنّ الخلافات ـ حسبما نستوحي من الآية الكريمة ـ لا تحسم في الدنيا لأنّها لم تخلق لذلك ، وكما قال الله :

(1) نهج البلاغة / حكمة 211.

«**وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَـلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِـدَةً وَلا يَزالُـونَ مُخْتَلِفِينَ**» [1] ، والدار الآخرة هي محلّ الحسم والجزاء ، فلا ينبغي للمـؤمن أن يكـون جبّـارا على النـاس يحـاول إكـراههم على الهـدى إن أوتي السـلطة عليهم ، كما لا ينبغي عند ضعفه أن يهلك نفسه إذا ما تولّوا عن دعوته.

كما نسـتوحي من كلمة «**عَنْ سَـبِيلِهِ**» في الآية أنّ في الحياة سننا وقوانين ، وهي السبيل إلى الحق ، وهـذه يعلمها الله ويحاسب عليها ، يضـلّ عنها جماعة فيصـيرون إلى الباطل والعذاب ، ويهتدي إليها آخرون فيصـيرون إلى الحـقّ والسـعادة ، والسـبب أنّ الفريق الأوّل ينكر هـذه الحقيقة ، بينما يـؤمن بها فريق المهتـدين فيبحثـون عنها ، فـإذا وجـدوها طبّقوها ، وكيّفـوا حيـاتهم وفقها ، وتجـاوزوا الأخطاء والضلال.

---

(1) هود / 118.

وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لِيَجْـزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَيَجْـزِيَ الَّذِينَ أَحْسَـنُوا بِالْحُسْـنَى (31) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُـوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَـأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُـونِ أُمَّهـاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَـكُمْ هُـوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى (32) أَفَـرَأَيْتَ الَّذِي تَـوَلَّى (33) وَأَعْطى قَلِيلاً وَأَكْـدى (34) أَعِنْـدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى (35) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ

---

32 [إلّا اللّمم] : أي الــذي يلم بالإنســان ، ويــرد عليه مما لا علاج من وروده غالبا ، وهي الصغائر مثل : كلمة نابية ، أو ضحكة غير جائزة ، أو نظرة محرّمة ، أو ما أشبه ذلك.
[أجنة] : جمع جنين ، الإنسان حينما يكون في رحم أمّه.
34 [وأكــدى] : أي قطع العطــاء ، واشــتقاقه من كدية الركية ، وهي صلابة تمنع الماء إذا بلغ الحافر إليها يئس من الماء ، فيقال : أكدى إذا بلغ الكدية.

مُوسى (36) وَإِبْــــراهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37) أَلاَّ تَــــزِرُ
وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْــرى (38) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْســـانِ إِلاَّ ما
سَعى (39) وَأَنَّ سَـعْيَهُ سَـوْفَ يُـرى (40) ثُمَّ يُجْـزاهُ
الْجَـــــزاءَ الْأَوْفى (41) وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى (42)
وَأَنَّهُ هُـوَ أَضْـحَكَ وَأَبْكى (43) وَأَنَّهُ هُـوَ أَمـاتَ وَأَحْيا (
44) وَأَنَّهُ خَلَـقَ الـزَّوْجَيْنِ الـذَّكَرَ وَالْأُنْـثى (45) مِنْ
نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى (46) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْـرى (47)
وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنى وَأَقْـنى (48) وَأَنَّهُ هُـوَ رَبُّ الشِّـعْرى (
49) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى (50) وَثَمُـودَ فَما أَبْقى (
51) وَقَــوْمَ نُــوحٍ مِنْ قَبْــلُ إِنَّهُمْ كــانُوا هُمْ أَظْلَمَ
وَأَطْغى (52) وَالْمُؤْتَفِكَـةَ أَهْـوى (53) فَغَشَّــاها ما
غَشَّـى (54) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمـارى (55) هـذا نَـذِيرٌ
مِنَ النُّذُرِ الْأُولى (56) أَزِفَتِ الْآزِفَــةُ (57) لَيْسَ لَها
مِنْ

---

49 [الشّعرى] : هو نجم في السـماء يطلع آخر الليل ، كـان جماعة من العرب يعبدونه.
53 [والمؤتفكـة] : وهي قـرى قـوم لـوط (ع) الـتي ائتفكت بأهلها أي انقلبت ، وقيل للكذب إفكا لأنّه قلب للمعنى من جهته.
57 [أزفت الآزفة] : أي قربت القيامة ودنت.

**دُونِ اللهِ كاشِفَةٌ (58) أَفَمِنْ هذَا الْحَـدِيثِ تَعْجَبُـونَ (
59) وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ (60) وَأَنْتُمْ سامِدُونَ (61)
فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (62)**))

---

61 [سامدون] : لاهون ، والسمود اللهو ، والسامد اللاهي.

وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى

هدى من الآيات :

بصراحة الحقيقة ، وبقوة اليقين ، يتقدم بنا السياق القرآني شيئا فشيئا الى الفكرة المركزية في هذه السورة ، وهي فكرة المسؤولية التي نجدها في تضاعيف أغلب آياتها وكأنها خافية لكل فكرة فيها وشاهد ، الا انها تتجلى كصراحة الشمس عند قوله تعالى : (**وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى**) الآية (39).

ولكنّ الله قبل ان يقذف بهذا الحق على باطل التبرير واتباع الهوى والظن ، يذكرنا بلون من ألوان الشفاعة المقبولة عنده وهي شفاعة الأعمال الحسنة للإنسان عن اللمم من السيئات كما نجد تصريحا به في الآية الكريمة : «**وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ**» [1] ان تقوى الإنسان التي تجنبه كبائر الإثم تشفع له في الصغائر (اللمم) ، ولعل

---
(1) هود / 114

تقديم هذه الفكرة (الشفاعة) المشحونة بالرجاء واللطف الالهي ، على فكـــرة المســـؤولية وما فيها من الشـــدة والصـرامة ، يهـدف اعطاءنا الأمل في رحمة الله ، لكي لا نيـــأس فنتوغل في الجريمة والـــذنب ، أو نقعد عن عمل الصـالحات ، بنـاء على تصـوراتنا البشـرية المرتكـزة في القنـــوط والجـــزع. كلا ان الله رحيم ويحاســبنا بفضـــله لا بعدله ، والا لما دخل الجنة أحد كما قال الرســول الأعظم (ص) : «**ولا أنا إلّا أن يتغمـــــــــدني الله برحمة منه وفضل**» [1].

ثم يؤكد القرآن بخطاب فصل مسـئولية الإنسـان عن سـعيه ، انه يجـازى عليه ان خـيرا فخـير وان شـرا فشر ، وهي تتعلق بنفي الشـــرك وبـــرفض الأنـــداد ومـــدى عمق حقيقة التوحيد في النفس فكلما زاد يقين الإنســـان بالله وانه المالك الحاكم الأحد لكل شيء ، كلما كان أقرب من المســـؤولية ايمانا وعملا ، وابعد عن الحجب والتـــبريرات التي تمنعه من حملها.

ان التوحيد يجعله لا يتوسل بوشـــائج الشـــرك ، الـــتي هي بذاتها نوع من التبريرات التي يلجأ إليها الإنسـان تهربا من المسؤولية. انك تراه يقبل كل شيء ، يقبل ان يكـــون عبدا للشجر وللحجر وللبقر لا فرق من أجل ذلك لكي يفر من ثقل المســؤولية. إذا فمـتى ما طهـرت نفسه من درن تلك الأصنام ، القائمة على أساس الثقافة الجاهلية الضالة ، القائمة بـــدورها على الظن وهـــوى النفس ، فانه يومئذ مجــرد ان يقف امــام المســؤولية بلا تــبريرات يجد نفسه امام حجة بالغة تضطره الى التسليم لها عمليا.

بينات من الآيات :

[31 ـ 32] لقد دعا الله المؤمنين الى الاعراض عمن تولى ، ولان البعض لا يعرض عن الكيـان الجـاهلي خشـية الضعف والفقر ، أكد القرآن بان الله هو الغني

(1) بح / ج 7 / ص 11

الـذي يملك خـزائن الكـون ، والقـوي الـذي يهيمن على الحياة. فلما ذا الخشية إذا من مقاومة الانحـراف؟ ورفض هيمنة المنحرفين؟

(**وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ**)

فهو وحـده الـذي وضع سـنن الكائنـات ويهيمن عليها ويجريها بقدرته وعدالته.

(**لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا**)

عدلا السيئة بمثلها.

(**وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى**)

فضلا ، فالحسـنة بعشر أمثالها ، وتتضـاعف «**وَلَـدَيْنا مَزِيدٌ**» [1] وبالتدبر في شطري الآية الكريمة الشطر الاول الـــذي ينطـــوي على فكــــرة التوحيد (**وَلِلَّهِ ما فِي السَّـماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ**) ، والشـطر الثـاني الـذي ينطوي على فكرة المسـؤولية المنبثقة من حقيقة الجـزاء (**لِيَجْـزِيَ**) .. فاننا نعـرف العلاقة الوثيقة بينهما ، وذلك ان الـــذين ينحرفـــون يحـــاولون التملص من مســـئولياتهم بالشـرك. والحق ان التوحيد يعـني نفي الشـريك ، وهـذا بــدوره ينفي التــبرير ، اذن فالموحد الحق هو الّـذي يتهيأ لحمل المســـؤولية. ان هـــذه الآية تنسف ثقافة التـــبرير المتجسـدة في عبـادة الأنـداد كالملائكة والأصـنام وحـتى العباد الصالحين تمنيا للشفاعة ، وذلك ببيان ان الله يجري عدالته في الحيـاة ، ولا أحد يسـتطيع فـرض إرادته عليه ، لان الحياة تكوينيا وتشريعيا له وحده لا يشاركه فيها أحد ، وإذا كانت ثمة هيمنة ظاهرية للملائكة فهي تنفيذية وبـإذن الله ، وتبقى الهيمنة الحقيقية المطلقة لله وحـــــده ، فلا مهـرب منه إلّا اليه ولا شـفاعة الا من بعد اذنه ، ولا أنـداد قادرين على تغيير سنن الله في الخليقة حسب أهوائهم

---

(1) ق / 35

وبالذات سنة الجزاء العادل.

ثم ان تأكيد القــــرآن على بيــــان العدالة الالهية في الجـزاء في أكـثر سـور القـرآن انما هو لـيزرع الاطمئنـان العميق في قلب البشر الى وقـــوع الجـــزاء. الأمر الـــذي يبعثه نحو عمل الخـــير ويزجـــره عن الشر الا ان العدالة وبالتـــالي المســـؤولية فكـــرة قاســـية لا يتحملها القلب البشــري الــذي من طبيعته الانحــراف. لــذلك تــأتي الآية اللاحقة لتخفف وطأتها ببيان مدى رحمة الله وغفرانه.

(**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ**)

والإثم هو عمــوم الــذنب (بين العبد وربه أو بينه وبين نفسه أو بينه وبين النــاس) بينما الفــواحش هي الــذنوب الاجتماعية. قال الامـام الصـادق (ع) : «**الفـواحش الزنا والسرقة**» [1] وهما ذنبان اجتماعيان.

وذكر الفواحش من دون اضـافة كلمة الكبـائر بخلاف الإثم أضـيف اليه لفظ الكبـائر ، لان الفـواحش بـذاتها من الكبائر فلا يقال للذنب الاجتماعي فاحشة ، بينما الإثم فيه الصغائر (اللمم) وفيه الكبـائر. وفيما يلي نـذكر حـديثا في كتاب الإثم مرويا عن الامام الرضا (ع) قال : سـمعت أبي موسى بن جعفر (ع) يقول : دخل عمرو بن عبيد البصـري على أبي عبد الله (ع) ، فلما ســلم وجلس تلا هــذه الآية (**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ**) ثم أمسك فقال له أبو عبد الله (ع) : ما أمسكك؟ فقال : أحب ان اعرف الكبـائر من كتاب الله عز وجل فقال : يا عمرو! أكبر الكبـائر الشـرك باللـه. يقـول الله تبـارك وتعـالى : (**إِنَّ اللـهَ لا يَغْفِـرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ**) ويقول عز وجل : (**إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَـأْواهُ النَّارُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصـارٍ**) ، وبعــده اليــأس من روح الله لان الله عز وجل يقول :

---

(1) نور الثقلين / ج 5 / ص 161

(وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ ، إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ) وثم الأمن من مكر الله. لان الله عز وجل يقول : (فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ) ، ومنها عقوق الوالدين. لان الله عز وجل جعل العاق جبارا شقيا في قوله تعالى : (وَبَرًّا بِوالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا) ، وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق. لان الله عز وجل يقول : (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها) ... الى آخر الآية) ، وقذف المحصنات. لان الله عزّ وجلّ يقول : (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ الْغافِلاتِ الْمُؤْمِناتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ) ، وأكل مال اليتيم ظلما لقول الله عزّ وجلّ : (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً) ، والفرار من الزحف لان الله عز وجل يقول : (وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) ، وأكل الربا لان الله عزّ وجلّ يقول : (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِ) ويقول الله عز وجل : (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ* فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ) ، والسحر لان الله عزّ وجلّ يقول : (وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ) ، والزنا لان الله عزّ وجلّ يقول : (وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً إِلَّا مَنْ تابَ) الآية ، واليمين الغموس لان الله عزّ وجلّ يقول : (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ) الآية ، والغلول قال الله عزّ وجلّ : (وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِما غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ) ، ومنع الزكاة المفروضة لان الله عزّ وجلّ يقول : (يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ) ، وشهادة الزور وكتمان الشهادة لان الله عزّ وجلّ يقول (وَمَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ) ، وشرب

الخمر لان الله عـزّ وجـلّ عـدل بها عبـادة الأوثـان وتـرك الصلوة متعمدا أو شيئا مما

فرض الله عز وجل لان رسول الله (ص) قال : (من تـرك الصلوة متعمدا فقد برىء من ذمة الله وذمة رسوله (ص) ،ونقض العهد ، وقطيعة الرحم ، لان الله عزّ وجلّ يقول : (**أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَـةُ وَلَهُمْ سُـوءُ الـدَّارِ**) قـال : فخـرج عمرو بن عبيد وله صـراخ من بكائه وهو يقـول : هلك من قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم [1].

وفي حديث آخر : «**واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله تعالى ، والقنوط من رحمة الله تعـالى ، ومعونة الظـــالمين والركــــون إليهم ، واليمين الغموس ، وحبس الحقوق من غير عسر ، والكـذب ، والكـــبر ، والإســــراف ، والتبـــذير ، والخيانة ، والاســـتخفاف بـــالحج ، والمحاربة لأوليـــاء الله ، والاشتغال بالمناهي ، والإصرار على الذنب**» [2].

والى جانب هذه الكبائر هناك الـذنوب الصـغيرة الـتي يقترفها الإنسـان ــ بطبيعته الضـعيفة ــ عن قصـور أو من دون قصد مبارزة الله ، فان حسناته وتجنبه للكبائر ، الذي يدل على سلامة مجمل مسـيرته يشـفعانها له ، وهـذا من رحمة الله وسعة غفرانه ، اما لو مارس الصغائر عن عنـاد وإصرار فانها تصير كبائر أيضا.

(**إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ**)

قـال الامـام الصـادق (ع) «**اللمـام العبد الـذي يلم بالذنب بعد الذنب ، ليس من سـليقته اي من طبعه**» [3] وكما ان الإصرار يصير الإثم الصـغير من الكبـائر ، فـان التوبة والاسـتغفار يصـيران الكبـائر صـغائرا ، أو يمحو انها من كتـاب السـيئات. لـذلك نجد تفسـيرا لكلمة اللمم غـير صغائر الإثم ، انما عموم الإلمام بالذنب بصورة

(1) المصدر ص 160
(2) المصدر ص 163
(3) المصدر ص 162

طارئة وغـير متعمـدة. ويؤكد الامـام (ع) ان غفـران الله يسع كل ذنب بشرط الاستغفار ، قال الامـام الصادق (ع) «**واللمم الرجل يلم بالذنب فيستغفر الله منه**» قـال الـراوي : بين الضلالة والكفر منزلـة؟ فقـال : «**ما أكـثر عرى الايمان**» [1].

ان السـبب الحقيقي للـذنب بالاضـافة الى هـوى الإنسـان هو الشـيطان الـرجيم ، وهو قد يمر مـرورا على قلبه فيجعله يلم بالمعصـية ، وقد يسـكن فيه ويفـرخ فيجعله يقترف الخطيئة تلو الخطيئة ، وبالنسبة للمؤمـنين فانه لا يطيق السـكون في قلـوبهم لأنهم يسـتعيذون بالله منه ، ويلعنونه قبل كل شـيء وبعـده ، ولو افـترض ان أصابهم بسهم منه فإنهم سرعان ما يرجعون الى الصواب «**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَـوْا إِذا مَسَّـهُمْ طـائِفٌ مِنَ الشَّـيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ**» [2].

وكلمة اخـيرة ان في الإسـلام نـوعين من الـذنوب ، الصغائر والكبائر ، ولكن المعـوّل الحقيقي في تحديد نـوع الذنب هو مدى وعي الإنسان به وموقفه من ممارسـته له ، فقد ينـدفع الإنسـان نحو ذنب صـغير ، ولكن تحـديا لسلطان الله ، وعنادا واستكبارا عليه ، فيكون كبـيرا. فقد جـاء في الحـديث الشـريف : «**قد يـرى الله العبد على ذنب فيقـول له افعل ما شـئت فـاني لا اغفر لك أبدا**».

وقد يـأتي الإنسـان بـذنب كبـير استرسـالا واسـتجابة لضغوط هائلة ، ولكن سرعان ما ينـدم ويـتراجع فـان الله سـبحانه يغفر له .. قـال تعـالى : (**وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُـوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللـهَ ، فَاسْـتَغْفَرُوا لِـذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِـرُ الـذُّنُوبَ إِلَّا اللـهُ ، وَلَمْ يُصِـرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ* أُولئِكَ جَـزاؤُهُمْ مَغْفِـرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَجَنَّاتٌ تَجْرِي**

---
(1) المصدر ص 161
(2) الأعراف / 201

(مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ، وَنِعْمَ أَجْرُ الْعـامِلِينَ) [1].

ولكن من الذي يحـدد الـذنب الـذي يقترفه الإنسـان ، هل هو من الصــغائر أم من الكبــائر على ضـــوء هـــذه القاعدة؟

انه الله الذي يحيط علما بدقائق حياة الإنسـان ، وفي جميع مراحل نشــأته. ولا يخــدع الله عن جنتــه. نعم فهو الــذي خلقنا وربانا من يــوم كنا في بطــون أمهاتنا حــتى نمـوت. فحـتى العوامل الوراثية والتربوية الـتي تـؤثر في شخصية الإنسان التي تنقل اليه وهو جنين يعلمها الله.

(هُــوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَــأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ)

ويبدو ان كلمة الأرض هنا تشير الى القــوى والعوامل السـلبية المـؤثرة في شخصـية الإنسـان ، كـالهوى وحب المال والظهور و... وتشير الآية الكريمة الى بصيرتين هما : سبق رحمة الله الى الإنسان إذ والى نعمة عليه قبل ان يصير الى رحم امه فأنشأه من دون شـيء سـبق منه اليه تعالى ، ثم لما صار جنينا انشأه وأسبغ عليه من نعمه حتى استوى ، وهذه الآية تؤكد سعة رحمة الله ومغفرته.

وقد تجلت هذه البصيرة القرآنية أيضا في دعاء الامام الحسين في يوم عرفة ، حيث جاء فيه : «ابتدأتني بنعمتك قبل ان أكــون شــيئا مــذكورا. خلقتــني من الــتراب ثم اسـكنتني الأصـلاب آمنا لـريب المنـون ، واختلاف الـدهور والسـنين. فلم أزل ظاعنا من صـلب الى رحم في تقـادم في الأيام الماضية ، والقرون الخالية ، لم تخرجني لرأفتك بي ، ولطفك لي ، وإحســـــانك اليّ في دولة أئمة الكفر الذين

(1) آل عمران / 135 ـ 136

نقضوا عهدك ، وكذبوا رسلك ولكنك أخرجتني للذي سـبق لي من الهـدى الـذي له يسـرتني ، وفيه انشـأتني ، ومن قبل ذلك رؤفت بي بجميل صـــنعك ، وســـوابغ نعمـــك. فابتدعت خلقي من مـنيّ يمـنى ، واسـكنتني في ظلمـات ثلاث بين لحم ودم وجلد ، لم تشـهدني خلقي ، ولم تجعل اليّ شـيئا من أمـري ، ثم أخرجتـني للـذي سـبق لي من الهـدى الى الـدنيا تاما سـويا ، وحفظتـني في المهد طفلا صبيا ، ورزقتني من الغذاء لبنا مريا ، وعطفت عليّ قلوب الحواضن ، وكفلتــني الأمهــات الــرواحم ، وكلاتــني من طوارق الجان ، وسلمتني من الزيادة والنقصان. فتعـاليت يا رحيم يا رحمــان حــتى إذا اســتهللت ناطقا بــالكلام ، أتممت عليّ سوابغ الانعـام ، وربيتـني زايـدا في كل عـام. حتى إذا اكتملت فطرتي ، واعتـدلت مـرّتي ، أوجبت عليّ حجتك ، بأن ألهمتني معرفتك ، وروّعتني بعجـائب حكمتك ، وايقظتني لما ذرأت في سمائك وأرضك من بدائع خلقك ، ونبهتـــني لشـــكرك وذكـــرك ، وأوجبت عليّ طاعتك وعبادتك ....» [1]

البصــيرة الثانية : نفــوذ علم الله الى جميع جــوانب حياة الإنسان ودقائقها ، اذن لا يفوته شيء عنه.

وفائـدة بيـان هـذه الحقيقة هي ان الإنسـان قد يبتلى بـالغرور والتـبرير فـيزكي نفسه ، ويسـمي كل ما يقترفه من الـذنوب حـتى الكبـائر والفـواحش لمما ، أو يصل الى حالة ذلك الإنسان الذي يشـرب الخمر ويقـول انه يتحـول خلا بمجرد بلوغ فاه ، ويـبرر ذلك بأنه وصل الى درجة من الايمان حيث يتحول في جسمه الخمر خلا ، أو الاخر الذي امر اتباعه بالصـــــلاة وقعد عنها لأنه عند نفسه بلغ مقاما فوق الصلاة.

(**فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى**)

---

(1) مفاتيح الجنان / دعاء يوم عرفة

لأنه إذا وصل الإنسـان الى هـذه المرحلة ، بـدأ رحلة الانتكاس ثم لا يتوقف بل ينحدر الى أسفل سافلين.

[33 ـ 34] ان عبادة الأصـنام (الشـرك باللـه) وتزكية النفس تبريرات يتشـبث بها الإنسـان ، وهنـاك تـبريرا آخر يتمثل في محاولة الاعتمــاد على البــدائل فمثلا أصــحاب المـال يظنـون انهم حينما يعطـون مـالا في سـبيل الله ، فســوف يحــررون أنفســهم من تطــبيق القيم والالــتزام بالمسـؤولية ، أو يرفعـون عنها مسـئولية ممارسة الكبـائر والفواحش. كلا.

(**أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى**)

عن ذكر الله ، وعن تطــبيق الحق وتحمل الامانة ، ثم اعطى بعض المال ليتهرب من المسؤولية؟

(**وَأَعْطى قَلِيلاً وَأَكْدى**)

اي اعطى شيئا قليلا ثم توقف كليا عن العطاء.

قال صاحب المجمع نـزلت الآيـات السـبع في عثمـان ابن عفــان كــان يتصــدق وينفق ، فقــال له اخــوه من الرضـاعة عبد الله بن سـعد بن أبي سـرج : ما هـذا الـذي تصنع؟ يوشك ان لا يبقى لك شيء فقـال عثمـان : ان لي ذنوبا واني اطلب ما اصنع رضى الله وأرجو عفوه ، فقــال له عبد الله اعطـــني ناقتك برحلها وانا أتحمل عنك ذنوبك كلها ، فأعطـاه واشـهد عليه وأمسك عن النفقة فـنزلت : (**أَفَـرَأَيْتَ الَّذِي تَـوَلَّى**) اي يــوم أحد حين تــرك المركز واعطى قليلا ثم قطع النفقة الى قوله (**وَأَنَّ سَـــــــعْيَهُ سَوْفَ يُرى**) فعاد عثمان الى ما كان عليه عن ابن عباس والسدي والكلبي وجماعة

من المفسرين [1] وقيل نزلت في الوليد بن المغيرة [2]

[35 ـ 38] بل ان أصحاب المال يظنون انهم على حق ومن أهل الجنة لمجرد كونهم من المترفين ، وهذا التمني عميق لديهم بدليل آيات سورة الكهف : «**وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَأَعَزُّ نَفَراً* وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً* وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً**» [3].

والقرآن يستنكر على المترفين هذا الظن قائلا : متى عرف هؤلاء ما في الغيب حتى يحكمون بأنهم أفضل الناس عند ربهم؟!

(**أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى**)

كلا .. انه لا يعرف شيئا عن الغيب ، وهذه قضية وجدانية. فلا يملك أحد ان يدعي علما بالغيب. اذن فكيف يطلع على الحقيقة ويتمنى خلاصه من النار بقياس حاله في الآخرة بحاله في الدنيا ، والاعتقاد بان الله لم يسبغ عليه نعمه في الدنيا الا انه يحبه فينبغي ان يكون محبوبا عند الله في الآخرة أيضا.

بلى يمكنه ذلك لو اتبع هدى الأنبياء ورسالاتهم التي تكشف عن جوانب منه. (**أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى * وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى**)

لا يعلم الغيب ولا يتبع الرسالات الالهية ولقد جاءت الرسالات كلها بالمسؤولية ، ولكن الإنسان وهو أكثر شيء جدلا ، ويحاول التهرب منها بطبعه

---

(1) الفخر الرازي ص 11 عند تفسير الآية.
(2) المجمع عند تفسير الآية.
(3) الكهف / 34 ـ 36

الضـعيف ، وبحنينه الـدائم نحو الـتراب. ويــبرر ذلك بأنه ينتمي الى أنبياء الله ، كما زعم اليهـود بـان انتمـاءهم الى موسى (ع) يرفع عنهم المسـؤولية. فقـالوا : (**نَحْنُ أَبْنـاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ**) [1].

وكما زعمت قريش بان انحـدارها من صـلب إبـراهيم يعطيها الشــــرف ويمنع عنها العـــذاب الالهي .. كلا «**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِـــإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُـــوهُ وَهـــذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُـوا**» [2] ، ان إبـراهيم كـان وفيا لله ، ضـحى بماله ونفسه وقـــدم ابنه لله قربانا ، وأودع زوجته هــاجر وابنه الرضيع إسماعيل في الصحراء. والذي يريد ان يكون في شيعته لا بد ان يتحمل من المسؤولية كما تحمل عليه السلام ، ولم يكن في صحف موسى وإبراهيم التي أنزلت عليهما من عند الله اي كلمة تسـمح للإنسـان بالتحلل من مسئولياته بتـبرير الانتمـاء إليها ، وقد قـرءوا تلك الصـحف وعرفوا ما فيها.

ان ابــرز ما جــاءت به صــحف موسى وإبــراهيم هو المسـؤولية ، فكل إنسـان مسـئول عن نفسه ، ولا يمكنه بحال من الأحوال ان يلقي بتبعة اعماله على الآخرين.

(**أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى**)

والوزر هو الحمل الثقيـل. والـوازرة هي النفس الـتي تحملــه. ولا تــزر اي لا تحمل فكل نفس مثقلة بحملها ولا تحمل حمل غيرها أبـدا ، ولو عـرف الإنسـان مـاذا تعـني المســـؤولية وكيف تقف كل نفس امـــام ربها في يـــوم القيامة ضـعيفة متهاوية القــوى لا تملك عـذرا ولا قــوة ، لعرف مدى بطلان فكـرة إلقـاء المسـؤولية على الآخـرين بـزعم انهم يتحملونها عنـه. كلا انه موقف رهيب تـرى فيه كل نفس تجادل عن نفسها ، ولها من شـأنها ما يغنيها عن الاهتمام بغيرها.

---

(1) المائدة / 18

(2) آل عمران / 68

وهذا السياق من الآيات يضرب فكرة الفداء التي ألصقها النصارى في عيسى (ع) حيث قالوا انه قتل ففداهم بنفسه بالرغم من انه جاء ليقاوم مثل هذا الانحراف عند اتباع موسى.

[39 ـ 41] وكما ان أوزار الإنسان لا يتحملها أحد سواه ، فان حسنات الآخرين لا تصير اليه ، انما «قيمة كل امرء ما يحسن» كما قال الامام علي (ع).

(**وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى**)

والسعي هو ما يقوم به الإنسان بإرادته ووعيه ، من قول وفعل وغيرهما. فالتحرك جزء من السعي والوعي والهدف والنية جزء منه أيضا. والإنسان هو الذي يصنع واقعه ومصيره الحقيقي بنفسه ، ومهما كان السعي صغيرا أو كبيرا ، وفي اي مكان قام به الإنسان فانه لا بد ان يعود عليه في الدنيا أو في الآخرة. لان هناك سنة الهية تحكم الحياة ، وهي ان كل شيء يرجع الى أصله ضمن دورة حياتية قد تطول وقد تقصر. لا بد ان تعود المياه التي تبخرت من البحار إليها بعد رحلة متطاولة من ساعة تحولها الى البخار حتى نزولها كامطار ثم جريانها فوق الأرض ينتفع بها الإنسان.

هكذا عملك الذي ينبعث من جوانح قلبك أو جوارح بدنك لا يفنى. انه يتقلب في صور شتى قد يتحول مالا فيعود إليك ، أو تصبح حالة اجتماعية تتأثر بها ، أو يحفظ عند ربك يجازيك غدا به ، وهكذا مهما هرب المجرمون من جزاء جرائمهم فانه ملاقيهم.

ومن طريف ما قرأته في هذا الحقل أنّ أحد الخلفاء اقام مأدبة غذاء وحضر عليها أحد كبار قادته العسكريين فرأى فيما رأى من صنوف الطعام طير القطى مشويا ، فضحك مقهقها ، فسأله الخليفة عن السبب. فحاول ان يكتم. فأصر

عليـــه. فأخذ يقص واقعة حـــدثت له قبل عشر ســـنوات مسترسلا قـــال : كنت في رحلة صـــيد في الصـــحراء ، فلقيت رجلا معه بعض المال فسلبته قهرا ، ثم أردت قتله فتوسل بي ان اتركه ولكن عزمت على سـفك دمـه. فلما رفعت عليه السيف نظر حوله فلم يجد أحدا الا سـربا من القطى صـادف مرورها في ذات اللحظـة. فقـال اشـهدي بانني اقتل غريبا مظلوما في هذه المفـازة. فضـحكت من قوله ثم قتلته. والآن لما رأيت القطا في السماط تذكرت ما قاله وسـيفي يهـوي عليه فلم أتمالك من الضـحك على ذلك الرجل المسكين الذي اشهد القطا على قتلـه. فقـال الخليفة بلى لقد أدت القطا شهادتها وامر بجمع السماط ، وقـــال للجلادين احضـــروا النطع والســـيف فاحضـــروهما وضرب عنقه.

(**وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى**)

وهناك فكرة نجدها في هـذه الآية وهي ان كل سـعي يقـوم به الإنســان يتحـول الى كيـان مـادي ، وان الكلمة الطيبة ، والموقف الشـجاع ، والنشـاط السـليم ، كل ذلك يتحـول الى شـيء ملمـوس يـراه الإنسـان. كـذلك الكلمة الخبيثة ، والموقف الجبان ، والفساد.

أرأيت هذه الحركـات المباركة ، الـتي تشـيع الفضـيلة وتـزرع السـلام وتبـني الحضـارات ، انها كـانت في الأصل دعوات صالحة ومساعي حميدة. أرأيت هذه الويلات الـتي تصيب البشرية هنا وهنـاك ، انها كـانت في الأصل كلمـات خبيثة أو مساعي فاسدة.

وما معنى المسؤولية في الدنيا الا ارتداد صدى سـعي البشر اليه ، فمن قـاوم الظـالم ، عـاش في ظل العدالة دهـــرا ، ومن جبن عن مقاومته ســـاعة شـــمله خســـفه وضيمه. وأمة تنشط في بناء حضارة تنعم في ظلها طويلا وأختها التي تتكاسل

تعيش أبدا في بؤر التخلف والفساد.

وان مرور الزمـان على سـعي الإنسـان لا ينقصه انما يزيده نماء أو لا أقل يبقيه كاملا وافيا.

(**ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى**)

[42 ـ 48] وان هناك تسلسلا في السنن والمسـببات في الحيـاة ، ومنها سـنة الجـزاء ، ولكنها لا تتحـرك في الفراغ أو ما يسميه الفلاسفة بالـدور ، بل لها بداية ونهاية ، وهنـاك من يشـرف عليها وهو الله ، فالعـالم اذن ليس بعيدا عن العقلانية ، ولا مجرد قـوانين ، وانما هنـاك تـدبير الهي حكيم يهيمن عليه ، كما قال الله تعـالى : (**إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِـتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَـرَ وَالنُّجُـومَ مُسَـخَّراتٍ بِـأَمْرِهِ أَلا لَـهُ الْخَلْـقُ وَالْأَمْـرُ تَبـارَكَ اللـهُ رَبُّ الْعـالَمِينَ**) [1] وما دام الأمر بيد الله وينتهي اليه فلتطمئن النفس الى الجــــزاء وتثق بنتائج سعيها ، وفي القرآن تذكرة بهذه البصـيرة في مواضع شتى وبصيغ مختلفة.

(**وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى**)

بلى ان الظاهر من الحياة هي النظم الدقيق والسـنن الحاكمــة. ولكن الجــانب الخفي منها ولبّها هو هيمنة الله عليها. والمؤمنون مطمئنـون الى هـذه الحقيقة وموقنـون بها ، بينما الآخرون لا يعلمون الا الظاهر من الحياة.

والقــرآن هنا يؤكد هــذه الهيمنة ويمثل لها بلطــائف الأمور.

---

(1) الأعراف / 54

(**وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكى**)

ان الإنســـان يضـــحك للجـــزاء الحسن ، ويبكي من الجزاء السيء. سواء في الـدنيا أو الآخـرة. والله سـبحانه يقـــدرهما للإنســـان ، فيمنح له من الســـعادة النفســـية والمادية ما يضـحكه (جـزاء لما قدمه من عمل صـالح). أو ينتقم (لسوء عملـه) فيسـلب منه نعمه ويعصر قلبه بـالهم حـتى يبكيـه. والقـرآن لم يقل افـرح واحـزن لان الضـحك والبكاء هما غايتا الفرح والحزن ، واجلى مصاديقهما. ولان بينهما مسافة شاسعة لا بد من بيانها لنعـرف عمق الهـوة الفاصلة بين الخير والشر ، وبين الجـزاء الحسن والعقـاب ، ولعلنا نفقه بعض ابعاد مسئوليتنا تجاه أفعالنا.

(**وَأَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَأَحْيا**)

ربما يكـون معـنى الحيـاة هنا اسـتمرارها والمحافظة عليها كقوله تعـــالى : (**وَمَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً**) [1] ، وامر الموت والحياة بيده تعالى ، مهما كانت أسبابهما الظاهرة ، لان الله يجـري الأمـور بأسـبابها ، فقد يحفظ الحيـاة لا حد على يد الطـبيب ، أو يقـدر له المـوت بيد جلاد.

(**وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الـذَّكَرَ وَالْأُنْـثى * مِنْ نُطْفَـةٍ إِذا تُمْنى**)

وانما يؤكد ربنا على هـــذه الحقيقة (ان اليه المنتهى) ثم يضرب الامثلة من أهم ما يتحكم في كياننا لان الإنسان قد يكتشف القـوانين الـتي تسـير الحيـاة وفقها ، فيفسر الظـواهر والحـوادث تفسـيرا ماديا مبنيا على أسـاس ان القانون هو كل شيء ، فيرى ان الـولادة تبـدأ من الجمـاع حيث يقـــذف الرجل بالحيـــامن في رحم المـــرأة ، ثم ان الـرحم المهيأ لتكـوين الجـنين يبـدأ بـدوره ضـمن قـوانين ومعادلات معينة فتصير

---

(1) المائدة / 32

(البويضة الحيمن) جنينا ذكرا إذا غلب مـاء الرجل ، وأنـثى إذا غلب مـاء المـرأة. ثم يقف عند هـذا الحد دون البحث عن منتهى هــذه الظــواهر بينما إذا أمعنا النظر لبصــرنا بالحلقـات الفارغة الموجـودة في سلسـلة العلل والـتي تفصل بين مشــيئة الإنسـان وتحقق العمل ، فـأنت تريد انجــاب أولاد ، ولكن هل تملك في صــلبك القــدرة على ذلـك؟ وهل توفق لزوجة مناسـبة؟ وهل تضـمن ألا تكـون عقيمة ، أو تجهض حملها بسبب طارئ؟ وعشرات الاسئلة الــــتي ترتسم في ذهن أي واحد منا حين يريد أن يحقق إنجــازا. وإذا فتشــنا عن جــذر هــذه الاسـئلة لعرفنا ان الاهـداف الـتي شـئنا بلوغها وخـابت مسـاعينا إليها بما لم نحسب لها حسابا خلفت في عقولنا هـذا الخـوف الـرهيب ألّا نوفق ـ مرة أخرى ـ الى ما نبتغيه. وصدق الامـام أمـير المؤمــنين عليه الســلام إذ يقــول : «عــرفت الله بفسخ العـزائم ونقض الهمم». تعـال وجـرب للمـرة الالف اعقد عزم قلبك على خطة بعيـدا عن التوكل على الله ثم انظر كيف تقفز أمامك العقبات غير المحسوبة.

من هنا اركزت في فطـرة النـاس هـذه الحقيقة ، ان أزمة الأمور ليست بأيديهم وان هناك قــدرا من الغيب في كل عمل يسـاهم في نجاحه أو فشــله. وقــدرة الله على النشــأة الاولى من حين النطفة حــتى المــوت تؤكد على بعثة إياه مرة اخرى للجزاء.

(**وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرى**)

وكلمة عليه تشـير الى ان البعث للحسـاب حق وعهد قطعه الله على نفسه.

(**وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنى وَأَقْنى**)

قد يتصـور الإنسـان بـالنظر الى الأسـباب الظـاهرة للغـنى انه الـذي يغـني نفسه ، ولكنه حينما يتعمق يجد ان غناه من عند الله وبتوفيقه. اذن فلما ذا يغتر بماله

ويتكبر على الحق اعتمادا عليه؟!

ويتساءل البعض : إذا كانت الأمور بيد الله وان اليه منتهاها فلما ذا السعي إذا؟ وكيف ان ربنا بيّن آنفا (**أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى**)؟ وربما اتخذ البعض من آيات كهذه تبريرا لتقاعسهم أو دليلا على مذهب الجبر المرفوض عقلا وشرعا.

بيد ان النظر الشامل في الآيات يجيب على هذه التساؤلات ، كيف؟

ان الأمور بيد الله ، ولكن الله يأمر بالحق ويجريه ، فهو الذي يضمن العدالة الجارية في الخلق ، وهو الذي يعيد سعي الإنسان اليه ، ويجازيه عليه الجزاء الأوفى. ولو لا العقيدة بان الله يضمن تنفيذ العدالة لزعم البعض انه يستطيع ان يتهرب من مسئولية سعيه. أو كان يخشى من ضياع سعيه.

اذن السعي هو محور الجزاء ، ولكن الجزاء بيد الله فليس سعيك يوصلك إلى ما تريد مباشرة ، بل عبر ارادة الله وجزاءه ، فتكون المعادلة كالتالية :

سعي البشر أو عمله توفيق الله أو إرادته الجزاء.

[49] ثم وفي سياق تأكيد انتهاء الأمور الى الله ، ينسف القرآن الاعتقاد بألوهية غيره تعالى ، ويضرب مثلا من واقع الذين يعبدون النجوم اعتقادا بان حركتها تؤثر في حياة الناس ، فتجلب لهم الخير أو الشر ، وعبادة النجوم كانت منتشرة عند قدماء المصريين كما في بلاد الرافدين كما ان القرآن يلمح في حديثه عن إبراهيم (ع) الى ان قومه كانوا يعبدونها.

ولعل من أشهر النجوم التي بقيت عبادتها رائجة حتى زمن الرسول (ص) كانت نجمة الشعرى قال علي ابن إبراهيم «نجم في السماء كانت قريش وقوم من

العــــرب يعبدونه ، وهو نجم يطلع في آخر الليـــــل» [1] والقرآن هنا ينسف الاعتقـاد بألوهية هـذا النجم ، مبينا بأنه ليس إلّا خلقا من خلق الله ، لا حول له ولا قوة.

(**وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى**)

[50] بعد ذلك تعرج بنا الآيات الى الحديث عن تـاريخ الأمم السالفة ، بما يؤكد هيمنة الله على الخلق وانه يقدر الجـزاء حسب اعمـال العبـاد ، أتـرى ان هلاك الأمم حينما خـالفت الحق وعصت الرسل ، وعتت عن أمر ربها كـان صـدفة؟ أذن لمـاذا تتكـرر التجربة لاكـثر من قـوم ولنفس السبب؟

(**وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى**)

وهم القـوم الـذين أرسل الله إليهم هـودا (ع) وقـال الله (الأولى) ربما لواحد من الأسباب التالية :

آ ـــ لأنهم أول الأقـــوام بعد هلاك البشـــرية بســـبب الطوفان الذي ابتلع الأرض في عهد نوح (ع).

ب ـ لأنهم جيلان ولم يهلك إلّا الجيل الاول.

ج ــ ان الله أراد ان يسـفه فكـرة التقـديس للأولين ، الذي سار عليه الجاهلون ومن بينهم قريش.

[51] وبعد عـاد كـانت ثمـود ، قـوم صـالح (ع) الـذين كذبوه وعقروا الناقة وقد كانت آية مبصرة فأهلكهم الله.

---

(1) نور الثقلين ج 5 ص 174

(**وَثَمُودَ فَما أَبْقى**)

هنـاك قـال (الاولى) وهنا يقـول (فما أبقى) وذلك لان ثمود اهلكوا عن بكرة أبيهم بـريح صرصر جعلتهم كاعجـاز نخل منقعر ، فلم تبق ولم تـذر ، على خلاف عـاد الـذين أهلك الله الأولين منهم فقط ، كما تكشف لنا هـذه الكلمة مدى تشبث ثمود بالحياة ، حيث سعوا للبقاء بكل ما أوتوا من القوة ولكنهم ما اسـتطاعوا الى ذلك سـبيلا حينما حل بهم غضب الرب.

[52] وقبل هـؤلاء وأولئك كـان قـوم نـوح (ع) طعمة للهلاك.

(**وَقَـوْمَ نُـوحٍ مِنْ قَبْـلُ إِنَّهُمْ كـانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغى**)

لأنهم أول الأقوام كفرا بالله وعصيانا للأنبيـاء ، ولأنهم أصـروا على ضـلالهم واسـتكبروا على الحق جيلا بعد جيل بـالرغم من (950) عاما من التبليغ المـبين والمسـتمر للرسالة من قبل نوح (ع).

وقد سبقوا الأقـوام ظلما لأنهم تحـرروا من كل القيم الدينية والانسـانية ، وطغيانا لأنهم ملكـوا من الامكانـات الشـيء الكثـير واسـتخدموا كل ذلك ضد الرسـالة والرسـول. وبـالرغم من ذلك اهلكهم الله ولم يحجز العذاب عنهم شيء أبدا.

[53 ـ 54] وهناك قـوم لـوط (ع) الـذين أسـرفوا في الشذوذ الجنسي ، فحل بهم غضب الله ، وذلك بـان حمل قراهم جبرئيل بطرف جناحه ورفعهم ثم أهوى بهم.

(**وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوى**)

قـال العلامة الطبرسي في مجمع البيـان : والمؤتفكة المنقلبة وهي الـتي صـار أعلاها أسـفلها وأسفلها أعلاها ، ومنه أهوى بيده ليأخذ كذا وهوى يهوي نزل في الهواء ،

فاما إذا نزل في سـلم أو درج فلا يقـال أهـوى ولا هـوى ، وحيث حل أجلهم عمّهم العذاب المهول من كل صوب.

(**فَغَشَّاها ما غَشَّى**)

أصـحيح ان الله يعـذبنا بنـار جهنم تلك النقمة الكـبرى التي لا تحتملها السـماوات والأرض والجبـال. أو ليس ربنا الرحمن الذي تجلت في كل شيء آيـات رحمته الواسـعة. يتسـاءل البعض ويقـول لا .. انا لا أصـدق ان الله يعـذبني ولم أعهد منه في الـدنيا إلّا كل نعمـة؟ بلى وهـذه شـواهد تعذيبه في الدنيا للأمم التي ناهضت الحق وتحدت رسـله. ان الله واسع الرحمة ولكنه أيضا شديد العذاب.

ولعله لـذلك يـذكرنا الـرب ، بين الفينة والاخـرى ـ بعذابه العظيم الذي حل بالأمم السابقة حتى ينقض الشك بـاليقين ان وعيد الله العاصـين بالعـذاب ليس ضـربا من الوهم والتخويف المجرد بل هو واقع وقد حدث فعلا يشهد بذلك التاريخ البشري وما تقدم بعض شواهده.

[55] إنّ عـبر التـاريخ المرعبة هي من الآيـات الالهية الجديرة بان ترفع حجب الشك والمراء عن قلب الإنسـان الذي يتفكر فيها ويتبع هداها.

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى**)

الآلاء هي الآيـات. يـدل على ذلك قوله في سـورة الـرحمن «**فَبِـأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَـذِّبانِ**» [1]. والتمـاري هو الشك المتـوالي أو تـرامي الشك من البعض الى الآخر ، ذلك لان الشاك في مثل هذه القضايا المصيرية والعامة لا يدع شـكه في قلبه بل يلقيه على من هو مثله ويتلقى منه الشك أيضا ، وينبغي مواجهة كل ذلك بتلك الآيات

---

(1) سورة الرحمن / 13

المتوالية.

[56] ان من أعمق مشاكل الإنسـان انه يسـتبعد عن نفسه العذاب الالهي وهو يمارس الضلال ، أما لشـكه في قدرة الله كـاليهود الـذين قـالوا يد الله مغلولة ، أو لرجائه غـير المنطقي في رحمته ، والقـرآن يـذكر عـواقب الأمم الذين ضلوا وكذبوا بالحق ويضعها بين أيدينا نذرا لعلها ترد عنا عن الباطل.

(**هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى**)

وقيل ان المعني بالنذير هنا هو الرسول الأعظم (ص) الذي يمثل امتدادا للأنبيـاء ، فكما ان هـودا وصـالحا ونوحا ولوطا عليهم السلام انذروا اقـوامهم ، فـان محمـدا (ص) هو الآخر نـذير مثلهم ، قـال الصـادق (ع) وقد سـئل عن معـنى الآية : «**يعـني محمـدا** (ص) **حيث دعـاهم الى الإقرار بالله في الذر الأول**» [1].

ولقد أهلك الله الأقوام السابقة لأنهم كـذبوا أنبيـاءهم والحق الـذي جـاؤوا به ، ويكفي بـذلك نـذيرا لنا ما دامت سـنن الله في الأولين هي سـننه فينا وفي اللاحقين الى يوم القيامة.

[57 ـ 58] وتبقى القيامة أبلغ النـذر وآخرها وأعظمها ، والقرآن يؤكد حدوث القيامة في المستقبل القريب جـدا فحتى إذا بقيت من القيامة الكبرى 500 مليون عـام فانه يمثل واحدا من ثلاثين أو حوالي 3 خ من دورة واحدة لهذا الكون الـتي تبلغ حسب بعض التقـديرات العلمية 15 الف مليون عـام ، كيف ولعله لم يبق حـتى قيـام السـاعة ذلك اليـوم الـرهيب الـذي أشـفقت منه السـماوات والأرض إلّا بضعة ألـوف من السـنين وربما أقل ومن يـدري؟ أو ليس علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلّا هو؟

(1) نور الثقلين ج 5 ص 173

فيقول :

(**أَزِفَتِ الْآزِفَةُ**)

أي اقـــتربت ، والتأكيد على اقـــتراب هـــذه الحقيقة الكـبرى يجعلنا نعيش السـاعة بوعينا فنسـتعد كما يقـول أمير المؤمنين (ع) : «اتقوا الله عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمـالكم ، واسـتعدوا للمـوت فقد أظلكم ، وترحلـوا فقد جد بكم ، وكونــوا قوما صــيح بهم فــانتبهوا ، وعلمــوا ان الـدنيا ليست لهم بـدار فاستـبدلوا ، فما بين أحـدكم وبين الجنة والنار إلّا الموت أن يـنزل بـه» [1] وإذا مـات ابن آدم قــامت قيامته ، ولا يســتطيع أحد أن يــدفع المــوت عن نفسه.

(**لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللهِ كاشِفَةٌ**)

بلى قد يظن الإنسـان أو يتمـنى بـان الأصـنام الـتي يشـرك بها تسـتطيع أن تصـنع له شـيئا ، كلا .. الله وحـده القادر على جلب الخـير ورفع الضر ، وإذا اقـترب العـذاب وبانت أمارته فلا مفـزع إلّا اليه ، «**فَفِـرُّوا إِلَى اللـهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ* وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ**» [2].

[59 ـ 61] وهـذا الحـديث ليس ضـربا من الـوهم أو الظنـون ، بل هو حق يقين يجب على الإنسـان أن يصـدق به ويستعد له «**إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ* وَما هُوَ بِالْهَزْلِ**» [3].

(**أَفَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ**)

انهم لم يصدقوا ويستعدوا للساعة : «**بَلْ عَجِبُـوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ**

---

(1) نهج خ 64
(2) الذاريات / 50 ـ 51
(3) الطارق / 13 ـ 14

الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ* أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ » [1] هكذا يكون موقف الكفار من الحقائق الجادة ، والقرآن يستنكر عليهم هذا الموقف الهازل.

(**وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ* وَأَنْتُمْ سامِدُونَ**)

ان حديث القيامة بما يتضمنه من حقائق حاسمة ، وعظيمة ، ينبغي أن يبعث العاقل على البكاء والخوف من غضب الله ، ويثير فيه طاقاته الكامنة ليفكر في النجاة ، ويستعد للقيامة ، والسامد هو الغافل ، وكما ان الغفلة نتيجة للضحك والتعجب ، فان الجد والسعي نتيجة طبيعية للتصديق والبكاء من أهوال الساعة.

[62] وفي مقابل هذا الموقف الخاطئ من حديث الساعة يهدينا القرآن إلى الموقف السليم الذي يجب علينا اتخاذه تفاعلا مع النذر الالهية وهو الفرار الى الله عز وجل ، والتقرب إلى مقام عظمته بالسجود.

(**فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا**)

والسجود وهو مظهر الاتصال بالله ، بينما العبادة جوهره ومحتواه ، فلا قيمة للسجود الذي لا يقربنا الى الله ، والى العمل بمناهجه في الحياة ، ان ممارسة الطقوس والشعائر الاسلامية ممارسة بعيدة عن أهدافها لا تنفع صاحبها شيئا ، فما هو نفع الصلاة التي لا تنهى عن الفحشاء والمنكر؟ وما هي فائدة الصوم الذي لا يزكي النفس؟

وكلمة أخيرة :

اننا نجد السياق القرآني يختتم هذه السورة المباركة ، بدعوة إلى السجود حيث

---

(1) ق / 2 ـ 3

يجب شـــرعا على من يقـــرأ هـــذه الآية أو يســـتمع لها أن يسجد فورا مهما كانت الظروف ، وذلك لأنها تعرضت الى ذكر الأصنام التي أشرك بها الناس كاللات والعـزى ومنـاة والشــــعرى فهــــدف الآية اذن تنزيه النــــاس عن عبادتها وتوجيههم الى عبادة الله وحده والسجود له.

سورة القمر

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

قـــال الامـــام ابو عبد الله الصـــادق (ع) : «**من قـــرأ سـورة اقـتربت السـاعة أخرجه الله من قـبره على ناقة من نوق الجنة**».

تفسير نور الثقلين ج 5 ص 174

الإطار العام

تحيط آيــات هــذه الســورة المباركة بثلاثة محــاور رئيسية ، هي :

1 ـ إعراض الكفّـار عن الآيـات الالهية ، سـواء تمثّلت في الرسالات النازلة ، أو المعـاجز الـتي تظهر على أيـدي الأنبياء ، أو ما تتجلّى في الكائنـات أو السـنن الـتي تتجلّى في تاريخ الأمم الغـابرة ، ونجد مرتكـزا لهـذا المحـور في قوله تعـالى : (**وَإِنْ يَـرَوْا آيَـةً يُعْرِضُـوا وَيَقُولُـوا سِـحْرٌ مُسْتَمِرٌّ**) (الآية 2).

2 ـ التكـذيب بـالحق ، ويـبرز هـذا المحـور عند قوله تعالى : (**وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ وَكُـلُّ أَمْـرٍ مُسْـتَقِرٌّ**) (الآية 3) ، وهكذا شبيهاتها (الآية 9 ، 18 ، 23 ، 33 ، 42).

3 ـ التذكرة ، ويظهر ذلك من تكـرار من تكـرار قـول الله تعـالى : (**وَلَقَـدْ يَسَّـرْنَا الْقُـرْآنَ لِلـذِّكْرِ فَهَـلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**) في أربعة مواضع ، بالاضافة إلى الآيتين (15).

وبالتـــدبّر العميق في الســـورة نجد ارتباطا وثيقا بين المحـــاور الثلاث فيها ، فـــالاعراض بالاضـــافة إلى كونه مظهـرا للتكـذيب هو سـبب له أيضا ، وهـذا يـبيّن لنا أنّ تكـذيب الرسـالات ليس منطلقا من قناعة المكـذّبين بها ، وإنّما من انحـــراف حقيقي في أنفســـهم ، لأنّك تجـــدهم يعرضــون عنها وبالتـالي يكـذّبونها قبل دراســتها والتفكّر فيها.

ولكن ما هو علاج الاعراض والتكذيب عند البشـر؟ إنّه التـذكرة. والقـرآن إنّما جـاء ليحقق هـذا الهـدف الهـام والكبـير ، لـذلك نجـده من حيث المحتـوى والأداء الأدبي والنفسي والفكـــري حكمة بالغة ، تنفذ إلى أعمق أغـــوار نفس الإنسان ، وأبعد آفـاق عقله ، ولكن «**لِمَنْ كـانَ لَـهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّـمْعَ وَهُـوَ شَـهِيدٌ**» ، فهو ميسّــر من قبل الله ، وهذا التيسير هو الذي جعل كلام الخـالق الـذي لا يتنــاهى عظمة وجلالا وعلــوّا بيّنا وواضــحا عند خلقه .. قال الامـام الصـادق (ع) : «**لـولا تيسـيره لما قـدر أحد من خلقه أن يتلفّظ بحـرف من القـرآن ، وأنّى لهم ذلك وهو كلام من لم يـــزل ولا يـــزال**» [1] ، ولكنّ المعنى الذي يرتبط بعلاج الاعـراض والتكـذيب عند البشر هو أنّ القرآن يصوّر لنا الحقائق الكـبرى ، كحقـائق الغيب التي ينحسر عنها ـ لو لا تيسـير القـرآن ـ وعي الإنسـان ، ومنها الآخـرة ، تصـويرا بليغا بحيث تصـبح يسـيرة الفهم والاستيعاب ، الأمر الذي يحـدث تعـادلا في عقل الإنسـان بين ما غـــاب ممّا يحـــدث في المســـتقبل وما هو حاضر يحسه ويعايشه. إنّه يدعوه إلى التعايش مع الحاضر الـذي تشـــتهيه نفسه على أســـاس المســـتقبل ، أو ينهـــاه عن استهلاك شيء حاضر لأنّه يوقعه في مهالك المستقبل.

(1) تفسير روح البيان / ج (8) ـ ص (433).

سورة القمر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً**
يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا
أَهْواءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (3) وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ
الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ
(5) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ (6)
خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ
مُنْتَشِرٌ (7) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا
يَوْمٌ عَسِرٌ (8) كَذَّبَتْ

---

4 [مزدجر] : متّعظ ، وهو بمعنى المصدر ، أي ازدجار عن الكفر ، وتكذيب الرسل.
7 [الأجداث] : جمع جدث ، بمعنى القبور.
8 [مهطعين] : الإهطاع هو الإسراع في المشي.

قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَقالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ
(9) فَــدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُــوبٌ فَانْتَصِــرْ (10) فَفَتَحْنا
أَبْــوابَ السَّــماءِ بِمــاءٍ مُنْهَمِــرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ
عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْنـاهُ
عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَـزاءً لِمَنْ
كانَ كُفِـرَ (14) وَلَقَـدْ تَرَكْناها آيَـةً فَهَـلْ مِنْ مُـدَّكِرٍ (
15) فَكَيْـفَ كـانَ عَـذابِي وَنُـذُرِ (16) وَلَقَـدْ يَسَّـرْنَا
الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (17) كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْـفَ
كــانَ عَــذابِي وَنُــذُرِ (18) إِنَّا أَرْسَــلْنا عَلَيْهِمْ رِيحــاً
صَرْصَـراً فِي يَـوْمِ نَحْسٍ مُسْـتَمِرٍّ (19) تَنْـزِعُ النَّاسَ
كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ

---

9 [وازدجر] : أي زجر بأنواع الأذية عن تبليغ الرسالة.
11 [منهمر] : الهمر : هو صب الدمع والماء بشدة ، والانهمار :
الإنصاب ، وانهمر : تساقط بكثرة كأنّه أفواه القرب.
13 [ودسر] : الدسر هي المسامير ، وهو جمع : دسار.
19 [ريحا صرصرا] : باردة ، شديدة البرد.
20 [أعجاز] : أصول.

نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (21) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (22)

[منقعــر] : منقلع عن مغارسه ، لأن قعر الشــيء قــراره ، وتقعّر في كلامه إذا تعمّق.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ

هدى من الآيات :

إذا كـــانت هداية البشر هـــدف رســـالات الله فـــإنّ الوســـيلة المثلى الـــتي تتبعها هي تذكرته وإنـــذاره ، لكي تتســـاقط حجب الغفلة والكـــبر عن قلبـــه. إنّ في ضـــمير الإنســـان خـــوف دفين من مســـتقبل مجهـــول ، ويســـتثير القرآن هذا الخـــوف بتذكرته بالســـاعة ، وما الســـاعة؟ إنّها أدهى وأمرّ.

وهذا النهج نجـده أكـثر تجلّيا في السـورة المكية ذات المقاطع القصيرة ، وبالذات سورة القمر التي تتجلّى فيها هذه الوسيلة بأظهر مصاديقها ، وقد سمّيت بـذلك بسـبب إشارتها إلى آية انشقاق القمر ، الظاهرة التي حـدثت في عصر الرسول (ص) بمكة المكرّمة ، حسـبما يقـول أغلب المفسرين.

ويوصل القـــرآن بين هـــذه الظـــاهرة المعجـــزة وبين اقـــتراب يـــوم القيامة لأنّه قـــريب من بعثته (ص) ، وهو القائل : «**إنّـــني بعثت والســـاعة كهـــاتين ، وجمع بين إصبعيه**»

دلالة على قربهما الزمــني ، أي لا يلبث العــالم بعــده أن يشهد الساعة ، وقال علي بن إبراهيم (ر ض) : «اقـتربت القيامة فلا يكــون بعد رســول الله (ص) إلّا القيامة ، وقد انقضت النبوّة والرسالة» [1].

وسواء كانت السـاعة بعد آلاف أو ملايين السـنين من بعثته (ص) فإنّها قريبة ، إذ كـــلّ آت قـــريب ، ولأنّ البعد والقرب لا يقاسان بحياة الإنسان المحدودة في الدنيا ، بل يقاسـان بما في الكـون من أرقـام وأبعـاد زمانية كبـيرة ، فقد يكــون عمر الشــمس عشــرة ملايين ســنة ولكنّها انقضى أكثرها ، وأصــبحت نهايتها قريبة جــدا ، ثمّ ما هي نسبة هذه المدة إلى الـزمن اللامتنـاهي الـذي يلي الحيـاة الدنيا؟!

إنّ الكفّـار كـذّبوا هـذه الآية المعجـزة مع وضـوحها ، وأعرضـــوا عن دلالاتها ، ولكنّهم لم يكونـــوا أوّل ولا آخر المكذّبين ، فقد سبقهم إلى هذا الضلال قـوم نـوح وعـاد ، وكانت عاقبة أولئك الخزي والعـذاب ، فلا ينبغي للرسـالي أن يصـاب بهزيمة نفسـية إذا رفض البعض الاستجابة إلى دعوته ، فـإنّ دعوته منصـورة ، وإنّ المكـذّبين في ضـلال بعيد.

بيّنات من الآيات :

[1] يعيش الإنسان في وجدانه خوفا عميقا من شيء مجهول ، والقرآن يبيّن أنّه الساعة ، فـالموت الـذي يعقبه مصير مجهول بالنسبة إليه أمر رهيب جـدّا ، والآيـات تؤكّد بأنّ خـوف الإنسـان الحقيقي ليس من المـوت ، وإنّما من البعث بعد المـــــوت ، وإنّما يخشى المــــوت لأنّه بوّابة الحساب.

(**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ**)

(1) نور الثقلين / ج (5) ـ ص (175).

قال ابن عباس : «اجتمع المشركون إلى رسول الله (ص) فقالوا : إن كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتين ، فقال رسول الله (ص) : إن فعلت تؤمنون؟ قالوا : نعم ، وكانت ليلة بدر فسأل رسول الله (ص) ربّه أن يعطيه ما قالوا ، فانشق القمر على عهد رسول الله (ص) فرقتين ، ورسول الله (ص) ينادي : يا فلان يا فلان! اشهدوا» [1] حتى قال بعضهم : «إنّني كنت أرى حراء بين فلقتي القمر»

وانشقاقه الذي حدث في عصر الرسول أو الذي يحدث فيما بعد ، من الظواهر الكونية الدالّة على قرب الساعة ، ولكنّ القرآن يقدّم الحديث عن الساعة على ظاهرة انشقاق القمر ، لأنّه محور الكلام والغاية منه. وكم هي رهيبة ساعة القيامة ، وكيف لا تكون كذلك وفيها تسير الجبال الشاهقة فتصير سرابا ، وتنتثر الكواكب كخرزات العقد المنفرط ، وتزلزل الأرض زلزالا عنيفا! (**إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ**)! إنّها مهولة جدّا! وتترك أثرا جذريّا لا نعرف نحن مداه ، ولا يقتصر ذلك الأثر على تاريخ البشرية وحدها ، كلّا .. بل هو تغيير كوني حاسم ، لأنّه اليوم الذي ينتهي فيه دور الإنسان على وجه الأرض ، وقد خلق الله ما في الأرض لأجله ، إذا فذهابه منها يقتضي تغيرا حاسما فيها. وربنا لم يقل (قربت) بل قال «**اقْتَرَبَتِ**» وهذه الزيادة التي لحقت بالفعل سببها دخوله في باب الافتعال الدال على بدل المزيد من القوة والجهد ، كما يدلّ قولنا اكتسب على استعمال القوة في الحصول على الرزق ، فالساعة تمرّ بمخاض عسير ، لأنّ حدوثها يقترن بتغييرات هائلة.

[2] وانشقاق القمر ليس الآية الوحيدة التي تهدينا إلى الساعة والبعث ، فهناك من الآيات الأخرى الكثير ممّا يكفي سلطانا مبينا ، وحجة بالغة لنا على واقعية الساعة ، ولكنّ المشكلة في نفس الإنسان حينما يضل ، ويتبع هواه. إنّه يرى الآيات ويعقلها ، ولكنّه يعرض عن دلالاتها ، ويصرّ على باطله ، ولكي يتخلّص

(1) نور الثقلين / ج (5) ـ ص (174).

من وخز الضـمير ونـداء العقل يبحث لضـلاله عن تـبرير ، وللآيــات عن تأويل ، مهما كانا ســخيفين ومتناقضــين مع أبــده المســلّمات الوجدانية والعقلية ، كـلّ ذلك تهرّبا من مسئولية الاعتراف بالحق.

(**وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ**)

لقد اعتذر المشركون عن الايمـان بالرسـالة بـأنّهم لا يؤمنون بشيء غيـبي لا آية محسوسة عليه ، فـألحّوا على الرســول (ص) بنظــرتهم الشــيئية أن يــريهم من الآيــات المادية ما يصـدّق نبوّته ورســالته ، فســأل ربّه ذلك ليقيم الحجة عليهم وأعطاه ، إلّا أنّهم أعرضوا عن الايمان ، قال علي بن إبراهيم (ر ض) : «فإنّ قريشا سألت رسول الله (ص) أن يريهم آية ، فدعا الله فانشق القمر نصفين حـتى نظروا إليه ثم التأم ، فقـالوا : هـذا سـحر مسـتمر» [1] أي دائم ، والســحر لا يــدوم ، إنّما هو لحظــات يخــدع فيها الساحر أعين الناس ثم ينتهي ، والمشركون يدركون هـذه الحقيقة ، ولكنّهم قبلوا أن يضيفوا إلى السحر نوعا جديـدا لا عهد لهم ولا عهد لهم ولا للتــاريخ به ، ولم يقبلــوا أنّ يكـون القـرآن رسـالة من الله ، لأنّه يجعل من الايمـان به وتطبيقه مســئولية واجبة عليهم ، فهو حينئذ رســالة الله إلى أنفسهم أيضا ، والحال أنّهم يسعون بكل ما أوتـوا من حيلة ومكر إلى التهــرّب من المســـؤولية ، ويحتمل أن تنطوي كلمة المستمر على معنى القـوي أيضا ، والسـحر لا قــوة له لأنّه خيــال لا واقع ، وســواء هـذا أو ذاك فــإنّ القرآن يثبت أفكارهم وأقـوالهم ومـواقفهم المتناقضة في ذاتها لبيان بطلانها وضلالة أصحابها.

وقد سبق أن قلنا بأنّ في قولهم بـأنّ الرسـالة وآياتها سـحر اعترافا بتـأثيره البـالغ عليهم ، وبـالعجز عن الإتيـان بمثله ، وبسلطانه على أفئدة الناس كما السحر ،

---

(1) نور الثقلين / ج (5) ـ ص (175).

فيؤخذون بهذا الاعتراف ، وينبذ تفسيرهم لذلك بأنّه يشبه السحر ، إذ مستحيل أن يستمرّ السحر الذي حقيقته التأثير الموقّت في خيال الإنسان.

[3] والآية التالية تؤكّد على أنّ التبرير الباطل يساوي عند الله الكذب المحض ، بل هو أشدّ ، لأنّ أهداف التكذيب هي ذاتها أهداف التبرير ، وأهمّها اتباع الأهواء والشهوات ، إذا فتبرير الإنسان لا يغيّر من واقعه شيئا ، ولا من جزائه عند ربّه ، لأنّه تعالى لا ينظر إلى المظاهر ولا يحاسب عليها ، إنّما ينظر إلى الحقائق الواقعية ، ويجعلها ميزانا للجزاء ، إنّه «**يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ**» [1].

(**وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ**)

واتباع الهوى هو سبب التكذيب ، كما أنّه الهدف منه ، وهذه الآية دليل صريح على بطلان عذرهم ، ورفض الله له كمبرّر مشروع لاعراضهم عن الحق ، حيث اعتبرهم والمكذّبين سواء.

(**وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ**)

إنّ سنن الحياة الدنيا والآخرة ومقاييسهما حقائق قائمة وثابتة لا تتغيّر (مستقرّة) ، فلا يمكن تغييرها بهوى النفس أو بتمنّيات البشر ، وتشير هذه الآية إلى ما بيّنته الآيات الأخرى كقوله سبحانه : (**لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ**) [2] ، (**وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**) [3] ، (**وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى**) [4] ، (**إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً**) [5] ، كما أنّ حكمة الامام علي (ع) : «**الأمور مرهونة بأوقاتها**» مستوحاة

---

(1) غافر / (19).
(2) الرعد / (38).
(3) الأعراف / (128).
(4) طه / (69).
(5) الإسراء / (81).

من هـــذه الآية الكريمة ، وهـــذا التفســـير يجمع بين آراء المفسرين القائلة بأنّ الأمر المستقر هو العواقب ، أي أنّ عاقبة الأمور مستقرة على قيم ثابتة ، كما ترسي السفينة بالتــالي عند الشــاطئ ، أو ما قــالوا : بــأنّ عاقبة الخــير الحســنى والشر الســوئى ، وقــال بعضــهم : أنّها القيامة حيث تستقر عندها سفينة الـدنيا ، لأنّها تـبرز كـأمر واقعي محسوس ، ويتميّز الحق من الباطل.

بلى. إنّ كـلّ أمر واقعي حق ســوف يســتقرّ مكانه ، ويتكرّس أكـثر فـأكثر رغم الظـروف والعوامل المضـادّة ، واســتقراره أعظم دلالة من ملايين الكلمــات ، فلو اجتمع الإنس والجن على إنكـار وجـود الجبـال ، وجـاؤوا بملايين الأدلة ، هل يتغيّر الواقـع؟ كلّا .. ذلك أنّ المحـور الحقيقي هو الواقعيات الخارجية الحقّة ، وليست الأهواء والتمنّيـات والظنون ، ولعلّ معنى «**حِكْمَـةٌ بالِغَـةٌ**» الـتي تـأتي لاحقا هو هـذا الأمر ، إذ أنّ الحكمة هي وضع الشـيء موضـعه ، ولا يقدر على ذلك إلّا من عرف السنن الالهية النافـذة في الخلق ، والنظـام العـادل الحـاكم في كـلّ شـيء ، وإنّما كـانت رسـالات الله حكمة بالغة لأنّها تهـدي الإنسـان إلى المســتقرّات من الحقـــائق الواقعية ، ومن ثمّ إلى منهج الحياة الأقوم والقائم على أساسها.

[4] وإذا كانت القيم هي المستقرة (لا الأهـواء) فـإنّ أعــذار أولئك الكفّـار تـذهب بـاطلا. أو ليس قد تــوافرت الشواهد على صدق الرسالة ، فلم كفروا بها؟ أو ليس قد تــواترت الأنبــاء على أنّ من كفر بها أهلك ، وكفى بــذلك زاجرا؟

(**وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ**)

ومن تلك الأنبـــاء آية انشـــقاق القمر ، والمزدجر هو التخويف والترهيب ، وربّنا لم يكتف بإرسال الآيات ، وبيان القــوانين للإنســان ، بل وأقــام عليه الحجة البالغة حينما حذّره من مخالفتها ، «**لئلّا يقول أحد لو لا أرسلت إلينا رسولا منذرا ،**

وأقمت لنا علما هاديا ، (**فَنَتَّبِـعَ آياتِـكَ مِنْ قَبْـلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزى**) [1].

[5] وليس في آيـات الله تعـالى نقص أبـدا ، بل فيها الحجة القاطعة ، إذ جعلها الله من الوضوح والكمال درجة لا عـــذر لأحد في الاعـــراض عنها وعن دلالاتها ، فهي كما يصفها تعالى :

(**حِكْمَةٌ بالِغَةٌ**)

والبلوغ هنا بمعنى التمـام والكمـال ، ومنه بلغ الرجل إذا اكتمل نفســيّا وعقليّا وعضـــويّا ، وبلغت الثمـــرة إذا نضـجت وحـان قطافها ، وهنـاك معـنى آخر تنطـوي عليه الكلمة وهو الوصـــــــــول ، والحكمة الالهية كاملة عمقا وشمولا ، لا يعتريها نقص في المحتـوى ولا الأسـلوب ، ثم انّ الله أوصلها إلى الناس عـبر أنبيائه المبلّغين ، فلا عـذر لهم بأنّه لم يرسل رسولا ، وهذه الآية تشبه قوله تعـالى :

(**فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ**) [2].

إذن فالحيـاة ليست فوضى ، بل ولها قوانينها وسـننها المســتقرة الثابتة ، والإنســان يحتــاج إلى الحكمة البالغة المنطلقة من تلك الواقعيّـات الحق ، لكي يعيش فيها كما ينبغي ، وهذه نجدها مبثوثة في كتاب الله ، الحكمة البالغة العظمى ، والنعمة الكبرى ، والهدية الالهية إلى الإنسـان ، وقد بلّغها رسـوله (ص) ، فلما ذا إذن هـذا الضـلال الـذي تعيشه البشرية؟ والجواب : لأنّها لم تـؤمن به ، ولم تطبّق آياته. إنّها وضـعت بينها وبين تلك الحكمة حجب الاعـراض والتبرير والتكذيب والهوى.

(**فَما تُغْنِ النُّذُرُ**)

---

(1) مفاتيح الجنان / دعاء الندبة.

(2) الأنعام / (149).

كان يفترض أن تزجرهم عن الضلال والباطل فإذا بها تزيـدهم طغيانا وكفـرا ، وكـان ينبغي أن تبكيهم فـإذا بهم يضحكون ويهزأون ، وجـاءت لتـذكّرهم فـإذا بهم يتوغّلـون في الغفلة ، والقرآن يبيّن هـذه الحقيقة في أواخر سـورة النجم ، ويسـتنكر على المكـذّبين واقعهم : «**أَفَمِنْ هـذَا الْحَـدِيثِ تَعْجَبُـونَ* وَتَضْـحَكُونَ وَلا تَبْكُـونَ* وَأَنْتُمْ سامِدُونَ**»؟! [1]

[6] وإذا وصل الإنسان إلى حدّ الاعـراض عن الحكمة البالغة أو كله الله الى نفسه ، فلا تــــرتجى له هداية بعد ذلك ، وصــــرف عنه أوليـــاءه ، لـــيزداد إثما على إثم ، ويتسافل دركا بعد درك ، فيلقى جزاءه المريع الذي يقصر عنه خيال البشر.

ويأمر ربّنا مكرّرا أصحاب الرسالة بـترك المعرضـين عنها ، ونتسـاءل : لمـاذا؟ إنّما لحكمة بالغة تتمثّل في أنّ الاستمرار في إنـذارهم ومحاولة هـدايتهم سـوف يتسـبّب في ضـياع وقت كثـير منهم لا بد أن يـوفّروه لما هو أنفع ، فعليهم إذن أن يبلّغوا الرسـالة إلى الحـدّ الـذي تقـوم فيه الحجة على الآخرين ، ويسقط عنهم الـواجب ، فـإذا تـبيّن لهم عدم نفعه وجب أن يتوجّهوا إلى هداية غـيرهم ، وإلى تطبيق الرسالة على أنفسـهم ، وتكـوين الكيـان الرسـالي المتكامل ، أمّا متى يتولّى الرسـالي عن دعـوة الآخـرين؟ فإنّ تحديد ذلك يكون على ضوء البصائر الالهية ، والقيـادة الرسالية تعرف ذلك.

وهناك حكمة أخرى لواجب الاعراض عمّن يجحد آيات الله هي أنّهم هم المحتاجون إلى الرسالة ، والرسالة غنية عنهم ، فلا داعي للإلحـــاح الزائد عليهم ، أو تغيـــير بعض القيم وتطويعها وفق أهـــوائهم ليقبلوها ، كما فعل بعض علمـاء النصـارى حيث أدخلـوا في دين الله ما ليس فيه مجاراة للسلطان أو للعـوام من النـاس حـتى يسـتهويهم الـــدّين ، وكـــذلك فعل بعض الجهلة من الـــدعاة عند المسلمين حيث أضافوا

---

(1) النجم / (59 ـ 61).

إلى الـدّين ما يسـتهوي الطغـاة أو رعـاع النـاس ابتغـاء كسبهم ، والله غني عنهم وعمّن يدعونه بهذه السـبل إلى دينه.

ولا ريب أنّ المؤمن حريص على هداية الناس ، ويريد الخير لهم ، فمن الصـعب عليه أن يـتركهم حصـبا لجهنم ، فهذا سيد الشهداء الامام الحسين (ع) تبتّل لحيته بالدمع ، وحينما يـراه رجل من الأعـداء يخاطبه : يا ابن فاطمـة! أتبكي خـوف القتـل؟! فيقـول : «**لا ولكن لأنّـني أعلم أنّكم تدخلون النـار بقتلي**» ، من أجل كـلّ ذلك تـوالى الأمر بترك المعرضين في القرآن.

(**فَتَوَلَّ عَنْهُمْ**)

اتركهم وشأنهم ، وانتظر ، وتقـدير هـذا الفعل أقـرب إلى السـياق من قـول بعض المفسّـرين بأنّه : واذكر يـوم القيامة حيث يـدع الـداع إلى شـيء مكـروه ، ذلك لأنّ انتظـار يـوم البعث لفضّ الخلافـات مسـألة معروفة في آيات القرآن الكريم.

وقد لا يقتصر الأمر بـالتولّي على الـدنيا وحـدها بل يشـمل الآخـرة ، حيث يـأمر الـربّ نبيّه بـالاعراض عنهم وتركهم وهو صاحب الشفاعة الكبرى يوم القيامة ، وحيث يلتمس النـاس بـأجمعهم حـتى الرسل والأنبيـاء الشـفاعة منه (ص) لأنّها الصـراط الأقـرب إلى الجنـة. جـاء في الحـديث عن سـماعة بن مهـران قـال : قـال أبو الحسن (ع) : «إذا كـانت لك حاجة إلى الله فقل : «**اللهمّ إنّي أسئلك بحقّ محمّد وعليّ فـإنّ لهما عنـدك شـأنا من الشـأن» فإنّه إذا كـان يـوم القيامة لم يبق ملك مقـرّب ولا نـبيّ مرسل ولا مـؤمن ممتحن إلّا وهو يحتاج إليهما في ذلك اليـوم**» [1] وعن الامـام الصـادق (ع) : «**مـا من أحـد من الأوّلين والآخـرين إلّا وهـو يحتاج إلى**

---

(1) بحار الأنوار / ج (8) ص (59).

شفاعة محمّد (صلّى الله عليه وآله) **يوم القيامة**» [1] وكم تكون حاجة هؤلاء إلى الرسول في ذلك اليوم عظيمة! ولكنّ الله يأمره بالتولّي عنهم جزاء لتولّيهم وإعراضهم في الدنيا.

(**يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ**)

وعدم ذكر الداعي هنا (هل هو الله ، أم إسرافيل ، أم جبرئيل ، أم الروح؟) يدلّ على أنّ المهم الدعوة وما تنطوي عليه ، وليس شخص الداعي ، لذلك أبهم ، وفي ذلك من الترهيب الشيء العظيم ، ثم انّه تعالى زاد الأمر رهبة حينما جعل المدعو إليه مجهولا ، فقال «**شَيْءٍ**» والشيء نكرة ، والإنسان مجبول على الخوف من المجهول ، وأخيرا جاءت صفة الشيء تفيض رهبة وزجرا وتخويفا بتأكيدها على أنّ الشيء منكر ، وأصله أن يرد على الإنسان ما لا يتصوّره ويستسيغه ، وقيل للذنوب والخطايات منكرات لأنّها يمجّها عقل البشر ووجدانه ولا يستسيغانها.

[7 ـ 8] وإذا كان الإنسان في دار الامتحان قادرا على الاعراض عن دعوة الله وعدم إجابة داعيه ، فليس لأنّه يغلب الله بمعصية أو يعجزه هربا من عقابه ، كلّا .. «**وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**» [2] ، أمّا في يوم القيامة فإنّه تسلب حرّيته ، ويخلص الملك والحكم لله الواحد القهّار ، فلا مجال لأحد أن يتمرّد على أمره أو يرفض دعوته ، «**يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً**» [3] ، هنالك يبدّل تكبّر المعرضين والمكذّبين ذلة وهوانا.

---

(1) المصدر / ص (38).
(2) الأحقاف / (32).
(3) طه / (108).

(**خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ**)

خشـــــوع صـــــغار وندامة يعكس عمق المذلّة في نفوسهم.

(**يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ**)

والأجـداث هي القبـور ، وحيث تبعث البشـرية بجميع أجيالها الـتي تعـاقبت على الأرض يصـير العـدد عظيما ، بحيث يركب بعضـهم على بعض ، «**فأحسـنهم حـالا من وجد لقدميه موضـعا ، ولنفسه متّسـعا**» [1] كما يقـول الامـام علي (ع) ، والقـرآن يشـبّه النـاس في حشـرهم بـالجراد حينما ينتشر ، أي يتكـاثر بأعـداد هائلة في مثل حالات البلاء ، فهو حينئذ كثير متراكم ، والقـرآن هنا يقـدّم الحديث عن حـالتهم «**خُشَّعاً أَبْصـارُهُمْ**» على خـروجهم من القبور ، لأنّ بيانها هو هدف السـياق من ذكر القيامة ، وهو يمضي يحدّثنا عن حال الذين أعرضوا وكـذّبوا واتبعـوا أهواءهم بدل أن يتبعوا الدعاة إلى الله عزّ وجل.

(**مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ**)

قال صاحب المجمع : الهطع المشي السريع بالإلجـاء والإكراه والاذلال ، وقـال الزمخشـري : بمـدّ الأعنـاق ، أو نـاظرين إليه (**إِلَى الدَّاعِ**) لا يصـرفون أبصـارهم عنه إلى غـيره ، وقـال الـراغب : هطع بصـره أي صـوّبه ، وبعـير مهطع إذا صـوّب عنقه ، والـذي يبـدو أنّ الله قطع الكلمة عن الاضـــافة ، فلم يقل مهطعين رؤوســـهم مثلا ، وذلك ليتسع معناها إلى مضـمون أشـمل هو تجميع كـلّ جـوارح البدن وجوانح القلب في اتجـاه الـداعي ، وهـذا يـدلّ على عمق طاعتهم لداعي الله.

---

(1) نهج البلاغة / خطبة (102).

(**يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ**)

لأنّه يـوم الـدّين والحق ، وقد أعرضـوا عن الـدّين ، واتبعـوا الأهـواء والظنـون ، أمّا المؤمنـون الـذين آمنـوا بالآيـات الربّانية ، وصـدّقوا بالحسـنى ، واتبعـوا داعي الله في الدنيا ، فذلك يوم سعادتهم ، وأيّ سعادة أسمى من لقــاء العبد بربّه ، وبلوغه الوعد الــذي طالما تــاقت إليه نفســه؟! «**إِنَّ الَّذِينَ سَـبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْـنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَـدُونَ* لا يَسْـمَعُونَ حَسِيسَـها وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ* لا يَحْـزُنُهُمُ الْفَـزَعُ الْأَكْبَـرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَـدُونَ**» [1] ، «**وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ**» [2].

قــال الامــام علي (ع) يحــدّث النــاس عن أحــداث المحشر : «إذا كـان يـوم القيامة بعث [بعثهم] الله تبـارك وتعالى من حفرهم عزلا بهما جردا مردا في صعيد واحد ، يسوقهم النور ، وتجمعهم الظلمة ، حتى يقفـوا على عقبة المحشر ، فــيركب بعضــهم بعضا ، ويزدحمــون دونها ، فيمنعـون من المضي فتشـتدّ أنفاسـهم ، ويكـثر عـرقهم ، وتضيق بهم أمورهم ، ويشتدّ ضجيجهم ، وترفع أصـواتهم» ، قال : «وهو أوّل هـول من أهـوال يـوم القيامـة» قـال : «فيشرف الجبّار تبارك وتعالى عليهم من فوق عرشه في ظلال من الملائكة ، فيأمر ملكا من الملائكة فينـادي فيهم : يا معشر الخلائق! أنصتوا واسمعوا منادي الجبّار» قـال : «فيســمع آخــرهم كما يســمع أوّلهم» قــال : «فتنكسر أصــــواتهم عند ذلك ، وتخشع أبصــــارهم ، وتضــــطرب فرائصهم ، وتفزع قلوبهم ، ويرفعـون رؤوسـهم إلى ناحية الصــوت ، (**مُهْطِعِينَ إِلَى الــدَّاعِ**) ، قــال : «فعند ذلك يقول الكافر هذا يوم عسر» [3]

---

(1) الأنبياء / (101 ـ 102).

(2) النمل / (89).

(3) نور الثقلين / ج (5) ـ ص (175).

[9 ـ 12] ثم انّ التكذيب بالرسالة أمر طـبيعي واجهه كلّ الأنبياء السابقين.

(**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا**)

التكـذيب الأوّل بالآيـات والرسـالة ، والتكـذيب الثـاني بنبوّته (ع) ، ولم يقفوا عند حدّ التكذيب وحسب بل سـعوا إلى النيل من سمعته.

(**وَقالُوا مَجْنُونٌ**)

لإصراره على الحق ، واستبساله في الدعوة ، بالرغم من تكـــذيبهم ، فهو في نظـــرهم يطلب المســـتحيل اللّامعقـول ، وحيث وجـدوا فيه الشـجاعة الـتي تحـدّى بها ثقافاتهم وعاداتهم ولم يريدوا الاعتراف له بهذه الايجابية ، حوّروها إلى الجنون حـتى يصـنعوا بينه وبين النـاس حجابا يمنعهم من التـــأثّر به ، وهـــذه من طبيعة الطغـــاة ، فهم اليـوم يسـمّون الأصـالة تطرّفا ، والجهـاد في سـبيل الله إرهابا ، وعلى المؤمنين أن لا يهزمهم الاعلام المضاد فهم امتداد لخط الأنبيـاء ، وهم على حق ، وعليهم أن يتحمّلـوا ما تحمّل الرسل من أذى في سـبيله ، فهـذا شـيخ الأنبيـاء نوح (ع) يزجره قومه قصد ثنية عن رسالته والاساءة إليه.

(**وَازْدُجِرَ**)

وهذه الكلمة هي تلخيص لمجمل ما تعرّض له نـوح ـ عليه السـلام ـ من البلاء والإيـذاء ، وهي ليست معطوفة على «**مَجْنُـونٌ**» ممّا يجعلها داخلة في جملة القـول ، بل معطوفة على «**فَكَذَّبُوا**» كما يبـدو ، فهم كـذّبوه نفسـيّا ، وسـعوا في تشـوية سـمعته بألسـنتهم وما أمكنهم من وسائل الاعلام ، وآذوه فعلا ، وإنّما اسـتفتح السـياق بـذكر نـوح بين الأنبيـاء لأنّه أشـدّهم ابتلاء بسـبب الاعـراض عنه فقد لبث في قومه ألف سـنة إلّا خمسـين عاما يـدعوهم فيعرضون عنه.

(**فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ**)

وهذه الآية تدلّ على المعنى المتقدم لكلمة «ازدجر» ، إذ لو لا دعاؤه لتأثّر بزجرهم نفسيّا ، أو صار ضحية له ، كما تدل على أنّ نوحا ـ عليه السلام ـ وصل إلى حدّ اليأس من قومه ، قال الرازي : إنّ الرسول لا يدعو هذا الدعاء ما دام فيه نفس احتمال ، وما دام الايمان منهم محتملا ، واستجاب ربنا دعاء نبيه ، ففتح السماء ماء منهمرا ، وفجّر الأرض عيونا ، فنصره وأهلك الكافرين.

وبنظرة شاملة ودقيقة إلى القصة التي يعرضها القرآن في ثلاثة فصول ، يحدّثنا في الأوّل عن معاناة نوح مع قومه ، وفي الثاني عن دعائه الذي يلخّص موقفه منها ، وفي الثالث عن عذاب الله لقومه الكافرين ، نكتشف حقيقة هامّة هي أنّ دعاء المؤمنين بالنصر لا يستجاب إلّا إذا تحرّكوا في سبيل الله ، وإلى تحقيق النصر بأقصى ما يمكنهم معنويّا وماديّا. إنّ الله كان قادرا على نصر نوح من أوّل لحظة كذّبوه فيها ، ولكنّه تركه يدعوهم جيلا بعد جيل (950 عاما) حملت في أحشائها ألوان الأذى والابتلاء ، فكان يعده ثمّ يؤخّر عنه النصر مرة بعد أخرى إتماما للحجّة على الناس.

وفي سورة نوح استشهاد مفصّل بدعاء نوح (ع) يكشف عن عمق المعاناة التي واجهها ، ويسلّط الضوء على كثير من الأفكار المتقدّمة ، ولكنّه هنا يختصر الحديث اعتمادا على تفصيله في مواضع أخرى ، ويقول :

(**فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ* وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً**)

قال الامام الصادق (ع) : «**لمّا أراد الله عزّ وجلّ هلاك قوم نوح (وذكر حديثا طويلا ، ثمّ قال :) فصاحت امرأته لمّا فار التنّور ، فجاء نوح إلى التنّور فوضع عليها طينا وختمه حتى أدخل جميع الحيوان في السفينة ، ثم جاء إلى التنور ففضّ**

الخاتم ، ورفع الطين ، وانكسـفت الشـمس ، وجـاء من السـماء مـاء منهمر صـبّا بلا قطر ، وتفجّـرت الأرض عيونا» [1] والتـــــاريخ يؤكّد أنّ الأرض قد غطّاها المـاء في يـوم من الأيّـام ، ويسـتدل البـاحثون على ذلك بآثـار الحيوانـات البحرية ، كالأصـداف وهياكل السـمك الموجودة في كلّ مكان حتى على الجبال ، إلّا أنّ التحليل التـاريخي يختلف عن القـرآن بأنّه يبقى تحليلا ماديّا بحتا ، وبغضّ النظر عن عـــدم مطابقته للواقع في اعتقادنا فإنّه يبقي القضـــية علما مجـــرّدا عن الموعظة والعـــبرة ، فأصحاب النظريات في هذا المجال يفسّرون الطوفـان ـ مثلا ـ بأنّه نتج صدفة ، حيث مرّت بـالأرض عواصف بـاردة تسبّبت في تكوّن جبال جليدية ضـخمة ، ثم حـدث انفجـار في الشمس أخذت الثلوج على أثرها بالـذوبان ، فتكـوّنت السيول التي أغرقت اليابسة ، والقـرآن يقـول : كلّا .. إنّه لم يكن صدفة ، بل بتقدير إلهي حكيم نقـرأ لمسـاته على هذه الظـاهرة الكونية الخارقة للعـادة ، حيث سـبق إخبـار نـوح به ، وحيث لم يغـرق فيه ولا مـؤمن واحد ، ولم ينج منه ولا كافر واحد ، فهل هذا مجرّد صدفة؟!

(**فَالْتَقَى الْماءُ**)

المنهمر من السماء ، والمنفجر من الأرض.

(**عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ**)

ونجد إشـارة إلى هـذا الأمر الالهي في قوله تعـالى : (**حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ**) [2] ، وكان الأمر حكيما في جميع دقائقه ، فهو مقدّر من حيث الزمن بدء ونهاية ، ومن حيث العوامل وطريقة تنفيـذه ، فلو تقـدّم مثلا عن زمنه المحدود لربما كـان يغـرق نـوح (ع) ومن معه لعـدم الاستعداد ، ولو تأخّر أمر الله بإنهائه ربما لم تكن

---

(1) نور الثقلين / ج (5) ـ ص (178).
(2) هود / (40).

الأرض بعدها صالحة للحياة عليها.

[13 ـ 16] (**وَحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ**)

وهي السفينة التي تتكوّن من الجذوع المقطّعة شرائحا ، ولا يقال لوح إلّا للصفائح ، أمّا الدسر فهو ما يشدّ الألواح إلى بعضها ، سواء كان ذلك المسمار أو الحبل أو غيرها ، وإذ يتعرّض القرآن إلى المواد الأوّليّة التي تتألّف منها سفينة نوح فلكي يؤكّد بأنّ الأمر لم يكن صدفة ، بل هو مقدّر تقديرا حكيما من قبل الله ، وإلّا كيف ينجو راكب سفينة هذه طبيعتها من الغرق بطوفان هائل أمواجه كالجبال؟!!

ويؤكّد القرآن على هذه الحقيقة مرة أخرى ، حينما يبيّن بأنّ سير الفلك في غضب الطوفان وبالتالي نجاة ركّابها كان برعاية مباشرة من الله ، وفي ظلّ رحمته.

(**تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ**)

وعين الله لطفه ورحمته ورعايته لنبيّه (ع) إذ نجّاه ومن معه جزاء معاناته وإيمانهم ، فقد لبث في قومه مدّة طويلة يدعوهم إلى الله بإلحاح رغم كفرهم به وأذاهم له ، ولم تكن نجاته صدفة ، ولا لعنصره ، ولا لركوبه في السفينة وحسب ، بل لعمله وسعيه ، إذ أكّد ربّنا أنّه كان جزاء لنوح الذي كان قد كفر من لدن أولئك الكافرين ، وهذا رأي في التفسير ، وهناك آراء أخرى لا أراها تنسجم مع ظاهر السياق.

وفي الوقت الذي دمّر الله أولئك ونجّى هؤلاء ، أبقى قصصهم ـ وربما السفينة أيضا ـ علامة تهدينا إلى الحق ، ولكن لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

(**وَلَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**)

إنّها واقع مر لفريق ، ونعمة لفريق آخر في وقتها ، ولكن دورها لا ينتهي عند هـــذا الحـــدّ ، بل تبقى موعظة للّاحقين ، لـــذلك يســـجّلها الله في كتابه لكي لا تنســـاها البشرية ويفوتها نفعها ، وأن يتذكّر الإنسان بغيره خير من أن تدور رحى التجارب عليه فيصير عـبرة للآخـرين ، وكما في الخـبر : «السـعيد من اتّعظ بتجـارب غـيره» ، من هنا ينبغي أن ندرك مـدى أهمية القـرآن للبشـرية ، ودوره في حفظ تاريخها وتجاربها الـــتي تطـــاولت عليها الســـنون ، وكـــانت لـــولاه تبيد وتنسى أو تنـــتزع منها عبرتها ولبابها ، وتضحى قشـرة بالية لا تكسب النـاس حكمة ، ولا تهـديهم سبيلا ، كما نجد في التواريخ التي تمجّد قصص الغابرين لا تحكي سوى ظواهرها ، أمّا ما ينفع الأجيال المتلاحقة فإنّه ينسـى. حقّا : إنّها سـمة مميّـزة لمنهج الرسـالة في بيـان قصص الأوّلين ، حيث تحوّلها إلى حقـــــائق معاشة بيننا ، وذلك بـــالتركيز على بيـــان عبرها الدائمة والخطـــوط المشتركة بيننا وبينهم.

وهكذا أشار ربّنا سبحانه في آيات أخر إلى جـانب من ذلك بعد بيـان قصة نـوح فقـال : «**قِيـلَ يا نُـوحُ اهْبِـطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ* تِلْـكَ مِنْ أَنْبـاءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْـكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُـكَ مِنْ قَبْلِ هـذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَـةَ لِلْمُتَّقِينَ**» [1]. أتـرى كيف وصل الحـدث الموغل في التـاريخ بالحـدث الـراهن المتمثّل في الصـراع المسـتمر بين المتقين وغـيرهم وأنّ العاقبة لهم؟ وهـذه من أبـرز العـبر في قصة نـوح (ع) ، ولكنّ الســـفينة ذاتها آية أيضا ، ذلك أنّها حـــافظت على النوع البشري من الانقراض ، ومن الآيات الـتي تجلّت في القصة آية العـذاب الالهي المهـول الـذي تشـير إليه الآية الكريمة التالية بهـدف إصـلاح النفسـية البشـرية القائمة على الظنون والتمنّيات ، حيث يستبعد البعض العذاب من قبل الله بناء على تصوّر خاطئ بأنّه رحيم ورؤف وقد

(1) هود / (48 ـ 49).

خلق الخلق لـيرحمهم لا ليعـذبهم ، ويتخذ البعض من هـذا التصوّر مبرّرا للذنوب التي يمارسها ، كلّا .. يقول تعالى : (**فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ**)

بلى. إنّ الغضب الالهي عذاب للأقوام التي يحـلّ بها ، ولكنّه في ذات الــوقت نــذير للّاحقين ، فلا يعتمــدوا إذن على التمنّيــات ، ليتفكّــروا في التــاريخ ، وليــذكّروا آياته الواعظة المنـــذرة ، والاســـتفهام الـــوارد في الآية يفيد التعظيم ، ويسـتهدف اسـتثارة العقل نحو الموعظة بوقعه الخاص ، ذلك أنّ الاستفهام بحاجة إلى وقفة تفكّر وتدبّر.

[17] وتلك الآية وآية العذاب ، وما تنطـوي عليه قصة نوح مع قومه من نذر ، تلتقي مع القـرآن في هـدف واحد هو التـذكرة ، إذن فهي الهـدف الأسـمى للقـرآن ، وإليها تهـــدي كـــلّ ســـوره وآياته ومفرداته ، ولكن كيف يحقّق القرآن هذا الهدف؟ وكيف ينفذ إلى أعماق ضمير الإنسان وعقله ، ويخترق حجب الهوى والغفلة والجهل التي تلـوث فطرته ، وتستر عقله عن الحـق؟ لا بـدّ أن يكـون ميسّـرا بعيدا عن العسر والتعقيد للأسباب التالية

أوّلا : لأنّه كلام الخـالق العليم القـدير إلى المخلــوق الجاهل الضــعيف ، وليست ثمّة نســبة بينهما في علم ولا منطق.

ثانيا : لأنّه يحدّث الإنسان عن حقائق كبري في الحياة وفوق الحيـاة ، بعضـها يحسـها ويراها والبعض الآخر يغيب عنه.

ثالثا : لأنّ الله أراد لهــذا الكتــاب الصــغير في حجمه الكبير في محتواه أن يكون تبيانا لكلّ شـيء يهمّ الإنسـان في حاضــره ومســتقبله ، وفي دنيــاه وآخرته ، ويرسم له منــــاهج الحيـــــاة في أبعادها المختلفة ، في الشـــــؤون الشخصـية والاجتماعية والسياسـية والاقتصـادية والعلمية والثقافية .. ولقد يسّر ربّنا القرآن إذ

جعله عربيّا مبينا ، وأنزله في أرفع الأســـــــاليب البلاغية والنفســـية والعقلية فـــإذا به الحكمة البالغة ، والقصص القرآني الـتي تبلغ (40 خ) من عمــوم آياته تقريبا هي من أبــرز معــالم منهجه في تيســير التــذكرة ، لــذلك نجد الآية الكريمة : (**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**) تتكــرّر في هــذه الســورة بعد كــلّ قصّــة مباشــرة ، وهي قصص واقعية بتفاصيلها التي تعرّض لها القرآن.

إذن لا نقص في كتاب ربّنا سبحانه ، ولا غمــوض ، ولا يكلّف الإنسان أكثر من وسعه ، بل هو ميسّر ، وإذا كــانت ثمّة تــزمّت أو تعقيد عند بعض المؤمــنين به فهو من عند أنفسهم ، ولأنّ قلوبهم قد ملئت بثقافات دخيلة ، بأساطير الشعوب البدائية ، بأفكار الجاهلية الوافدة ، بالاسرائيليّات المتلصلصة إلى كتبهم ، وبالعقد المتراكمة من جـــــــرّاء التخلّف ، وإذا لم يتذكّر البشر به فلا حجّة له.

(**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**)

والسعيد من صدّق بالقرآن وتذكّر به فتجنب العذاب.

[18 ـ 20] إنّ الله ضـــــرب للبشر مثلا من واقع المكــذّبين وعــاقبتهم بقــوم نــوح (ع) ، ولكنّ الأهم بيانه مصــير أولئك الــذين لم ينتفعــوا بتجــارب الســابقين من الأقــوام ، تحــذيرا للنــاس من تكــذيب القــرآن وعصــيان الرسول.

إنّ الله تــرك قصص قــوم نــوح آية للّاحقين ، وكــان بإمكان من بعــدهم أن يتجنّبــوا غضب الله لو اعتــبروا بها ، ولكنّهم كذّبوا فحلّ بهم العذاب.

(**كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ**)

وعاد هم القوم الذين أرسل إليهم النبيّ هود (ع) فلمّا كذّبوه أهلكهم الله

بالريح ، وهذا نذير آخر لنا يسوقنا إلى التصديق بالرسالة.

(**إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً**)

وهي الريح شديدة البرد ، وذات الصوت الرهيب ، وأصله الصرير ، عن عليّ بن إبراهيم [1] ، وعن أبي بصير قال : قال أبو جعفر (ع) : إذا أراد الله عزّ ذكره أن يعذّب قوما بنوع من العذاب أوحى إلى الملك الموكّل بذلك النوع من الريح التي يريد أن يعذّبهم بها ، قال : فيأمرها الملك فتهيج كما يهيج الأسد المغضب ، قال : ولكل ريح منهم اسم [2] والذي يجعل الريح ذات أثر أعمق أنّها أرسلت في يوم رفع الله عنه الرحمة.

(**فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ**)

دائم ، بدأ في الدنيا بثمانية أيّام حسوما ، ولكنّه يمتدّ إلى الآخرة حيث العذاب المقيم ، وإنّما أرسل الله عليهم الريح تقتلعهم من الأرض لأنّهم تكبّروا على الحق ، وتحدّوا هودا وربّه ، وجحدوا بالآيات ، فكانوا يتصوّرون أنّهم باقون وأنّه لا غالب لهم ، قال تعالى : (**فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ* فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ**) [3] ، ويشير هذا النص القرآني إلى الفكرتين المتقدّمين وبالربط مع قوله تعالى : (**سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً**) [4] نفهم أنّ «**مُسْتَمِرٍّ**» صفة للنحس وليس لليوم ، لأنّ اليوم ينقضي

---

(1) نور الثقلين / ج (5) ص (401).
(2) المصدر / ص (181).
(3) فصلت / (15 ـ 16).
(4) الحاقة / (7).

ويــأتي آخر غــيره ، بينما بقي النحس عــاملا مشــتركا مستمرا.

أمّا ما قيل من أنّ النحس مختص ببعض الأيّــــــــام كالأربعــاء أو الثـالث عشر من كـلّ شــهر فإنّه بعيد ، لأنّ الأقـدار ليست مرهونة بالأيّـام ، بل بعمل الإنسـان فـردا ومجتمعا ، فـاليوم الـذي يطيع الله فيه ويعمل صـالحا هو يوم خير وبركة ويمن ، سواء في الدنيا حيث الشعور بلـذة فراغ الذمة وأداء الواجب ، وجلب التوفيق ، أو في الآخرة حيث يــرقى به درجة من الرضى والجنة ، وهكــذا اليــوم الـذي تتـنزّل فيه رحمة الله وآلاؤه مبـارك وسـعيد ، كيـوم أنـزل المائـدة على بـني إسـرائيل وحـواري عيسى (ع) ، وليلة أنزل القرآن على نبيّه التي هي خير من ألف شهر ، وفي المقابل يكون يـوم المعصـية يـوم نحس ، يقطع عن صـاحبه التوفيق ، ويجعله عرضة لسـخط ربّه في الـدنيا والآخـرة. أتـرى كيف صـار عقر الناقة سـببا لـدمار أمّة برمّتها؟

قال سـويد بن غفلة : دخلت عليه (يعـني الامـام علي (ع) فإذا عنده فاثور (خوان) عليه خبز السمراء (الحنطـة) وصـــفحة فيها خطيفة (اللبن يختطف بـــالملاعق) وملبنة (ملعقـة) فقلت : يا أمـير المؤمـنين يـوم عيد وخطيفـة؟! فقال : «**إنّما هذا عيد من غفرله**» [1]

وعنه أيضا : «**إنّما هو عيد لمن قبل الله صـيامه ، وشكر قيامه ، وكلّ يوم لا تعصي الله فيه فهو يــوم عيد**» [2].

وتتصل الآيـات تحـدّثنا عن عاقبة المكـذّبين من قــوم هود (ع) لتضع أمام أعيننا لقطات رهيبة من العـذاب ، وما فعلته الريح بهم إنّها من الشدة بحيث تنـتزع الإنسـان من الأرض ، كما تنزع أعجاز النخل المسنّة اليابسة المنخــورة من جذوعها لتلقي بها أرضا من أساسها!

(**تَنْزِعُ النَّاسَ**)

---

(1) بح / ج ـ ص (73).
(2) نهج / حكمة (428).

وكلمة «**تَنْـزِعُ**» تـدل بوضـوح على مـدى تشـبّثهم بالحياة ، واعتمادهم على أسباب القوة والبقاء الظاهرية ، بالرغم من أنّهم يعيشـون في داخلهم الضـعف والانهيـار ، كســائر الأنظمة الطاغوتية الــتي يشــبّهها الله بــبيت العنكبـوت مع أنّ ظاهرها القـوة والمتانة ، وهـذا الضـعف ناتج من اتباعهم الباطل ، ومخـالفتهم سـنن الحيـاة ، ذلك أنّ أسباب القوة الحقيقية تكمن في اتباع الحق والتسـليم لله ، وقد اعتمد قــوم عــاد على ذاتهم كما بيّنا ذلك في الآيتين (15) من سورة فصّلت.

يقـول تعـالى : (**مَثَـلُ الَّذِينَ اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِ اللـهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُـوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كـانُوا يَعْلَمُـونَ**) [1] ، وهنا يشـبّههم بشيء آخر فيقول عزّ من قائل :

(**كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ**)

اهــترأ وتجــوّف بمــرور الــزمن وتعرّضه للعوامل الطبيعية المتلفة ، وتقطّعت عروقه ، فهو لا يحتـاج حـتى يهـوي إلى الأرض من أصـوله فيتحطّم إلّا لأدنى دفع ، وقد شــبّههم الله بالنخل الــذي اجتثّ من قعــره (وإنّما أراد تعالى أنّ هؤلاء اجتثـوا كما اجتثت النخل الـذاهب في قعر الأرض فلم يبق لهم رسم ولا أثـر) [2] ، «**فَتَـرَى الْقَـوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ**» [3] تهـاوت على بعضها ومتفرقة هنا وهناك.

[21 ـ 22] ومع ما تحمل هـذه الآيـات الكريمة من بلاغة وأسـلوب أدبي رفيع ، إلّا أنّها ما جـاءت لكي يظهر ربنا إعجـازه البلاغي والأدبي للنـاس وحسب ، أو لتكـون ميدانا للصراع بين علماء البلاغة واللغة أو بين المفسّـرين ، بل جاءت موعظة

---

(1) العنكبوت / (41).
(2) مفردات الراغب / ص (409).
(3) الحاقة / (7).

ونذيرا للبشرية.

(**فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ**)

أتــرى هيّنا أن يحــلّ غضب الله القــوي العزيز على الإنسان الضعيف الذي خلقه أساسا للرحمـة؟! لنتفكر في تضـاعيف الآيـات الماضـية ، ونقف على آثـار الماضـين وقصصـهم نتعظ من قبل أن نـذلّ ونخـزى ، فهـذه الآيـات إنّما جـاءت لتحملنا إلى التـذكرة ، وتيسّــر علينا حقـائق القرآن.

(**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**)

نحن لا نـرى جهنّم بأعيننا لأنّها من الغيب الـذي حجب عنّا علمه ، ولكن لننظر إليها بقلوبنا ومن خلال بصـــــائر القرآن الحكيم ، ليهـدينا عـذاب الله في الأقـوام السـالفة إلى شـــديد عذابه في الآخـــرة ، وليزجرنا قبل ذلك عن التكذيب بـالحق .. فهل يكـون ذلك منّا ، أم نكـون أنفسـنا عـــبرة لمن بعـــدنا؟ إنّ الحجّة بليغة وبالغة ، والســبل مشـرعة ، والأعلام واضـحة ، والآيـات ميسّـرة ، وبأيـدينا القـــرار ، وبه نرسم مصـــيرنا ومســـتقبلنا ، بتوفيق الله سبحانه.

كَـذَّبَتْ ثَمُـودُ بِالنُّذُرِ (23) فَقـالُوا أَبَشَـراً مِنَّا واحِـداً
نَتَّبِعُــــهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَـــلالٍ وَسُـــعُرٍ (24)ـــــ
أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُـوَ كَـذَّابٌ أَشِـرٌ (25)
سَيَعْلَمُونَ غَـداً مَنِ الْكَـذَّابُ الْأَشِـرُ (26) إِنَّا مُرْسِـلُوا
النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (27) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ
الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُـلُّ شِـرْبٍ مُحْتَضَـرٌ (28) فَنـادَوْا
صـاحِبَهُمْ فَتَعـاطى فَعَقَـرَ (29) فَكَيْـفَ كـانَ عَـذابِي
وَنُذُرِ (30) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ

---

25 [أشر] : أي بطر متكبّر ، يريد أن يترفّع ويتعظّم.
28 [محتضر] : يحضره صاحبه ، ولا حق لأحـدهما في المـاء في اليـوم الآخر.

صَيْحَةً واحِدَةً فَكـانُوا كَهَشِـيمِ الْمُحْتَظِـرِ (31) وَلَقَـدْ
يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (32) كَذَّبَتْ قَوْمُ
لُــوطٍ بِالنُّذُرِ (33) إِنَّا أَرْسَــلْنا عَلَيْهِمْ حاصِــباً إِلاَّ آلَ
لُـوطٍ نَجَّيْنـاهُمْ بِسَـحَرٍ (34) نِعْمَـةً مِنْ عِنْـدِنا كَـذلِكَ
نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (35) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا

---

31 [كهشـيم المحتظـر] : الهشـيم هو حطـام الشـجر المنقطع بالكسر والرض ، الذي يجمعه صاحب الحظيرة ، يتخـذه لغنمه حظـيرة ، تمنعها من بـرد الـريح ، والمعـنى : أنهم بـادوا وهلكـوا فصـاروا كيبس الشـجر المفتّت إذا تحطم ، وقيل : معنــاه صــاروا كــالتراب الــذي يتنــاثر من الحائط فتصيبه الرياح فيتحظّر مستديرا.

34 [حاصبا] : ريحا ترميهم بالحجارة ، يقال : حصبه أي رماه بالحجارة.

36 [فتماروا] : أي تدافعوا بالإنـذار على وجه الجـدال بالباطل ، وقيل : معناه فشكّوا فيه ، ولم يصدّقوه ، وقالوا : كيف يهلكنا وهو واحد منّا؟!

بِالنُّذُرِ (36) وَلَقَــــدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَـــيْفِهِ فَطَمَسْـــنا أَعْيُنَهُمْ فَـذُوقُوا عَـذابِي وَنُـذُرِ (37) وَلَقَـدْ صَـبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ (38) فَذُوقُوا عَـذابِي وَنُـذُرِ (39) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (40)

---

37 [راودوه] : المراودة : الرواح والمجيء ، فقد جاء لوط (ع) ضـيوف فأراد قومه أن يلوطوا بهم ، فكانوا يراودونه من أجل ذلك.
[فطمسنا أعينهم] : أي محوناها ، ومسـحناها ، وسـوّيناها بسـائر الوجه حتى عميت عيونهم ، وشوّهت خلقتهم.
38 [بكرة] : البكرة أول الصبح.

هدى من الآيات :

إنّه لأسـلوب جديد في القـرآن الكـريم في هـذه السـورة والـتي تليها : أن تتكـرّر الآية الواحـدة مـرّة بعد الأخرى ، ممّا يهدي المتـدبر ـ ومن أوّل وهلة ـ إلى كونها محـورا أساسـيّا بين أخواتها في السـورة الواحـدة ، ففي سورة الـرحمن تتكـرّر الآية الكريمة : «**فَبِـأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَـذِّبانِ**» ، وهنا قوله تعـالى : «**وَلَقَـدْ يَسَّـرْنَا الْقُـرْآنَ لِلـذِّكْرِ فَهَـلْ مِنْ مُـدَّكِرٍ**» ، ويطـرح الـذكر الحكيم هـذا الاستفهام مدويّا في أفق الزمان والمكـان وفي قلب كـلّ بشر : هل هنـاك من يتـذكّر بـالقرآن الـذي يسّـر الـذكر بقصص الماضين؟

الإنسـان من جهته لا يعلم بعـواقب الأمـور ، وبسـنن الحياة الفردية والاجتماعية من حوله ، إلّا عبر منهجين :

1 / تجـارب الآخـرين. علما بـأنّ الإنسـان لا يعـاد إلى الحياة مرة أخرى بعد الموت

حتى يجرّب في الأولى ويتعظ في الثانية.

2 / الوحي الالهي.

وقد يكشف القرآن السنن الالهية في الخليقة بصورة مباشـرة ، وقد يبيّنها عـبر قصص الغـابرين ، فهو إذا يجمع بين المنهجين ومن أراد أن يتــذكّر (ينبّه ضــميره وعقلــه) فعليه بــالقرآن ، كمكمل وهــاد لفطرته وعقله ، فــإن لم ينتفع به فليس ينفعه شيء أبدا.

بينات من الآيات :

[23] قصة ثمــود (قــوم صــالح (ع)) من النــذر الــتي تكشف لنا عن عاقبة التكذيب بـالحق ، ولكنّ ربنا لا يقـول أنّهم كـذّبوا بـالحق ، بل قـال كـذّبوا بآياته ونـذره ، وذلك ليكشف لنا عمق الضـــلال والانحـــراف في نفوســـهم ، فالإنسان يكذّب بـالحق تـارة ثم يـزعم أنّه لا يجد آية تدلّه عليه ، وتارة يكذّب به بالرغم من الآيات الهادية إليه. قـوم صـالح دعـاهم نـبيّهم إلى الله ، وحـذّرهم من التكـذيب ، وأظهر لهم أكثر من آية منـذرة بيّنة ، ولكنّهم أصـرّوا على باطلهم ، وكذّبوا بكلّ شيء.

(**كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ**)

قال بعض المفسرين أنّها نذر العذاب المباشـرة حيث اصفرّت وجوههم في اليوم الأوّل ، واحمـرّت في الثـاني ، واسودّت في الثالث .. والذي يظهر من سياق القــرآن أنّ النــذر هو كــلّ ما يحــذّر الإنســان ويخوّفه من غضب الله وعذابه ، وقد كـذّبت ثمــود بالرســول ، ورســالته ، وبآياته العذاب ، وبالناقة ، وكلّها من نذر الله.

[24] وحيث يحتـــاج الإنســـان إلى تـــبرير مواقفه وتصــرّفاته مهما كــانت ، فقد لجــأوا بعد رفض الحق إلى الأفكار والضلالات الجاهلية ، التي تناقض أبسط المعايير

المنطقية عند البشر. إنّهم حـاولوا تقـييم الرسـالة وقيـادة الرســـول (ص) من خلال مصـــلحتهم وواقعهم المـــادي المنحـــرف ، فما داما لا يلتقيـــان معهما فليسا بحـــق. هم أرادوا الرســالة رســالة هـــوى وتـــبرير فجـــاءت بـــالحق والمسؤولية ، وأرادوا الرسول مثلهم في قيادته ومظهـــره فوجدوه قدوة الخير والصلاح.

(**فَقالُوا**)

ويبدو أنّ القائلين هم الملأ المستكبرون الـذين كـانت قيادة صالح (ع) مناقضة لمصالحهم ، لذلك سـعوا جهـدهم إلى محاربته ، ويـدلّ على ذلك قوله تعـالى : (**قـالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْــتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِــهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْــعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُـونَ أَنَّ صـالِحاً مُرْسَـلٌ مِنْ رَبِّهِ**) [1] ، وأرادوا بـــذلك تشـــكيكهم في شـــرعية قيادته ، وهنا أرادوا نفس الغاية ، وحيث لم يجـــدوا ســـبيلا لمواجهة الرســـالة نفسها سعوا إلى النيل من شخصية الرسول ، فقالوا : إنّه ليس مرسلا من قبل الله لأنّ الله لا يرسل بشـــــــــرا ، وبالتالي فاتباعه ليس واجبا ، وهذه الفكرة تشـبه إلى حـدّ بعيد قـول البعض عن الرسـول (ص) أنّه عبقـري وحسب ليثبتوا عدم لزوم طاعته ، وقد أضاف قوم صـالح إلى ذلك أنّه مثلنا ومن محيطنا ولا شـــيء يميّـــزه عنا يـــدعونا إلى اتباعه ، ثم انه واحد لا مال له ولا أعـوان ، فهو مجـرّد عن عوامل القـــوة الـــتي تبعثنا إلى طاعته والخضـــوع له ، وقد يكون معنى «**واحِداً**» أنّه جـاء بنظـام سياسي يـدعو إلى قيـــادة موحـــدة ، ونبذ النظم القبلية والعشـــائرية القائمة على أساس تعدّد القيادات ، والتي تفسح المجـال لكلّ مترف ومسـتكبر لممارسة شـهوة الرئاسة ، وهـذا لا يتفق مع أهوائهم ، كما قال كفّار قريش : (**أَجَعَـلَ الْآلِهَـةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ**) [2]

(**أَبَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ**)

---

(1) الأعراف / (75).

(2) ص / 5

واعتبروا اتباعه مع هذه الصـفات ضـربا من التيه ، بل الجنون ، واعترافا صـريحا منهم بخطإ سـيرتهم الماضـية ، إضـافة إلى كونه يجـرّدهم من الرئاسة ، ولـذلك رفضـوا قيادته واتباعه.

(**إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ**)

السعر هو الجنون الشامل المستمر ، والحق أنّ هـذه كلّها مقـاييس باطلة لا تصـلح لتشـخيص القيـادة الحقيقية في المجتمع ، إنّما الكفاءة الادارية والعملية والسياسـية ، ومدى الالتزام بالحق (التقوى) ، والتصدي الفعلي للقيـادة ، ثم إذن الله وإعطاؤه الشـرعية هي المقـاييس الصـادقة للرئاسة.

[25] بلى. إنّهم اعتـبروا الوجاهة الاجتماعية ، وكـثرة المـال والأتبـاع ، هي المقـاييس ، ولو تجـرّد صـاحبها عن الكفـاءة والتقـوى ، وهـذه متـوفّرة لـديهم ، وهـذا منطق المترفين والمستكبرين على مـرّ التـاريخ ومع كـلّ الأنبيـاء والمرسلين ، «**وَقالُوا**» لرسولنا الأعظم «**لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**». [1]

وهكذا قال مـترفو بـني إسـرائيل من قبل ، قـال الله عـزّ وجـلّ : (**أَلَمْ تَـرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْـرائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى إِذْ قـالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنا مَلِكـاً نُقاتِـلْ فِي سَـبِيلِ اللـهِ قـالَ هَـلْ عَسَـيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ أَلَّا تُقاتِلُوا قالُوا وَما لَنا أَلَّا نُقاتِلَ فِي سَـبِيلِ اللهِ وَقَـدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيارِنا وَأَبْنائِنا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتـالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللـهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ* وَقالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَـدْ بَعَثَ لَكُمْ طـالُوتَ مَلِكـاً قالُوا أَنَّى يَكُونُ لَـهُ الْمُلْـكُ عَلَيْنا وَنَحْنُ أَحَـقُّ بِالْمُلْـكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ**). [2]

وهذه بالضبط هي كانت مقاييس قـوم صـالح ، لـذلك استنكروا أن يصطفيه الله

---

(1) الزخرف / 31

(2) البقرة / 246 ـ 247

من بينهم وهو لا يضـــاهيهم مـــالا ولا أتباعا ، بل اتهمـــوه بأرذل أنواع الكذب.

(**أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ**)

قـال البعض : الأشر الـذي يتجـاوز الحد في الكـذب ، ويبـــدو أنّه الطمع في الرئاسة بلا اســتحقاق لها ، ولعـــلّ معنى كلام سـيد الشـهداء الامـام الحسـين (ع): «**إنّي لم أخرج** (أشـرا) **ولا بطـرا ولا ظالما ولا مفسـدا**» أنّـني حيث نهضت وطـــــالبت بالامامة فهي من حقّي ، ولست أدّعي ما هو للغـير ، وظـاهر كلمة «**مِنْ بَيْنِنا**» في هـذه الآية يؤيد هذه الفكـرة ، لأنّ المعـنى بها يكـون : إنّه طلب يصـــلح ويحق لنا دونه ، وربما دلّت هــــذه التهمة الباطلة على أنّ خشـية أولئك الكـافرين من تحويل الرئاسة عنهم كانت وراء تكذيبهم برسالة صالح ، حيث أنّهم اتهمــوه بأنّه طالب رئاسة بالباطل قياسا على أنفسهم الـذين تسـلّطوا على الناس بغير حق.

[26] وأمــام هــذا المنطق المتوغّل في التكـبر على الحق ، والاســـتهزاء بـــوليّ الله ورســـوله صـــالح (ع) ، والإعراض عن الآيات والنذر ، ومن ثمّ مبارزة الحق تعالى ، يتوعّدهم ربّنا بالعذاب.

(**سَيَعْلَمُونَ غَداً**)

في المستقبل الـدنيوي والأخـروي إذا نـزل بسـاحتهم العذاب.

(**مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ**)

وحينئذ سيكتشفون مدى ضلالتهم وهوانهم على الله ، كما يوقنون عين اليقين صدق النـذر ، ولكن دون جـدوى ، لأنّ العلم والايمان ينفعان ما بقيت فرصة للتغيـير والعمل ، والآية تهـدينا إلى أنّ حبل الكـذب قصـير ينقطع بصـاحبه سريعا ، وعاقبته

الخسران ، لأنّه يخالف سنن الله في الحياة.

[27 ـ 29] ومنذ أوحى الله إلى نبيّه بذلك الوعيد كان عالما بعـاقبتهم ، قـادرا على إبـادتهم ، ولكنّه ـ وقد كتب على نفسه الرحمة ـ لا يأخـذهم بالعـذاب قبل النـذر ، لأنّ حكمته اقتضت أن يجعل لنفسه الحجة البالغة ، لئلّا يقـول النـاس : (لَـوْ لا أَرْسَـلْتَ إِلَيْنا رَسُـولاً فَنَتَّبِـعَ آياتِـكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [1] ، لذلك شـاء وقضى أن يظهر لهم آيات العذاب أوّلا.

(إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ)

نبتليهم ونمتحنهم بها ، وحينما يتعـرّض المجتمع للفتنة فإنّ مسئولية القيادة الرسالية وكذلك المؤمنين أن يكونوا شـهداء لله عليه ، بالـدعوة إلى الحق ، وبيـان البصـائر والمواقف المطلوبة أثنائها ، والتصـــــدّي لقيادته ، وأن يستعدوا لهذه المسـؤولية الحسّاسة ، ويتحمّلـوا من أجلها الضغوط المختلفة ، ويسـتقيموا صـامدين حـتى يحكم الله تعالى.

(فَـارْتَقِبْهُمْ وَاصْـطَبِرْ* وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمـاءَ قِسْـمَةٌ بَيْنَهُمْ)

وبين الناقة الـتي أخرجها الله من الجبل «قالَ هـذِهِ ناقَةٌ لَها شِـرْبٌ وَلَكُمْ شِـرْبُ يَـوْمٍ مَعْلُـومٍ» [2] وكـانت القسمة واضـحة مقبولة لأنّها تمّت بحضـورهم ورضـاهم ، فكلّ صاحب يوم يحضر شربه في يومه.

(كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ)

---

(1) القصص / 47

(2) الشعراء / 155

وحينما يرسل الله الآيـات المادية الواضـحة إلى قـوم أو أمّة من الأمم فـــــــإنّ ذلك دليل على أنّه يريد حسم الموقف بعــذاب الاستئصــال إذا كــذّبوا بها ، ولقد كــانت الناقة آية مبصــرة إلّا أنّها في نفس الـوقت كـانت صـعبة على نفوســهم المنحرفة ، ومن طبيعة الإنســان أنّه حينما يواجه أمـرا صـعبا يفـرز حالة نفسـية يضخّم بسـببها ذاته ويســتهين بــذلك الأمر ، فــإذا بــالقيم الســامية والــدين يسـتحيلان إلى شـيء حقـير عنـده ، بلى. قد يكـون الأمر ذاته ليس عظيما إلّا أنّ عظمته الحقيقية تكمن في القيم الـتي يتصل بها ، جـاء رجل إلى الامـام البـاقر (ع) يسـأله عن حكم دهن ســائل وقعت فيه فــأرة ميتة ، فقــال له الامام : أرقه ، فقال : الفأرة أهـون عليّ من ذلك ، فما ذا كان جواب الامام؟ قال له (بما معنـاه) : إنّك لم تسـتخف بالفأرة ، وإنّما استخففت بـدينك ، وفي الواقع الاجتمـاعي أيضا نجد شواهد لهذا الانحراف الخطر عند الإنسان ، فإذا بك تراه لا يحترم العالم ولا يقدّره لا لقلّة علمه ، أو ضعف شخصيته ، وإنّما لأنّ شـكله لا يـدعوه للاحـترام ، ولا يعلم أنّه بــذلك يســتهين بقيمة العلم لا بالعــالم نفسه ، وعلاج هـذه الحالة بإيجـاد تـوازن داخل الإنسـان بين نفسه وبين القيم ، وذلك بتصـــوّر العاقبة الـــتي ينتهي إليها هـــذا الانحراف.

إنّ قوم صـالح احتقـروا الناقة ، وظنّـوا أنّهم أكـبر من أن يقـدّروها ، ويلـتزموا بعهـدهم مع النـبي (ع) لشـأنها ، وبالرغم من تحذيره لهم تآمروا ورضوا بعقرها.

(**فَنادَوْا صاحِبَهُمْ**)

قـــدّار أو أحيمر ، بعد تخطيطهم للمـــؤامرة ، وكـــان أشقى القوم وأجرأهم على الحق ، ولعـلّ معـنى المنـاداة ليس التنـــادي بـــالكلام فقط ، وإنّما أيضا بالرضا وعـــدم تحمّل مسـئولية الــدفاع عن الحق ، بــالأمر بــالمعروف والنهي عن المنكر ، ومقاومة أهل البغي والطغيان.

قال الامام علي (ع) :

«**أيّها الناس! إنّما يجمع الناس الرضى والسخط ، وإنّما عقر ناقة ثمـــــــــود رجل واحد فعمّهم الله بالعذاب لمّا عمّوه بالرضى ، فقال سبحانه وتعالى : (فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نـادِمِينَ) فما كـان إلّا أن خـارت أرضهم بالخسفة خـوار السـكّة المحمـاة في الأرض الخوّارة**» [1].

وكـان هـذا الفـرد يعكس الشخصـية الحقيقية لـذلك المجتمع ، إذ كـان يعبّر ــ بعمله ــ عن ضـميرهم الفاسد ، وعزمهم الخائر ، وإرادتهم المشـلولة ، وفكـرهم الضـال ، وغياب المؤسسـات الاصـلاحية بينهم ، وهكـذا حينما تحكم أيّ مجتمع أفكـار سـلبية فإنّها تتجسّـد في قيـادة ضـالة طاغية ، ونظام سياسي منحرف ، وعاقبة سـوأى لا تخص الظـالمين أنفسـهم بل تطـال كـلّ أبنـاءه ، وربما أقـدم الشقي على عقر الناقة للوصول إلى حاجة في نفسه هي الرئاسة ، وقد دخل بعمله هـذا في صـفقة مع المـترفين والمستكبرين مباشرة ، ومع المجتمع بصورة غير مباشرة حيث رضوا عنه ولم يمنعوه.

(**فَتَعاطى**)

لعلّ معناه أنّه استعد للقيـام بجريمته ، وأخذ يتعـاطى وسائلها ، ويهيء الأجواء لها ، ونسـتوحي من هـذه الكلمة أنّ الجريمة لم تمر بسـرعة ، وإنّما احتـاجت إلى التـآمر ، وهذه طبيعة أكثر الجـرائم أنّها تسـبقها إرهاصـات تمهيدية تعطي الفرصة لأهل الحق بالتصدي لها ، ولقد كان مجتمع ثمود قـادرا على مقاومة قـدّار بعد أن شـاهدوا إرهاصـات الجريمة عنده ، ولكنّهم تركوه ، فبدأ عـدّهم التنـازلي نحو النهاية والعذاب ، ووجد هو الفرصة سـانحة لتنفيذ جريمته ، والقرآن في موضع آخر يصوّر طبيعة المجرم

---

(1) نهج / خ 201

وموقف المجتمع فيقـــول : «**إِذِ انْبَعَثَ أَشْـــقاها**» [1] ولا ينبعث الإنســـان إلّا إذا كـان نفسه متحفّـزا نحو ما ينبعث إليه ، ولا يجد ما يمنعه من نفسه ولا من خارجها ، وهـــذا حال الأشقى الذي ضرب عرقوب الناقة وقتلها.

(**فَعَقَرَ**)

[30 ـ 31] ولم ينتبه هو ولا من حوله بأنّه يبـارز الله بعمله ، فنزل العـذاب بسـاحتهم ، والإنسـان لا يتصـوّر أنّه ينتهي إلى عاقبة كهـذه لسـبب يبـدو تافها في نظـره ، إذ قدرة الإنسان على استيعاب كل ظواهر الخليقة وعواملها قدرة محدودة ، لذلك جاء القرآن ليرفع الإنسـان من حالة الشيئية واللهو إلى القيمة والجدّ.

(**فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ**)

بقـدر ما كـانت النـذر مبينة بالغة كـان العـذاب مهـولا ورهيبـا. ويـبيّن الـوحي واقع ذلك العـذاب فيقـول : إنّه لم يكن صـدفة ، بل كـان مرسلا من عند الله ، بلى. قد يـأتي العـذاب ضـمن سـنن الحيـاة الطبيعية والاجتماعية ، ولكنّ السنن لا يمكن أن تتحـرك في الفـراغ ، وبعيـدا عن تـدبير الخـالق وهيمنته ، وهـذا البلاغ الالهي يضع حـدّا لمشـكلة عميقة هي تفسير ظواهر الخلق تفسـيرا ماديّا محضا دون التوغّل إلى خلفيّاتها المتصلة بسـلوك البشر ، الأمر الـذي يصرفه عن العبرة والتذكرة.

(**إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً**)

صوتا هائلا صـاعقا ، ربما يشـبه انفجـار القنبلة الذرية في العصر الحاضر أو أعظم ، فعن أبي بصـير عن الامـام الصـادق (ع) قـال : «**فلمّا كـان نصف الليل أتـاهم جبرئيل فصـرخ بهم صـرخة ، خـرقت تلك الصـرخة أسماعهم ، وفلقت قلوبهم ،**

---

(1) الشمس / 12

وصـدّعت أكبـادهم ، وقد كـانوا في تلك الثلاثة أيّـام (التي سـبقت الصـيحة بالنـذر) قد تحنّطـوا وتكفّنـوا وعلموا أنّ العـذاب نـازل بهم ، فمـاتوا أجمعين في طرفة عين ، صـــغيرهم وكبـــيرهم ، فلم يبق لهم ناعقة ولا راغية ، ولا شيء إلّا أهلكه الله ، فأصبحوا في ديـارهم ومضـاجعهم مـوتى أجمعين ، ثم أرسل الله عليهم مع الصيحة النار من السـماء فـأحرقتهم أجمعين» [1] لكي لا يبقى لهم أثر في الحيـــاة ، وتحـــدث الله بضمير الجمع «**إِنَّا**» الـدال على التعظيم والتكـبر لأنّ المقام مقام عزّة الله وسلطانه.

(**فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ**)

وهو بقايا العلف والحشـائش والأعـواد اليابسة الـتي تـتراكم في حظـيرة الماشـية ، وتبقى وتهشّـمها بأظلافها وحوافرها ، وحيث لا تجد طريقا للخـــــــــروج منها تظل تدوســها بكثافة وقد ذكر معــاني أخر للهشــيم الا ان ما ذكرنا يبدو أقرب منها.

[32] هكـذا كـان مصـيرهم وعـذابهم ، وما تصـوّره الآيــات لنا عنه مجــرّد لقطــات يحفظها القــرآن لإنــذار البشرية وتـذكيرها عـبر الـزمن ، ونحن لا نسـتطيع تصـوّر الصــيحة الــتي عبّر بها الــربّ يومئذ عن غضــبه بعقولنا المحدودة ، ولا نستطيع أن نتخيّل ثمـود وقد تعرّضـوا لها ، بالذات لو كنّا في مجتمع القرآن الأوّل أيّام الرسـول (ص) حيث لم يصـنع الإنسـان الأسـلحة التدميرية المعاصـرة ، لــذلك نجد القــرآن يقــرّب لنا الصــورة بتشــبيه واقعي تستوعبه عقولنا ، ويفهمه حـتى ذلك البـدوي الـذي يقطن الصحراء ، وهذا من منهج الله في تيسير كتابه المجيد.

قال الإمام الصادق (ع) يحكي قصتهم :

«هذا كان بما كذّبوا صـالحا ، وما أهلك الله عـزّ وجـلّ قوما قط حــــتى يبعث إليهم قبل ذلك الرسل فيحتجــــوا عليهم ، فبعث الله إليهم صــالحا فــدعاهم فلم يجيبــوه ، وعتوا

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 184

عليه عتوّا وقالوا : لن نـؤمن لك حـتى تخـرج لنا من هـذه الصخرة الصمّاء ناقة عشراء ، وكانت الصخرة يعظّمونها ، ويعبـــدونها ، ويـــذبحون عنـــدها في رأس كـــلّ ســـنة ، ويجتمعــون عنــدها ، فقــالوا له : إن كنت كما تــزعم نبيّا رسـولا فـادع لنا إلهك حـتى يخـرج لنا من هـذه الصـخرة الصـمّاء ناقة عشـراء ، فأخرجها الله كما طلبـوا منه ، ثم أوحى الله تبارك وتعـالى إليه ، يا صـالح قل لهم : إنّ الله قد جعل لهذه الناقة شرب يوم ولكم شرب يوم ، فكــانت الناقة إذا كــان يــوم شـــربها شـــربت المـــاء ذلك اليـــوم فيحلبونها ، فلا يبقى صــغير ولا كبــير إلّا شـــرب من لبنها يـومهم ذلك ، فـإذا كـان الليل وأصـبحوا غـدوا إلى مـائهم فشـــربوا منه ذلك اليــوم ولم تشـــرب الناقة ذلك اليــوم ، فمكثـــوا بـــذلك ما شـــاء الله ، ثم إنّهم عتـــوا على الله ، ومشى بعضـهم إلى بعض ، وقـالوا : اعقـروا هـذه الناقة واسـتريحوا منها ، لا نرضى أن يكـون لنا شـرب يـوم ولها شرب يوم ، ثم قـالوا : من ذا الـذي يلي قتلها ، ونجعل له جعلا ما أحب؟ ، فجاءهم رجل أحمر أشقر أزرق ولد زنا لا يعــرف له أب ، يقــال له قــدّار ، شــقيّ من الأشــقياء ، مشؤوم عليهم ، فجعلوا له جعلا ، فلمّا تـوجهت الناقة إلى الماء الذي كـانت تـرده تركها حـتى شـربت المـاء وأقبلت راجعة ، فقعد لها في طريقه فضربها بالسـيف ضـربة فلم يعمل شـيئا ، فضـربها ضـربة أخـرى فقتلها ، فخـرّت إلى الأرض على حينها ، وهربت فصيلها ، حتى صعد إلى الجبل فرغا ثلاث مرات إلى السماء ، وأقبل قوم صـالح فلم يبق أحد إلّا شـركه في ضـربته ، واقتسـموا لحمها فيما بينهم ، فلم يبق صغير ولا كبير إلّا أكل منها ، فلمّا رأى ذلك صالح أقبل إليهم فقــال : يا قـــوم ما دعـــاكم إلى ما صـــنعتم أعصيتم ربكم؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إلى صـالح (ع) : إنّ قومك قد طغوا وبغوا وقتلوا ناقة بعثها الله إليهم حجة عليهم ، ولم يكن عليهم منها ضـــرر ، وكـــان لهم أعظم المنفعة ، فقل لهم : إنّي مرسل إليكم عـــذابي إلى ثلاثة أيّام ، فإن هم تابوا ورجعوا قبلت تـوبتهم وصـددت عنهم ، وإن هم لم يتوبـــوا ولم يرجعـــوا بعثت إليهم عـــذابي في اليوم الثالث ، فأتاهم صالح (صلّى الله عليـه) فقـال لهم : يا قوم إنّي

رسول ربكم إليكم ، وهو يقول لكم : إن أنتم تبتم ورجعتم واستغفرتم غفـرت لكم وتبت عليكم ، فلمّا قـال لهم ذلك كـانوا أعتا ما كـانوا وأخبث ، وقـالوا : «يا صـالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين» قال : يا قوم إنّكم تصـبحون غدا ووجوهكم مصفرّة ، واليوم الثاني ووجوهكم محمرّة ، واليـوم الثـالث ووجـوهكم مسـودّة ، فلمّا كـان أوّل يـوم أصـبحوا ووجـوههم مصـفرّة ، فمشى بعضـهم إلى بعض وقالوا : قد جاءكم ما قال لكم صالح ، فقال العتاة منهم : لا نسـمع قـول صـالح ، ولا نقبل قوله وإن كـان عظيما ، فلمّا كان اليوم الثاني أصبحت وجـوههم محمـرّة ، فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا : يا قـوم قد جـاءكم ما قـال لكم صالح ، فقال العتاة منهم : لو أهلكنا جميعا ما سمعنا قول صـالح ، ولا تركنا آلهتنا الـتي كـان آباؤنا يعبـدونها ، ولم يتوبـوا ولم يرجعـوا ، فلمّا كـان اليـوم الثـالث أصـبحوا ووجـوههم مسـودّة ، فمشى بعضـهم إلى بعض وقـال : يا قوم أتاكم ما قال لكم صالح ، فقال العتـاة منهم : قد أتانا ما قـال لنا صـالح ، فلمّا كـان نصف الليل أتـاهم جبرئيل فصـرخ بهم صـرخة ، خـرقت تلك الصـرخة أسـماعهم ، وفلقت قلـوبهم ، وصـدّعت أكبـادهم ، وقد كـانوا في تلك الثلاثة أيّام قد تحنّطـوا وتكفّنـوا وعلمـوا أنّ العـذاب نـازل بهم ، فماتوا أجمعين في طرفة عين ، صـغيرهم وكبـيرهم ، فلم يبق لهم ناعقة ولا راغية ولا شـــيء إلّا أهلكه الله ، فأصــبحوا في ديــارهم ومضــاجعهم مــوتى أجمعين ، ثم أرسل الله عليهم مع الصيحة النـار من السـماء فـأحرقهم أجمعين ، وكانت هذه قصتهم» [1]

وهي وســابقاتها وما يليها من القصص وإن تضــمّنت الكثير من الأفكار إلّا أنّها تدور حول فكـرة محوريّة بهـدف تيسيرها وتقريبنا منها.

(**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**)

(1) المصدر / ص 185

هكذا يكرّر الذكر الحكيم آياته وعبره ، ولعلّنا نتنبّه من الجهل والضــلال والغفلة ، ولكنّه بــالرغم من ذلك لا زال غريبا مهجــــورا في واقعنا بجميع أبعــــاده ، فنحن لا زلنا بعيــدين عن دعوته للوحـــدة والعمل ، والاســتقامة على الحق ، ومحاربة الجبت والطــاغوت ، والاتعـــاظ بالنـــذر السالفة.

[33] ومع ذلك ما يــبرح يتــابع إلينا ســورة فســورة ، وآية فآية ، ومثلا فمثلا ، فهـذه آياته وقد انتهت من عـرض قصة ثمود ، تضرب لنا مثلا آخر عن عاقبة التكـذيب بقصة قوم لوط ، الـذين تورّطـوا أخلاقيّا في الشـذوذ الجنسي ، وصاروا يأتون الرجـال شـهوة من دون النسـاء ، فحـذّرهم نبيهم (ع) من هذا الانحراف عن طاعة الله وسنن الحياة ، ولكنّهم لم يعتـبروا بمصـير الماضـين ولا بنصح لـوط (ع) ، بل راحوا يكذّبونه ، ويريدون به الشـرّ والأذى ، رغم النـذر الظاهرة.

(**كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ**)

قيل أنّه من النذر الذين أرادوا الفاحشة بضـيف لـوط من الملائكة «**فأشــار إليهم جبرئيل بيــده فرجعــوا عميانا يلتمسون الجدار بأيديهم**» [1].

إلّا أنّ القوم لم يتعظوا بهم ، بل أصرّوا على فسادهم ، وتمادوا في التكذيب ، ولعـلّ بعضـهم راح يـؤوّل عمـاهم إلى أسباب أخرى ، فهم كما وصـفهم في أوّل السـورة :

(**وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ**) [2].

[34 ـ 35] بلى. إنّهم كـــذّبوا فما أهملهم الله ، بل أرسل عليهم ريحا محشـوّة بالحجـارة الصـغيرة في بـادئ الأمر ، لتكون آخر النذر وعلامة إلى لـوط والمؤمـنين معه بقرب العذاب ، وربما كـان ذلك أواخر الليل ، أمّا العـذاب الحقيقي فقد أخّره إلى

(1) بحار الأنوار / ج (18) / ص (348).
(2) القمر / 2

الصباح ريثما يخرجون.

(**إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً**)

ولكن بقيت العناية الالهية تحفظ المؤمنين وترعاهم ، حيث أمر الله لوطا (ع) والمؤمنين بالخروج من القرية الظالم أهلها ليكونوا في مأمن من العذاب : (**فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ**) [1] ، فارتحلوا منها ، وهذا يدل على أنّ العملية كانت تجري بإشراف إلهي مباشر لا صدفة ، فحتى خروجهم لم يكن بسبب الارهاصات الطبيعية للعذاب ، بل كان بأمر نزل من الله ، ولولاه لربما كانوا يبقون ، لذلك يؤكّد القرآن بأنّ الله هو الذي أنجاهم وأنقذهم.

(**إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ**)

يعني نهايات الليل وبدايات الصباح ، ولا يكتفي الوحي بذلك بل يضيف بأن النجاة كانت نعمة إلهية ، وليست نتيجة حالة بشرية أو صدفة.

(**نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا**)

ولكنّها مرتبطة بواقع بشري هو الشكر. إنّها مرّت بدورة متكاملة : إيمان عمل وشكر صاعد من قبل الإنسان الارادة الالهية بالتوفيق النعمة النازلة من الله للإنسان ، وربنا لا يخصص هذه الدورة بشخص لوط (ع) بل يخلص من ذكر الخاص إلى العام ومن الشاهد إلى السنة.

(**كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ**)

---

(1) هود / 81

أيّا كان ، وفي أيّ مكان وزمان.

[36 ـ 37] ويعود القرآن إلى التأكيد على أنّ العـذاب مـرّ بـدورة متكاملة : انحـراف بشـري نـذر إلهية تكـذيب بشـــري وإصـــرار على الانحـــراف العـــذاب من عند الله (النقمة في مقابل النعمــة) ، إنّ لوطا شـخّص الانحــراف الاجتماعي ، وسعى جاهـدا إلى التغيير والإصـلاح ، فأنـذر قومه من عــواقب ضــلالهم وأنّه يــؤدي بهم إلى الانتقــام الشديد الذي لا قبل لهم به من عند ربّهم.

(**وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا**)

وبدل أن يفكّروا في النذر ويتعظوا بها صاروا يتمارون ، والتماري كما يبـدو هو الشك الـذي يتحـوّل إلى تشـكيك اجتمـاعي ، وقـوم لـوط لم يكتفـوا بتكـذيبهم ، بل صـار الواحد يـــدخل الشك إلى الآخر لكي يمعنه من الايمــــان بالنذر البالغة ، وسـمّي الجـدال مـراء لأنّ أطرافه يشـكل الواحد على الآخر بقصد ردّ حجته وإبطالها.

(**فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ**)

فكانوا يدافعون عن ضلالهم وباطلهم في مقابل الحق ، استهزاء وجمودا ، ويسعون إلى تغلّب أفكارهم وباطلهم على الحق المــبين في أذهــان بعضــهم ، وذلك بصــرف الآيات وتأويلها إلى غير مضـامينها ، وهـذا منهج المكـذّبين عبر التاريخ ، فها هم قوم عاد يدعوهم هـود إلى الايمـان ، فـإذا بهم يصــرّون على بــاطلهم إلى آخر لحظة : «**فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ* تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ**» [1] ، وإلى مثل هذا انتهى انحراف قوم لوط

(1) الأحقاف / 24 ـ 25

وتكـذيبهم ومـراءوهم ، فلقد أرسل الله إلى نبيّه الملائكة ومن بينهم جبرئيل (ع) ، ولكنّه أنـزلهم في صـورة جميلة لتبدأ البطشة من محاولة الاعتداء عليهم فيتأكّد للقوم بأنّ هلاكهم كـان نتيجة لـذلك الانحـراف الـذي حـذّرهم من عواقبه لوط (ع) ، ويؤخذوا بالجرم المشهود.

(**وَلَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ**)

يريدون بهم الفاحشة ، «**قالَ يا قَوْمِ هـؤُلاءِ بَنـاتِي هُنَّ أَطْهَـرُ لَكُمْ فَـاتَّقُوا اللـهَ وَلا تُخْـزُونِ فِي ضَـيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ* قالُوا لَقَـدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِـكَ مِنْ حَـقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيـدُ* قـالَ لَـوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُـوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَـدِيدٍ**» [1] إنّه حـاول إصـلاحهم في بـادئ الأمر بتـوجيههم إلى الجنس الآخر علاجا لانحرافهم ، ورفعا للحرج مع الضـيوف ، ثم هـدّدهم باستخدام القوة «فصاح به جبرئيل فقال : يا لـوط! دعهم يـدخلون ، فلمّا دخلـوا أهـوى جبرئيل (ع) بإصـبعه نحـوهم فذهبت أعينهم» [2]

(**فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ**)

قيل أنّ الطمس هو حجب البصر مع وجـود العين على طبيعتها ، وقيل أنّه القلع والمسح ، والـذي يبـدو أنّه ذهاب الرؤية مع ضمور المعالم الظاهرية للعين ، وعند ما أنـزل الله بهم العـذاب ربما رفع قـدرتهم على الاحسـاس إلى أقصـاها تفـاعلا ووعيا زيـادة في العـذاب ، إذ لا قيمة لعذاب لا يتذوّقه صاحبه.

[38 ـ 40] كـان ذلك (طمس الأعين) عـذابا مؤقتا ، أمّا العـذاب الأوهى والمسـتمر ، الـذي يتصل بالعـذاب المقيم في الآخرة ، فقد ابتدرهم أوّل الصباح.

---

(1) هود / 78 ـ 80

(2) نور الثقلين / ج 5 ص 185

(وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ)

لقد كـان عـذابا مسـتقرا لا يجـدون منه فكاكا لا في دنياهم ولا في الآخرة.

ويبدو أنّ كلمة «مُسْتَقِرٌّ» تفسـير لقوله سـبحانه في فاتحة السورة : «وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ» ، ومعناها أنّ عذاب أولئك القوم كان من السنن الثابتة والمستقرّة في الحيـاة ، ونجد تفصـيلا للعـذاب ، وبيانا لهـذه الفكـرة ، في موضع آخر من القرآن ، إذ يقول تعالى : (فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سـافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجـارَةً مِنْ سِـجِّيلٍ مَنْضُـودٍ* مُسَـوَّمَةً عِنْـدَ رَبِّكَ وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) [1] ، لأنّ العذاب لم يكن خارقا لسنن الحيـاة ، ولا عرضا طـــرأ عليها ، بل هو جـــزء منها ومظهر لها ، وهي مســتقرة لا تحويل لها ولا تبــديل إلى يــوم القيامة ، وقد أذاقهم الله هذا العذاب كما أذاقهم عذاب الطمس.

(فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ* وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

هكذا يصرخ فينا القرآن يدعونا إلى مأدبة الله ، ويعيد هـذه الـدعوة بصـيغة أخـرى فيقـول : (أَفَلا يَتَـدَبَّرُونَ الْقُـرْآنَ أَمْ عَلى قُلُـوبٍ أَقْفالُها) [2]. إنّ القـرآن ذاته ميسّر للذكر والتدبّر ، ولكن قلوبنا هي المعقـدّة ، إنّه يفتح لنا يفتح أبواب العلم والايمان ، ونغلق قلوبنا عنه بالـذنوب والأفكـار المتخلّفـة. أرأيت كيف يرفع البعض دعـوة تضـاد دعوة الله ، وتصد عن كتابه؟! إنّهم يقولون : لا يجوز لأحد أن يتـــدبّر في القـــرآن ، ولا يفسّـــره ، ويـــبرّرون ذلك بالحساسـيات المفرطة المتزمتة ، وبأنّه معقّد لا يفهمه إلّا المجتهدون والفقهاء ، ولكنّ القرآن جاء ليردّ هذه الفكـرة ويهدينا للتي هي أقـوم بنصّ قـرآني ظـاهر لا يقبل التأويل ولا الاجتهاد.

---

(1) هود / 82 ـ 83

(2) محمّد / 24

وَلَقَـدْ جـاءَ آلَ فِرْعَـوْنَ النُّذُرُ (41) كَـذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيـزٍ مُقْتَـدِرٍ (42) أَكُفَّارُكُمْ خَيْـرٌ مِنْ أُولئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِـدُهُمْ وَالسَّـاعَةُ أَدْهى وَأَمَـرُّ (46) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (47) يَـوْمَ يُسْـحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُـوهِهِمْ ذُوقُـوا مَسَّ سَـقَرَ (48) إِنَّا كُـلَّ شَيْءٍ خَلَقْنـاهُ بِقَـدَرٍ (49) وَما أَمْرُنا إِلاَّ واحِـدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (50) وَلَقَدْ أَهْلَكْنا

---

43 [براءة] : أي براءة من العذاب.

46 [أدهى] : الأدهى الأعظم في الدهاء ، والدهاء عظم يسـبب الضـرر مع شـــدّة انزعـــاج النفس ، وهو من الداهية أي البلية الـــتي ليس في إزالتها حيلة.

48 [سـقر] : جهنم ، وقيل : علم على جهنم ، وأصل السـقر التلـويح ، يقال : سقرته الشمس وصقرته إذا لوحته.

أَشْياعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (51) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُــرِ (52) وَكُــلُّ صَــغِيرٍ وَكَبِــيرٍ مُسْــتَطَرٌ (53) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِـدْقٍ عِنْـدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55))

---

52 [الزّبر] : أي الكتب التي كتبها الحفظة.
53 [مستطر] : مسطور مكتوب.

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ

هدى من الآيات :

في الدرس الأخـير يـذكّرنا الـوحي بـأهمّ عـبرة فيها ، والـتي يسّــرها الله بقصص واقعية من تــاريخ البشــرية ، ابتــداء من قــوم نــوح وانتهــاء بــآل فرعــون ، وهي عاقبة السـوء للـذين يعرضـون عن آيـات الله ونـذره ، ويكـذّبون برســـالته ورســـله ، لأنّهم حينئذ يســـيرون بعكس آلاف القـــوانين والســـنن في الحيــاة ، ولأنّهم ــــ وهو الأهم ــــ يخالفون الحق ، ويعصون ربّ العزة سبحانه ، مؤكّـدا بـأنّ ما لحق أولئك من شديد العذاب في الدنيا بتكــذيبهم ليس إلّا شمّة وضغثا بالنسـبة إلى العـذاب الأدهى والأمـرّ الـذي ينتظــرهم في الآخــرة ، حيث تــدقّ أجــراس بدئه ســاعة البعث والحساب.

وبعد أن يضع الذكر الحكيم لوحة من مشـاهد الآخـرة والعذاب أمام قلوبنا وأعيننا يؤكّد لنا حقيقة هامة ، هي أنّ الدنيا بنيت بكلّ مفرداتها من الذرّة حـتى المجـرّة وأصـغر من ذلك وأكــبر على أســاس من الســنن والمقــاييس والقوانين الحكيمة (**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنـاهُ بِقَـدَرٍ**) الآية (49) ، وبالتالي يجب على الإنسان أن يكيّف

نفسه وحياته وعلاقاته بكلّ شيء فيها على هذا الأساس ، أمّا إذا انتظر أو سعى لتسير الحياة من حوله بسننها ومقاديرها وخلقها وفق هواه فلن يستطيع الى ذلك سبيلا ، لأنّها ثابتة وأقوى منه ، بل وسيخسر إلى الأبد.

فلا يظن الإنسان إذا أنّه يتحرّك في الفراغ ، كلّا .. إنّ حوله ملايين الأنظمة التي تحصي عليه أخطاءه وأفعاله وأقواله ، وحتى نيّاته مسجّلة عليه تسجيلا دقيقا ، ولهذا يقول الله عزّ وجلّ مبيّنا حال المجرمين حين يرون كتبهم في يوم القيامة : (**فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً**) [1] وبعد الحساب يلقون جزاءهم إذ يسحبون في النار على الوجوه ، أمّا المتقون فيعطون كتابهم بيمينهم ، أمّا جزاؤهم جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

بينات من الآيات :

[41 ـ 42] كما جعل الله للساعة علامات ونذرا تؤذن باقترابها كانشقاق القمر ، فإنّه تعالى أخذ على نفسه أن لا يعذّب أمّة ولا شخصا قبل إقامة الحجة البالغة عليه ، وقبل أن يقدّم له من الأنبياء ونذر البطش ما فيه مزدجر له وهداية لمن أراد (**وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**) [2].

ويضع القرآن شاهدا لهذه الحقيقة أمام ضمائرنا وعقولنا هذه المرّة من واقع فرعون وقومه الذين أغرقوا في اليمّ. إنّهم ضلّوا عن الحقّ ضلالا بعيدا ، إذ اعتمدوا نظاما سياسيّا ينطلق من عبادة شخص فرعون ، وينتهج الإفساد والإرهاب والقتل والتضليل ، وكانت هذه الأسباب كافية لأن يمحقهم الله ، أترى أعظم جرم عند الله

---

(1) الكهف / (49).

(2) الإسراء (15).

من بشر يقـــــول أنا ربّكم الأعلى؟! كلّا .. ولكنّه أمهلهم ، وأراد لهم الرحمة الـــتي خلقهم من أجلها ، فتـــابع عليهم الآيـــات والنــــذر بلســـان موسى وعلى يديه ومن خلال الطبيعة ، بما أبطل به ســـحرهم ومعتقـــداتهم الواهية ، وأقام عليهم الحجة البالغة.

(**وَلَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ**)

إنّ الله لم يتركهم حتى يؤمنوا بأنفسهم ، بل ابتدرهم بالهدى الذي بلغ فـردا فـردا منهم يـوم الزينة ، ولم يكتف الله بنذير واحد وهو يكفي حجة عليهم ، إنّما جـاءهم بنـذر كثيرة بيّنة ، كان من بينها تسع آيات إلى فرعـون وقومه ، ولكنّهم كما يصفهم القرآن :

(**كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها**)

لا لغمـوض فيها فقد كـانت مبصـرة ، بل لمـرض في قلـــوبهم ، ولو أنّك بحثت في أعمـــاق نفوســـهم لـــرأيت سـلطان الآيـات مهيمنا عليها ، ويعلم الله كم تجرّعـوا من وخز الضمير الذي يدعوهم للإيمان وهم يصدّون عن الحقّ المبين. إنّهم ما كانوا يقدرون على التكـذيب مجـرّدا أمـام ذلك الـوخز لـذلك لجـأوا إلى التـبرير ، وهـذه من طبيعة الإنســان حينما يخــالف الحق بــالرغم من اســتيقانه به ، «**قـالُوا هـذا سِـحْرٌ مُبِينٌ* وَجَحَـدُوا بِها وَاسْـتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا**» [1] ، فكـانوا عند الله يسـتحقّون أشدّ العذاب ، وكذلك فعل بهم.

(**فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ**)

لا يقبل الجور على الحق.

---

(1) النمل / (13 ـ 14).

(**مُقْتَدِرٍ**)
لا يشـكو ضـعفا ولا قصـورا ، وهـذا ما جعل عـذابهم قاسيا ، فمرة يكون العزيز غير مقتـدر فهو لا يسـتطيع أن يحيل عزّته فعلا ، ومـرّة يكـون المقتـدر غـير عزيز فهو لا يغضب لحرمة قيمه ، وإذا أخذ المخـــالف له فـــإنّ أخـــذه يكون محدودا.

هكـــذا وبهـــاتين الآيـــتين القصـــيرتين في كلماتهما العميقتين في معناهما يوجز ربّنا قصة قوم لا زالت آثارهم ظـاهرة ومثـيرة للعجب ، بينما يحتـاج الحـديث فيها إلى مئـات أو آلاف الصـفحات ، بل القـرآن نفسه تناولها في صـفحات وآيـات عديـدة في مواضع أخـرى ، والسـبب أنّ القـرآن أراد من ذلك التأكيد على السـنّة الواحـدة الـتي أجراها على كلّ الأمم وفي مختلف الأمصار بصور شـتى ، لكي نعتبر بها ، ونبصر عواقب التكذيب بـالحقّ أنّي كـان ، وقد اكتفى السياق بإيجـاز قصة فرعـون الـتي فصّـلها في مختلف السور ، والتي من المفروض أن يعرفها من يتلــوا الذكر ، وذلك عبر آيتين تعكسان إعجاز القرآن البلاغي.

[43 ـ 45] ومن شـواهد عاقبة المكـذّبين في أغـوار التـــاريخ ، ينتقل بنا الســـياق إلى الحـــديث عن المجتمع المعاصر للرسالة الاسلامية ومـوقفهم من الرسـالة ، بما هو تأويل لقوله تعالى : (**وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**) [1] ، وقوله بلسـان رسـوله شـعيب (ع) : (**وَيا قَـوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِـقاقِي أَنْ يُصِـيبَكُمْ مِثْـلُ ما أَصـابَ قَـوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وَما قَـوْمُ لُـوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيـــدٍ**) [2]. إنّ القصة القرآنية لا تـــأت للتســـلية ، إنّما لتكشف للإنسان عن سنن الحياة من حوله ، فتعطيه تارة إشـارة خضـراء ترغّبه وتشـوّقه ، وتضع بين يديه إشـارة حمراء تنذره وترهبه تارة أخرى ، وهو

(1) هود / (83).
(2) هود / (89).

بين هذه وتلك يجب أن يشقّ طريقه نحو الحقّ والسـعادة ، أمّا إذا تفـرّج على وقـائع التـاريخ ومواعظه ، أو اسـتبعد عن نفسه الجـزاء بفكـرة تبريرية كالعنصـرية والفـداء ، أو بالاعتمـاد على غـرور النفس وظنونها وأهوائها ، فسـوف يجد نفسه وجها لوجه أمام مصـير الماضـين ممّن سـبقوه بالتكذيب في الدنيا والآخرة ، ولن تغيّر تمنّياته وظنونه من الواقع شـيئا ، «**ذلِـكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَـرُوا فَوَيْـلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ**» [1].

كيف يكذّب الآخرون بالرسـالة وهم يبصـرون ما نـزل بالغـابرين عند ما كـذّبوا بهـا؟! إنّهم يسـتبعدون حلـول العذاب بهم اعتمادا على واحد من أمرين :

أوّلا : الثقافة التبريرية ، وأبـرز مفرداتها على صـعيد التكـذيب بالرسـالات العنصـرية ونظرية الفـداء ، ذلك أنّ الإنسـان حينما يكـذّب حقّا ما ويرفضه يبحث داخليّا أمـام ضميره ، وخارجيّا أمام الآخرين ، عن عذر يـبرّر له موقفه ، ويستمد منه الشرعية لممارسة الخطأ أو الإصرار عليه.

وربّنا ينسف هذه الثقافة فيقول ـ مخاطبا المعاصـرين للإسلام ـ : لما ذا تستثنون أنفسكم من العذاب الذي حـلّ بتلك الأقوام؟

(**أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ**)

بعنصرهم وأعمالهم حتى لا ينالهم العذاب؟!

(**أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ**)

أم هم يملكـون كتابا من عند الله يـبرّئهم من سـوء أعمالهم؟!

كلّا .. فالتكذيب هو التكذيب سواء صـدر من أولئك أم منكم ، والسنن الالهية

---

(1) ص / (27).

واحدة على مرّ الزمن لا تتحوّل ولا تتبدّل ، وليس عند الله قرابة مع خلقه ، ولو كـــان نبيّا مرسلا أو ملكا مقرّبا ، ولا ينفع إلّا العمل الصـــالح ، كما لم تســـبق منه كلمة على لسان نـبي ولا رسـول وفي كتـاب من كتبه المنزلة بزكـاة أحد أبدا ، حتى يتحصّن بها ضـدّ العـذاب ، والضـلال الـذي عليه كفّار المجتمع أيّام رسـول الله (ص) ليس بأقـلّ من ضلال أولئك ، بل هو أسوء وأبعد.

وإذا كانت ثمّة براءة لأحد في كتب الله فهو ورســوله أعلم بها ، والحال أنّهما ينفيانها.

بلى. حاول النصارى تبرير انحـرافهم بفكـرة الفـداء ، ولكنّهم أضـافوا انحرافا جديـدا إلى مسـيرتهم الضـالة إذ أصـبحوا بها كفّـارا عند الله ، وهكـذا زعمـوا هم واليهـود بأنّهم لا يعذّبون مهما ما رسوا من الذنوب ، لأنّ عنصـرهم يتصل بالله وينتمي إليه ، ولكنّ القـــرآن ردّ عليهم هـــذه المـزاعم ردا عنيفا وحازما ، فقـال تعـالى : (**لَقَـدْ كَفَـرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَـرْيَمَ قُـلْ فَمَنْ يَمْلِـكُ مِنَ اللهِ شَـيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِـكَ الْمَسِـيحَ ابْنَ مَـــرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعـــاً وَلِلَّهِ مُلْـــكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما يَخْلُـقُ ما يَشـاءُ وَاللـهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* وَقالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصـارى نَحْنُ أَبْناءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِـذُنُوبِكُمْ بَـلْ أَنْتُمْ بَشَـرٌ مِمَّنْ خَلَـقَ يَغْفِـرُ لِمَنْ يَشـاءُ وَيُعَـذِّبُ مَنْ يَشـاءُ وَلِلَّهِ مُلْـــكُ السَّـــماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَإِلَيْـــهِ الْمَصِـيرُ**) [1] وانطلاقا من هــذه الثقافة الضــالّة صــاروا يبرّرون لأنفسـهم الخيانة والغـدر ومختلف الـذنوب ، فـإذا بهم لا يقيمون وزنا لعهودهم وإيمانهم مع الشعوب الأخرى على أساس أنّهم أميّون ، ولا حرج عليهم إذا نكثـوا بهم أو خـانوهم : (**قـالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَـبِيلٌ**) [2] ، ولكن الله أبطل هــذا التــبرير فقــال : (**بَلى مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَاتَّقى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**) [3].

---

(1) المائدة / (17 ـ 18).
(2) آل عمران / (75).
(3) آل عمران / (76).

ثانيا : الاغترار بالقوة.

(**أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ**)

هل يعرضون عن الآيـات ، ويكـذّبون الحق ، ويتبعـون أهواءهم ، ثمّ يتحدّون سنن الحيـاة ، اعتمـادا على جمعهم وقوّتهم؟!

وما عسى أن تكـون قـوّتهم وجمعهم بالنسـبة إلى الأمم السابقة؟! (**أَوَلَمْ يَعْلَمْ**) (كـلّ واحد منهم) (**أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُـوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعـاً**) [1] ، (**وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَـرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ**) [2] ، ثمّ (**أَلَمْ يَـرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَـرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِـدْراراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهـارَ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ**) [3].

ويؤكّد الله لأولئك الذين اعتمدوا على عدّتهم وعددهم أنّ المسـتقبل كفيل بالكشف عن مـدى ضـلالتهم في الاعتمـاد عليهما ، حيث يهزمـون ، وتبطل تـبريراتهم ومزاعمهم بأنّ العذاب لا يطالهم.

(**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**)

وقد رأينا كيف أنـزل الله عذابه بهم على أيـدي المؤمنين في مواطن كثيرة ، وأظهر رسوله ودينه عليهم بالرغم منهم ، وبالرغم من أنّهم كانوا في موقعة كبدر أكثر جمعا وعدّة من المسلمين بثلاثة أضعاف أو أكثر!

(1) القصص / (87).
(2) ق / (36)
(3) الأنعام / (6).

[46] ومع ذلك فإنّ الأدهى من هزيمتهم وعذابهم في الدنيا ما ينالهم من العذاب في الآخرة.

(**بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهى وَأَمَرُّ**)

إنّها أكـثر رعبا في مظهر عـذابها وأسـاليبه ، وأعمق ألما ومرارة على أبدانهم ونفوسهم.

ونسـتلهم من هـذه الآية أنّه حـتى إذا كـان عـذاب الاستئصـال مرفوعا عن أمّة محمّد (ص) ببركته ودعائه ، فإنّه لا ينبغي أن نجعل هـذه الفكـرة مـبرّرا لنا لاقتحـام الذنوب ، فإنّ من ورائنا الساعة في الآخرة ، وتهـدّدنا في الدنيا ألوان من العذاب التي لا تقل ألما عن الاستئصـال ، كـالتخلّف ، والتفرقة ، وتسـلّط الظلمة ، والصـراعات الداخلية ، و.. و.. أترى هزيمة الأمّة أمام أعدائها في الدنيا أمرا هيّنا؟! كلّا .. لأنّها تفقد بذلك الكثير الكثير.

[47 ـ 48] ويعود القـرآن مؤكّـدا بـأنّ تلك المـزاعم : الأفضليّة على الآخرين ، والـبراءة من العـذاب ، والاغـترار بـالنفس ، باطل ، وإنّما تـدلّ على مـدى ضـلال أصـحابها وعذابهم.

(**إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ**)

وقد سمّاهم الله بالمجرمين لأنّ تلك المـزاعم لا شك سـوف تقـودهم إلى التوغّل في الجريمة ، والسـعر قد يكون الجنون أو النار ، وهما من ألوان العذاب التي يـؤدي إليها الضلال في الدنيا والآخرة.

(**يَـوْمَ يُسْـحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُـوهِهِمْ ذُوقُـوا مَسَّ سَقَرَ**)

وهنا إشارة إلى نوعين من العذاب : أحـدهما المـادي حيث يسـحبون نكاية بهم ، والسـحب وحـده يعتـبر عـذابا للإنســان ، فكيف إذا كــان على الوجــوه أكــرم منــاطق الجسم ، وأكثرها حسّاســـــــية ، وفي أعظم أودية جهنّم عذاب وهو سـقر؟! الـذي قـال الامـام الصـادق (ع) عنه : «إنّ في جهنّم لواديا للمتكبّرين يقال له سـقر ، شـكا إلى الله شـدّة حـرّه ، وسـأله أن يتنفّس ، فـأذن له فـأحرق جهنّم» [1] «**إن في سـقر لجبّا يقـال له هبهب ، كلّما كشف غطـاء ذلك الجبّ ضـجّ أهل النـار من حـرّه ، وذلك منازل الجبّارين**» [2].

والآخر العذاب المعنـوي الـذي يفـوق في بعض حالاته عـــذاب الجسم ، فهنـــاك تتلقّـــاهم زبانية جهنّم قائلة : «**ذُوقـوا مَسَّ سَـقَرَ**» ، «**ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيـزُ الْكَـرِيمُ إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ**» [3].

ولعلّنا نفهم من المس أنّ النار لا تحرق كلّ أبـدانهم ، بل تحرق جلودهم التي فيها تتركّز أعصاب الإحسـاس عند الإنسـان ، ممّا يجعل العـذاب أكـثر ألما ، وهـذا ما تؤكّـده الآية الكريمة : (**كُلَّما نَضِجَتْ جُلُـودُهُمْ بَـدَّلْناهُمْ جُلُـوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ**) [4].

[49] وهذا العـذاب لا شك ليس اعتباطيّا وبلا حكمة ، كلّا .. فهو كسـائر مفـردات الوجـود مقنّن مقـدّر من قبل الله ، فلو أنّنا كشف لنا الغطـــاء لرأينا أنّ العمل الســـيء الذي نقوم به هو نفسه الجزاء الذي نلقاه.

(**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ**)

---

(1) بح / ج (1) ص (294).
(2) المصدر / ص (297).
(3) الدخان / (49 ـ 50).
(4) النساء / (56).

حينما يسـأل الامـام علي (ع) عن هـذه الآية يجيب : يقـول عز وجل : إنا كل شـيء خلقنـاه لأهل النـار بقـدر أعمـالهم [1] وقـال الامـام الصـادق (ع) : «انّها ردّ على القدرية الذين نفوا تقديرات الله ، وفيهم نزلت هذه الآية» [2] وقد استدلّ البعض بهـذه الآية على أنّ أعمـال الإنسـان هي الأخـرى مقـدّرة فـزعم أنّها تـدل على الجـبر ، بينما الصحيح أنّ كلّ شـيء مقـدّر من قبل الله ، ومن تقديراته الاختيار الذي وهبه للإنسان.

والذي يظهر أنّ الآية تثبت أكـثر من أيّ فكـرة أخـرى حكمة الله في الحيـاة ، الـتي تهـدينا معرفتها إلى الايمـان بالمسؤولية ، والدار الآخرة أعظم تجلّياتها ، حيث يحاسب الناس على سعيهم ، ويلقون جزاءهم الأوفى خيرا أو شرّا ، جنة أو نارا ، يقول السيد قطب في تفسـيره (في ظلال القـرآن) : (وإنّ هـذا النص القـرآني اليسـير ليشـير إلى حقيقة ضخمة هائلة شاملة ، مصـداقها هـذا الوجـود كلّه ، حقيقة يـــدركها القلب جملة وهو يواجه هـــذا الوجـــود ، ويتجـاوب معه ، ويتلقّى عنه ، ويحس أنّه خليقة متناسـقة تناسـقا دقيقا ، كـلّ شـيء فيه بقـدر يحقّق هـذا التناسق المطلق ، الـــذي ينطبع ظلّه في القلب جملة وهو يواجه هـذا الوجـود) ، ويضـرب أمثلة للحكمة الالهية في الخلق فيقول نقلا عن كتاب «الله والعلم الحـديث» للاسـتاذ عبد الرزّاق نوفل : (إنّ الجـوارح الـتي تتغـذى بصـغار الطيـور قليلة العـــدد ، لأنّها قليلة الـــبيض ، قليلة التفـــريخ ، فضلا على أنّها لا تعيش إلّا في مـــواطن خاصة محـــدودة ، وهي في مقابل هـــذا طويلة الأعمـــار ، ولو كـــانت مع عمرها الطويل كثـيرة الفـراخ مسـتطيعة الحيـاة في كـلّ مـوطن لقضت على صـــغار الطيـــور ، وأفنتها على كثرتها وكـــثرة تفريخها ، أو قلّلت من أعـــدادها الكبـــيرة اللازمة بـــدورها لطعام هذه الجوارح وسـواها من بـني الإنسـان ، وللقيـام بأدوارها الأخرى ووظائفها الكثيرة في هذه الأرض.

(1) نور الثقلين / ج (5) ص (186).
(2) المصدر / ص (185).

بغـاث الطـير أكثرها فراخا وأمّ الصـــقر مقلات نـــزور

وذلك للحكمة التي قـدّرها الله كما رأينا ، كي تتعـادل عوامل البقاء وعوامل الفناء بين الجوارح والبغاث!).

ويسـتطرد قـائلا : (والذبابة تـبيض ملايين البويضـات ، ولكنّها لا تعيش إلّا أسـبوعين ، ولو كـانت تعيش بضـعة أعوام تبيض فيها بهـذه النسـبة لغطّى الـذباب وجه الأرض بنتاجه ، ولغـدت حيـاة كثـير من الأجنـاس وأوّلها الإنسـان مسـتحيلة على وجه هـذه الأرض ، ولكن عجلة التـوازن التي لا تختل في يد القدرة الـتي تـدبّر هـذا الكـون أوزنت بين كثرة النسل وقصر العمر فكان هذا الذي نراه!

والميكروبـات ــ وهي أكـثر الأحيـاء عـددا ، وأسـرعها تكاثرا ، وأشدها فتكا ـ هي كذلك أضعف الأحيـاء مقاومة ، وأقصـرها عمـرا ، تمـوت بملايين الملايين من الـبرد ومن الحر ، ومن الضوء ، ومن أحماض المعدات ، ومن أمصال الدم ، ومن عوامل أخرى كثـيرة ، ولا تتغلّب إلّا على عـدد محدود من الحيـوان والإنسـان ، ولو كـانت قوية المقاومة أو طويلة العمر لدمّرت الحياة والأحياء!).

ويسـتعرض مثلا من واقع الإنسـان فيقـول : (والثـدي يفرز في نهاية الحمل وبـدء الوضع سـائلا أبيض مـائلا إلى الاصـفرار ، ومن عجيب صـنع الله أنّ هـذا السـائل عبـارة عن مواد كيميائية ذائبة تقي الطفل من عدوى الأمـراض ، وفي اليـوم الثـاني للميلاد يبـدأ اللبن في التكـوين ، ومن تدبير المـدبّر الأعظم أن يـزداد مقـدار اللبن الـذي يفـرزه الثـدي يوما بعد يـوم ، حـتى يصل الى حـوالي لـتر ونصف في اليـوم بعد سـنة ، بينما لا تزيد كميته في الأيّـام الأولى على بضع أوقيات ، ولا يقف الاعجاز عند كمّية اللبن الـتي تزيد حسب زيادة الطفل ، بل إنّ تركيب اللبن كذلك تتغير مكوّناته ،

وتــتركّز مــواده ، فهو يكــاد يكــون مــاء به القليل من النشـويات والسـكريات في أوّل الأمر ، ثم تـتركّز مكوّناته فتزيد نسبته النشوية والسكرية والدهنية فترة بعد أخرى ، بل يوما بعد يــوم ، بما يوافق أنســجة وأجهــزة الطفل المستمر النمو).

هكذا قدّر الله شـؤون الحيـاة والخلق ، وهكـذا تتجلّى حكمته في كلّ شيء ، ونحن يجب أن نهتدي إلى ما غـاب عنّا بما نـراه ونشـاهده ، كما نسـتدل على وجـود التيـار الكهربــائي بالمصــباح والمروحة ، ينبغي أن نهتــدي إلى الآخـرة بالحكمة الربّانية الظـاهرة في الـدنيا ، وحـتى في الدنيا نفسها يجب أن نؤمن بالسنن الحاكمة فيها ، ونكيّف أنفسنا وفقها ، فالـذي يصـلّي من دون خشـوع وإخلاص لا تقبل صلاته ، والذي يتصدّق من دون تقوى تبطل صدقته ، وهكذا الذي يعرض عن آيـات الله ويكـذّب برسـالاته ويتبع الهـوى فإنّه يلقى العـذاب في الـدنيا والآخـرة ، مهما زعم وتمنّى بأنّه لا يعذّب أو أنّه قـادر على الانتصـار على سـنن الله في الحياة.

[50 ـ 51] وفــوق تلك الأقــدار والســنن تبقى لله المشيئة العليا والارادة المطلقة يهيمن بها على كلّ شـيء ، ويخـرق بها القـدر أو ينفـذه مـتى شـاء في أسـرع من طرفة العين ولمح البصر ، فلا يجوز للإنســان إذن أن يعبد السنن ، إنّما يجب عليه عبادة ربّها.

(**وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ**)

سـواء كـان هـذا الأمر ممّا يختص بشـؤون الـدنيا أو الآخرة ، والأشياء كلّها تستجيب لأمر الله بمجرد نزوله من عنده دون تردّد أو إقناع ، فلا يحتاج تعالى إلى تكرار الأمر أبدا ، ولعلّ «**واحِدَةٌ**» إشارة إلى وحدة زمنية ، كما نقـول نحن لحظة أو جزء من الثانية ، بل فـوق الـزمن إذا نسب الأمر إلى الله ، وحيث لا نستوعب نحن المسـافة بين أمر الله ونفاذه ، ولا حتى أضخم الكومـبيوترات الحديثة ، فإنّه تعالى قرّب

لنا المعنى مشبّها بقوله :

(**كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ**)

أي كما لو أغمض بشر عينه ثم فتحها ليلمح شيئا ما ، واللمح هو النظرة السريعة الخاطفة ، ولعلّ تقدير الـزمن إنّما هو من جـانب المخلـوق ، فهو بحاجة الى زمن حـتى يتحقّق فيه أمر الله ، أمّا جـانب الخـالق فلا يتصـوّر زمن مديد أو قصير تعالى ربنا عن أوصاف المخلوقين.

نعم في مثل هـذا الـزمن المحـدود ينفذ أمر الله لو أراد إهلاككم أيّها الكـــافرون المكـــذّبون ، دون أن يمنعه مانع ، والتاريخ شاهد على هذه الحقيقة ، وقد قدّم القرآن في آياته السابقة قوم نوح وعاد وثمود ولوط مثلا لها ، ولا زال يؤكّد ذلك للكافرين فيقول :

(**وَلَقَدْ أَهْلَكْنا أَشْياعَكُمْ**)

نظائركم وأشباهكم ، وربما أراد القـرآن بـذلك الـذين عاصروهم ممّن أهلكوا لا الـذين من قبلهم وحسب ، وربّنا قادر على أن يفعل بهم ذلك ، ولكنّه برحمته ولطفه يقـدّم النذر على العذاب والتـذكرة على الجـزاء ، ويـدعوهم إلى الايمـــان ، لأنّه خلق البشر لـــيرحمهم ولـــيربحوا عليه لا للشقاء والنقمة ، لذلك يهتف بهم كتابه الكريم :

(**فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**)

وقد كرّر ربّنا هذا المقطع بعد قوله : «**وَلَقَـدْ يَسَّـرْنَا الْقُــرْآنَ لِلــذِّكْرِ**» ، فكما يجب على الإنســان أن يتعظ بالقرآن ويتذكّر بآياته كذلك يجب عليه أن يستنصح التاريخ ، ويعتبر بأمثاله وقصصه ، فإذا وجد نظائره وقد أهلكوا فلا يمنّي نفسه

بالنجاة. أترى لو ذهب شخص إلى الطـبيب ، وشـخّص فيه مرضا مات به آخرون قبله ، أيمنّ نفسه بالحياة؟!

[52 ـ 53] وحينما أهلك أولئك لم ينته حســـابهم وجـزاؤهم ، بل سـجّلت أعمـالهم ليلاقـوا جـزاءهم الأوفى في الآخرة.

(**وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ**)

أي الكتب (**وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طـائِرَهُ فِي عُنُقِـهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ كِتابـاً يَلْقـاهُ مَنْشُـوراً* اقْـرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً**) [1].

وقد فسّر البعض هـذه الآية بما يخـدم مذهبه الجـبري زاعما أنّ كلّ أفعال الإنسـان مكتوبة سـلفا عليه في الزبر ، وهـذا التفسـير لا يتناسب والسـياق ، كما لا يتناسب وما نعرفه من حرية الإنسان في حدود قدر الله وقضائه.

ويؤكّد القـرآن أنّه (**لا يُغـادِرُ صَـغِيرَةً وَلا كَبِـيرَةً إِلَّا أَحْصاها**).

(**وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ**)

يجدونه في سطور ذلك الكتاب.

وهاتـان الآيتـان تهـديانا إلى فكـرة المسـؤولية ، وأن الإنسان هو الـذي يرسم مسـتقبله بنفسه من خلال أفعاله صغيرها وكبيرها ، وما دامت الأعمال لا تذهب إلى الفـراغ ، بل تكتب له أو عليه عند الله ، وما دام مســــــــتقبله الأخروي الأبـدي مرتكز على حياته هنا ، فحـري به إذن أن يتحمّل الأمانة بصدق وقوة.

---

(1) الإسراء / (13 ـ 14).

[54 ـ 55] ويختم الله هذه السورة التي تلاحقت فيها النـــذر المخوّفة بـــالترغيب ، لكي لا ينتهي التخويف إلى اليأس ، بل يبقى الإنسان متوازنا يتحرك باتجـاه الحق بين الخـوف من العـذاب ورجـاء الرضى والاثابة ، فيحـدّثنا عن عاقبة المتقين في مقابل عاقبة المكذّبين فيقول :

(**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ**)

أي الأنهار ، وقال بعض المفسّرين أنّه المكان الواسع ، وهو بعيد ، وقوله «**فِي**» يـــــــــدلّ على دوام النعيم وخلـــودهم فيه ، وذلك ممّا يميّز نعيم الآخـــرة عن الـــدنيا المحدودة.

وإلى جـــانب النعم المادية هنـــاك النعم المعنوية ، وأعظمها وأهمّها رضى الله عزّ وجلّ الذي ينالها المتقون.

(**فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ**)

ويدل المقعد على الدوام والثبات ، فهم لا يزحزحــون عن النعيم ، «**لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَلا يُنْزِفُـونَ**» [1] ، كما تــدل كلمة «**صِــدْقٍ**» أنّهم اســتحقّوا الجلــوس في ذلك المقعد بعملهم وإيمـــــانهم بعد توفيق الله ، فلأنّ عملهم كـان صـادقا مخلصا اسـتحقوا مقعد الصـدق ، ولكن عند من؟

(**عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ**)

حيث النظر إلى نور الربّ ، وهذا بــدوره يكمّل النعيم ، بل هو النعمة الكــبرى! وما الجنـان والنهر وسـائر النعم الأخرى إلّا مظهر لمقعد الصدق ، وهذان النوعان من

(1) الواقعة / (19).

النعم (الجنات والنهر ، وحبّ الله وجواره) يلبّيان تطلّعـات المؤمن المادية والمعنوية إلى أقصاهما.

والمليك هو مالك الأشـــياء المهيمن عليها ، ولكن قد يوجد من هو أقـــوى منه ، إلّا أنّ ذلك ينتفي بإضـــافة «مُقْتَدِرٍ» ، وفي هاتين الصفتين ضمان للمؤمـنين بـأنّ ما يوعدون واقع حاصل ، لأنّ الذي يعدهم يملك ما وعـدهم ، ويقدر على تحقيقه فهو لا يمنعه مانع ، كقدرته على إنزال العذاب بالمكذّبين ، بلى. إنّ المؤمنين يتطلّعـون إلى نعيم الآخرة ، ولكن طموحهم الأكبر يبقى هو جوار الله ورضـاه ، فهذا زين العابـدين وسـيّد السـاجدين ينـاجي ربه : «فقد انقطعت إليك همّتي ، وانصرفت نحـوك رغبـتي ، فـأنت لا غيرك مرادي ، ولك لا لسواك سهري وسـهادي ، ولقـاؤك قـرّة عيـني ، ووصـلك مـنى نفسي ، وإليك شـوقي ، وفي محبّتك ولهي ، وإلى هــواك صــبابتي ، ورضــاك بغيــتي ، ورؤيتك حـاجتي ، وجـوارك طلـبي ، وقربك غاية سـؤلي ، وفي مناجاتك روحي وراحتي ، وعندك دواء علّتي ، وشفاء غلّـتي ، وبـرد لوعـتي ، وكشف كربـتي ، فكن أنيسي في وحشـتي ، ومقيل عـثرتي ، وغـافر زلّـتي ، وقابل توبـتي ، ومجيب دعــوتي ، ووليّ عصــمتي ، ومغــني فــاقتي ، ولا تقطعــني عنك ، ولا تبعــدني منك ، يا نعيمي وجنّــتي ، ويا دنياي وآخرتي ، يا أرحم الراحمين» [1].

ونقرأ في دعاء كميل : «**يا وليّ المؤمنين ، يا غاية آمـال العـارفين ، يا غيـاث المسـتغيثين ، يا حــبيب قلوب الصادقين**».

---

(1) مفاتيح الجنان / مناجاة المريدين.

سورة الرّحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

1 ـ في كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ قال : لا تـدعوا قـراءة سـورة «الـرحمن» والقيام بها ، فإنها لا تقرّ في قلوب المنافقين ، ويــؤتى بها يوم القيامة في صورة آدمي ، في أحسن صورة ، وأطيب ريح ، حـتى تقف من الله موقفا لا يكـون أحد أقـرب إلى الله منها ، فيقــول لها : من ذا الــذي كـان يقــوم بك في الحيــاة الــدنيا ، ويــدمن قراءتــك؟ فتقــول : فلان وفلان فتــبيض وجــوههم ، فيقــول لهم : اشــفعوا فيمن أحببتم ، فيشفعون ، حتى لا يبقى لهم غاية ،

ولا أحد يشفعون له ، فيقول لهم : ادخلوا الجنة ، واسكنوا فيها حيث شئتم.

تفسير نور الثقلين / ج 5 / ص 187

2 ـ وبإسـناده عن أبي عبد الله (ع) قـال : من قـرأ سـورة «الـرحمن» فقـال عند كل «**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**» : لا بشيء من آلائك ربّ اكذّب ، فإن قرأ ليلا ثم مات مات شهيدا ، وإن قرأها نهارا ثم مات مات شهيدا.

المصدر

3 ـ وعن الصادق ـ عليه السلام ـ أنه قـال : من قـرأ سورة «الرحمن» ليلا ، يقول عند كلّ «**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**» : لا بشيء من آلائك يا رب أكـذب ، وكل الله به ملكا إن قرأها من أول الليل يحفظه حـتى يصـبح ، وإن قرأها حين يصبح وكلّ الله به ملكا يحفظه حتى يمسي.

المصدر

4 ـ عن جـابر بن عبد الله (ر ض) قـال : لما قـرأ رسـول الله (ص) سـورة «الرحمن» على الناس سكتوا ، فلم يقولـوا شـيئا ، فقـال رسـول الله (صـلّى الله عليه وآلـه) : الجنّ كـانوا أحسن جوابا منكم ، لما قـرأت عليهم «**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**» قالوا : لا ولا بشيء من آلاء ربنا نكذّب.

المصدر

الإطار العام

لما ذا خلق ربّنا الغني العزيز هـذه الكائنـات؟ أو ليس لأنّه سبحانه الرحمن؟ آيات رحمته الواسعة تجلّت في كلّ شيء : في هذا الكتاب الـذي يهـدينا إلى نـوره ولـولاه لما عرفنــاه. في هــذا الإنســان الــذي أحسن خلقه وأكرمه وعلّمه البيان ليفضله على كثـير ممّن خلـق. في الشـمس المضــيئة ، والقمر المنــير. في النجم المســخّر برحمته ، وفي الشــجر الســاجد لعظمتــه. في الســماء الــتي رفع سـمكها وجعلها سـقفا محفوظـا. في النظـام المحسـوب الـذي قـدّره ، وفي المـيزان الـذي وضـعه للنـاس حـتى يحكّموا العدل بينهم ولا يطغون ...

بلى. ســبحات وجهه الكــريم تتجلّى في آياتــه. أفلا تتجلّى في قلوب عباده ليعرفوه وليســكنوا إلى رحمته فلا يبتغـوا عنه بـدلا؟ ما أعظم خيبة من عـاش على شـاطئ رحمة الله ظامئا لأنّه لم يهتد إليها؟

هكذا تتواصل آيات سورة الرحمن مذكّرة بهـذا الاسم المبارك الذي لو انعكس

نوره في أفئدتنا غمرها بالسكينة والأمل ، بالتطلع والتوكّل ، بالعطاء والكرامة.

لماذا اليأس وربّنا الرحمن؟

لماذا الانغلاق وخالقنا الرحمن؟

أفلم يجعل الأرض للأنـــــام ، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، فلما ذا التكذيب بـآلاء ربّنا والكفر بنعمـه؟ (ومن التكذيب : تحريم الطيبات على أنفســنا بعد أن خلقها لنا ، ومن الكفر : القنـوط من روحه ، والانطـواء على أنفســنا يائسين).

خلق الله الإنســان هــذا العــالم الكبــير ابتــداء من صلصــال كالفخّــار (أو ليس بقــادر على أن يبعثه مقاما محمـــودا ليكــــون أكـــرم من خلقه ، فلما ذا اليـــأس والتكذيب؟).

وخلق الجان من مارج من نار فبأيّ آلاء الـربّ يكـذّب الجن والإنس؟

ويبصّــرنا الســياق بتجلّيــات رحمة الله في اختلاف الفصول بحساب دقيق ، وبحركة الميـاه عـبر نظـام قـاهر يفصل بين الفــرات والأجــاج ، وإذا بــاللؤلؤ والمرجــان يستخرجان منهما ، وأجرى فيهما السـفن الكبـيرة بتقـدير حكيم ، فأنّى يكذّبون بآياته؟

وبعد أن يشـــير إلى أنّ الثقة ليست بنظــام الخليقة لأنّها فانية ، بل بخالقها لأنّ وجهه الكــريم بــاق لا يفــنى ، يعود ويذكّرنا بأنّ خـزائن رحمته لا تنفذ ، ومنها يســأل من في السموات والأرض فلنسأله أيضا. لماذا نكـذّب ونخسر عطاءه؟

إنّ التكـذيب بآيـات الله ونعمائه ليس فقط خيبة أمل في الدنيا ، بل خسارة عظمي في الآخرة ، وهكـذا تنـذرنا الآيـات من عاقبة التكـذيب يـوم الحسـاب العظيم فـأنّى يمكن أن نهـرب من حكومتـه؟ هب أنّنا نفـذنا من أقطـار السموات والأرض

فهل ننفذ إلّا بسـلطان منـه؟ أفلا نحسب حسـاب شـواظ النـار والنحـاس ، فهل نقـدر على مقاومتهـا؟ فلما ذا إذا التكـذيب بـآلاء ربّنا الغـني العزيـز؟ فيـوم تنشق السـماء وتتحـــوّل حمـــراء كأنّها وردة أنى يمكن التكـــذيب بـــآلاء الرحمن؟

يومئذ لا داعي للســؤال عن المجـــرمين. أو ليســـوا معروفين بسيماهم؟ فيؤخذ بالنواصي والأقدام ويلقى بهم في نار جهنّم التي كذّبوا بها (حينما كذّبوا بالحساب وكذّبوا بآلاء الله).

تعالوا نؤمن بربّنا المقتدر الجبّار ونخشاه حـتى يرزقنا الجنّة ، فلمن خـاف مقـام ربّه جنتـان ذواتا ظلال وارفة ، وعيـون جارية ، وفواكه متنوّعة ، وأســرة موضــونة عليها الحرير والإســتبرق ... هنالك تجد قاصــرات الطــرف من الحـور الطـاهرات كـأنّهن اليـاقوت والمرجـان ، بلى. ذلك جزاء إحسانهم ، وأقل منهم بدرجة جنتـان ملتفّة الأغصـان ، تتفجّر فيهما عينان ، فيهما من أنـواع الثمـار ، كما فيهما الخيرات الحسان من النساء حـور محفوظـات في الخيـام لم تصل إليهنّ يد إنس ولا جـــــان .. هنالك يســـــتريح الصالحون على رفرف خضر وعبقريّ حسـان .. كـلّ هـذه النعم الـتي يبشّــر بها القــرآن لمـاذا التكـذيب بها بعــدم السعي إليها؟ (**تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ**).

سورة الرّحمن

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**الرَّحْمنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسانَ (3)**
عَلَّمَهُ الْبَيانَ (4) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ (5)
وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ (6) وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ
الْمِيزانَ (7) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ (8) وَأَقِيمُوا
الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ (9) وَالْأَرْضَ
وَضَعَها لِلْأَنامِ (10)

---

5 [بحسبان] : يجريان بحساب معلوم مقدّر ، بلا زيادة ولا نقصان.
6 [والنجم] : هو نبت الأرض الذي ليس له ساق ، وقيل :
أراد بالنجم نجم السماء ، فهو ينجم أي يظهر من الأفق.
10 [للأنام] : للنّاس.

فِيها فاكِهَـةٌ وَالنَّخْـلُ ذاتُ الْأَكْمــام (11) وَالْحَبُّ ذُو
الْعَصْفِ وَالرَّيْحانُ (12) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (13)
خَلَــقَ الْإِنْســانَ مِنْ صَلْصــالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَــقَ
الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ (15) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ
(16) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (17) فَبِـأَيِّ آلاءِ
رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (18)

---

11 [الأكمــــام] : الأوعية والغلف ، وثمر النخل يكــــون في غلف ما لم ينشق.
14 [صلصال] : هو الطين اليابس ، الذي له صلصلة أي صوت.
[كالفخار] : الفخّار هو الطين الذي طبخ بالنار حتى صار خزفا.
15 [مارج] : اللهب الذي يتداخل بعضه في بعض.

الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ

هدى من الآيات :

إنّ أهمّ حكمة وراء خلق الإنسـان والكائنـات أن يتعـرف الـرب لخلقه في كل شـيء حـتى لا يجهلـوه في شـيء فيعبدونه حق عبادته ، ولا ينظـرون إلى شـيء إلا ويرونه قبله ومعه وبعـده. لقد كـان سـبحانه وتعـالى كـنزا مخفيا فـأراد أن يعــرف فخلق الخلق [1] ، لا لحاجة منه إليهم ، بل لحاجة منهم إليه ، ولا ليربح عليهم ، بل ليربحوا عليه.

وهكذا فان السمة البـارزة في الخليقة هي رحمة الله ، وإن طبيعة الخلق الأولى للإنسـان قبل أن تـدنّس من المخلـوقين أنفسـهم لهي طبيعة إيجابية حميـدة ، وإنّ فطرته ليست نابية ولا معادية. إنّه يتفكّر في نفسه فيراها غارقة في محيط من النعم والآلاء ، خلقه رحمة ، وتعليمه وبيانه نعمة أيضا ، ثم يجـول بفكـره في العـالم من حوله فيرى

(1) محتوى حديث قدسي معروف.

الشمس والقمر ، والنجوم والشجر ، والسماء ، والمـيزان ، وهكـــــذا الأرض وما تحتويه كلّها نعم ، وكلّها خلقت ولا زالت تؤدي دورها ضمن نظام محكم في صـالحه .. لـذلك تجد سـلوكه تجـاه الخلق سـلوكا وديعا نابعا من حبّه له ، فهو يـأبى أن يسـلب نملة جلب شـعيرة ، وإذا مشى على الأرض وطأها برفق وهون.

بينات من الآيات :

[1] [(**الرَّحْمنُ**)]

هكـذا تـأتي هـذه الكلمة وحـدها آية قرآنية ، ولعلّها أقصر آية بعد الحروف المقطّعة ، ولكنّها من حيث المعنى تشـكّل محـورا في السـورة بتمامها ، يتصل بآية آية فيها ، ويعكس ظلّه على كلماتها ، وحينما تنطلق من هـــــذه السورة المباركة إلى العالم الواسع تجد هذا الاسم الالهي منبسطا على كلّ مفردة فيه ، لأنّه تعالى كتب الحياة بلغة الرحمة واللطف ، ولك أن تتصـــور كم ينبغي أن يكـــون الإنسان ضالا ومجرّدا عن أي إحسـاس حـتى يكـون جـاهلا بربّه وبرحمته ، بل جاحدا بآلائه ، حـتى يتسـاءل بصـلافة : «**وَمَا الــرَّحْمنُ**»؟! [1] إنّه لا شك أقــلّ قــدرا ووعيا من البهيمة ، لأنّها تعي رحمة ربّها ، وتؤمن به بقدر شـعورها ، بينما الإنســان وقد أعطــاه الله العقل ولكنّه لا ينتفع بــه! وصــدق عــزّ وجــلّ حين قــال عنهم : «**أَمْ تَحْسَــبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعـامِ بَـلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**» [2]

[2] إذا تعال معا نسـتمع الـوحي وهو يعرّفنا جانبا من رحمة الله ، ويهدينا إلى تجلّيـات اسم الـرحمن في الخلق وفي أنفسنا قبل ذلك.

(**عَلَّمَ الْقُرْآنَ**)

---

(1) الفرقان / 60

(2) الفرقان / 44

إنّ للرحمة الالهية درجــات ، ولكنّ أعظمها بالنسـبة للإنسـان الهـدى المتمثّل في القـرآن ، فـالخلق بحـدّ ذاته رحمة وهي تسبق تعليم القرآن ، إلّا أنّ ذكره يأتي متـأخرا ، ذلك أن الهـدى هو الهـدف من الخلق ، ولو لم يهد الله عبـاده إليه تكـون الحكمة من وجـودهم وإيجـادهم قد انعـدمت ، أو لم يقل ربنا سـبحانه : «**وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**»؟.

والقـرآن يهـدي البشر إلى معرفة ربّه ، ولأنّه لا يمكنه ذلك إذا كـــانت بينه وبين الله حجب الغفلة والجهل والذنوب ، فـانّ القـرآن يزكّيه حـتى يتجـاوز تلك الحجب ، وحتى شـرائع الـدين تهـدف في النهاية تمهيد السـبيل إلى معرفة الــرب. كيـف؟ لأنّه لا يقـدر الإنسـان على معرفة الـرب ما دام يعيش في مجتمع فاسد منحـرف عن سـنن الحق لا يـني يعتصـره حـتى يكـون متوافقا معه ، فكيف يتخلّص من ضـغوطه ، ويتحـدّى فسـاده؟ هـذا ما تضـمنه تعاليم الدين ، وكيف يبني مجتمعا فاضلا بديلا عنه؟ هذا ما تفصّـله أحكامه القيّمة ، وبالتـالي كيف يتجنّب عوامل الخطيئة حتى يعرف الله؟ هذا ما يتكفّل به القـرآن بهـداه وبيّناته ، ببصائره ومفصّلاته ، بأحكامه وشرائعه. إنّه يحقّق بكـلّ ذلك الحكمة من خلق الإنسـان ألّا وهي معرفة الله ، الـتي هي بـدورها تجـلّ لرحمانيّته تعـالى. أليست معرفته عين الكمال ، ومحض النعمة ، ووسـيلة الـزلفى ، وسـبب تسخير الخليقة؟

والسؤال : كيف علّم الله القرآن للإنسان؟

أولا : بـأن علّمه رسـوله (ص) وهو علّمه للبشـرية تبليغا وبيانا.

ثانيا : بـأنّ القـرآن تعبـير صـريح عن الحقـائق الـتي أودعها الله في فطرة كلّ بشر ، ممّا يجعل إيداعها بمثابة تعليم القـرآن نفسه ، ممّا يجعل دوره بالنسـبة للحقـائق دور المذكّر بما ينطوي عليه وجدان الإنسان.

ويبـدو أنّ حـذف : مفعـول التعليم الثـاني فلم يفصح عمن علّم القرآن كان لحكمة بالغة هي : إن جعل القـرآن علما بحيث ينتفع به كـلّ من شـاء هو المناسب لرحمانية الله ، كما قـال ربنا سـبحانه : «**وَلَقَـدْ يَسَّـرْنَا الْقُـرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**».

[3 ـ 4] وحينما نوجّه نظرنا صوب الإنسان نفسه نراه بكلّه مظهرا لرحمة الله.

إنّه لم يكن شيئا ، فأوجده الله من غير استحقاق منه ، ومن دون أيّ جبر أو اضطرار ، إلّا رحمة منه عزّ وجلّ.

(**خَلَقَ الْإِنْسانَ**)

وكفى بخلق الإنسان دليلا على رحمته. ألا تـراه عالما كبـيرا بذاته ، تمـاوجت في كيانه بلايين النعم الـتي لو فقد واحدة منها انتقصت الرحمة؟

بيد أن أعظم ما في الإنســان قلبه (مخّه وعقلـــه) ، ذلك أنّ الله خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وفضّله على كثـــــير من خلقه ، ثم أكمل خلقه بالعقل ، وأكمل العقل بالقرآن ، وأكمل كلّ ذلك بنعمة البيان ، الـذي يقـوم بـدور تواصل المعلومات وتناقل الخبرات من إنسان لآخر ، ومن أمة لأخـرى ، ومن جيل إلى جيل ، ولو لا هـذه المـيزة لما كانت حضارة ، وكان البشر وسائر الأحيـاء سـواء ، فحيـاة الهرّة قبل مليون سـنة هي حياتها الآن ، لأنّ كـلّ فـرد من هـذا الجنس يعيش في حـدود غرائـزه أو تجاربه الذاتية ، بينما تنمو حضـارة البشر بتواصل التجـارب والمعلومـات وتراكمها ، وهـذا كلّه مرتكز على البيـان ، وما كـان قـادرا عليه لو لا فضل الله ورحمته إذ تلطّف عليه به.

(**عَلَّمَهُ الْبَيانَ**)

وهذه النعمة هي الأخـرى مظهر لاسم الـرحمن ، وآية هادية إليه ، وما يجب على الإنســان هو الاعــتراف بهــذه الآلاء ، وأداء شكرها ، ولكنّك تراه بدل ذلك يمارس

الخطيئة بتلك النعم ، فـــاذا به يســـخّر البيـــان من أجل الباطل.

[5 ـ 6] ومن الحـديث عن آثـار رحمة الله في كيـان الإنســان تنقلنا الآيـات إلى آفـاق العـالم لعلّنا نـرى فيها تجلّيات اسم الـرحمن ، هكـذا يوصل القـرآن الحـديث عن الإنسان والكون لكي يخرجنا من قوقعة الذات الى الآفاق الواسعة ، لكي يؤكد لنا بأن الكائنـات جميعا خاضـعة لله ، حيث يـؤدي كـلّ شـيء دوره وهدفه من الخلق بالتزامه بالنظام الـذي رسـمه الله لـه. أنظر الى الشـمس تجـدها تتحرّك بدقة متناهية جدا ، وبتناسق رائع مع حركة القمر ، (**لَا الشَّـمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُـدْرِكَ الْقَمَـرَ وَلَا اللَّيْـلُ سابِقُ النَّهـارِ وَكُـلٌّ فِي فَلَـكٍ يَسْـبَحُونَ**) [1]. إذن فـأي خروج من قبل الإنسان عن حدود الله هو شـذوذ وشـقاق وضلال وتيه.

(**الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ**)

لقد خلق الله الخلق متناسـقا يكمل بعضه بعضا ، فلو لا الإنســان ما خلق الله الشــمس والقمر والنجــوم ، والشجر ، والسماء والأرض وما فيهما ، ولو لا هذه الأشياء ما كان للإنسان أن يجد سبيلا للحيـاة .. والشـمس والقمر لهما آثار مباشرة في حيـاة الإنسـان ، بل في الحيـاة على كوكبنا كلّه ، فالشمس توفّر لنا الضـوء ، ولها صـلة ماسّـة بالنباتات على الأرض ، وهكذا يؤثر القمر في بحـار الأرض ومحيطاتها ، وفوائد أخــرى لهما لا يــزال العلم الحــديث يحث الخطى لاكتشــافها ، ولكن تبقى أعظم فائــدة لهما ولكـلّ شـيء أنّهما آيتـان تهـديانا إلى الله ، ونلمس هـذا الهـدى بصـورة أجلى وأفضل بـالاطلاع على دقّة النظـام الذي يتحكّم فيهما.

فلو أنّ الشـمس اقـتربت إلى الأرض أو ابتعـدت عنها أكــثر ، أو تبــدّل نظامها في الغــروب والشــروق ، أو تصاعدت حرارتها أو انخفضت ، لأصبحت الحياة صعبة أو

---
(1) يس / 40

مستحيلة .. وكذلك القمر فاذا رأيناه يحمل ملايين الأطنان من ميـاه البحر فانّه لا شك يـؤثّر في مخّ الإنسـان الـذي يشكّل الماء حوالي 70 خ منه.

(**وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ**)

قال بعض المفسرين : إنّ النجم هو النباتات الصغيرة ، والشـــجر هي النباتـــات الكبـــيرة ذات الســـاق ، وذلك ليوجدوا ارتباطا بين الإثنين ، والـذي يبـدو من ظـاهر الآية أنّها لا تحتـــاج إلى هكـــذا تأويل ، فـــالنجم هو الـــذي في السماء ، والشجر هو الشـجر الـذي نعرفه ، وربما الهـدف من ذكرهما معا بيـان العلاقة بين أبعد الأشـياء عنّا وأقربها إلينا في الطبيعة ، فهي وإن كـــــانت في نظرنا جوامد إلّا أنّها تملك قدرا من الوعي والإحساس يدعوها لعبـادة ربّها «**وَإِنْ مِنْ شَـيْءٍ إِلَّا يُسَـبِّحُ بِحَمْـدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُـونَ تَسْبِيحَهُمْ**» [1].

وحيث يـدل السـجود على غاية الخضـوع والعبودية ، فإنّ سـجود النجـوم والشـجر يتجلّى في خضـوعها لسـنن الله المرتبطة بها ، فإنّك لا تجد نجمة تنحرف عن مسارها ، ولا شجرة تنبت غير ثمرها.

ولا ريب أنّهما مظهر لرحمة الله بالإنسـان ، فللنجـوم علاقة وثيقة بتنظيم هيكلية الجاذبية في هـــذا الفضـــاء الرحب ، ثمّ أنّها تؤثّر بأشعتها على الأرض وعلى الكائنـات فيها ، حتى قيل بأنّ كـلّ مـادّة في جسم الإنسـان تسـتمد قـــدرا من وجودها وكيانها ـــ بلطف الله ـــ من الأشـــعة المبثوثة في الفضاء ، والعلاقة بين النجوم والشجر ليست علاقة علمية وحسب ، بل انّ الـزرّاع والفلّاحين يسـتدلّون بها على ميعـــاد زراعة الأنـــواع المختلفة من النبـــات ، وأوقات اللقاح والتشذيب وما إلى ذلك. إذن فلا ينبغي أن

(1) الإسراء / 44

نتصوّر بأنّ تلك النجـوم الـتي تفصـلنا عنها ملايين السـنين الضـــوئية لا علاقة لها بنا ، كلّا .. وهـــذا يفسّــــر الحــــديث القدسي : «**خلقت الأشــــياء لأجلك وخلقتك لأجلي**» الذي يشير إلى العلاقة بين كلّ شيء وبين الإنســان ، وقد قــدّم ربّنا الإشــارة إلى خلق الإنســان على الحــديث عن الكون لأنّه الهدف.

[7 ـ 9] ثم أنّ الســورة المباركة تــذكّرنا بتجــلّ آخر لاسم الرحمن في نعمة السـلام والأمن ، سـواء كـان أمن وجود الإنسان أو أمن حقوقه ، فالسماء رفعت كي تحافظ بطبقاتها على وجــوده ، فهي تمنع عنّا النيــازك والشــهب الساقطة ، كما يمتص الغلاف الجـوي الأشـعة الضـارّة أنّ تصل إلينا ، ويخفّف من الأشعة الأخرى التي من شـأنها لو وصـلت إلينا بصـورة مركّـزة الإضـرار بنا أيضا ، وهكـذا .. وكما ضــمن الله حياتنا بالســماء ضــمن برحمته الحقــوق للإنسان عند ما وضع الميزان.

(**وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ**)

الحياة كلّها من النبتة الصغيرة حتى الشجرة الكبيرة ، ومن الــذرة المتناهية في الصـغر حـتى المجـرّة المتناهية في الســعة والضــخامة ، وفيما بينها الإنســان والشــمس والقمر ، كـــلّ ذلك يتجلّى فيه التــدبير اللطيف والنظـــام الدقيق ، حتى قالوا أنّ الحياة كتبت بلغة رياضية ، ولــذلك فإنّها تنعكس في ضمير الإنسان وفي رسالات الله بصورة موازين وقيمـ أليس الفكر مرآة صافية؟ أو لا تعكس هـذه المرآة ذلك النظم الدقيق ، والتدبير الحسن؟ بلى. وكذلك الــوحي يــذكّرنا بالعقل ، ويفصح عن تلك المــوازين الحق التي انبثّت في الخليقة.

فالإنسان يعرف الخير من الشر ، والحسن من القبيح ، بل ويزن أيضا أيّ الشرّين أهون وأيّ الحســنيين أفضل ، كما أنّه يتمتع بحسّ جمــالي. ألا تــراه كيف يميّز بين لوحة وأخرى ، ووجه وآخر ، كما أنّه بحواسه يفرّق بين الأحجـام ، والألوان ،

والمسـافات ، والأصـوات. هل فكّـرت كيف يميّز الإنسـان بأذنه بين الأصــوات المختلفة ، يقيس ــ مثلا ــ صــوتين متقاربين لأخوين ، بل صوت الإنسان الواحد في حالتين أو مرحلتين ، حينما يستيقظ من نومه ، وحينما يكـون مريضا .. ولو أنّك قارنت بين أكثر المسجّلات تطوّرا وبين الأذن ، أو بين المصوّرات المتقدمة وبين العين ، لوجـدت حـواس الإنسـان تتميّز بدقة المـوازين ، وهـذه المـوازين عكسـها الإنســان في صــور محسوسة ، فصــنع للثقل ما يســمّى بــالميزان ، وللمســافات المــتر والــذراع وما إلى ذلك ، وللـزمن السـاعة ، وللحـرارة والرطوبة مقياسا آخر ، كما وضع قــوانين وأنظمة تجسّــد مــوازين العــدل والأخلاق والقيم والأعـراف. إذن ربّنا هو الـذي خلق المـوازين في الطبيعة ، إذ خلق كلّ شيء بحسبان وقدر ، ضــمن زمن ، وحجم ، ولـون ، وشـدّة ، وضـعف ، وعـدد من المـوازين الأخرى ، وعكس ذلك في ضمير الإنسان وحواسه وعقله.

وهناك علاقة بين رفع السماء ووضع الميزان في الآية الكريمة ، فالســماء رفعت بــالميزان ومن أجل المــيزان (القوانين والأنظمة الطبيعية الخاصة بها) ، ولولاها لكـانت تقع على الأرض ، وهكـذا كـلّ شـيء في الحيـاة ، فحيـاة الإنسان تستحيل عذابا لو لم يلتزم بـالميزان ، لـذلك يؤكّد ربّنا مباشــرة بعد هــذه الآية وبآية أخــرى على ضــرورة احترامه وإقامته.

إنّ الله وضع المــــيزان في الطبيعة ، ولكنّ رحمته لا تتجلّى فيها فقط بل على يد الإنســــان أيضا ، فهو بحكم حريته قد ينغّض صـفو الأمن على نفسه ويفسد السـلام ، كما أنّه يسـتطيع أن يسـاهم في جلب السـلام والسـعادة إليها لتتجلّى رحمانية الله على يديه ، وذلك إذا لم يطغ في الميزان وأقامه بحق ، فلم يسرف في الأكل والشرب ، ولم يبذّر في الصرف ، ولم يستهلك أكـثر ممّا ينتج ، ولم ينم أكـثر من حاجته ، بل أقـام الـوزن في جـوانب حياته الشخصية والاجتماعية.

(**أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ**)

والطغيان هو إخسار الميزان بصورة فظيعة ظـاهرة ، وربّنا ينهانا عن ذلك ، ويلحق بـــالنهي دعـــوة إلى إقامة الوزن باحترامه والالتزام الدقيق به ، وبأفضل صور العدل وهو القسط.

(**وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ**)

وهو أقــرب الى التقــوى حــتى من العــدل ، ذلك أنّ القسط ليس مجـرّد العـدل ، بل العـدل بإضـافة الاحتيـاط الذي يضمن حصـوله بالفعل ، فمثلا إذا كنت صـاحب محل تزن للناس تعادل ما تبيع بالوزن المطلوب ثم تضـيف إليه شــيئا ، وإذا كنت تشــتري تنقص ما تشــتريه عن الــوزن المتفق بينك وبين البائع ، وذلك للتأكّد من فراغ الذّمّة في الحالتين. هذا هو القسط ، وكم تكون البشـرية سـعيدة لو عملت بهذه القاعدة.

والإقامة هي الالتزام بالشيء وأداؤه على أحسن وجه ، وإقامة الــوزن تكــون في أفضل صــورها عند العمل بالقسط.

وربّنا لا ينهى عن إخســار المــيزان بصــورة ظــاهرة وفظيعة ، بل وينهى حتى عن مخالفته بصورة بسيطة ، أو خفية باســتغلال غفلة النــاس وثقتهم ، أو بالاحتيــال على القانون ، فيقول :

(**وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ**)

والعمل بالقسط يضــمن من جــانب تحقّق العدالة ، ومن جــانب آخر يجنّب الإنســان مخالفة الحق والنظــام ، والسؤال : كيف يخسر الإنسان الميزان؟

من المفاهيم الحضـارية بل من الإنجـازات الهامة في عالمنا اليوم وحدة الموازين

(الكيلوغرام ، الكيلومتر مثلا ، وكـذلك المقـاييس والأوزان الأخـــرى) وهـــذه يتفق عليها النـــاس ، ويعتمــــدونها في معـاملاتهم ، ولعل هـذا من أبـرز معـاني إقامة المـيزان واحترامه وعدم التلاعب به ، بأن يعتبر البعض الكيلوغراما 900 ، والبعض الآخر 100 غراما ، فـذلك يفقد البشـرية إنجـــازا حضـــاريّا ، ويفسح المجــــال للمزيد من الظلم والتلاعب بـــالحقوق ، بل إنّ إقامة الـــوزن (الهــدف) لا يتحقّق إلا بالميزان ، وإخساره تضييع لهذا الهدف.

وكلمة «**الْمِـيزانَ**» واسـعة تشـتمل على كثـير من المضـامين ، فالعقل مـيزان ، والقـرآن مـيزان ، والعهد مــــيزان ، وما تتفق عليه التنظيمــــات في اجتماعها إلى بعضـها مـيزان ، ولا يصح لأحد أن يخـرج عليه مهما كـان مخالفا لمصالحه الشخصـية ، ولكنّ أظهر معـاني المـيزان هو القيـــادة الرســـالية ، بأقوالها وأفعالها وآرائها باعتبـــار قربها من القيم فهما وتطبيقا ، قـــال الإمـــام الرضا (ع) : «والميزان أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) نصبه لخلقه ، قال الراوي : قلت : (**أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِـيزانِ**)؟ قـال : لا تعصـوا الإمـام ، قلت : (**وَأَقِيمُـوا الْـوَزْنَ بِالْقِسْـطِ**)؟ قـال : وأقيمـوا الإمــام بالعــدل ، قلت : (**وَلا تُخْسِــرُوا الْمِيزانَ**)؟ قال : لا تبخسـوا الإمـام حقّه ولا تظلمـوه» [1]

والقـــرآن يضـــرب لنا مثلا لإخســـار المـــيزان في الحقل الاجتمـــاعي والاقتصـــادي فيقـــول متوعّـــدا : (**وَيْـــلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتــــــــــالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْـتَوْفُونَ* وَإِذا كـالُوهُمْ أَوْ وَزَنُـوهُمْ يُخْسِـرُونَ**) [2] والتطفيف كما يظهر من الآية ينـــــاقض بالضـــــبط إقامة الوزن بالقسط.

[10] والأرض هي الأخرى تجلّ لرحمة الله الشاملة ، حيث خلقها ووفّر فيها عوامل الحيـاة الـتي من شـأنها أن تجعل عيش الإنســــــان عليها ممكنا بل طيّبا ، كالجاذبية والأكسجين والماء ومختلف أنواع الأكل ، وكـذلك وفّر فيها الضوء والحرارة

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 188
(2) المطففين / 1 ـ 3

بقدر حاجة البشر.

(**وَالْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ**)

والقرآن يشير إلى معـنى الوضع هنا في آية أخـرى إذ يقول : (**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَـلَ لَكُمْ فِيها سُـــبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَـــدُونَ**) [1] ولو لا رحمة الله وتمهيـــده الأرض لنا لاســتحال عيشــنا على هــذا الكــوكب كما هو مســتحيل على الأجــرام الأخــرى كالشــمس والزهــرة وغيرهما ، وفي الآية فكرتان حضارية وشرعية نستفيدهما من كلمة «**وَضَعَها**» :

الأولى : أنّ الله ســـــخّر الأرض عمليّا للإنســــــان ، وأعطــاه الوســائل والقــدرات العلمية والمادية يســمّيها القرآن «سبلا» للانتفاع بها والهيمنة عليها من قمم الجبال الشاهقة إلى قعر المحيطات ، فعليه أن يسعى لتسخيرها في مصـلحته ، وأي بقعة لم يسـخّرها الإنسـان من الأرض أو أيّ فرصة أو طاقة فإنّما ظلم نفسه ، وألحق بها خسـارة وغراما ، والتبصّـر بهـذه الحقيقة يزيل عن البشر الانطواء والتردّد والخشية من التقدّم ، وهكذا تحرّض هذه الحقيقة الإنسـان نحو المزيد من التقــدم ، وتفتح له آفاقا واسعة.

الثانية : ثم انّ الآية تهـدينا شــرعا إلى أنّ الإباحة هي الأصل في النعم حتى يدل الدليل على الحرمة ، كما قــال الله عـزّ وجـلّ : (**قُلْ مَنْ حَـرَّمَ زِينَـةَ اللهِ الَّتِي أَخْـرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ**) [2].

ولعل النصوص الشرعية لا تـدلّ فقط على إباحة كـلّ شــيء للإنســان (إلّا ما أقيمت الحجة على حرمتــه) ، بل وأيضا على ضرورة الانتفاع بما في الأرض ، ممّا

---

(1) الزخرف / 10

(2) الأعراف / 32

يدلّ على أنّ تحريم الطيبـات والجمـود والانغلاق نـوع من السفه بل من الظلم للنفس.

قال تعالى : (**هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها**) (1) وقـال الإمـام علي (ع) : اتقـوا الله في عبـاده وبلاده ، فإنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهـائم (2) وفي احتجاجه على عاصم بن زيـاد حين لبس العبـاء ، وتـرك الملاء (أي تصـوّف فتخلّى عن الـدنيا واعـتزل النـاس) وشكاه أخوه الربيع بن زياد إلى أمير المؤمنين (ع) أنّه قد غمّ أهله ، وأحزن ولده بذلك ، فقـال أمـير المؤمـنين (ع): «عليّ بعاصم بن زيـــاد» ، فجيء به فلمّا رآه عبس في وجهه فقـال له : «أما اسـتحيت من أهلـك؟ أما رحمت ولدك؟» ثم دعـاه إلى عمـارة الأرض والانتفـاع بالطيبـات فيها قائلا : أترى الله أحـلّ لك الطيبـات وهو يكـره أخـذك منها؟! أنت أهون على الله من ذلك. أو ليس الله يقـول : «**وَالْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ فِيها فاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ**»؟! إلى أن قال : فبالله لابتذال نعم الله بالفعال أحبّ إليه من ابتذالها بالمقال ، وقد قال عزّ وجلّ : «**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**» فقـال عاصم : يا أمـير المؤمـنين فعلى ما اقتصـرت في مطعمك على الجشـوبة ، وفي ملبسك على الخشونة؟! فقال : «ويحك! إنّ الله عزّ وجلّ فرض على أئمة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضـعفة النّـاس كيلا يتبيّغ بالفقير فقره» (3).

إذن ليست النعم والإمكانـات في الأرض مباحة للإنسان فقط ، بل ينبغي له أن يسعى لتسخيرها والانتفاع بها أيضا.

[11 ـ 12] ثمّ إنّ القـرآن يـذكّرنا ببعض النعم الـتي مهّد الله بها العيش على الأرض ، والـتي هي مظهر لاسم الرحمن أيضا ، ويبدأها بالفاكهة وهي ذات فائدة

---

(1) هود / 61

(2) نهج / خ 167

(3) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 189 وتتمته ص 191

ونفع للجسم بما تحتويه من فيتامينات ومواد أخرى.

(**فِيها فاكِهَةٌ**)

ويبــدو أنّ تقــديم ذكرها على النخل النعمة الوسط ، وعلى الحبّ المأكول الرئيسي للإنسان ، لأنّها كمـال نعمة الخلق وكمال نعم المائدة ، وهـذا يتناسب مع سـياق هـذه السورة التي جاءت لبيان تجلّيات رحمة الله أن تشير إلى النعمة ابتداء من أكمل النعم ، ولا شك أنّ رحمة الله أكثر تجلّيا في المائـدة ذات الفاكهة من الأخـرى الـتي لا فاكهة فيها.

(**وَالنَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ**)

وهي كـذلك مظهر لرحمة الله ، ولعلّنا نقـترب أكـثر إلى مهمّ هـذه الحقيقة إذا رجعنا إلى الـوراء في التـاريخ بــــذاكرتنا ، وتعرّفنا على أهمية النخل ودورها بالنســـبة للإنسان آنذاك ، إنّه يستفيد منها حتى النخـاع ، من النـواة التي يقدّمها مع العلف للحيوان ، إلى جذعها وخوصها وكلّ شيء فيها ، فبكر بها يوقد النار للطبخ والتدفئة ، وبسعفها وجذوعها يبني بيته ، ومن ثمرها يأكل طيلة السنة.

ولكنّ القرآن يلفت انتباهنا إلى أكمــام النخل ، لأنّ ما تحتويه من الثمر هو أهمّ النعم بالنســـبة للإنســـان. إنّه يستطيع العيش من دون بيت السـعف ، ومن دون التدفئة بالنار أيضا ، ولكنه لا يعيش من دون الأكل ، والأكمـام هي التي تحفظ الثمر من الآفات والسـموم ، بل وتقـوم بـدور أساسي جدّا في تكوينه ، لأنّها تشـبه الـرحم الـذي يتكـوّن فيه الجـنين ، والقـرآن في آية منه يوجّهنا إلى هـذا الـدور عند ما يلحق ذكر الأكمــام الــتي تحمل بــالثمر ثم تلــده بانشـقاقها بـذكر المـرأة حينما تحمل وتلد ، قـال تعـالى : «**وَما تَخْـرُجُ مِنْ ثَمَـراتٍ مِنْ أَكْمامِها وَما تَحْمِـلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ**

«إِلَّا بِعِلْمِـهِ» [1] ، ولولاها لانعـدم الثمر ، وانقـرض النخل بمـرور الـزمن حين تتوقّف دورته الحياتيـة. إذا فهي أظهر لرحمة الله من كلّ شيء في النخل.

وكما النخل كـذلك مختلف الحبـوب كالحنطة والأرز والشعير حيث يتجلّى فيها اسم الـرحمن ، فهي ذاتها ينتفع بها الإنسان غذاء يحتوي على ما يحتاجه ، كما يسـتفيد من حطامها كالأعواد والقشرة والـورق بعد الحصـاد وقبله في أغراض عديـدة كالبنـاء ، كما يقـدّمها علفا للحيـوان ، وهو عصف الحب.

(**وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ**)

قـال الـراغب : (العصف والعصـيفة الـذي يعصف من الـزرع ، ويقـال لحطـام النبت المتكسّـر عصف ، قـال : (**وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ**) ، (**كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ**) ، ريح عاصف). [2]

(**وَالرَّيْحانُ**)

الرائحة الطيبة الزكية ، وسـمّي به نـوع من الـورد ، ويقـال لكـلّ نبـات طيّب الرائحة [3] ، فتلك نعمة تلبّي الحاجـات المادية للإنسـان ، وهـذه تلبّي حاجة معنوية بشـمّها ، وإضـافة طيبها إلى الأكل والشـراب ليضـفي عليهما نكهة خاصة.

[13] هكـذا تحيط نعم الله وآياته بنا ، وأخـرى كثـيرة يتعـرّض السـياق لـذكرها فيما بعد ، ولكنّه قبل ذلك يستوقفنا بآية محورية في السورة ليطرح علينا من خلالها أهمّ سؤال يجب طرحه على أنفسنا ونحن نرى آلاء الله.

---

(1) فصّلت / 47

(2) مفردات الراغب الاصفهاني / مادة : (عصف).

(3) المنجد.

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

إنّها من الكثرة والوضوح بما لا يجد أحد سبيلا لإنكارها ، لنقف ساعة تفكّر. كم هي نعم الله علينـا؟ كـلّ ذرّة في كياننا وفي المحيط من حولنا هي نعمة من الله ، وكـــــلّ لحظة نمــارس فيها الحيــاة هي الأخــرى نعمــة. ولو أنّنا صيّرنا أغصان الشجر أقلاما والورق كتبا ، والبحـار مـدادا ، فإنّنا لا نـزال عـاجزين عن إحصـائها ، وربّنا إذ يكـرّر هـذه الآية الكريمة بعد كلّ مقطع يشـتمل على ذكر لشـيء من آلائه ، فإنّما ليؤكّد لنا بــأنّ ما ذكر هو شــيء بسـيط من النعم الكثيرة ، كما في قوله عزّ وجلّ : (**اللهُ الَّذِي خَلَـقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِـهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ* وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ* وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُـوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**) [1]

بلى. إنّ نعم الله جــاءت لكي تلبّي حاجــات الإنســان المادية والمعنوية ، ولكنّ هدفها الأعظم أن يهتدي بها إلى المزيد من المعرفة بربّه ، وربّنا في ســورة النحل يقــول وقد تعرّض لذكر جــانب من نعمه في (15) آية : (**وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِــيَ أَنْ تَمِيــدَ بِكُمْ وَأَنْهــاراً وَسُــبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَــدُونَ* وَعَلامــاتٍ وَبِــالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَــدُونَ* أَفَمَنْ يَخْلُـقُ كَمَنْ لا يَخْلُـقُ أَفَلا تَـذَكَّرُونَ* وَإِنْ تَعُـدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**).

إذا فالأهمّ من الاهتـداء بالسـبل في الأرض وبـالنجوم إلى معرفة الطـرق والوصـول إلى الأهـداف المحـدودة ، والأهمّ من معرفة عـدد النعم ، أن يهتـدي الإنسـان بـذلك كلّه إلى ربّه عزّ وجلّ. وكم يكون البشر ظلوما وجهـولا إذا أشرك بربّه أو كفر به وهو

(1) إبراهيم / 32 ـ 34

في هذه البحبوحة من النعم؟!! ولك أن تدرك مدى ضـلال أولئك الذين أنكروا على الله أظهر أسمائه إذ «**قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ**»؟!! وأنا وأنت قد لا نقول ذلك ، ولا نكـذّب بـآلاء الله بألسنتنا ، ولكنّنا كثيراً ما نكذّب بها بأعمالنا وسلوكنا ، وبغفلتنا عن الشكر.

الخليقة كلّها تجلّيــات لرحمة الله ، فهي وجهه «**وَلِلَّهِ الْمَشْـرِقُ وَالْمَغْـرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْـهُ اللـهِ إِنَّ اللهَ واسِعٌ عَلِيمٌ**» [1] ، ولكنّ الإنسـان حينما يضل ليس فقط لا يهتـدي بالآثـار إلى معرفة رحمة ربّه وشـكره ، بل ويتخذ النعم مطيّة للمزيد من التكـذيب ، فـإذا أصـبح غنيّا ووجب عليه الشــكر تــراه يبطر معيشــته ، ويــزداد ترفا وفســـادا في الأرض ، أو حين يمنّ عليه بالملك تـــراه يستعلي على النـاس ويطغى ويسـتبد ، ولعلّنا نجد إشـارة إلى ذلك عند قوله (**فَبِأَيِّ آلاءِ**) إذا اعتبرنا الباء سببية.

إنّ الحيـــاة وهي وجه الله بكـــلّ مفرداتها الســـلبية والإيجابية تــدعونا إلى الإيمــان بالله ، والتصــديق بآياته ، والتسـليم بالطاعة لأوامـره ، فما هو تبريرنا ونحن نكـذّب بآلائه؟! لماذا ندخل في سـجن ذواتنا أكـثر فـأكثر عند كـلّ نعمة ، بـدل أن ننطلق منها إلى آفـاق الإيمـان بربّنا وربّها عـزّ وجـل؟! إنّنا عـوض ذلك يجب أن نقـول كلّما تـذكّرنا النعمة ، وكلّما انتفعنا بها ، بل وكلّما قرأنا آية تذكّرنا بـآلاء ربّنا ، ومن بينها وأهمّها الآية الكريمة «**فَبِــأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**» ، يجب أن نقول : لا بشيء من آلائك ربّنا نكـذّب ، وذلك زيـادة في الهـدى والشـكر والفضل من الله ، ولا ريب أن هدف الإمـام الصـادق (ع) من هـذه العبـارة ليس مجــرّد الكلام ، فــالأهمّ من تصــديق اللســان بالنعمة هو تصديق القلب والجوارح ، فالذي يصدّق بآلاء الله هو الذي يؤدّي واجب الشـكر له عـزّ وجـلّ ، «ولا يعـرف النعمة إلّا الشاكر ، ولا يشكر النعمة إلّا

(1) النحل / 16 ـ 18

العـارف» كما قـال الإمـام العسـكري (ع). والشـاكر كما يقول الإمام الهادي (ع): «أسعد بالشكر منه بالنعمة الـتي أوجبت الشكر ، لأنّ النعم متـاع ، والشـكر نعم وعقـبى» [1] ، «وشكر المؤمن يظهر في عمله ، وشكر المنـافق لا يتجاوز لسانه» [2] وجاء في الصحيفة السجادية : الحمد لله الذي لو حبس عن عباده معرفة حمـده على ما أبلاهم من مننه المتتابعة ، وأسـبغ عليهم من نعمه المتظـاهرة ، لتصـرّفوا في مننه فلم يحمـدوه ، وتوسّـعوا في رزقه فلم يشكروه ، ولو كانوا كذلك لخرجوا من حدود الإنسانية إلى حـدّ البهيمية ، فكـانوا كما وصف في محكم كتابه : «**إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**» [3].

والـذي يلاحظ سـورة الـرحمن يجد آياتها تنصـبّ في منهج محـدّد ، فمقاطعها ترتكز على اسم الـرحمن الـذي جـاءت السـورة لتعرّفنا به من خلال تجلّياته في جـوانب الحيـاة المختلفة ، ومن هـذا المنطلق يـذكّرنا كـلّ مقطع فيها ببعض آلاء الله ثم يضع أمامنا التسـاؤل الـذي تكـرّر (31) مـرّة ، وهكـذا تتـوالى المقـاطع بنفس الصـيغة حـتى الأخـير. إذن فالسـورة تسـتهدف تعريفنا بربّنا ، كخطـوة أولى تنقلنا بها إلى الهـدف الأسـمى من المعرفة ألّا وهو العبادة بتمام المعنى. أترى هـذه النعم كلّها جـاءت لهـدف ودور محدّد هو مصـلحة الإنسـان ، فما هو هـدف الإنسـان نفسه ، وما هو الدور الذي يقـوم به لتحقيق ذلك الهـدف؟ إنّه معرفة الله من خلال آياته ونعمه ، والقيـام بها كما يريدها عزّ وجلّ خلال عبادته.

[14 ـ 16] وهنا يوجّه القـرآن أنظارنا وعقولنا إلى تجلّ آخر لرحمة الله متمثّلا في خلقه الإنس والجن.

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 187.
(2) بح / ج 78 ـ ص 378
(3) الدعاء الأول.

(**خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ**)

قيل أنّ الصلصال هو المنتن من الطين ، من قولهم صلّ اللحم [1] إذا تعفّن وتغيّر ، وقال عليّ ابن إبراهيم : هو «الماء المتصلّل بالطين» [2]. إذن خلق الله الإنسان من هذه المادّة الوضيعة في نظرنا (**ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ**) [3] ، ولكنّه بقدرته صيّره خلقا محكما ، فيه الأذن التي تلتقط بمثلثاتها أدقّ الأصوات وتميّز بينها ، والكبد التي تقوم بأكثر من (700) عملية ، والمخّ الذي هو أكثر الأشياء إعجازا في الإنسان ، والنخاع الذي هو امتداد لخلايا المخ ، والذي لو حاولنا استبدال سانتيمتر مربّع منه لاحتجنا إلى جهاز كمبيوتر ضخم بحجم الغرفة الكبيرة ، يستطيع أن يستوعب حسابات الدنيا كلّها!

إنّنا لا نستطيع أن نتصوّر العدم المحض حيث خلقنا الله ولم نك شيئا ، ولكنّنا قد نستطيع تصوّر المسافة الهائلة بين صلصال من طين وبين إنسان سوي لنعرف جانبا من عظمة الخلق. هذا في الجانب المادي ، أمّا إذا تجاوزناه إلي عالم الروح حيث نفخ الله في آدم من روحه فهنالك التجلّي الأعظم ، وسبحان الله أحسن الخالقين.

(**وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ**)

أي النار المختلطة فهي إذا قويت التهبت ، ودخل بعضها في بعض ، كما يتداخل ماء البحر في بعضه ، وأساس الخلق نعمة ينبغي على الجن شكرها ، فكيف وقد منّ الله عليه من القوة ما يستطيع بها نقل عرش عظيم كعرش بلقيس من اليمن حتى فلسطين قبل أن يقوم سليمان (ع) من مقامه! وإذا نظر كلّ منهما إلى أصله ،

---

(1) مفردات الراغب.

(2) نور الثقلين / ج 2 ـ ص 7

(3) السجدة / 8

وإلى نعم الله المسبغة عليه ، علم أنّه ما نال من الشرف إلّا بفضل الله تعالى ، فكيف يكذّبان بآلائه؟! [1]

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

ومن آلاء الله عليهما أن خلقهما من مادّة تتناسب مع تطلّعات ودور كـلّ منهما في الحيـاة ، فخلق الإنسـان من صلصال نتن ضـعيف ، ولكنّه قوّمه وقـوّاه بالعقل والعلم ، بحيث يسـتطيع أن يسـخّر حـتى الجن ، وخلق الجن من النـار ، وجعل تفوّقه في بعض جـوانب القـدرة والقـوّة المادية ، ولكنّ هـذا الاختلاف في الخلقة لا يعـني تمـايزا لعنصر على عنصر ، لأنّ القيمة للعمل الصـالح ، سـواء صـدر من الصلصـال أو من مـارج النـار ، ولا يعـني أنّ أحـدهما رب والآخر مربـوب حـتى يعبـده ويشـرك به ، بل هما مخلوقان وربّهما واحد وهو الله.

[17 ـ 18] وجانب آخر من الرحمة الإلهية يطالعنا كلّ يوم في حركة الشمس والأرض.

(**رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ**)

الآية الكريمة تلفت انتباهنا إلى حركة الأرض حـول الشمس والـتي تكتمل في كـلّ عـام مـرّة ، وتتسـبب في تغير الفصول الأربعة وخلالها تتبدل يوميا منـازل الشـمس بالنسبة الى الأرض شـروقا وغروبا ، فهي تشـرق في أول يوم من أول منزلة لتبلغ الأقصى في اليـوم الأخـير ، وفي المقابل تجد ذات الحركة وبـذات النسـبة غروبا ، وفي الاحتجاج للطبرسي رحمه الله ، قال أمـير المؤمـنين (ع): «وأما قوله تعالى : (الآية) فان مشرق الشتاء على حده ، ومشـرق الصـيف على حـده. أما تعـرف ذلك من غـروب الشمس وبعدها»؟ ويفصل في بيان حركة الشمس قائلا : «وأما قوله :

(1) التفسير الكبير للفخر الرازي (بتصرّف).

«**بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ**» فـان لها ثلاثة وسـتين برجا تطلع كل يوم من برج ، وتغيب في آخر ، فلا تعـود اليه إلّا من قابل في ذلك اليـوم» [1] ولا شك ان الفصـول الأربعة نعمة إلهية تدخل رقما أساسيا في تكامل الحيـاة ونموهـا. ولولاها لكـانت تنتفي الكثـير من صـفات التنـوع والتكامل عند الإنسان وفي الطبيعة والأحيـاء ومن حوله ، وقد قـال بعض العلمـاء ان أكـثر الحضـارات نشـأت في البلاد ذات الفصـول القاسـية ، فمن أجل مواجهة الحر الشـديد دأب الإنسـان على اكتشـاف وسـائل التكيّف في لباسه ومنزله والوسائل التي يسـتخدمها ، وبـذات الـروح تحـدى قسـوة الــبرد ، ولا شك أيضا ان تنــوع الفصــول يكمل الوجــود النفسي والروحي والجسـمي للإنسـان ويخـدم مصـلحته ، ويفسح المجــال أكــثر فــأكثر لتفجــير طاقاته واســتغلال الطبيعة وتسخيرها.

وتــذكرنا الآية أيضا بحركة الأرض حــول نفســها مــرة واحـدة في كل يـوم ، وما ينتج من تعـاقب الليل والنهـار ، الــذي يكمل هو الآخر مسـيرة الإنسـان ويخـدم مصـالحه وتطلعاته في الحيــاة ، فســباته بالليل ونشــاطه وســعيه بالنهـــــار ، وقوله تعـــــالى : (**رَبُّ الْمَشْـــــرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ**) لا يحتاج إلى تفصيل وبيان ، لأنه وقد تقــدم بنا العلم أصـبح الكل يعي هـذه الحقيقة وهي انقسـام الأرض الى شطرين ، فـاذا كـان النصف الأول يسـتقبل الشـمس بالشــروق فانها لا ريب تــودع الآخــرين غروبا ، والعكس صحيح ، إذا فهناك مشرقان ومغربان يتعاقبان على الكـرة الأرضية.

وكلتا الحركتين نعمة تعكس لنا اسم الرحمن ، ولكنك ترانا ونحن نعيش بكل ذرة في وجودنا محاطين بــآلاء الله نكذب بها. أفلا يحق لربنا إذا أن يكرر معاتبتنا وتذكيرنا؟!

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 190

الإنسان حينما يكون عارفا برحمانية ربه ، وانه تعـالى سخر الوجود لمصـلحته ، فانه يعيش متفـائلا ونشـيطا لأنه ســـيكون مطمئنا الى ســـعيه ، انطلاقا من إحساسه بأنه خلق ليرحم لا ليعذب ، ومن جانب آخر انه سوف يتعـايش مع الحياة من حوله تعايشا ايجابيا. يعتمد السـعي من أجل الاستفادة القصوى مما خلق من أجلـه. وهـذا لا يتحقق إلّا إذا صـدق بأنه فعلا من نعم ربه وآلائه عليه ، اما إذا كـذب بـــذلك شل ســعيه ، وخـــارت إرادته ، وقنطت نفسه من امكانية تسـخير الحيـاة ، وكم عــاش الإنســان على هــذا الكـوكب دون أن يسـعى للتعـرف على حركة الشـمس ، والاستفادة من ذلك في حياته ، وتحقيق أهدافه الشخصية والحضارية ، لأنه لا يؤمن بعلاقته بها ، أو كان يعتقد بسبب بعدها انها لا يمكن تسخيرها بل لم تخلق من أجله؟! والآن جــاء العلم الحــديث ليؤكد بأنها نعمة إلهية عظيمة ، وانما خلقت لصــالح الإنســان ، وانطلاقا من ذلك عكس حركتها على حساباته الزمنية ، ولا يزال العلماء يقومــون بمختلف الدراسات التي من شأنها تسخير الشـمس الى أقصى حد ممكن في خدمة الأهداف والتطلعات الحضارية للبشر.

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ (19) بَيْنَهُما بَـرْزَخٌ لا يَبْغِيـانِ (
20) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (21) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ
وَالْمَرْجـانُ (22) فَبِـأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَـذِّبانِ (23) وَلَـهُ
الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (24) فَبِـأَيِّ آلاءِ
رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (25) كُـلُّ مَنْ عَلَيْها فـانٍ (26) وَيَبْقى
وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْـرامِ (27) فَبِـأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما
تُكَذِّبانِ (28) يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ كُـلَّ
يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29) فَبِأَيِّ

---

19 [مرج] : خلط.

20 [برزخ] : حاجز.

24 [الجـــوار المنشـــئات] : جمع جارية أي الســـفينة ، والمنشـــئات المرفوعـات ، وهي الـتي رفع خشـبها بعضـها على بعض ، وركّب حـتى ارتفعت وطالت.

[كالأعلام] : جمع علم وهو الجبل العالي.

آلاءِ رَبِّكُما تُكَـــذِّبانِ (30) سَـــنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ (
31) فَبِــأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَـذِّبانِ (32) يا مَعْشَــرَ الْجِنِّ
وَالْإِنْسِ إِنِ اسْـــــتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُــــذُوا مِنْ أَقْطـــــارِ
السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطانٍ (
33) فَبِــأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَــذِّبانِ (34) يُرْسَــلُ عَلَيْكُما
شُواظٌ مِنْ نارٍ وَنُحاسٌ فَلا تَنْتَصِـرانِ (35) فَبِـأَيِّ آلاءِ
رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (36)

---

31 [الثقلان] : أصـله من الثقل ، وكـلّ شـيء له وزن وقـدر فهو ثقل ، وإنّما سمّيت الإنس والجن ثقلين لعظم خطرهما وجلالة شأنهما.

33 [أقطار] : جمع القطر ، وهو الناحية والجانب.

35 [شواظ] : اللهب الخالص أو القطع النارية المتطايرة

كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ

هدى من الآيات :

«**لا بشيء من آلائك ربّ أكذّب**» إنّها العبـارة الـتي ينبغي أن نكرّرها كلّما تسـاءل السـياق القـرآني «**فَبِـأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَـــذِّبانِ**» ، ولكن هل يكفي أن نكـــرّر ذلك كشـــعار دون معرفة وتطـــبيق؟ كلّا .. فما ذا يعـــني إذا التكذيب بآلاء الله ، وكيف نصدّق بها؟

هنـاك فريقـان من النـاس يكـذبون بـآلاء اللـه. الاول الذين لا يعتقدون بالنعمة ، لأنهم ينظـرون الى الحيـاة من خلال رؤية مشـؤومة ، ونفسـية معقـدة فـاذا بكل شـيء عندهم نقمة ، (**وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلـرَّحْمنِ قـالُوا وَمَا الـرَّحْمنُ أَنَسْـجُدُ لِما تَأْمُرُنا وَزادَهُمْ نُفُـوراً**) [1] والفريق الآخر هم الـــذين يعـــترفون بالنعمة ، ولكنهم ينكرون عمليا انها من الله فـتراهم يتوجهـون بالشـكر الى غـــيره ومن آياته الليل والنهـــار والشـــمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الـذي خلقهن ان كنتم

---
(1) الفرقان / 60.

(**إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**) [1] وهـذا نـوع من التكـذيب أيضا فالـذي لا يؤمن بـرب النعمة أو يشـرك به لا يشـكره عليها ، ومن لا يشــكر النعمة لا يعمل على ضــمان اســتمرارها ونموّها ، والاســـتفادة منها في مواردها الســـليمة ، أليس ذلك كله مرهـون بالشـكر على وجهه الصـحيح؟ جهـاز الهضم عند الإنسان مثلا (الفم ، المريء ، المعدة ، الأمعـاء) ينبغي أن نســتفيد من هـــذه النعمة ، فالـــذي يعلم بأنها من الله ، سـوف يبحث عن برنـامج الرسـالة في الاكل والشـرب ، نـوع الطعـام والشـراب المطلـوب ، ومقـداره ، وطريقة اسـتهلاكه (آداب الاكل والشـرب) أما الآخر المكـذب بالله فلن يلـتزم بحد في ذلك ، سيسـرف فيهما ولن يمتنع عما يضرّه كالخمر ولحم الخنزير ، وهذا نوع من التكـذيب أيضا ، وكـذلك يكـذب بالنعمة الـذي يسـتخدم الـثروة من أجل استغلال الآخرين واسـتبدادهم ، والإسـراف والتبـذير على النفس ، كما ان الـــذي يتخذ الســـلطة وســـيلة للقهر والاستعلاء هو الآخر يكذب بآلاء ربه.

والذي لا يستخدم النعمة في الخير لنفسه وللبشرية ، وبالتالي لا يعمل على ضمان استمرارها باستمرار عواملها ، فانه ليس فقط يحـــــرم من نموها ، بل ويجعلها عرضة للـزوال (**وَإِذْ تَـأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَـكَرْتُمْ لَأَزِيـدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَـرْتُمْ إِنَّ عَــذابِي لَشَـدِيدٌ**) [2] إذا فتطـبيق قولنا «لا بشيء من آلائك ربِّ أكـذب» يكـون بـالتزام شـكر النعمة دائما ، وذلك يعــني أن نعــترف بأنها نعمة فعلا ، وثانيا أن نعرف بأنها من الله فنشـكره قـولا ، ونطبق منهجه عملا ، وهذا هو التصديق بآلاء الله.

بينات من الآيات :

[19 ـ 21] ومن حركة الشـروق والغـروب في آفـاق السـماء ، يأخـذنا القـرآن الى ميـاه البحـار الـتي تلتقي مختلفة مع بعضها دون أن تبغي أو تطغى.

(1) فصّلت / 37
(2) إبراهيم / 7.

(**مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ* بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ**)

وفي الآية إشارة الى عدة ظواهر طبيعية ، الاولى التقاء مياه البحار المالحة بالمياه الاخرى العذبة ، كمياه الشط والأنهار ، فانها وان كانت تلتقي مع بعضها ولكنها تبقى على طبيعتها لا تتغير لفترة من الوقت. وصورة أخرى من حكمة الربّ انه جعل الأنهار في كل العالم مرتفعة عن البحار ، قال تعالى : (**وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً**) [1] والظاهرة الثانية هي التقاء البحار حتى المالحة مع بعضها. إن ثلاثة أرباع كوكبنا يتكون من ماء البحار والمحيطات ، وهي متصلة مع بعضها ، والأرض في حركة دائمة حول نفسها وحول الشمس إلّا ان منسوب المياه فيها كلها يبقى ثابتا ، ولم نجد يوما انها انسكبت في بحر واحد ليطغى ماؤه مثلا.

وحينما نبحث في الطبيعة من حولنا نجد شواهد أخرى لهذه الآية الكريمة ، فان شطري البيضة (الصفار والبياض) مهما رجرجتها لا يمتزجان ، وكذلك بحار النور والظلمة في حركة الليل والنهار فإنهما يتحركان حركة ذاتية وبينهما نقطة التقاء دائمة ولكنهما لا يختلطان (**يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ**) [2] وحينما نعود من رحلة التفكر في الآفاق الى شوط آخر من التفكر في أنفسنا نجد مظهرا لهذه الحقيقة في حياة الإنسان ، حيث يلتقي ماء الرجل بماء المرأة ويكونان النطفة التي تنمو حتى تصير خلقا سويا ذكرا أو أنثى ، وتظل خصائص المرأة وخصائص الرجل هي هي لا تتغير ، بل ان المياه العذبة التي نستخرجها من باطن الأرض لشربنا تلتقي أحواضها مع مياه البحر التي تتشبع بها الأرض حتى الأعماق ولكن «**هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ**» [3] وفي الواقع

---

(1) الفرقان / 53

(2) فاطر / 13

(3) المصدر

الاجتماعي يلتقي المؤمنون بالكافرين وتبقى بينهما الفواصل.

اما البرزخ الذي يقف حائلا بين البحرين فقد يكون جسما ماديا كاليابسة تفصل بين بحر وآخر ، ولو طغت البحار عليها لانعدمت حياة الإنسان فوقها ، أو الغشاء الذي يمنع صفار البيض من الاختلاط ببياضها لو كانا يختلطان لما صلحت البيضة ان تكون فرخا ولانقرضت الطيور بأنواعها. وقد يكون البرزخ هو السنن والقوانين الطبيعية كالجاذبية والكثافة والخصائص المختلفة للخليطين ، وقد يكون القيم والثقافة التي يؤمن بها كلا التجمعين الكافر والمؤمن ، وكلها لا شك من صنع الله ، ومظهر لهيمنته على الحياة ، ورحمته بالإنسان إذ جعل التنوع والحدود قائمين في ذات الوقت ، أليس ذلك يدل على حسن النظم ، ودقة التدبير ، ومتانة الصنع ، وعزة الخالق وحكمته؟

وحينما ندقق النظر ونركز الفكر في هاتين الآيتين نجدهما بكل كلمة وردت فيهما تعبير عن رحمة الله وإشارة إليها ، أترى لو طغت البحار على اليابسة أو على بعضها وانعدمت الفوارق هل ذلك في صلاح الإنسان؟ كلا .. ثم ان القرآن يقول «**مَرَجَ**» وهو الحركة الذاتية في كلا البحرين بفعل التموجات كما يقول «**يَلْتَقِيانِ**» إشارة الى الحركة الثنائية ، وهما معا رحمة إلهية ظاهرة ، فلو جعل الله البحار راكدة لأسن ماؤها وتعفن وبالتالي استحال عيش الأسماك والكثير من الأحياء الاخرى فيها ، وما كان الإنسان يستخرج منها حلية ولا لحما طريا. ثم انه جعل البحار متصلة تلتقي ببعضها ليسهل على الأحياء البحرية الانتقال مهاجرة عبرها ، ويسهل السفر الى أكثر نقاط العالم. ولو لم تكن الأنهار ـ وبالذات الكبيرة منها ـ تلتقي بالبحار لتصب فيها فائض مياهها لكانت تطغى وتهلك الحرث والنسل.

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

[22] ويـذكرنا السـياق بنعمة الزينة الـتي أودعها الله في البحار ، وهي من الحاجـات الكمالية لا الأساسـية عند الإنسان ، انسـجاما مع سـياق السـورة الـذي يهـدف بيـان تجليات رحمة الله (اسم الرحمن) في الحيـاة ، لأن الزينة أقصى النعمة وأرفعها.

(**يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ**)

إن الله لم يودع في البحار حاجاتنا الضـرورية وحسب ، بل الكمالية أيضا ، (**وَهُـوَ الَّذِي سَـخَّرَ الْبَحْـرَ لِتَـأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا ، وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْـهُ حِلْيَـةً تَلْبَسُـونَها ، وَتَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُـوا مِنْ فَضْـلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**) [1] والقرآن بهذه الآية من سـورة الـرحمن يفند المـزاعم القديمة بـأن الأنهـار لا تـربي اللؤلؤ والمرجـان ، وقد جـاء العلم الحـديث فـأثبت خلاف ذلك ، وهكـذا يبقى كتاب الله سابقا للحضارة.

ولعل الآية تشـير إلى إباحة اسـتخراج الزينة والتحلي بها أو لم يقل ربنا سـبحانه : «**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّبـاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا** ..» كما قـال «**خُـذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ**».

[23 ـ 25] تلك كانت مظهر من آلاء الله الـتي تتجلّى للإنسـان كلما ركب البحر ، وكلما غـاص في أعماقه ، وهكـذا كلما دار البصر في آفـاق الخليقة ونظر الى الشمس والقمر والنجوم والأرض والبحار والأنهار ، ثم غار في أعماق النفس وما فيها من أبعاد وآماد ، كلّما وجد آلاء ربه تنهمر عليه من كل حدب وصـوب أو لا تكفيه دليلا الى ربه ، وهاديا الى معرفته ، وباعثا له الى شـكره؟ لكنك ترى أكثر الناس يكذبون بالنعم ويقصـرون في الشـكر بل يشـكرون أبـدا ، وحـتى أولئك الـذين يقضـون سـحابة أعمـارهم في خـوض لجج العلم أو متابعة قـوانين الطبيعة عبر البحوث

---

(1) الكهف / 107

الميدانية والاكتشـــافات الجديـــدة ، لا ينطلقـــون من اكتشـــافاتهم الى خلفياتها ، حيث الايمـــان بـــرب العـــزة والرحمة ، بل تراهم ينظـرون الى الحيـاة نظـرة سـطحية فلا يزدادون إلّا ضلالا وتكذيبا بالحق ، انهم يقفون عند ذلك الحد ويظنـون انها الـتي تحـرك الحيـاة ولا يتسـاءلون من الـــذي وضع القـــوانين والانظمة والسـنن؟! ومن الـــذي يسـيرها ويهيمن عليهـا؟! بلى. ان العلم الـذي لا يتأسس بالايمان والمعرفة بالله ، قد يضر الإنسان أكـثر مما ينفعه ، لأنه قد يصبح وسيلة للكفر والتكذيب بالرب وإرادته.

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

ومن آلائه السفن التي تحملنا الى الأقطـار المتباعـدة في أسـفارنا وتجارتنا ومظـان الصـيد ، أتـرى لولاها هل استطعنا أن نركب البحر. أو وصلت أيدينا الى كنوزه لحما وزينـة؟ كلا .. ولهـذا كـان من البديهة في هـذه السـورة الرحمانية أن يحـدثنا القـرآن عن السـفينة فـور حديثه عن البحر.

(**وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ**)

والجري هو المشي السريع ولا يقال للسـفينة سـارت ، قال تعالى : (**وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ**) [1].

والمنشـــآت من الإنشـــاء والصـــناعة ، وشـــبهها الله بالأعلام (الجبال) لارتفاعها كالعلم في البحر. وهذا المعنى يكون أكثر ظهورا في السفن الشراعية.

والســـؤال لمـــاذا لم يقل ربنا عند حديثه عن النعم الاخرى كالشمس والقمر ، والنجم والشـجر انها له ، بينما قال هنا «**وَلَهُ الْجَوارِ**»؟ والجواب لأن الإنسان لا يستطيع أن يدعى ملكية تلك النعم ، ولم تصل يده إليها في شـيء ، ولكنه قد يظن

---

(1) هود / 42

بأنه مالك السـفينة وخالقها ، لأنه الـذي خطط لصـناعتها ونشر ألواحها وجمعها الى بعضها بالدسر والمسـامير فهنا يحتاج الى من يذكره ان صانع السفينة بذاته مخلوق الرب ، وانه لم ينشـــئها إلّا بحوله وقوته وبما أودع الله فيه من عقل ، وحكمة ، وأعطـــاه من علم ومعرفة ، وهيأ له من فـرص العمل .. فالسـفينة لله ، وهو الـذي يجريها بقدرته في البحـار. والبحـارة يعرفـون كم هي الاخطـار العظيمة التي تحيط بهم ، وهم يعتركون الأمواج الهادرة في أعالي البحار.

ثم ان ربنا هو الذي علّم نبيه نوحا (ع) صناعة السـفن وهو بـدوره علمها للبشـرية ، كما علم عبـاده الكثـير من الشؤون والأمور عـبر أنبيائه ورسـله كـالميزان ، وقد روى الطبرسي في جوامع الجـــامع : «ان جبرئيل (ع) نـــزل بالميزان فدفعه الى نـوح وقـال : مر قومك يزنـوا بـه» [1] والسـفينة الى الآن أفضل وسـائل للنقل الـتي اكتشـفها البشر ، فهي إذا نعمة إلهية ، والقرآن يطـرح بعد التـذكرة بها هذا السؤال :

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

أو يكفي العقل دليلا على ضــرورة شــكر من أســبغ علينا هـذه النعم الجسـيمة؟ بلى. ولكن ربنا الـرحمن يزيد بلطفه على هـدى العقل التـذكرة بـالوحي بـالرغم من أنّ العقل حجته علينا بالغة ، بل يبصـــــــرنا بنعمه من خلال الـوحي ويسـتثير عقولنا ويشد أسـرها في مواجهة هـوى النفس وطباعها ، فلا يقـول أحد وقد كـذب بـآلاء الله انها مجهولة لديـه. وبعد هـذا البيـان والتأكيد لن يكـون قصـور الإنسان عن الشكر ، ومعرفته ربه ، بغفلة وقد سـبق اليه منه الــذكر بفضــله ، ولا بجهل وقد تقــدم منه إليه العلم برحمته.

[26 ـ 28] وبعد مخاطبة العقل بلغة الحقـائق العلمية التي يراها البشر بعينه

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 250

فتنفذ الى ضميره يخاطب الوحي وجدان الإنسان مباشرة ، ويهـزه بـأعظم الحقـائق وطـأة في نفسـه. إنها حقيقة المـوت والفنـاء الـتي يحـاول دائما الفـرار منها ، فيعطي ماله أو يضحي بأعز النـاس اليه وأقـربهم منه لعله يفتـدي نفسه منه أو يؤخره عنها ولو لسنة اضافية أو حـتى بضـعة أيام. وكما فناء الإنسان كذلك فناء الأشـياء من حوله دليل وحدانية الله وربنا يـذكرنا بـذلك كـأعظم آية تهـدينا الى معرفته وتوحيده.

بلى. لقد دعانا الله الى النظر في ظـــواهر الطبيعة ، والتفكر فيها ، ولكن من دون الانبهار بها ، لأنها مجـرد نعم وآيات يجب ان نؤدّي شكرها ونهتـدي بها الى دلالاتهـا. إنها محدثه فلا بد لها من خـالق ، وهي تفـنى أو تمـوت فهي ليست إلها ، لان الإله لا يموت.

(**كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ**)

اي كل ما في الأرض بكله لا بعضه ، ولكن الله لا يقـول ميت ، لأنّ المـوت يجـري في الأحيـاء فقط ، بل يقـول فـان ، لأن الفنـاء يشـمل كل شـيء مخلـوق. وفي دعـاء إدريس النـبي (ع) : «**يا بـديع البـدائع ، ومعيـدها بعد فنائها بعد فنائها بقدرته**» [1].

(**وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ**)

فما هو وجه الله الذي يبقى بينما يفنى كل شيء؟ إن الألفـــاظ تفقد ظواهرها التجســـيدية لتبقى حقائقها عند الحـديث عن ربنا القـدوس سـبحانه فليست يـده سـوى قدرته ، وعينه إلا احاطته علما وشـهادته على كل شـيء وهكذا وجهه ، فانه ما يتجلى به في الخليقة ، حـتى يعرفه بها من اراده ، ويـرى نـوره من خلالها من أحبه ، أو لسـنا نحن البشر نـــرى نظراءنا من خلال أوجههم الظـــاهرة ، وتعالى الله عن الأمثال ،

(1) المصدر / ص 193

كــذلك الوجه الظــاهر لربنا دينه المشــتمل على ســنته وشرائعه والحقائق التي تدل عليه ، كذلك قال الامام أمير المؤمــنين (ع) : «وأما قوله : «**كُــلُّ شَــيْءٍ هالِــكٌ إِلَّا وَجْهَــهُ**» ، فــالمراد كل شــيء هالك إلّا دينه ، لأن من المحــال أن يهلك الله كل شــيء ويبقى الوجه ، هو أجل وأعظم من ذلك ، وإنما يهلك من ليس منه ألا تــــرى انه قال : (**كُلُّ مَنْ عَلَيْها فـانٍ* وَيَبْقى وَجْـهُ رَبِّكَ**) ففصل بين خلقه ووجهه» [1].

ويتجلى الــدين بــدوره فيمن يمثله كالأنبيــاء والأئمة الهـداة الى الله وهكـذا يفسّـر الامـام الرضا عليه السـلام الوجه حينما يسأله أبو الصـلت قـال : يا ابن رسـول اللـه! فما معنى الخبر الـذي رووه أن ثـواب لا إله إلا الله النظر الى وجه الله تعالى؟! فقال : «**يا أبا الصـلت من وصف الله عـزّ وجـلّ بوجه كـالوجوه فقد كفر ، ولكن وجه الله أنبياؤه وحججه صـلوات الله عليهم ، الـذين بهم يتوجه الى الله عزّ وجلّ والى دينه ومعرفته**» [2].

وقال الصادق (ع) : «**نحن وجه الله**» [3].

إذا وجه الله هو الحق المتمثل في ســنته وشــرائعه ودينه وأوليائه ، ويفــنى كل شــيء دونها ، فعلينا التمسك بها دون أن تـؤثر فينا المتغـيرات فـاذا كـان أحـدنا يعمل الصـالحات فليعملها لوجهه ، إذا كـان يبحث عن الجـزاء ، أترى لو عمل صالحا رياء أو شركا هل ينفعه شيء؟

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

فلا يمكن مع آية الفنــــاء أن يــــدعي أحد الألوهية أو تدعى له ، أو يدعي بأنه جاهل

---

(1) المصدر / ص 192 نقلا عن الاحتجاج.
(2) المصدر
(3) المصدر

بربه ، وإذا كـان لا بد له من ذلك فليـدفع أولا المـوت عن نفسه ، أو يدفعه الآخرون عنه.

[29 ـ 30] ثم يـذكرنا القـرآن بصـفة أخـرى لربنا عـزّ وجــلّ تجعلنا أكــثر طاعة له وتبتلا إليه ، وتلك هي صـــفة البداء التي تعني الهيمنة الشاملة والدائمة له على الوجود ، فليس الكــون شـعلة أبدية كـانت ولا تــزال كما تــدعي الماركســية الضــالة. إن الطبيعة ليست هي الــتي تميت وتحيي ، والسنن والأنظمة والقوانين ليست بـذلك الثبـات المطلق ، إنما الـــذي يتصـــرف في الخلق هو الله ، وكل شيء يستمد ثباته واستقراره منه ، فهو يغـيره مـتى شـاء وكيف أراد. ولو أننا أمعنا النظر في الحيــاة لوجــدنا هــذه الحقيقة بوضوح فإلى جانب الثـوابت هنـاك متغـيرات غـير معروفة عند الإنسان. الدكتور يقـدم وصـفته للمـريض بعد الفحص ، ولكنه يعترف بأنه لا يعـرف كل الأمـراض (100 خ) ولا يعطي ضـمانة للعلاج مائة بالمئة لمـاذا؟ لانّ هنـاك هامشا مجهـولا في المـرض والعلاج ، فـالامراض تتـداخل اعراضها ، كما انه قد لا يستقبل الجسم الدواء ، لذا يقول هـذا مرضك حسب الظـاهر ، وهـذا دواؤك إن شـاء اللـه. ومن الطب الى كل جانب وميدان في الحيـاة هنـاك دائما فراغ في القـوانين الطبيعية لا يقـدر علم الإنسـان وقدرته أن تملأه إنما هو خــاص بمشــيئة الله ســبحانه. من هنا لا يثق أحد كل الثقة بما أوتي من علم وقـــوة ، بل يظل في ريب من أن المستقبل قد يحمل إليه ما لم يحتسـبه. بلى. لقد علمته تجـارب لا تحصى انه ليس مليك الكائنـات ، بل ولا يملك نفسه ، فكم قد خطط لمســـــــــتقبله فقلبت المتغيرات خططه ، وكم قد عقد عـزائم قلبه على شــيء ففسـخت المفاجئـات عزائمـه. وهكـذا ينطـوي ضـمير كل إنســان بــأن يد الغيب تهيمن على الخليقة لا يــده ، ويمثل هــذا حجة بالغة تهــدينا الى ربنا ســبحانه. وصــدق أمــير المؤمنين (ع) حيث قال : «**عـرفت الله سـبحانه بفسخ العزائم وحل العقود ، ونقض الهمم**» [1].

(1) نهج / حكمة 250

الامريكيـون يصـنعون ما أسـموه (بالتحـدي) الكـوكب الفضائي (تشـالنجر) ، ويصـرفون عليه مئـات الملايين من الـــدولارات ، صـــناعة ودعاية ، وقبل إطلاقه يقومـــون بالحســـابات الدقيقة عـــبر العقـــول الألكترونية ، وإذا به ينفجر في الفضاء ويتحول تحـديا مضـادا ، ونكسة لا زالت آثارها قائمة في نفوسـهم وحـيرة في عقـولهم ، وكـذلك تتجلى الارادة الالهية المطلقة في عمليـــاتهم العســـكرية ضد الإسلام في صحراء طبس.

(**يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

لأنه وحده الإله والقادر على قضـاء حـوائجهم وتحقيق طموحـاتهم. والسـؤال ليس مقتصـرا على الانس والجن والملائكة ، بل يشمل كل الخلق العاقل والبهيم ، والجامد والمتحـــرك ، لأنه ما من شـــيء إلا ويفتقر الى الله ، وما من شـــيء إلا وله لغة مع الله (**تُسَـــبِّحُ لَــهُ السَّــماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَـبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كانَ حَلِيمـاً غَفُوراً**) [1] وليس من طريق للإنســان لكي يبلغ طموحاته بفضل الله ، ويرفع عن نفسه كل عقبة وأذى بتوفيقه ، قبل العمل وبعده إلا الدعاء ، قال تعالى : (**قُلْ ما يَعْبَـــؤُا بِكُمْ رَبِّي لَــوْ لا دُعــاؤُكُمْ**) [2] (**وَقــالَ رَبُّكُمُ ادْعُــونِي أَسْــــتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْــــتَكْبِرُونَ عَنْ عِبــــادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ**) [3] وقال أمير المؤمـنين (ع) : «**من قرع بـاب الله سـبحانه فتح له**» [4] وقـال الامـام الصـــادق (ع) : «**أكـــثر من الـــدعاء ، فانه مفتـــاح كل رحمة ، ونجـــاح كل حاجة ، ولا ينـــال ما عند الله إلّا بالدعاء ، وليس باب يكـــثر قرعه إلا ويوشك ان يفتح لصاحبه**» [5]. ولكن ينبغي للعبد أن يرعى آداب الدعاء و

---

(1) الإسراء
(2) الفرقان / 77
(3) غافر / 60
(4) غرر الحكم
(5) بح / ج 93 ص 295

«**كل دعاء لا يكون قبله تمجيد فهو أبتر**» [1] ، وقال الرسول (ص) : «صلاتكم علي إجابة لدعائكم وزكاة لأعمالكم» [2] «ولا يزال الدعاء محجوبا حتى يصلى على محمد وآل محمد» [3] وقال الصادق (ع) : «إنما هي المدحة ، ثم الإقرار بالذنب ثم المسألة» [4] والخلق كله في وجوده وتوفيقاته يحتاج الى السؤال من الله لحظة بلحظة ، وحيث لا يستطيع العبد أن يعرف ربّه ولا يتصل به مباشرة لذلك جعل أسماءه ، وعرفنا عليها رحمة بنا ، فنحن نسأله بأسمائه وفي الدعاء : «أسألك باسمك الذي أشرقت به السماوات والأرض ، وصلح به أمر الأولين والآخرين».

بلى. قد يضل الإنسان ويكفر بالله فلا يسأله أو يدعوه بلسانه ، ومع ذلك فانه لا يستطيع أن ينكر ربه في نفسه ، بل ويظهر فيه الاعتراف به تعالى ، والاستكانة والحاجة ساعة الضيق والجرح ، (**وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**) [5].

لقد تسربت بعض الفلسفات الجاهلية القديمة الى الأديان فزعموا ان السؤال لا ينفع شيئا ، وحكى الله عنهم ذلك في كتابه إذ قال : (**وَقالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِما قالُوا بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ**) [6] وهكذا تسربت هذه الفلسفة الموغلة في الضلال الى أذهان البعض من المسلمين تحت عناوين مختلفة ، كالجبرية والقدرية ، فاعتقدوا ان الله كتب أقدار الخلق ، وأنه لا

(1) المصدر / ص 321
(2) بح / ج 94 ص 54
(3) بح / ج 93 ص 311
(4) المصدر / ص 381
(5) لقمان / 32
(6) المائدة / 64

يقع إلا ما كتب عليهم ، وقد جف القلم وطــوي الكتــاب ، وانطلاقا من هـذه النظـرة السـلبية أنكـروا أثر الاسـتغفار والـدعاء. وكم تقف هـذه الفلسـفة حجابا بين العبد وربه ، أتراه سـوف ينطلق نحـوه ، أو يسـأله حوائجه ، أو يتوسل اليه وقد غل يديه ولسانه وقلبه بالقنوط واليـأس؟ ولمـاذا يتعب نفسه بالسؤال من رب لا إرادة عنده؟ فالأقـدار هي هي لا تتغير ، وما عسى أن يكـون ينفع الـدعاء إذا؟ وبهـذا نعـرف الفـرق الكبـير بين المعـارف الالهية والفلسـفات البشـرية ، فبينما تـزرع الفلسـفات البشـرية اليـأس في نفس الإنســان ، وتقل فاعلياته وتجمد طاقته بالحتميــات التي تزعم انها تحيط بالقدرة البشرية كما جـران السـجن بـالمجرم ، نجد النهج الالهي الحـنيف يفتح آفـاق الرجـاء أمامه ، ويعطيه الثقة بربه القـــادر على إنجـــاح طلباته ، وتغيــير المعــادلات والواقع الى صــالحه ، ويفند الأفكــار الجبرية والقدرية بفكرة الدعاء الذي ينطلق من العبد الى ربه (السؤال) وانه فوق الحتميات والأقدار وفوق القضاء ، قال الامـام البـاقر (ع) يخـاطب زرارة (ر ض) : «ألا أدلك على شـيء لم يسـتثن فيه رسـول الله (ص)؟ قلت : بلى قال : الدعاء يرد القضاء وقد أبرم إبراما» [1] وضم أصابعه وقال الامام الكاظم (ع) : «**عليكم بالدعاء فـان الـدعاء لله والطلب الى الله يـــرد البلاء وقد قـــدره وقضي ولم يبق إلا إمضاءه ، فاذا دعي الله عزّ وجلّ وسـئل صرف البلاء صرفه**» [2].

ولعل الآية التالية تــدل على صــفة البــداء الــتي هي مفتــاح بصــيرة الــدعاء فلو لا ان الله قــادر على تغيــير الخليقة ودفع البلاء ورفع القضـــاء إذا لم يبق أثر للـــدعاء ومن لا يعتقد بالبداء ولا يؤمن بسـلطة الله المطلقة الـتي لا يقيدها أي شيء مما سواه ، ومن نفسه سـبحانه فانه لا يعتقد بإلاهية ، كيف وانه يجعله تعـالى أقل قـدرا وقــدرة حتى من الملـوك إذ تجـرد عنه أهم صـفاته وهي السـلطة (**ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌ**

(1) أصول الكافي / ج 2 ص 469
(2) بح / ج 93 ص 295

(عَزِيزٌ) [1] سبحانه وتعالى عما يصفون علوا كبيرا.

(كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)

قال النبي (ص) : «**من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ، ويرفع قوما ويضع آخرين**» [2].

وقال علي بن إبراهيم (ر ض) : «يحي ويميت ، ويرزق ويزيد وينقص» [3] فلا ثبات بعد الدعاء واستجابة الله ، أو بعد بدائه عزّ وجلّ ، حتى في ليلة القدر التي تكتب فيها أقدار الخلائق الى مثلها من قابل فانّ الكتاب ليس أبديا إذ اشترط ربنا لنفسه البداء فيما كتب سبحانه فيها ـ كما جاء في الحديث ـ وكما قال ربنا سبحانه (يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ) [4].

ولعلنا نفهم من هذه الآية ان الله يخلق كل يوم خلقا جديدا لا نعلمه ، ونجد إشارة الى هذه الحقيقة في قول أمير المؤمنين (ع) : «**الحمد لله الذي لا يموت ولا تنقضي عجائبه ، لأنه كل يوم هو في شأن من إحداث بديع لم يكن**» [5].

وقد أشارت البحوث الفضائية الى وجود أدلة على ان هناك حالة تكون لمجرات جديدة في أعماق الفضاء الرحيب. إذا فلندع اليأس ولنطلق العنان لطموحاتنا تصل الى أقصاها انطلاقا من توكلنا على رب واسع الرحمة مطلق الارادة يجيب المضطر إذا دعاه وهو منتهى الآمال ، ثم نسعى لتحقيقها نستمد منه العون والتوفيق ، ونسأله الاجابة. لا ندع سقفا ولا حدا لطموحاتنا ، فهذا نبينا الأكرم (ص) وهو أعلم الخلق

---

(1) الحج / 74
(2) مجمع البيان / ج 9 ص 10
(3) نور الثقلين / ج 5 ص 193
(4) الرعد / 39
(5) نور الثقلين / ج 5 ص 193

يدعو ربه (**زِدْنِي عِلْماً**) [1] وهو أرفع الناس درجة وأقربهم منزلة الى الله ، ولكن الوحي يأمره بان يتطلع الى المزيد من الشأن والرفعة (**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً**) [2] ويأمرنا بأن نصلي عليه في كل شارق وغارب حتى يزيده الله من فضله فنقول اللهم آت محمدا أفضل ما سأل وأفضل ما سئل له وأفضل ما أنت مسئول له الى يوم القيامة لماذا؟ لان نعمة الله لا تنتهي ، وهكذا لا بد أن يكون طموح المخلوق. وإنها دعوة الى التفكير في طموح أكبر ، والعروج الى منزلة أرفع عند الله. ومن وصايا الامام علي (ع) لابنه الحسن (ع) : «اعلم ان الذي بيده خزائن ملكوت الدنيا والآخرة قد أذن لدعائك ، وتكفل لإجابتك وأمرك أن تسأله فيعطيك ، وهو رحيم كريم لم يجعل بينك وبينه من يحجبك عنه ، ولم يلجئك الى من يشفع لك اليه ، .. ثم جعل في يدك مفاتيح خزائنه بما أذن فيه من مسألته ، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب خزائنه» [3] والذي أعطي السؤال لا يحرم الاجابة ، فالسؤال والبداء مظهران جليان لاسم الرحمن ، ونعمتان عظيمتان للخلق من الله.

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

إنها من الظهور والكثرة بما لا يمكن إنكارها ، ولكن الخلق يكذبون ، ومن أبرز عوامل التكذيب لدى البشر الشرك بالله ، فاذا به يعبد البقر لأنها تدر عليه الحليب ، ويعبد النار لأنها تدفئه وينتفع بها في الطهي ، بينما الله هو ربه وربهما ، واليه ينبغي الاعتراف بالفضل ، وصرف الشكر. والسؤال كيف يكذب الإنسان بنعمتي الدعاء ، والبداء؟ إن ذلك يكون حينما ينكر حقيقة البداء ، أو نعمة الدعاء فيحرم نفسه من معطياتهما.

---

(1) طه / 114

(2) الإسراء / 79

(3) نهج / كتاب 31

[31 ـ 32] وإذا ما كــذب المخلــوق بنعم الله وآياته (آلائه) فانه سـيعرض نفسه لسـخط الله وعذابه ، بالـذات عند ما يحين موعد الحساب.

(**سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ**)

يعـني الانس والجن. ذهب المفسـرون مـذاهب شـتى عند بيان معنى الفراغ ، بيد ان إبهام المعنى يتضح جليا إذا عرفنا منهج القرآن فيما يتصل بأفعـال ربنا القـدوس حيث تؤخذ الغايات وتترك المبـادئ ، وترمز الكلمـات الى نتـائج المعاني ونهايات الحقــائق .. لا الى كيفية وقوعها وطريقة تحققها ، فمثلا إذا قال ربنا سبحانه «**وَجـاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَـكُ صَفًّا صَفًّا**» فان غاية المجيء وهو الحضور والشـهادة قد تحققت اما الكيفية التي نعرفها من مجيء البشر بالانتقال من مكان لمكـان ، فانها لا تتصـور في الله الـذي وسـعت رحمته كل شيء ، وهو الشاهد على كل شيء ، كـذلك إذا قال سبحانه : «**رَضِيَ اللـهُ عَنْهُمْ وَرَضُـوا عَنْـهُ**» ، فـان نتيجة الرضا تتحقق ، وهي الرحمة والعطــاء لا ما يحــدث عندنا من مقدماته كالانفعال الايجابي في النفس ، وهكـذا الغضب الالهي معنـاه ما ينتهي إليه الغضب من الانتقـام لا مقدماته ومبادئه من جيشان الدم وتوتر الأعصــاب ، ومثل ذلك الحب والعطف والحنان والكـره والبغض و.. و.. فربنا السـبحان متعـال عن الكيف والأين والتحـول و.. و.. وفي الآية لا يعني سنفرغ لكم ان ربنا كان مشغولا عنهم بحيث لم يتسع لهم وقته ، ولم تحتمل قدرته بما عنــــــده من الشـؤون كلّا .. سـبحانه لا يشـغله شـأن عن شـأن ، إنما الغاية من الفـراغ تمـام التـدبير والقـدرة والجـزاء ، ومنه قولنا تفـــــــرغ فلان للعمل اي انصب عليه بكامل قدرته ووعيه وإرادته ، والآية تشـــــير الى ان الله أعطى الثقلين حرية نسبية في الـدنيا ، أما في الآخـرة فـالأمر لله وحـده (**يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ**) [1].

---
(1) غافر / 16

ولك أن تتصور شيئا من الرهبة التي تحملها إلينا كلمة سنفرغ ، إذا علمت انه تهديد من رب العزة والقدرة المطلقة ، الى مخلوق ضعيف محدود كالإنسان الذي تؤلمه البقة وتقتله الشرقة وتنتنه العرقة ، كما يصفه الامام علي بن أبي طالب عليه السلام ، ويكفي هذا الوعيد العاقل الذي يلقي سمعه شهيدا أن يتورع عن التكذيب بآيات ربه ونعمه ، لأن ذلك مما يوجب عذابه ، وإن الله يوم القيامة يوقف عباده للسؤال عن النعيم (**ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**) [1] (**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ**) [2].

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

ومن صور التكذيب بذل النعمة في غير موقعها ، أو أخذها من الحرام ، والاستعانة بها في مخالفة الحق ، كالعين ينظر بها الى أعراض الناس ، والأذن يستمع بها الغيبة والنميمة والغناء واللغو ، والرجل يمشي بها الى المعصية ، قال رسول الله (ص) : «**لا يجاوز قدما عبد حتى يسأل عن أربع عن شبابه فيما أبلاه وعمره فيما أفناه ، وعن ماله من أين جمعه وفيما أنفقه ، وعن حبنا أهل البيت**» [3].

[33 ـ 36] ويفتح الله آفاق الطموح أمام الإنسان بعيدا عن الأساطير البشرية ليسجل سبقا على العلم الحديث بأكثر من (13) قرنا من الزمن ، ولا غرابة فهو كتاب الله. إن الفلسفات البشرية كانت دائما تكبل عقل الإنسان ، وتغل طموحاته ، وتضع إصرا على نفسه تمنعه من الثقة بها والتوكل على ربه وذلك عند ما كرست الجهل ووضعت مجموعة نظريات بدائية عن الإنسان والعالم واعتبرتها غاية العلم ونهاية المعرفة ، فتحولت الى سقف للفكر وسجن للعقل ، وعقبة اجتماعية كأداء امام التقدم.

---

(1) التكاثر / 8
(2) الصافات / 24
(3) نور الثقلين / ج 4 ص 402

وكـانت من أهـداف رسـالات الله كسر هـذه الحـدود الوهمية ، وبعث الإنسـان نحو آفـاق العلم واثـارة تطلعاته الكامنة. هكذا يقول ربنا سـبحانه عن رسـالة النـبي محمد (ص) ، (**يَـأْمُرُهُمْ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهـاهُمْ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَيُحِـلُّ لَهُمُ الطَّيِّبـاتِ وَيُحَـرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبـائِثَ وَيَضَـعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ**) [1].

لقد كـانت السـيارة في ذلك العصر أمـرا مسـتحيلا لا يداعب مجرد خيال النـاس ، فـاذا بـالقرآن يأخـذهم بعيـدا جـدا ليحـدثهم بما يتضـمن التشـجيع على الوصـول الى أقطار الأرض وآفاق السماء. وكم ينمى مثل هذا الحـديث من الله المقتـدر الثقة في الإنسـان بنفسه ، ويوسع من حدود طموحاته حينما يسمعه مصدقا به مؤمنا بقوله.

لقد اختلف المفسرون وهم يبحثون عن مضمون الآية (33) مع انها واضـحة. لما ذا؟ لأنّ فكر الإنسـان يتحـدد بـالجو العلمي المحيط ، فبعد أن اتصل فكر المسـلمين بالفكر الاغـريقي وبالـذات في مجـال الهيئة البطليموسـية التي كانت تتصور السماء من الجـواهر غـير القابلة للرتق والفتق لـذلك نجد بعض المفسـرين طـرح آراء بعيـدة ، فقـالوا بما انه يسـتحيل على الانس والجن أن يصـعد الى الآفاق فان «**إِنِ اسْتَطَعْتُمْ**» في الآية ظاهر في التحدي ، أي إنكم لا تسـتطيعون أن تنفـذوا من أقطـار السـموات والأرض بينما الآية ظـاهرة في خلاف ذلك حيث نقـرأ في نهايتها «**لا تَنْفُـذُونَ إِلَّا بِسُـلْطانٍ**» ، فهم ينفـذون ولكن بسلطان. وهكـذا القـرآن لم تنعكس على آياته النظريـات العلمية الشائعة في عهد نزوله ، ولو كان من صـنع البشر لكـان يسـتحيل أن يبقى معتصـما عن آثارها عليه أليس الإنسـان يكـون أفكـاره من الجو العلمي المحيط بـه؟ ألا تـرى كيف ان تفاسـير النـاس للقـرآن تـأثرت بـالأجواء العلمية لعصر كتابتها ، مع انها كـانت تحـوم حـول الكتـاب المتعـالي عن النقص ، ولا نجد كتابا ألفه البشر عـبر التاريخ إلا وكان مرآة للمستوى العلمي الـذي بلغه النـاس يومئذ إلا القرآن. أو

(1) الأعراف / 157

لا يهـدينا ذلك الى انه كتـاب ربنا الـذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟

وهكـذا القـرآن لا يـزال هو المقيـاس للحضـارة ، وإذا عـــارض نظرية علمية ما فاننا لا ريب ســـنجد قوله هو الثابت ، واما تلك النظرية فتذهب هباء.

(يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُـذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا)

هكــذا يســتثير القــرآن التطلع الكــامن داخل نفس الإنســان نحو العلم والمعرفة والتقـــدم ، فهو يحدثه عن بساط الريح الذي كان لدى سليمان (ع) ، وكيف انه سخر الحيـاة من حوله (الجبـال والجن والطـير و..) وجعلها في خدمة الحضـارة البشـرية ، ليؤكد له بـان الطريق سـألك أمامه للوصـول الى هـذه القمة السـامقة من التحضـر. وبـالطبع إنه لا يرسم خريطة عن المركبة الفضـائية حينما يستثيرنا في هـذه الآية عن إمكانية اخـتراق الفضـاء ، ولم تتنزل فيه سـورة تحـدثنا عن لغة الطـير لمـاذا؟ لأنه ليس كتابا تكنلوجيا وإن كـان يشـير الى بعض الحقـائق إشـارة مباشرة ، إنما هو كتاب حياة يستثيرنا نحو العلم ، ويعطينا الثقة بأنفســـنا ، ويوجه عقولنا وقـــدراتنا في قنواتها الاســتراتيجية الصــحيحة ، أما التقــدم العلمي أو تحــول التطلعــات والحقــائق الــتي يبينها الى واقع فــذلك من وظائف العقل البشري ، ولو فعل ذلك لكان يشكل سـقفا للفكر وحـدا للعقل وعقبة أمـام التطـور ، بينما المطلـوب أن يكون منهجا للفكر ومحرضا للعقل وباعثا نحو التطور.

والقرآن هنا وهو يريد ان يسـتثيرنا نحو تطلع حضـاري كبـير ، هو اخـتراق الآفـاق وتسـخير رقعة أوسع في هـذا الكون الرحيب الـذي خلق من أجلنا ، في خدمة الحضـارة البشــرية ، فانه يــدخل الى ذلك بكلمة عميقة تحتمل من الأفكار الحضارية الشـيء الكثـير إذ يخاطبنا «**يا مَعْشَـرَ**» والمعشر هو من العشـــرة والتعاشر وهو التجمع الـــذي تربط

ببعضه ووشـــــائج محـــــدّدة ، بل إن الكلمة تفيض بأوسع معاني التعاون الاجتماعي بين الإفراد ، وبذلك يضع القرآن فكـرة هامة أمـام أبصـارنا وبصـائرنا ، وهي ان المنجـزات الحضارية الكبيرة كالنفاذ من الآفاق لا يمكن أن تنتقل من التطلع الى الواقع العلمي والعملي ، إلا بجهد جمعي تتعـاون فيه القـدرات ، وتتلاقح فيه الأفكـار ، وتتكامل فيه المعارف ، وتتظافر فيه الإرادات ، ولم يكتف بـذكر الانس وحـدهم ، بل قـال الجن والانس بينما القـرآن قـدم الانس على الجن حينما تحـدث عن الخلق في الآية (14 ، 15) وهنا حـدث العكس ، وذلك لأن السـياق في تلك الآيـتين يتنـاول الأفضـلية فتقـدم الإنسـان لأنه الأفضل ، بينما الحـديث في هـذه الآية عن الأكثرية «**يا مَعْشَـرَ**» لـذلك تقدم الجن وهم الأكثر ، ويبدو ان سبب ذكر الجن في هذا السياق هو :

1 ـ إن القـرآن رسـالة كونية شـاملة ، وهي موجهة للجن كما هي موجهة الى الانس ، فهما قد خلقا لهـــدف واحد هو العبـــــــــادة (**وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُـدُونِ**) [1] كما خلقت النـار لمن عصى منهما ، (**وَلكِنْ حَـــقَّ الْقَـــوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**) [2] كذلك نزل القرآن لهما معا. وهنـاك إشـارات واضـحة وظـاهرة الى هـذه الحقيقة قـال تعـالى : (**قُـلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْـــتَمَعَ نَفَـــرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقـــالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً* يَهْـدِي إِلَى الرُّشْـدِ فَآمَنَّا بِـهِ وَلَنْ نُشْـــرِكَ بِرَبِّنا أَحَـداً .. وَأَنَّا مِنَّا الصَّـالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذلِكَ كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً .. وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُـؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخـافُ بَخْسـاً وَلا رَهَقـاً**) .. [3] ونداء كوني كهذا الذي يوجه القرآن لا يليق إلا برب العـزة ، وحـــتى الإنســـان مهما بلغ من التطلع العـــالمي لا يجد طريقا لمخاطبة الجن ولعل البشر يتقـدم يوما حـتى يصل الى مسـتوى التعـاون مع الجن كما حـدث للنـبي سـليمان حسب القـرآن : (**قـالَ عِفْـرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيـكَ بِـهِ قَبْلَ أَنْ**

---

(1) الذاريات / 56
(2) السجدة / 13
(3) راجع سورة الجن.

تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ)[1].
2 ـ وأراد الوحي من ذلك أن ينسف إحدى النظريـات الخاطئة الـتي تقف عقبة في طريق خـوض الإنسـان لعلم الفضـاء واكتشـافه كنـوز الأرض ومسـاحاتها ، وهي ان الإنسان عـاجز عن النفـوذ من أقطـار السـماء وان ما بعد البحر والصـحراء ليس إلّا بحـار الظلمـات وعـوالم غريبة مخيفة لا سـبيل للبشر إليها ، وان الجن وحـدهم يسـتطيعون ذلك ، فجـاءت هـذه الآية لتعيد للإنسـان الثقة بنفسه ، وتؤكد له قدرة متسـاوية لا أقل مع قـدرات الجن بالرغم من ان الجن خلق من مـارج من نـار فهو بطبعه ــ حسب نظـرة البشر ــ ضـعيف قابل للنفـاذ بينما الإنسـان خلق من صلصـال من طين فهو بطبعه ــ حسب رؤية البشر ـ ليس قابلا للنفاذ.
3 ـ ولعل في الآية معـنى حضـاريا يسـتهدف إثارتنا والجن نحو التسـابق الى تحقيق التطلع الحضـاري الـذي تطرحه الآية بالنفـاذ في أقطـار السـماوات والأرض ثم ان الآية تقـول إن اسـتطعتم ولا تقـول لو اسـتطعتم لأنها للامتناع ، بينما إن للشـرط ، وربنا يعـبر عن هـذا الشـرط بالاستطاعة أي القدرة بتمام المعنى وشموله وهـذا يشـبه قوله تعالى : (**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْـهِ سَـبِيلاً**)[2] ولكن الاسـتطاعة في النفـاذ من أقطـار السماء والأرض لا تتحقق إلا بدراسة التحـديات الموجـودة في الطريق الى ذلك التطلع وتجاوزها واهمّها اثنان :
الأول : الأخطار المحتملة كالأجرام السماوية الحارقة وهذا ما سيأتي الحديث عنه عند الآية (35).
الثاني : تحدي طبقات السماء والأرض ، وهو التحـدي الأساسي والثابت ، فاذا

(1) النمل / 27
(2) آل عمران / 97

ما أراد الإنسـان أن يصل الى كنـوز الأرض عمقا فلا بد أن يتحــدى وهو يقطع المســافة من الســطح الى المعــدن الطبقات المختلفة.

وهكــذا إذا أراد اخــتراق الآفــاق باتجــاه القمر أو أي هدف آخر في السماء ، فانه سوف يواجه تحديات أكـبر إذ لا بد أن يصل إليه بالعلم أولا من قبل وصوله المـادي إليه فربما يتحطم كما حدث في التجـارب الأولية للإنسـان في هـذا الحقل ، فهنـاك تحـدي الجاذبيـات ، والطبقـات الـتي يختلف بعضها عن بعض ، حيث تنعـدم الجاذبية في بعضـها ، ويرتفع الضــغط في أخــرى ، وينعــدم الأوكســجين في أكثرها ، بل يحتوي بعضها على غـازات مضـرة بالإنسـان ، ولعل معـنى النفـاذ وهو لا يكـون إلا من المـانع يـدل على هــذه التحــديات وقد كشف العلم الحــديث ولا يــزال عن جانب من تلك التحديات ، وخبراء المحطات الفضائية الآن لا يرسـلون الأقمـار والخـبراء إلّا بعد الدراسـات المفصـلة لطبقات الجو ، لكي يختـاروا المكـان الأضـعف والمناسب للنفاذ منه.

وإذا ما اســـتطاع الانس والجن الانتصــــار على تلك التحــديات فــإنهم ينفــذون من الأقطــار حيث يقــول ربنا سبحانه : «فانفذوا».

وهــذا الفعل ليس فقط يفيد الإمكــان ، بل ينطــوي حسب الظاهر على الـدعوة والتحـريض الى النفـاذ ، فهي كقوله ســبحانه : (**فَامْشُــوا فِي مَناكِبِها وَكُلُــوا مِنْ رِزْقِهِ**) ، وقوله : (**قُـلْ سِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَـانْظُرُوا**) ، وقوله : (**قُلْ مَنْ حَـرَّمَ زِينَـةَ اللـهِ الَّتِي أَخْـرَجَ لِعِبـادِهِ وَالطَّيِّبــاتِ مِنَ الــرِّزْقِ**) ، وهكــذا ينبغي للإنســان أن يسـتفيد من قدراته في تسـخير أكـبر مسـاحة من هـذه الكائنات الـتي خلقت من أجله ، فربما وجد بالاضـافة الى المعرفة شـفاء لكثـير من أمراضه وحلا لمشـاكله وأزماته في الآفاق.

هكذا يسعى الإسلام من أجل رفع الأغلال التي تضعها الفلسفات البشرية على

النفس والعقل عن الإنسـان لينطلق نحو تطلعاته وأهدافه الكبرى. ولكن الإسلام الى جانب ذلك لا يطلق الثقة هكذا بلا حد لكي لا تصـبح تمنيـات وأحلاما ، إنما يؤكد ان الثقة وحدها لا تصل بالإنسـان الى طموحاته ، ولا تحقق أهدافه ، بلى. هي الوقود الدافع له من داخله ، وحـتى ينطلق في الواقع العملي ، لا بد أن يحصل على سـلطان ، وهو العلم الذي يتحول الى برنامج ، فقدرة فعلية.

(**لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ**)

اللام هنا ليست للنهي وإلّا جـاء الفعل بعـدها مجزوما بحذف النون ، إنما هي للنفي ، وهذا يعارض قول من قال ان ظـاهر الآية هو التحـدي. نعم ربنا يتحـدى الجن والانس إذا حـــاولوا النفـــاذ من دون ســـلطان ، لان في الطبيعة قوانين وواقعيات ، والهيمنة عليها وتسـخيرها ممكن ولكن بما هو فوق ذلك كله من السلطان.

إن الإنسان البسيط الـذي يعيش على سـاحل البحر ، ويأكل ويسترزق من صيده نهارا ثم يعـود الى بيته ليلا كل يوم ، يطبق من القوانين والسنن الحياتية الشيء القليل ، أما الـذي يعيش الحيـاة العلمية المعقـدة ، كرائد الفضـاء الــذي يريد الصـعود الى القمر ، أو الى كـوكب آخر أرفع منه ، فانه لا ريب سيواجه عشـرات الآلاف من القـوانين ، فهو بحاجة الى معرفتها بدقة ليتســـنى له القـــدرة على تسخيرها لأن أعظم وسيلة لتسلط الإنسـان على الطبيعة هي العلم ، وقد أنعم الله علينا بـــــذلك كما أودع الطبيعة حالة الاستجابة لنا.

ثم ان التكـــذيب بواحد من القـــوانين أو الحقـــائق الواقعية من قبلنا كفيل بـأن يقطع الطريق علينا فلا نصل الى ما نريد.

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

إن من نعم الله علينا أن جعل نفاذنا من أقطـــــــار السـماوات والأرض ممكنا ، وجعل في ذلك خـيرا كثـيرا للبشـرية ، ولكننا قد نكـذب بهـذه النعمة إذا كفرنا بهـذه المقـدرة رأسا كما فعل آباؤنا أو حققنا ذلك ثم سـخرناه في الأمور الضـارة كـالتكبر في الأرض ، أو إذا عصـينا ربنا بدل شـكره على هـذه النعمة الكـبرى ، وهو حينئذ سـوف يعـذبنا ولن نجد لنا وليا ولا نصـيرا ، حيث تحببها نـار بلا دخان شديدة اللهب ، عظيمة الحر.

(**يُرْسَـلُ عَلَيْكُما شُـواظٌ مِنْ نـارٍ وَنُحـاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ**)

ولعل الآية هـذه تشـير هنا إضـافة الى الفكـرة الآنفة الى حقيقة علمية ، وهي الأخطـار الـتي تعـترض طريق الإنسـان في الفضـاء ، وتمنعه من الوصـول الى النقطة التي يريد كالقمر ، ومنها كما يصرح القرآن ويؤكـده العلم الحـديث الغـازات المشـتعلة ، والكتل المعدنية الملتهبة الـتي تسـمى بالنيـازك والشـهب ، وهـذه هي الأخـرى بالاضافة الى القـوانين والموانع الأخـرى الـتي تمنع النفـاذ ينبغي للإنسـان أن يتسـلط عليها ، فيقاومها وينتصر عليها أو يتجنبها ، فـاذا كفرنا بهـذه السـنة وحاولنا النفـاذ بلا سلطان اعترضتنا هـذه العقبة ، كـذلك حين يكفر الإنسـان بواحـدة من سـنن الله في المجتمع والنفس فانه يكتـوي بنـار لاهبـة. أجارنا الله من نقماته في الـدنيا وعذابه في الآخرة.

فَـإِذَا انْشَـقَّتِ السَّـماءُ فَكـانَتْ وَرْدَةً كَالـدِّهانِ (37)
فَبِـأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَـذِّبانِ (38) فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْـئَلُ عَنْ
ذَنْبِـهِ إِنْسٌ وَلا جَـانٌّ (39) فَبِـأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَـذِّبانِ (
40) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُـونَ بِسِـيماهُمْ فَيُؤْخَـذُ بِالنَّواصِـي
وَالْأَقْـدامِ (41) فَبِـأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَـذِّبانِ (42) هـذِهِ
جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَـذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُـونَ (43) يَطُوفُـونَ
بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (44) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

---

37 [كالدهان] : كالدهن ، أي عذاب سيّال كالدّهن ، أحمر كالنّار.
41 [بسيماهم] : أي بعلاماتهم ، وهي سواد الوجوه ، وزرقة العيون.
[النواصي] : الناصية شعر مقـدّم الـرأس ، وأصـله الاتصـال ، فالناصـية متصلة بالرأس.
44 [آن] : في شـدّة الحـرارة ، قد انتهى حـرّه إلى آخر درجة ، والآنيّ الذي بلغ نهاية حرّه ، وقيل : الآنيّ الحاضر.

**(45) وَلِمَنْ خـافَ مَقـامَ رَبِّهِ جَنَّتـانِ (46) فَبِـأَيِّ آلاءِ
رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (47) ذَواتا أَفْنانٍ (48) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما
تُكَـذِّبانِ (49) فِيهِما عَيْنـانِ تَجْرِيـانِ (50) فَبِـأَيِّ آلاءِ
رَبِّكُما تُكَـذِّبانِ (51) فِيهِما مِنْ كُـلِّ فاكِهَـةٍ زَوْجـانِ (
52) فَبِـــأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَـــذِّبانِ (53) مُتَّكِئِينَ عَلَى
فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْـتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ (54)
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (55) فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ
لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَـانٌّ (56) فَبِـأَيِّ آلاءِ
رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (57) كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ**

---

48 [ذواتا أفنـان] : الأفنـان جمع فنن وهو الغصن الغضّ الـورق ، ومنه قولهم : هذا فنّ آخر أي نوع آخر. ويجوز أن يكون جمع فنّ.

54 [إستبرق] : ديباج ثخين وغليظ يسبّب الراحة.

[وجنا الجنّــتين دان] : أي الـــذي يجــنى منها وهو الثمر متهــدّل على رؤوسهم يتمكّن القاعد والنائم أن يناله بسهولة.

56 [قاصرات الطـرف] : مقصـورة أبصـارهن على أزواجهنّ ، لا يـردن غيرهم.

[لم يطمثهنّ] : أي لم يفتضهنّ أحد ، والافتضاض :
النكاح بالتسمية ، والمعنى لم يطأهن ولم يغشهن أحد ، وفي قـول آخر : لم يمسّنّ لا بالجماع ولا بغير الجماع.

**وَالْمَرْجـانُ (58) فَبِـأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَـذِّبانِ (59) هَـلْ
جَـزاءُ الْإِحْسـانِ إِلاَّ الْإِحْسـانُ (60) فَبِـأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما
تُكَــذِّبانِ (61) وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتــانِ (62) فَبِــأَيِّ آلاءِ
رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (63) مُـدْهامَّتانِ (64) فَبِـأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما
تُكَذِّبانِ (65) فِيهِما عَيْنانِ نَضَّـاخَتانِ (66) فَبِـأَيِّ آلاءِ
رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (67) فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْـلٌ وَرُمَّانٌ (68)
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (69) فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِســانٌ (
70) فَبِـأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَـذِّبانِ (71) حُـورٌ مَقْصُـوراتٌ
فِي الْخِيــامِ (72) فَبِـأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَـذِّبانِ (73) لَمْ
يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (74) فَبِـأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما
تُكَذِّبانِ**

---

64 [مدهامّتان] : من دهم بمعنى السواد ، أي أنّه الجنتين خضـراوتان ، تضربان الى السواد من شدّة الخضرة ، فلا يبس لهما.
66 [نضّـاختان] : فوّارتـان ، والنضّـاخة : الفـوّارة ، الـتي تـرمي بالمـاء صعودا.
72 [مقصورات] : محفوظات مخدّرات.

(75) مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْـرَفٍ خُضْـرٍ وَعَبْقَـرِيٍّ حِسـانٍ (
76) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَـذِّبانِ (77) تَبـارَكَ اسْـمُ رَبِّكَ
ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ (78))

---

76 [رفرف خضر] : هي الفرس المرتفعة ، وقيل : الوسائد.
[وعبقـري حسـان] : كل ثـوب موشّـى يقـال له عبقـري ، ولعل الثـوب الموشّى هو الثوب المطرز والمزخرف.

وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ

هدى من الآيات :

بعد ان يذكرنا القرآن بانشقاق السـماء يـوم القيامة ، ويعرض لنا في بضع آيات منه حال المجـرمين وعـذابهم (35) (ربما لان الإســهاب في ذلك لا ينســجم مع ســياق السـورة الـتي تكشف لنا عن تجليـات اسم الـرحمن في الخليقـة) بعدئذ يسـتعرض بشـيء من التفصـيل التجليـات الأعظم لرحمة الله ، وذلك من خلال الحــديث عن ثــواب أهل الجنة والــــذي يقع في (33) آية كريمة تمتد الى آخر السورة.

ان ربنا رحيم وآلاء رحمته ظاهرة في الدنيا والآخرة ، ولكن النظرة السلبية الناتجة من امـراض النفس وعقـدها ومن الفلسفات الضالة هي الـتي تعمينا عن هـذه الحقيقة الجلية ، فــاذا بنا نــدس بناتنا في الــتراب خــوف العيلة ، ونقتل أولادنا ونغل أيــدينا عن العطــاء ، ولا نــوفي الكيل والمـيزان ، وانما نبخس النـاس أشـياءهم كل ذلك خشـية الفقر ونأكل اموال اليتامى ظلما ، كل ذلك لاننا لا نطمئن الى رحمة الله الذي

يبسط الرزق لمن يشـاء ، والـذي نعمه لا تعد ولا تحصى ، ويعلم الله كم تسـبب هـذه النظـرة الموغلة في السـلبية في العقد والانحرافات النفسية والاجتماعية عند الإنسان ، فهي التي تغل فاعلياته وتمنعه من السعي ، ولماذا يسعى وهو يائس من التوفيق والنجاح؟

بينما النظرة الايجابية الى أسماء الله ، بالتعرف عليها والايمان بها ، تملأ القلب أملا ورجـاء وتبعث بالإنسـان نحو السعي والنشاط ، وتفجر الطاقات الكامنة في شخصيته ، انه حينئذ ينفق ويضحي في سـبيل الله ومن أجل مبادئه ، راضـــيا بما يفعل ، مطمئنا الى رحمة ربه ، وفي الخـــبر «**من أيقن بالخلف جـاد بالعطية**» [1] وكيف يـوقن أحد بـالخلف فيعطي أو يقلع من ذنوبه واخطائه وهو لا يعـرف ربه بالرحمة والغفران؟! لا ريب انه لن ينفق ولن يتوب.

ولذلك يسعى القرآن بمنهجيته الحكيمة الـتي يلمسـها المتـدبر في آياته مواجهة النظـرة السـلبية المقيتة ، وبث البصـيرة الإيجابية في ردع البشر تجـاه ربه وحيث تـدعونا هذه السورة الى التعـرف على اسم (الـرحمن) ، وتـذكرنا بمظاهر هذا الاسم في الخليقة ، والآيات الهادية اليه فانها تحذرنا من التكذيب بها ، بذكر جانب من عذاب المجرمين الذين صـاروا الى الجريمة بسـبب تكـذيبهم كما ترغّبنا في التصـديق بها ، من خلال التفصـيل في بيـان جـزاء الـذين عرفوا الرحمن حق معرفته ، وقـدروه حـقّ قـدره فخـافوا مقامه.

بينات من الآيات :

[37 ـ 38] يمكن للإنسـان في الـدنيا أن يكـذب بـآلاء ربه (نعمه وآياته) أو يتملص من تطبيق الحق ، ويـبرر ذلك بمختلف الحجج الواهية ، لأن الله أمهله فيها

(1) بح / ج 6 ص 133

وسمح له أن يفعل ما يشـاء ، أما في الآخـرة حيث يخلص الحكم لله ، فلا يملك إلّا التســليم للحق ، قــال تعــالى : (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْـزِيلاً* الْمُلْــكُ يَوْمَئِذٍ الْحَــقُّ لِلــرَّحْمنِ وَكــانَ يَوْمــاً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً) [1] فمنظر القيامة بما فيه من تحولات كونية هائلة يعــري الإنســان من كل لبس في شخصــيته الفقيرة المحتاجة.

ان السماء هـذا السـقف العظيم الـذي يحفظ النـاس ويظلهم تفقد تماســكها يــوم القيامة ، ويتبــدل لونها من الزرقة الى الحمــرة تشــبه في ذلك الــوردة الحمــراء ، (وَانْشَـقَّتِ السَّـماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَـةٌ) [2] ثم تـذوب وتسيل «يَوْمَ تَكُونُ السَّـماءُ كَالْمُهْـلِ» [3] حـتى تضـحى دهانا ، وهو ما يستخرج من الورد بعد غليه وعصره.

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ)

لعل سبب تشبيهها بالوردة لأنها ليست قطعة واحدة ، بل عـدة قطع منشـقة عن بعضـها ، ذات صـبغة حمـراء ، يجمعها الأصل ، ولان السماء (السقف المرفـوع) هي رمز الأمن والسلام ، فان انشقاقها يـؤذن بالأخطـار والخـوف ، ولهــذه الآية اتصــال وثيق بالآية (35)ـ «يُرْسَـلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَنُحـاسٌ فَلا تَنْتَصِـرانِ» ذلك ان الغلاف الجوي ـ أحد طبقات السماء ــ هو الـذي يمنع عنا النيـازك والغازات الحارقة ، ولو حـدث ــ لا سـمح الله ــ أن انشق فان الأرض ستكون عرضة لتلك الاخطار ، ويقول العلمـاء : لو فتحت ثغــرة في الغلاف الــواقي ـــ لنفــترض مثلا بمساحة كيلومـتر مربع واحد ــ فـان الأرض تحته لا تصـلح للحيـاة أبـدا .. لما تنهـال عليها من خلال تلك الثغـرة من اشعة ضارة أو نيازك حارقة مدمرة.

وهل لنا ان نفهم من هــــذه الحقيقة العلمية شــــيئا بسيطا عن طبيعة الحياة حينما

---

(1) الفرقان / 25 ـ 26
(2) الحاقة / 16
(3) المعارج / 8

تتفطر السماوات السبع وتستحيل لهبا ومهلا؟!

ان أحدا لا يملك يومئذ أن يكذب بهـذه الآية من آيـات الله ، والتي تظهر هيمنته ، وضرورة التسـليم له ـ وهو لو شــاء لجعلنا نصــدق بآلائه وآياته بــالقوة ـــ وهو القائل : (طسم* تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ* لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَـكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ* إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّـماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ) [1].

ولكن رحمته تـــأبى ذلك كما أنّ حكمته من خلقنا في الحياة الدنيا والتي صرّح بها بقوله : (الَّذِي خَلَـقَ الْمَـوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَـنُ عَمَلاً) [2] لا تتفق مع هـذا النهج.

(فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ)

[39 ـ 40] بلى. ان أحدا لن يجرأ حينها على التكذيب أبـــدا ، بل يخضع الجميع خضـــوعا مطلقا للحق (فَتَــوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ* خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِـرٌ* مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ) [3] ولا يجــرأ أحد حــتى على الكلام ، إلّا بعد اذن ســبق من الله (يَــوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَـقِيٌّ وَسَـعِيدٌ) [4] فكيف يسـتطيع أحد ان يكـذب ربه ذلك اليـوم؟! بلى. قد يؤخر العـذاب عنهم في الـدنيا فيجـدون فرصة للتكـذيب ، والتبرير ، وإخفاء ذنوبهم. أما يوم القيامة فهو ـ سـبحانه ـ محيط بهم من كل جانب.

---

(1) الشعراء / 1 ـ 4
(2) الملك / 2
(3) القمر / 6 ـ 8
(4) هود / 105

(**فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌ**)

ويكفي بهذا رادعا لنا عن المعاصي ، والتكذيب بالنعم والآيات ، الذي هو من أكبر الذنوب.

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

[41 ـ 42] ان المحاكم في الدنيا تقام من أجل معرفة المجرم ، اما في الآخرة فهي تقام لغرض آخر ، وهو إثبات العدالة الإلهية اثباتا عمليّا للخلق ، فليس معنى «**لا يُسْئَلُ**» انهم لا يحاكمون البتّة ، لإن الله يقول : (**وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ قالَ أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**) [1] وقال : (**احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ وَما كانُوا يَعْبُدُونَ* مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ* وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ**) [2].

عن الذنوب هل هي من قبلهم أم لا .. فهم معروفون عند الله. ولكن هذا الايقاف ليس لسؤالهم وانما السؤال للتبكيت والتقريع. إذا لا ينبغي أن نختفي وراء جدر التبرير والأعذار لاننا لن نجد مجالا يومئذ لبيانها حتى تقبل أو ترد.

وقيل : ان فريقا من المجرمين وهم أئمة الاجرام والكفر والموغلين في الانحراف لا يسألون حتى مجرد السؤال وانما يؤمر بهم الى جهنم مباشرة حيث العذاب ، ولا يعطون فرصة لسؤالهم إمعانا في تحقيرهم وإهانتهم وعذابهم ، قال رسول الله (ص) : «**ان الله عزّ وجلّ يحاسب كل خلق إلّا من أشرك بالله عزّ وجلّ فانه لا يحاسب ، ويؤمر به الى النار**» [3] وقال : «**ستة يدخلون النار بغير حساب منهم الأمراء**

---

(1) الانعام / 30

(2) الصافات / 32 ـ 34

(3) بح / ج 7 ص 260

بـالجور» [1] وقـال الصـادق (ع) : «**ثلاثة يـدخلهم الله النار بغير حساب ، امام جائر ، وتاجر كذوب ، وشـيخ زان»** [2].

والسـؤال كيف يعـرف المجرمـون يـوم القيامـة؟! ان الله يعـرفهم بعلمه الـذي أحـاط بكل شـيء ، ومن خلال كتب أعمـــالهم ، ثم ان يـــوم القيامة هو التجلي الأعظم للحقائق ، فالذي يأكل أموال اليـتيم بالباطل انما يأكل في بطنه نـارا وهـذه الحقيقة تتجلى يومئذ لكل النـاس ، حيث يشاهده العالمون والنار تشتعل في بطنه اشتعالا.

كما ان الـذي يمـارس الجريمة ــ أيّة جريمة ــ فانها تــترك أثــرا على شخصــيته ، بيد ان الحقيقة خافية على الناس في الدنيا ، أما في الآخرة حيث تبلى السرائر فانها تظهر على الملاء لا تخفى منه خافية ، فــــإذا به يـــــأتي مســـــــــودا وجهه كقطعة من ليل دامس الظلام ، وفي المقابل تــرى المؤمــنين والمؤمنــات مبيضة وجـــوههم (**يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ**) [3] (**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُـوهٌ وَتَسْـوَدُّ وُجُـوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْـوَدَّتْ وُجُـوهُهُمْ أَكَفَـرْتُمْ بَعْـدَ إِيمـانِكُمْ فَـذُوقُوا الْعَــذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُــرُونَ**) [4] هـــذه عاقبة الكفـــر. وقد ثبت علميا ان الجريمة تترك أثرها على فاعلها ، كالارتباك ، والتلعثم في الكلام أثنــاء الاســتجواب مما يعكس حالة نفســية معينة تخلقها الجريمة عنده ، ولعل العلم إذا تطور وتقـدم يلحظ اثارا مادية على شخصية الإنسـان كـألوان لا تلحظ بـالعين المجردة تعلو الوجه ..

(1) ميزان الحكمة / ج 2 ص 419 عن كنز العمال ح (44030)
(2) بح / ج 75 ص 337
(3) الحديد / 12.
(4) آل عمران / 106

ان ذلك حقيقة واقعية في الـــدنيا والآخـــرة ، ولكن الفرق بينهما اننا في الدنيا محجوبـون عن رؤية تلك الآثـار بوضـوح كـاف ، أمّا في الآخـرة فيكشف عنا الغطـاء فـاذا ببصــرنا حديد ، وحــتى في الـدنيا لو تطــور علمنا باتجــاه اليقين لتكشف لنا الكثير من الحقائق المغيبة.

(**يُعْرَفُ الْمُجْرِمُـونَ بِسِـيماهُمْ فَيُؤْخَـذُ بِالنَّواصِـي وَالْأَقْدامِ**)

ويجـرون الى النـار حيث يعـذبهم ملائكة شـداد غلاظ والناصية هي مقدمة الرأس ، وهذا العذاب جزاء تكــذيبهم بالحقــائق الربانية والآيــات الدالة عليها ومن بينها النــار ، فلم يحتسبوا انهم مواقعوها فيسـتعدوا ، ويعملـوا للخلاص من حرّها ، فوقعوا فيها ، وربنا يحذرنا من التكذيب بها.

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

[43 ـ 45] والآيات السابقة تشـير الى امكانية تعـاون الجن والانس في المعصية والتكذيب ، وهــذا امر واقعي ، لأن أبالسة الجن من المكذبين بالله هم الذين يوسوســون في صـدور النـاس ، ويثـيرون في البشر عوامل المعصـية والانحــــراف ، لــذلك أمرنا الله بالاســـتعاذة (**مِنْ شَــــرِّ الْوَسْـــواسِ الْخَنَّاسِ* الَّذِي يُوَسْـــوِسُ فِي صُـــدُورِ النَّاسِ* مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ**) [1] ، بل قد يصل التعاضد بينهما على التكذيب الى الحد المـادي ، قـال تعـالى حاكيا عن الجن : (**وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُـــــولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِباً* وَأَنَّهُ كـانَ رِجـالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُـوذُونَ بِرِجـالٍ مِنَ الْجِنِّ فَـزادُوهُمْ رَهَقـاً* وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللـهُ أَحَـداً**) [2] والشـعوذة والسـحر القائمــان على التكــذيب بالله وبآياته هما من ور التعــاون بين الاثنين.

(1) الناس / 4 ـ 5

(2) الجن / 5 ـ 7

ولكن مهما كـذب الفريقـان بالحقـائق الواقعية كالنـار وتعاونا على ذلك ، فانها لن تتبدل ولن تنتفي أبـدا ، فالنـار موجـــــــودة وان كـــــــذبنا بها ، كما ان تكـــــــذيب بعض السوفســــطائيين بواقعية الخلق لا يحيله خيـــالا ، بل ان التكـذيب بالنــار يجعلها أقــرب وأشد على المكـذب بها ، ويــوم القيامة يـؤتى بـالمجرمين مـأخوذين من نواصـيهم وأقدامهم الى جهنم ، ويقال لهم :

(**هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ**)

فيرونها عين اليقين ، ويصدقون بها بعد طول تكـذيب ، ولكن مـــاذا ينفعهم الاعـــتراف حينئذ ، بلى. إذا عـــرف الإنســـان بـــالخطر قبل وقوعه فيه ، وكـــانت ثمة فرصة يستغلها للنجاة ينفعه علمه. بيد ان هؤلاء كذبوا فعلا بآيـات الله الدالة الى هـــذا الحق ، فصــــاروا من حطب جهنم ووقودها ، فتراهم ينتقلون بين النار والحميم.

(**يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ**)

أي بالغ الحدة : حرارة وغليانا ، ومنه آنت الثمرة : إذا نضجت وأينعت ، والمجرمون في طـواف دائم ، تسـوقهم الملائكة بين جهنم النيران (أشدها حـرارة) وبين السـوائل المغلية الى درجـــات عالية من الحـــرارة ، وان المجـــرم يحـترق بالنـار ، ويفقد سـوائل جسـمه ، فيسـعى لشـرب المـاء فيجـده حميما ، وهـذا هو حـال النعمة حينما يفـرط فيها الإنسان ، فيكذب بها ، وينسبها الى غـيره شـركا ، أو يستخدمها في المعصية ولا يؤدي حق شـكرها ، وحـريّ بنا أن نصدق بآلاء الرحمن ، ونؤدي واجبنا تجاههـا. انها رحمة من الله فأما أن نصيّرها نقمة أو نجعلها رحمة أكبر وأوسع ، تنمو في الدنيا ونتلقاها أضعافا مضاعفة في الآخرة.

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

[46 ـ 47] وينتهي السـياق يحـدثنا عن جـزاء أولئك الـذين عرفـوا ربهم حق معرفته ، عرفـوه بأنه الـرحمن فصدقوا بآلائه ، ورغبوا في رحمته قلبا ، وسعوا إليها عملا ففتحت لهم أبوابها في جنة عرضـها كعـرض السـماوات والأرض.

وهكـذا يطبع السـياق صـفة ثنائية على آيـات هـذه السـورة ((**الشَّـمْسُ وَالْقَمَـرُ**) ، (**وَالنَّجْمُ وَالشَّـجَرُ**) ، والسماء والميزان ، والفاكهة والنخل ، والحب والريحـان ، والانس والجان ، والصلصال والنار ، والبحرين ، و(**اللُّؤْلُـؤُ وَالْمَرْجـانُ**)) الى ان يحـدثنا عن صـنفين من النـاس في سلوكهم وجزاء الله لهم ، وهم المجرمون الـذين انـتزعوا من قلوبهم خشية الخالق ، فصاروا لا يتنـاهون عن منكر ، ويحدثنا في مقـابلهم عن الخـائفين ، الـذين بـراهم خـوف الله بري القداح.

وهذا منهج وسائد في كتاب ربنا حيث يذكرنا بالفـارق بين المتقين والفجـار عـبر بيـان الفـوارق بين الأشـياء المختلفة لنزداد وعيا بهذه المفارقة ، وتصـديقا بآثارها في الآخرة.

وللثنائية الـتي صـبغت بها آي سـورة الـرحمن فائـدة اخرى تلك هي العلم بالفوارق الممتدة بين الأشـياء ، فعند ما يكون المرء جاهلا يـرى الأشـياء المختلفة بلـون واحد ، ولكنه كلما تقـرب الى العلم كلما بـدت له الفـوارق أكـثر وضوحا وعددا ، فالغازات كلها عند الإنسـان تنضـوي تحت اسم عـريض هو الهـواء ، وإذا به الآن وقد تقـدم به العلم تزيد على مئـات الأنـواع ، كما ان هـذه الثنائية تـدلنا على الحاجة أيضا ، حيث يحتاج كل اثـنين الى من يـدبر أمرهما اذن فهـــذه الثنائية بين المخلـــوقين تهـــدينا الى الثنائية المطلقة بين المخلوق والخالق.

(**وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ**)

هـؤلاء لا يعبـدون الله خوفا من النـار فقط ولا طمعا في الجنة فحسب ـ وان كان ذلك بعض تطلعـاتهم ــ ولكن دافعهم الأســـاس للعبـــادة هي المعرفة اليقينية العميقة بربهم ـ عزّ وجـلّ ــ إذ انهم وجـدوه أهلا للعبـادة فعبـدوه ، قـال أمـير المؤمـنين (ع) : «فتلك عبـادة الأحـرار ، وهي أفضل العبـادة» وقـال زين العابـدين (ع) : «اني أكـره أن أعبد الله ولا غـــرض لي إلّا ثوابه ، فـــأكون كالعبد الطمع المطمّع ، ان طمع عمل والألم يعمل [و] اكـــــره أن [لا] أعبده إلّا لخوف عقابه ، فأكون كالعبد السـوء ان لم يخف لم يعمـــل» .. قيل : فلم تعبـــده؟! قـــال : «لما هو أهله بأياديه علي وانعامه» [1] ويبين الامام الرضا (ع) خلفية هذا النهج في العبـــادة إذ يقـــول (ع) : «**لو لم يخـــوف الله الناس بجنة ونار لكان الواجب عليهم أن يطيعوه ولا يعصـــوه ، لتفضـــله عليهم ، وإحســـانه إليهم ، وما بدأهم به من انعامه الذي ما استحقوه**» [2].

والامـــام الصـــادق (ع) يشـــير إلى الـــدوافع الحقيقية لســـلوك هـــذا الفريق الا وهو العلم والمعرفة ، فيقـــول : «من علم انّ الله عزّ وجلّ يراه ، ويسمع ما يقوله ويفعله من خـير أو شر ، فيحجـزه ذلك عن القـبيح من الأعمـال ، فـــذلك الـــذي (**خـــافَ مَقـــامَ رَبِّهِ ، وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى**) [3].

وحـــتى لو خشي هـــؤلاء النـــار ، أو طمعـــوا في الجنة فليس لـذاتيهما ، بل لان الأولى تبعـدهم عن الله ، والثانية تقربهم الى مقامه تعالى في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، والامام علي (ع) يقـول في مضـمون حـديث : لو علمت ان رضا الله في ان ألقي بنفسي في النـــار لفعلت ، ولو علمت ان رضى الله في أن ألقي بنفسي من على شاهق لفعلت.

(1) بح / ج 71 ص 174
(2) المصدر / ص 210
(3) أصول الكافي ج 3 / ص 126

ولان هذا الفريق من العباد خافوا ربهم في الدنيا استحقوا أمنه وجناته في الآخرة.

قال رسول الله (ص) : «**قال الله تبارك وتعـالى : وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين ، فاذا أمنـني في الـدنيا أخفته في الآخـرة يــوم القيامة ، وإذا خــافني في الــدنيا آمنته يــوم القيامة**» [1] وهؤلاء يستحون من ربهم ، ويخافون شهوده في السر والعلانية ، والجنتــان الــتي يعطيها الله لهم هي في مقابل العذابين (جهنم والحميم) اللذين يطـوف بينهما المجرمون.

قــال البعض : ان هــؤلاء هم أرفع المؤمــنين درجة ومقاما ، حيث لا يـرقى الأدنى الى منزلة الأرفع فـان الله أعطاهم جنتين ، جنة تخصهم وأزواجهم ، وجنة يسـتقبلون فيها المؤمـنين كـدار للضـيافة ، وقـال قائل : الجنة الأولى داخل بيته والثانية خارجه ، وقال آخرون : ان الأولى جزاء أعمـالهم والاخـرى زيـادة وفضلا من عند الله ، وقيل : ان الأولى جــزاء أعمــالهم وســلوكياتهم ، والثانية جــزاء ما انطوت عليه قلـوبهم من العلم والمعرفة ، ونفوسـهم من الإيمـان والتصـديق ، والـذي يظهر من عمـوم القـرآن ان للمؤمنين أكثر من جنتين قـال تعـالى : (**وَمَنْ يُطِـعِ اللـهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ**) [2].

وقوله : «**جَنَّتـانِ**» يخص بالـذكر اثنـتين تتمـيزان عن سـائر الجنـات ، وهما جنة عـدن وجنة الفـردوس ، أو جنة عدن والنعيم ، أو هي الخلد والمأوى.

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 196
(2) النساء / 13

بعد بيان مقام الخائفين من مقام ربهم يطرح القـرآن هذا التساؤل ، ربما ليقول لنا بان السـبل مشـرعة للجميع لو أرادوا الوصـول الى هـذه المنزلة الرفيعة ، لأن الله لم يجعلها حكـرا على أحد ، ولكن يشـترط أن لا يكـذب بـآلاء ربه ، فذلك يحرمه منها.

[48 ـ 49] ويشوقنا الوحي الى تلك الجنتين ، إذ يرينا صورا رائعة عنهما ويكتسب التشـويق أهميته من كونه إذا تفاعل معه السـامع ، وصـدق به ، يتحـول الى ما يشـبه الوقـود في داخل الإنسـان ، يدفعه بفاعلية قوية وعميقة الى العمل على تحقيق الغاية المطلوبة منه.

والبشر يخشى الاجـرام ويتجنبه مـرّة لأنه يـؤدي الى جهنم ، ومـرة لأنه يخسر الإنسـان قربه من ربه وثوابه الجزيل.

(**ذَواتا أَفْنانٍ**)

اشـارة الى صـفتين لتينك الجنـتين ، إحـداهما : كـثرة الأغصان ، والعرب تقول للغصن فنن وجمعه أفنان ، وهي لا شك تـدخل على النفس البهجة والسـرور ، بـالنظر الى خضـرتها وكثافتها ، وكـثرة الأغصـان تـدل على نـوع معين من الأشجار غير ذات السوق كالنخل ، والشجر تلك تكون أكـثر اسـتيعابا للثمر ، كما انها تلقي بظلها على الأرض ليجد المؤمنون لذة الجلوس في الظلال ، «**مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ لا يَـرَوْنَ فِيها شَمْسـاً وَلا زَمْهَرِيـراً* وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً**» [1] «**هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ**» [2] والصفة الثانية : التنـوع ، قـال صـاحب المنجد : أفنـان ، وفنـون ، وأفانين : الضرب من الشيء أو النوع [3].

---

(1) الإنسان / 12 ـ 14
(2) يس / 56
(3) راجع معنى (فنن) المنجد.

ويعـود السـياق هنا ــ وبعد ذكر كل نعمة في الجنة ــ ليشفي قلوبنا من داء التكذيب بآلاء الله ، وهـذا هو طبيعة منهج القرآن : انه لا يجعل الحديث عن المستقبل الغـائب مجــردا وبعيــدا عن واقعنا ، بل يوصــله بنا ، ويسـعى من خلال ذكــره الى علاج مشــاكلنا ، ودفعنا باتجــاه ايمــان ومعرفة أكثر وأعمق ، وهو في هذا المورد يريد القول بان ذلك النعيم نتيجة شكر نعيم الدنيا.

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

ويصرح القـرآن بهـذه الحقيقة بعد حـديث مفصل عن الجنة في سورة الإنسان قائلا : (**إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَـزاءً وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً**) [1] بل هي التجلّي الأعظم لقول الله : (**وَإِذْ تَــأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَــكَرْتُمْ لَأَزِيــدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ**) [2] إذا لندع التكذيب بآلاء الله.

[50 ـ 51] وتطمع نفوســــنا المجبولة على حب الاستطلاع في معرفة المزيد من الجنتين ، فيقول ربنا :

(**فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ**)

العين في الدنيا تتصل بمخازن الماء في الأرض وكلما اسـتنزفت ملأتها المخـازن ، ولكن الله لا يقـول «عينـان» وحسب ، بل يضيف «تجريـان» وتـوحي هـذه الجملة بـان المــــاء هنـــــاك في حركة دائمة مما تزيد المنظر روعة وجمالا.

ولا يـذكر القـرآن ما في العيـنين : هل هو المـاء ، أم اللبن ، أم الخمر ، أم العسل ، أم هو شيء آخر؟ والإبهـام يزيد النفس شوقا ، والله يبهم قاصدا وهو القائل : «**فَلا**

---

(1) الإنسان / 32

(2) إبراهيم / 7

تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُـرَّةِ أَعْيُنٍ جَـزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ» [1].

فيا حسـرة على العبـاد يتحبب لهم ربهم فيتبغضـون اليه ، ويتقـرب منهم فيبتعـدون عنه ، ويفتح لهم أبـواب رحمته ثم يـدعوهم إليها فيعرضـون ، ويكـذبون ، وهو لا يـزال يتلطف بهم ، لا يسـخط من تكـذيبهم ، ولا يعـرض عنهم بانحرافهم عن آلائه بل يكرر عتابه.

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

وله العتبى حتى يرضى ، أنه لا يحتاج الى تصـديقنا به ، وشكرنا لآلائه فـذلك لا يزيـده شـيئا ، كما لا ينقص كفرنا وتكذيبنا من مقامه تعالى شيئا ، انما نحن المحتاجون اليه.

[52 ـ 53] وجـانب آخر من نعيم الجنـتين الأكل ، والقرآن لا يحدثنا عن أوليـات النعمة (الأشـياء الضـرورية) انما يحدثنا عن تمامها (الكماليـات) وهي الفواكه ، مؤكـدا بأنها الأخرى موجودة وفي غاية الكمال ، كثرة وتنوعا.

(**فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ**)

فليس ثمة فاكهة إلّا وهي موجـــــــودة ، والفاكهة بالإضافة الى فائدتها المادية للجسم ، فهي لها نكهة ولـذة خاصة يجـدها الإنسـان في منظرها على المائـدة أو في الشـجر ، حيث الأشـكال والألـوان البديعة ، وفي روائحها الطيبة ومـذاقها اللذيذ ، ولعل اسـمها مشـتق من الفاكهة والتفكّه وهو حديث ذوي الأنس والسرور.

والسؤال : ما معنى «**زَوْجانِ**»؟

---

(1) السجدة / 17

قيل : من كل نوع صـنفان ، أحـدهما يشـبه الـذي في الدنيا ، والآخر يختلف عنه في حجمه ومذاقه وألوانه ، مما يختص بالآخرة وهو الأفضل ، قال تعـالى : (**وَبَشِّـرِ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقـاً قـالُوا هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْـلُ وَأُتُـوا بِـهِ مُتَشـابِهاً**) [1] وقد يكــون المعــنى من الــزوجين : أي ان ما في الجنة الأول موجـود في الثانية ، فيكـون المقصـود المقابلة وأو يكـون المعــنى : نــوعين من الفاكهة الواحــدة ، ويحتمل معــنى التكامل ، بحيث تجد لكل فاكهة اخـــــرى تكملها شـــــكلا وفائدة ، وكما نعيم الجنة يكمل بعضه بعضا ، كذلك عذاب النار ، فجهنم يكملها الحميم الآن.

وهــذا النعيم لا يحصل عليه إلّا من عــرف الــرحمن ، وقدّره حق قدره ، فصدق آلاءه ، وخاف مقامه.

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

وهـذه الآيـات تؤكّد أن الحـديث عن الجنة والنـار حق وليس مجرد إثارة لحالة الطمع والخوف عند البشر ــ كما يـزعم البعض ــ ذلك ان ربنا غـنيّ عن مخالفة وعـده ، أو بيــــان ما ليس بحق ، وان قدرته في موضع الرحمة ، أو في موضع النكـال والنقمة مطلقة لا يحـدها شـيء ، (**إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُـونُ**) [2] ولكن مشـكلة الإنسـان أنه يقيس الأمـور على قـدره ، وحسب قدراته وفهمه المحدودين ، فلأنّه لا يستطيع إحياء المـوتى يشكك في البعث ، ولأنه محجوب عن علم المستقبل وما لا يراه ، تراه يرتاب في الغيب أو يكفر به ، وهذا نــوع من الشـرك الفكـري ، قـال تعـالى : (**وَما قَـدَرُوا اللـهَ حَـقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ**

(1) البقرة / 25
(2) يس / 82

وَالسَّـماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِـهِ سُـبْحانَهُ وَتَعـالى عَمَّا يُشْرِكُونَ) [1].

وحتى يتجاوز الإنسـان هـذا الشـرك الـذي يقـوده الى التكذيب بآيات الله ، يجب أن ينظر الى الأمـور ، وبالـذات الحقائق الكبـيرة من خلال الايمـان بقـدرة الله المطلقة ، (**ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**) [2].

[54 ـ 55] بلى. ان الجنة حق ، كما الوجـــود حق ، وكما الموت حق ، والذين يدركون هذه الحقيقة ببصائرهم ، وينفذ نور الايمان بالله الى كل ابعـاد قلـوبهم ، فـإنهم لا يعرفــون وقفة عن العمل الصــالح ، والكلم الطيب حــتى الرمق الأخير ، انهم صيح بهم فانتبهوا ، وعلمـوا ان الـدنيا ليست لهم بـدار فاسـتبدلوا ، وما تركـوا لحظة تمر عليهم من ليل ولا نهــار ، إلّا ازدادوا فيها ايمانا وعملا في ســبيل الله ، لأنهم أدركــوا بــان الحيــاة الــدنيا فرصة محــدودة يخسرها من يغفل عنها.

وإليك برنــامجهم في الحيــاة عن لســان أمــيرهم وسيدهم الامام علي (ع) :

«أما الليل فصافون أقدامهم ، تالين لأجـزاء القـرآن ، يرتلونها ترتيلا ، يحزنون به أنفسـهم ، ويسـتثيرون به دواء دائهم ، فــاذا مــرّوا بآية فيها تشــويق ركنــوا إليها طمعا ، وتطلعت نفوسهم إليها شـوقا ، وظنـوا انها نصب أعينهم ، وإذا مـرّوا بآية فيها تخويف أصـغوا إليها مسـامع قلـوبهم ، وظنــوا أن زفـير جهنم وشـهيقها في أصـول آذانهم ، فهم حــانون على أوســاطهم ، مفترشــون لجبــاههم وأكفهم وركبهم ، وأطراف أقدامهم ، يطلبـون الى الله تعـالى في فكاك رقابهم ، وأما النهار فحلمـاء علمـاء ، أبـرار أتقيـاء ، قد براهم الخوف بري القداح ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى ، وما بالقوم من مرض ويقول : لقد خولطوا!

---

(1) الزمر / 68
(2) الحج / 74

ولقد خــالطهم أمر عظيم! لا يرضــون من أعمــالهم القليل ، ولا يستكثرون الكثير ، فهم لأنفسهم متهمون ، ومن أعمــالهم مشــفقون. إذا زكّي أحد منهم خــاف مما يقال له ، فيقول : أنا أعلم بنفسي من غيري ، وربي أعلم بي منّي بنفسي! اللهم لا تؤاخذني بما يقولون ، واجعلــني أفضل مما يظنون ، واغفر لي ما لا يعلمون.

فمن علامة أحدهم أنك ترى له قــوة في دين ، وحزما في لين ، وأيمانا في يقين ، وحرصا في علم ، وعلما في حلم ، وقصدا في غنى ، وخشوعا في عبــادة ، وتجمّلا في فاقة ، وصـبرا في شـدة ، وطلبا في حلال ، ونشـاطا في هــدى ، وتحرجا عن طمع ، يعمل الأعمــال الصــالحة وهو على وجل ، ويمسي وهمه الشكر ، ويصـبح وهمه الـذكر ، ويبيت حـذرا ، ويصـبح فرحا ، حـذرا لما حـذّر من الغفلة ، وفرحا بما أصـــاب من الفضل والرحمة ، ان استصـــعبت عليه نفسه فيما تكـره لم يعطها سـؤلها فيما تحب ، قـرة عينه فيما لا يـــزول ، وزهادته فيما لا يبقى. يمـــزج الحلم بــالعلم ، والقــول بالعمــل. تــراه قريبا أمله ، قليلا زلله ، خاشـعا قلبه ، قانعة نفسه ، مـنزورا أكله ، سـهلا أمـره ، حريــزا دينه ، ميّتة شــهوته ، مكظوما غيظــه. الخــير منه مـأمول ، والشر منه مـأمون. ان كـان في الغـافلين كتب في الـــذاكرين ، وان كـــان في الـــذاكرين لم يكتب من الغـــافلين. يعفو عمن ظلمه ، ويعطي من حرمه ، ويصل من قطعه. بعيدا فحشه ، ليّنا قوله ، غائبا منكره ، حاضـرا معروفه ، مقبلا خيره ، مدبرا شـره ، في الـزلازل وقـور ، وفي المكـاره صـبور ، وفي الرخـاء شـكور. لا يحيف على من يبغض ، ولا ينسى ما ذكّر ، ولا ينـــابز بالألقـــاب ، ولا يضــار بالجــار ، ولا يشــمت بالمصــائب ، ولا يــدخل في الباطل ، ولا يخرج من الحق. ان صـمت لم يغمّه صـمته ، وان ضحك لم يعل صوته ، وإن بغي عليه صبر حتى يكـون الله هو الذي ينتقم له. نفسه منه في عنـاء ، والنـاس منه في راحـــة. أتعب نفسه لآخرته ، وأراح النـــاس من نفسه بعـــده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة ، ودنـــوه ممن دنا منه لين ورحمة. ليس تباعده بكبر وعظمة ،

ولا دنوه بمكر وخديعة» [1].
هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فإنهم ينوون مواصلة التعب شكرا لله ، ولكنهم فور ما يسجدون يخاطبهم الجليل الأعلى ليس هذا يوم تعب وعبادة ، انها دار الراحة والحصاد بعد تعب الدنيا وعملها.

(**مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ**).

أي داخل المتكأ وحشوه من الديباج الغليظ ، والإستبرق كما قالوا : كلمة معربة من قولهم : (ستبرك) وهو مصغر (ستبر) بمعنى الثخين الغليظ ، وقالوا : ان ما كان حشوه حريرا خالصا فظاهره يكون كذلك بالأحرى [2].

والآية بكل مفرداتها وايحاءاتها تعبير بليغ عن أقصى غايات الراحة ، فهم متكئون وعلى فرش الحرير الناعم البارد والمريح ، ومن حولهم كل صنوف الفواكه ، ومن تحتهم الأنهار بأنواعها ، وتظلهم الأغصان النضرة الخضراء الندية.

(**وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ**)

الإنسان في الدنيا لا يحصل على شيء إلّا بالتعب وبذل الجهد ، والفلاح لا شك انه يلقى تعبا في الحصاد وقطف الثمار ، لان بعضها بعيد عن متناول يده ، فلا بد أن يتمطى لقطفها أو يركب الشجرة أو يستخدم وسيلة لذلك أي انه لا بد ان يبذل جهدا اما في الآخرة فان ثمر الجنة متدل قريب متى ما اشتهى المؤمن شيئا منه تناوله بيده عن قرب ودنو ، أو يتدلى اليه الغصن بقدرة الله ، فهو لا يتعب من أجل ذلك ، وفي الكلمة ايحاء بأن الثمر في غاية النضج ، وعلى الدوام ولا يتلف ، يقال دنت

---
(1) نهج / خ 193 ص 303
(2) تفسير الرازي / ص 26 ج 29

الثمرة إذا نضجت واقترب قطافها.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو : لما ذا حدّثنا ربنا بصيغة المضارعة عن الاتكاء ، والحال كما نفهم ان الصيغة يجب ان تكون للمستقبل (سيتكئون)؟

الجواب : لان المتكلم هو الله ، وما يريده الله ويعد به يحدث لا محالة ، وسواء عنده تحدث بصيغة الماضي أو الحاضر أو المستقبل ، لأنه قادر فعلا على تحقيقه ، مثل قوله على صيغة الماضي : (**وَأَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ**) [1] أو بصيغة المستقبل كقوله تعالى : (**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ**) [2] أو بكليهما : (**أَتى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ**) [3] فقد أكد وقوع امره بصيغة الماضي «**أَتى**» حتى لكان أمره وقع فعلا ، ولكنه استدرك قائلا : «**فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ**» دلالة عدم تحقق وقوعه.

نعم. بالنسبة للمخلوق لا يصح منه القول : فعلت أو سأفعل إذا كان يريد شيئا في المستقبل ، لان إرادته محدودة باطار مشيئة الله ، وقد تعجزها الظروف والعقبات (**وَما كانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً**) [4].

وبعد ان يشير القرآن الى اتكاء المتقين الخائفين مقام ربهم على فرش الحرير ، بين صنوف الفواكه الدّانية يوجه خطابه الى الثقلين : بما ذا تكذّبان من هذه الآلاء الربانية؟

---

(1) الأنبياء / 86
(2) النساء / 57
(3) النحل / 1
(4) فاطر / 44

هكــذا بعد ذكر كل نعمة من نعيم الآخــرة يــأتي هــذا التساؤل ليهـدينا الى ضـرورة حمد الله وشـكره على آلائه في الدنيا عند كل خير ونعمة.

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

[56 ـ 57] (**فِيهِنَّ قاصِـراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ**)

جاء في المنجد : «الطمث : مصدر الدنس والفساد» [1] وسـمي دم الحيض طمثا لفسـاده ، وحيث ان البكـارة عنوان الطهر والعفة عند المرأة ، فان افتضـاض بكارتها ، وخـروج الـدم دليل فسـاد المـرأة أو فسـاد بكارتها الـتي تذهب بذلك ، ولا ريب ان الواحد يأنس بالبكر ويرغب إليها أكـثر من الـثيب ، وحـور كل جنة انما خلقن لصـاحبها لا يسـبقه إليهن أحد من الخلق ، وحيث يـأتيهن يـرى علامة ذلك فهن طاهرات.

ولكن لمـاذا يقـول الله «**وَلا جَـانٌّ**»؟ ربما لان الجنة للمؤمنين من الإنس والجن ، فأراد التأكيد على عدم سبق أحد إليهن ، والتأكيد على الطهـــارة الشـــاملة ، ذلك أن الشـيطان يوسـوس للمـرأة ، ويثـير غلمتها عـبر الخيـال ، وبالذات حين بلوغها ، وقد تنتهي بها تلك الوسـاوس حـتى تفض بكارتها بصورة أو بـأخرى ، ولـذلك جـاء في القـرآن الأمر بالتعوذ منه.

ويسبق تأكيده تعـالى على طهـارتهن (الماديـة) بعـدم الطمث ، بيـــان لطهـــارتهن المعنوية ، فهن قد قصـــرن طرفهنّ (العيني والنفسي) من غير أزواجهن ، قـال أبو ذر رضي الله عنه : «انها تقـول لزوجها : وعـزة ربي ما أرى في الجنة أخـــير منك ، فالحمد لله الـــذي جعلـــني زوجك وجعلك زوجي» [2] وهكذا حال الطاهرات العفيفات من

---

(1) راجع مادة طمث

(2) نور الثقلين / ج 5 ص 198

النسـاء ، وحـال الأزكيـاء من الرجـال انهم يمنعهم خـوف مقام ربهم ان يمدوا عيونهم الى ما حرم الله عليهم ، وإذا كان الأمن في الآخـرة جـزاء خـوفهم في الـدنيا ، والراحة (اتكاؤهم على الفرش) جزاء تبعهم وعملهم الـدؤوب فيها ، فان تلكم الحور جزاء لطهارتهم في الـدنيا ، بغضـهم من أبصـارهم ، وتـرفعهم عما حـرم الله ، اسـتجابة لدعوته ، والتزاما برسالته (**قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّـوا مِنْ أَبْصـارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلِكَ أَزْكى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيـرٌ بِما يَصْـنَعُونَ**) [1] ولعلنا نهتـدي من علاقة قصر الطـرف بالطمث ، ان النظـرة المحرمة قد تنتهي الى الزنا ، وذلك مضمون روايات كثيرة ، منها قـول نـبي الله عيسى (ع) : «لا تكـونن حديد النظر الى ما ليس لك فانه لن يـزني فرجك ما حفظت عينك ، فإن قدرت أن لا تنظر إلى ثوب المرأة التي تحل لك فافعل» [2] وربما نهتدي بذلك الى ان الجنتين ليستا مـنزلا لمن خـاف ربه من الرجـال فحسب ، بل حتى للمؤمنات العفيفـات ، اللـواتي منعهن خـوف الله حـتى من مجـرد النظر الحـرام فهن من السـابقات الطـاهرات ، وربنا يجعلهن يـوم القيامة سـيدات نسـائها ، وأعظم جمـالا ، جـزاء تقـواهن وطهـارتهن ، حيث يجعلهن كالياقوت والمرجـان ، ولا ريب ان ذلك مما تتطلع اليه كل أنثى.

جـاء في تفسـير نـور الثقلين ج 5 ص 201 نقلا عن كتـاب من لا يحضـره الفقيه عن الامـام الصـادق (ع) : «الخيرات الحسان من نسـاء أهل الـدنيا ، وهن أجمل من الحور العين».

ومعـنى قوله : «**لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ**» انهن في الجنة يـرجعن أبكـارا على الـدوام ، بحيث إذا جـاءهن أتـرابهن من المتقين وجـدوهن أبكـارا ، لم يسـبقهم أحد إليهن ، أو ان المعـنى ، بـالطمث المحـرم ، فهن بعيدات عن ذلك ، ولم يتورطن

---

(1) النور / 30
(2) تنبيه الخواطر ، ونزهة النواظر (مجموعة ورام) ج 1 ص 62

فيه ماديا ولا معنويا ، فهن من الزوجـــــات الـــــتي وعد المتقون : (**وَأَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ**) [1] كما تشمل الآية قاصرات الطرف من الحور اللواتي يخلقهن الله للمتقين خصوصا ، ولكن المعنى قد يكـون : أنهن قصـرن أنظـارهن عن غـير أزواجهن ، وان عدم الطمث يكون مطلقا ، فهن أبكار في الجنة ولم يفضّ بكارتهن أحد قبلهم.

وبالعودة الى أول الآية ، ومقارنتها بالآيـات السـابقة (48 ـ 50 ـ 52) نجد الخطــاب بالتثنية «ذواتا ، فيهمـا» عطفا على الجنـــتين ، ولكنه هنا جـــاء بصـــيغة الجمع «**فِيهِنَّ**» وذلك اما وصلا بالحديث عن الفرش وهو قـريب ، حيث يجلس المؤمنـــون معهن عليها ، قـــال تعـــالى : (**مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ**) [2] وقـــــال : (**هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِـؤُنَ* لَهُمْ فِيها فاكِهَـةٌ وَلَهُمْ ما يَـدَّعُونَ**) [3] وهـذا العطف يشـبه وصله الآية (58) بالآية (56) ، واما يكون المعنى : ان في الجنتين المذكورتين ـ وهما الأساس ـ جنات كثيرة في كل واحـــدة قصـــورها وحورها الخاصة بها ، وقـــال بعض المفسـرين : ان ذلك متصل بالآية السـابقة «**فَبِـأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**» باعتبـار الحـور شـيئا من تلك الآلاء ، وان رحمة الله تحيط بالإنسـان من كل جـانب ، وهي تمتد الى الآخرة وتتسع هناك ـ في الجنة ـ للمؤمـنين ، بما لا يقـاس بالـدنيا ، ففي الجنة التجلي الأعظم لاسم الـرحمن ، حيث النعم المتميزة كمّا ونوعا وتنوّعا ، وإذا كانت رحمته تعالى تشمل المحسن والمسيء في الدنيا فهي هناك للمؤمـنين وحدهم ، لأن الآخرة دار الفصل.

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

بلى. أنتم يا معشر الجن والإنس قد تكـذبون بآيــات الله ، وتكفرون بنعمه ،

(1) آل عمران / 15
(2) الطور / 20
(3) يس / 56 ـ 57

ولكنها تظل تتـــــوالى عليكم ، وربما زادها الله لـــــيزداد المكـــــذب إثما ، فلا يبقى ثمة حظ له في الآخـــــرة ، ولا نصـــيب من رحمة الله ، ورحمة ربك خـــير مما يجمعـــون (**وَلَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُـرُ بِـالرَّحْمنِ لِبُيُـوتِهِمْ سُـقُفاً مِنْ فِضَّـةٍ وَمَعـارِجَ عَلَيْها يَظْهَـرُونَ* وَلِبُيُـوتِهِمْ أَبْوابـاً وَسُـرُراً عَلَيْها يَتَّكِـؤُنَ* وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْآخِـرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ**) [1] وما قيمة حطام الـدنيا حـتى يغـتر به الإنسـان ، فيعتـبره خـيرا كلما زاده الله منه ، ويتخـذه وسيلة للتمادي في الكفر ، والتكذيب بالرحمن ـ عزّ وجـلّ ـ إنه سـوف يحـرم نفسه من رحمته العظمى في الآخـرة من العيـون ، والأنهـار ، والفواكه ، وفـرش الإسـتبرق ، والحـــــور العين ، فلما ذا يحيل رحمة ربه له في الـــــدنيا خسارة لذلك النعيم ، وغضبا عليه بسبب التكذيب؟!

ولاننا لا نسـتوعب حقيقة نعيم الاخـرة ، فانه تعـالى يشير اليه إشارة تقريبيّة ، من خلال التشـبيه ، ففي الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن ســــمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وفي الأخبار لو حدث الله الناس عن الجنة كما هي لما صـــدقوا ، ولعلنا نهتـــدي الى هـــذا المعـــنى من الآية الكريمة : (**فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُـــــرَّةِ أَعْيُنٍ جَـــزاءً بِما كـــانُوا يَعْمَلُـــونَ**) [2] إذ ينفي ظاهرها امكانية العلم أصلا.

ولكي نقترب من هـذه الفكـرة دعنا نتصـور قاصـرات الطرف : هل هن يشبهن نساء الدنيا؟ وما مدى جمالهن؟

قد نجيب على تلك الأسـئلة ، ولكن بـأي دليل ، وعلى أي مقيـاس؟! لعل عقولنا بل خيالاتنا تتمكن من اسـتيعاب أقصى حد للجمـال ، بأجمل امـرأة في العـالم ، ولكن هل يمكنها ان تتصـور جمـالا يفـوق ذلك مليـون مـرة؟! كلا .. لذلك يقول ربنا وهو

---

(1) الزخرف / 32 ـ 35

(2) السجدة / 17

يحدثنا عن قاصرات الطرف مشبها :
(**كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجانُ**)

قيل يشـبهن اليـاقوت صـفاء ، فبشـرتهنّ لا يشـوبها عيب ، وتشـبه المرجـان حمـرة ، أو هي ناصـعة البيـاض مشرّبة بحمرة اليـاقوت ، وربما نسـتوحي من الآية معـنى آخر فكما ان الياقوت ليس كأيّ حجر يحصل عليه الإنسان بسـهولة ، بل لا بد له من البحث عنه والاجتهـاد ، وكما ان اليد لا تصل الى المرجـان إلّا بـالغوص الى أعمـاق البحـار وتحمل المشـقة ، فـان للجنة ثمنا لا يحصل عليها صـاحبها الا به ، قال تعالى : (**أَمْ حَسِـبْتُمْ أَنْ تَـدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَـأْتِكُمْ مَثَـلُ الَّذِينَ خَلَـوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّـتْهُمُ الْبَأْسـاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُـولَ الرَّسُـولُ وَالَّذِينَ آمَنُـوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللهِ**) [1].

ولعل شكر نعم الله المادية والمعنوية من أهم مفاتيح الجنة ، فـإن شـكر الآلاء بـارك له وزاده ، ليس في الـدنيا وحسب ، بل في الآخـــرة أيضا ، لأنها امتـــداد للأولى ، ومصيره فيها يحدده موقفه من نعم الله.

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

وللعبد أن يعـــرف حجم تكذيبه بـــآلاء ربه ، من خلال العـذاب الـذي سـوف يلقـاه في الآخـرة ، ومن الحسـرة والندامة التي تحل به جزاء خسـارته الأبدية الكـبرى لنعيم الجنة وثوابها.

[60] كل أبعاد الخليقة نعمة وهي ـ بالتالي ـــ من آلاء ربنا الرحمن ،

---

(1) البقرة / 214

وأصحاب الجنة هم الذين تحسّسوا شهود ربهم عبر آلائه ، وعرفوه فآمنوا برسالاته ، واتبعوا رسله ، واتقوه حق تقاته ، فأحسنوا بذلك في الدنيا .. لقد أحسنوا التصرف في نعم الله وآلائه كلها ، فكان من إحسانهم بذلهم إيّاها للآخرين. إنهم أدركوا بعمق معنى الخوف من مقام ربهم ، فلم يجعلوه محدودا بقلوبهم ، بل جعلوه برنامجا متكاملا لحياتهم ، وإذا بهم يفيضون فاعلية وعطاء وتضحية ، فتراهم يبذلون كل ما يملكون ، اتقاء غضب الله ، وطمعا في رضاه وثوابه ، ولن تذهب أعمالهم سدى ، ولو كان بمقدار حبة من خردل خيرا يأتي به الله ليجزي عليه صاحبه (**إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**) [1] انما يحفظه وينميه وينمي به خير فاعله ، ويرده عليه في الدنيا والآخرة ، (**يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ**) [2] ، ولقد فطر الله الحياة بهذه السنة ، ان الإنسان يحصد ما يزرع ، فان زرع خيرا حصد الخير ، وان زرع الشر لا يحصد إلّا الشر.

(**هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ**)

انها حقيقة فطرية يشهد بها الجميع : ان الإحسان لا يكافئ إلّا بالإحسان وتتجلى هذه الحقيقة في أبهى صورها في الجنة ، وهكذا القرآن يستثير في البشر ركائز فطرتهم ليستشهد بها على أنفسهم بما جبلوا عليه ، وتعارفوا فيما بينهم به.

يروى عن علي بن سالم انه قال : سمعت أبا عبد الله الصادق (عليه السلام) يقول : «آية في كتاب الله مسجلة» قلت : وما هي؟ قال : «قول الله عزّ وجلّ : «**هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ**» جرت في الكافر والمؤمن ، والبر والفاجر ، ومن صنع اليه معروف فعليه أن يكافئ به ، وليس المكافأة أن يصنع كما صنع

---

(1) التوبة / 120
(2) البقرة / 276

حــتى يــربى ، فــان صــنعت كما صــنع كــان له الفضل بالابتداء» [1].

وجاء في حديث مـأثور عن النـبي ــ في تأويل الآية ــ «**هل جزاء من أنعمنا عليه بالتوحيد إلّا الجنة**» [2].

[61] وتنعكس هـذه الآية على سـلوك المـؤمن فيتخذ آلاء ربه المسبغة عليه سلّما الى الكمـال الـروحي ، وبنـاء المجتمع ، وسـببا الى نيل رضــوان الله ، وليست وســيلة الى التكذيب به تعالى كما يفعل الكثير من الجن والإنس.

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

أو ليس قد أحسن الله إليهم وأســــــــبغ عليهم نعمه ظـــاهرة وباطنة ، فكـــذبوا بآلائـــه؟! ولمــاذا نبخل على الآخرين؟! وما يدريك لعل الله يقطع إحسـانه عنا إذا تركنا الإحسان الى النـاس ، أو ليس لله ملكين يناديـان كل ليلة جمعة : «اللهم أعط كل منفق خلفا ، وكل ممسك تلفا» [3] فعلى م البخل اذن؟! كما ان في داخلهم إحســــــــاس عميق بـــأنهم لا يملكـــون النعم ، وانما هي أمانـــات الله اسـتخلفهم فيها ، فلما ذا يخرجــون عن امــره بإنفاقهـا؟! يقول سبحانه : (**وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيـهِ**) [4] (**وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الـدُّنْيا ، وَأَحْسِـنْ كَما أَحْسَـنَ اللـهُ إِلَيْـكَ وَلا تَبْـغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**) [5].

وكما ان الإحسان يجلب الإحسـان والزيـادة في النعم ، فـان الاسـاءة والفسـاد في الأرض يسـلب النعمة ، بل ويجعلها نقمة ، قال ربنا سبحانه : (**إِنْ أَحْسَنْتُمْ**

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 199
(2) المصدر / ص 198
(3) بحار الأنوار / ج 96 ص 117
(4) الحديد / 7
(5) القصص / 77

أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها) [1].

[62] ثم يمضي السياق يحدثنا عن جنتين أخريين ، تختلفان في نعيمهما عن الأوليتين

(**وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ**)

يبدو من المقارنة بين الجنان الأربع وسائر النصوص ان درجات الجنة عديدة والناس فيها متفاضلون ، فبالرغم من أن أهل الجنة جميعهم منعّمون وراضون بما قسم الله لهم من الفضل ، ولكنهم كما تفاوتوا في الايمان والعمل في الدنيا فإنهم يتفاوتون ويتفاضلون في درجات الجنة ، قال تعالى : (**هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ**) [2] وحتى الأنبياء يتفاضلون فيما بينهم ، قال الله : (**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ**) [3] وهذا التفاضل الذي يقرّه الله ليس اعتباطيا ، انما يعتمد الحكمة والعلم قال تعالى : (**نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**) [4].

وقال النبي (ص) : «جنتان من فضة ، أبنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب ، أبنيتهما وما فيهما» [5] ، وقال الامام الصادق (ع) يخاطب أحدا : لا تقولن الجنة واحدة ، ان الله يقول : «**وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ**» ولا تقولن درجة واحدة ، ان الله يقول : «درجات بعضها فوق بعض» ـ ثم أضاف ـ «**انما تفاضل القوم بالأعمال**» [6]. ولكن اختلاف الدرجات والتفاضل لا يخلف أثرا

(1) الإسراء / 7
(2) آل عمران / 163
(3) البقرة / 253
(4) الأعراف / 83
(5) مجمع البيان / ج 9 ـ 10 / عند تفسير الآية
(6) نور الثقلين / ج 5 ص 200

من حسد أو بغضاء بين المؤمـنين هنـاك بعكس حـال أهل الـدنيا حيث يتعـالى الغـني على الفقـير ، أو العـالم على الجاهل ، أو الحـاكم على المحكـوم ، قـال ربنا : «**وَنَزَعْنا ما فِي صُـــدُورِهِمْ مِنْ غِـــلٍّ إِخْوانـــاً عَلى سُـــرُرٍ مُتَقابِلِينَ**» [1] فهم راضون قانعون بما قسم الله لهم ، إذ يعلمـون بحكمته وانهم الـذين وضـعوا أنفسـهم حيث هم ، قال رسول الله (ص) في وصـيته لابي ذر (ر ض) : «يا أبا ذر! الدرجة في الجنة كما بين السـماء والأرض! وان العبد لـيرفع بصـره فيلمع له نـور يكـاد يخطف بصـره ، فيفـزع لذلك ، فيقول ما هـذا؟! فيقـال : هـذا نـور أخيك ، فيقـول أخي فلان! كنا نعمل جميعا في الـــدنيا ، وقد فضل عليّ هكذا؟ فيقـال له : إنه كـان أفضل منك عملا ثم يجعل في قلبه الرضا حتى يرضى» [2] ولعل أعظم مقاييس التفاضل : التطـــوع في ســـبيل الله فهنـــاك فريق من المؤمـــنين ينذرون أنفسهم في سـبيل الله ، وهم مفضـلون على من سواهم ، وسواء كان هؤلاء ربانيين أو أحبـارا أو مجاهـدين فإنهم السـابقون بـالخيرات على عامة المؤمـنين ، الـذين يلـتزمون بالواجبـات ، ويتجنبـون المحرمـات ، ويعملـون الحســـنات ، ولكنهم لا يتطوعـــون كليّا لله ، بل تـــراهم يمارسون حياتهم العادية ضـمن ما شــرع لهم ربهم ، وهم القاعدون الذين وعـدهم الله الحسـنى أيضا ، ولكن فضل عليهم المجاهدين أجرا عظيما.

والقاعـدون من المؤمـنين أمثـال العمـال والفلاحين والحرفيين والتجار والموظفين ، وسـائر أبنـاء الأمة ، بينما المجاهـــدون هم المتصـــدون لقضـــايا الأمة ، كالعلمـــاء العاملين والمجاهدين في سبيل الله ، ان هـؤلاء يسـهرون على مصـالح الأمة ، ويبـادرون للـدفاع عنها ، ويتصـدون لقيادتها نحو الخـير والحق ، متحملين في ذلك الصـعاب ، انهم يستقرون في منازلهم ودرجـاتهم الرفيعة في الجنة ، يقول من دونهم إذا نظروا إليهم :

(1) الحجر / 47
(2) بح / ج 77 ص 78

«ربنا إخواننا كنا معهم في الــدنيا فبم فضــلتهم علينــا؟! فيقال : هيهات هيهات! انهم كانوا يجوعون حين تشبعون ، ويظمأون حين تروون ، ويقومون حين تنامون ويشخصون حين تحفظــون» [1] هكــذا قــال رســول الله (ص) ، ولعلنا نلمس في النصوص المأثورة عن النـبي والأئمة (ع) أبعـاد هـذا التمـايز ، فمثلا أكـثر وصـاياهم وكلمـاتهم موجهة الى عامة الناس ، بينما نجد في كلمـاتهم وصـايا تخص الطلائع والقـــادة من أمثـــال كميل ، وأبي ذر ، وســـلمان ، وابن مسعود ، وابن جندب.

وانما يؤكد الله هـــذا التفاضل ـــ كما هو الحـــال في حديثه هنا عن الجنـات الأربع ــ لكي يتسـابق النـاس الى الخير ، وقد صرح القرآن بهذا الهـدف إذ قـال : (**سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُـها كَعَـرْضِ السَّـماءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُـلِهِ**) [2] بل اعتـبر القـرآن التسـابق في إتقـان العمل هـدفا للخلق : (**وَهُـوَ الَّذِي خَلَـقَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِـتَّةِ أَيَّامٍ وَكـانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**) [3] وقـال : (**الَّذِي خَلَـقَ الْمَـوْتَ وَالْحَيـاةَ لِيَبْلُـوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَـنُ عَمَلاً**) [4].

ونخلص الى القول بان الدونية في الآية بمعـنى الأقل في الفضل ، كقولنا فلان دون فلان في العلم ، فهو أقل منه علما ، وعليه فـــان الجنـــتين الأخـــريين اما تكونـــان لصــاحب الجنــتين الاوليــتين المــذكور في قوله تعــالى : «**وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتـانِ**» يسـتقبل فيهما من هو أقل منه فضلا ودرجة عند الله ، وهما بـــذلك دار ضـــيافته لإخوانه من المؤمــنين ، الــذين يــتزاورون في الجنة ، أما الأوليتين فتخصه ويسـتقبل فيهما أو في إحـداهما انـداده ، أو تكونـــان (الأخـــريين) مـــنزلا لمن هم أقل درجة ممن يخافون مقام ربهم.

---

(1) بح / ج 77 ص 77
(2) الحديد / 21
(3) هود / 7.
(4) الملك / 2

وقد تكـون الجنتـان الـدانيتان هما في الـدنيا معـدّتان لمن خاف مقام ربه قبل دخول جنة الخلد ، وبذلك جـاءت رواية عن الامـام الصـادق عليه السـلام ، قـال عنهما : «**خضـراوتان في الـدنيا يأكل المؤمنـون منها حـتى تفرغ (يفرغون) من الحساب**» [1].

[63] ومما يحـدد درجة العبد ابتـداء من أعلى درجة في الجنة وانتهـاء بأسـفل درك في النـار موقفه من آلاء ربه ، وذلك بمـدى تصـديقه أو تكذيبه بها ، ومـدى انتفاعه منها ، ومدى حسن تصرفه فيها.

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

ما هو مدى التكذيب بها ، فقد يكون مستوى التكذيب هو الكفر والجحود ، وقد يكـون عـدم اسـتغلال النعمة كما ينبغي ، فهو الآخر نـوع من التكـذيب بالنعمة قد لا يقصـده الإنسان ، ولكنه ينعكس على مستقبله في الآخرة ، وربما يـؤدي أحـدنا شـكر نعمة دون اخـرى ، فيـودي شـكر نعمة العلم ، ويقصر في نعمة المـال ، أو يطبق آية من القـرآن ويـــترك اخــــرى ، أو يعصي بعينه من خلال النظر الى ما حرم الله ، بينما لا يستمع الى الغيبة والنميمة ، فيكون قد ادى شكر نعمة الاذن دون نعمة العين.

[64 ـ 65] ويضع الـوحي أمامنا صـورا عن ذات النعم التي ذكرها فيما يتعلق بالجنتين الاوليتين للمقارنة بينهما ، لنختار الأفضل بينهما ونجعلهما هدفا نسـعى نحو تحقيقه ، بأقصى ما يمكن من السعي.

(**مُدْهامَّتانِ**)

والدهمة سواد الليل ، وقولنا : ليل أدهم يعـني شـديد الظلام ، ويعبر بها عن

(1) تفسير نور الثقلين / ج 5 ص 200

سـواد الفـرس [1] والخضـرة الشـديدة الغليظة المتواصـلة لأنها تضـرب الى السـواد ، ويقـرب الإمـام الصـادق عليه السلام صورتهما حين يقول : «يتّصل ما بين مكة والمدينة نخلا» [2] وحينما نعقد مقارنة بين كلمة «**مُـدْهامَّتانِ**» وما يقابلها في وصف الجنتين الاوليتين «**ذَواتا أَفْنانٍ**» نعـرف ان الاوليتين خضراوتان أيضا ولكن أشجارها ذوات أغصـان كأشـجار الفاكهة ، ولعل أغلبها منها ، بينما الجنتـان اللتـان دونهما ليستا كذلك ، وهذه الأشجار إذا انضمت الى بعضها واتصلت تضرب الى الخضرة ، وتكون جميلة ذات السـوق الطويلة ، ولكن جمال ذوات الأفنان وفوائدها أكـثر ، ولعل أحد أبرز أسباب التفاضل بين النوعين من الجنان هو مدى الشكر آلاء الله أو التقصـير فيهـا. جـاء في الأثر عن العلاء بن ســـيابة عن أبي عبد الله (ع) قلت له : ان النـــاس يتعجبون منا إذا قلنا : يخرج قوم من النار فيدخلون الجنة! فيقولون لنا : فيكونـون مع أوليـاء الله في الجنـة؟! فقـال (ع) : يا علي ان الله يقــول : «**وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتـانِ**» ما يكونــون مع أوليــاء الله [3] فــاذا كنا نــرغب في درجــات الأولياء ، يجب أن نستجيب لنداء القرآن المتكرر :

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

قـــائلين كما قـــال المؤمنـــون من الجن ، وكما امر الرســـول الأعظم (ص) : «**لا ولا بشـــيء من آلاء ربنا نكذب**» [4].

[66 ـ 67] ويأخذنا القرآن الى داخل الجنـتين ، ويقف بنا هذه المرة على مقربة من عينين تنبعـان بالمـاء وحيث نقارن بينهما وبين العينين اللتين مر ذكرهما

---

(1) مفردات الراغب
(2) نور الثقلين / ج 5 ص 200
(3) المصدر
(4) المصدر / ص 188

نجدهما أقل منهما لأنهما لا تجريان.

(**فِيهِما عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ**)

جاء في المنجد : نضخ الماء اشتد فورانه من ينبوعه ، وعين نضاخة فوارة غزيرة [1] وفي تفسير الدرّ المنثور : اخرج عبد الحميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن البراء بن عازب قال : العينان اللتان تجريان خير من النضاختين ولفظ عبد قال : ما النضاختان بأفضل من اللتين تجريان [2]. وهذا لا يعني ان ليس في هاتين الجنتين أنهار تجري من تحتها ، ولكن الله يضيف الى أصحاب الجنتين الاوليتين سواقي وأنهارا تجري من العيون حيث لا توجد هذه الميزة في اللتين دونهما.

وهذا بالطبع لا يقلل من شأنهما أبدا ، ذلك ان مجرد النجاة من النار فوز عظيم. قال تعالى : (**كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ**) [3].

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

وهذه الآية يجب ان تكون لنا شعارا ، فأي نعمة من نعم ربنا التي لا تعد ولا تحصى ـ والتي هي آية على رحمانيته ـ يمكننا أن ننكرها ونكذب بها؟! ثم لماذا نكذب بآلاء الرحمن؟! وانه يكشف لنا عن غيب رحمته ، ويفتح لنا أبوابها ، ثم يدعونا بلطفه لكي لا تفوتنا ، بلى. قد تفوتنا الجنتان الأوليتان ولكن دعنا نتقيه ما استطعنا لندخل الجنتين الأخريين ، أو ليست هذه نعمة وآية تدلنا الى رحمته؟

---

(1) المنجد / مادة نضخ
(2) تفسير الدر المنثور / ج 6 ص 150
(3) آل عمران / 185

[68 ـ 69] ثم لننظر الى آياته ونعمه في الطبيعة من حولنا ، ولنستمع الى كتابه وهو يحدثنا عن جنتين هما دون الــدرجات العلى ، ولكنهما مظهر لرحمته تفوقــان خــير الدنيا ونعيمها.

(**فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ**)

وقد اختلف المفســرون في تحديد العلاقة بين الثلاثة (الفاكهة والنخل والرمان) فقال بعضهم : ان الفاكهة اسم الجنس العـام وما يليها تفريع وتخصـيص ، واعتــبر البعض الثلاثة أجناسا مختلفة ، وليس ثمر النخل أو الرمــــان من الفاكهة ، وقال آخرون : انه ذكر الجنس (الفاكهـة) وأشـار الى أفضلها وأحسنها (ثمر النخل ، والرمان) لقـول الامـام الصـــادق (ع) : «الفاكهة مائة وعشـــرون لونا ســـيدها الرمــان» [1] ولقوله : «خمس من فواكه الجنة : (منهــا) الرمان والـرطب» [2]. والـذي يهمنا ان الله ضـرب الثلاثة مثلا مما في الجنتين للإشـارة لا للحصـر. ومع ذلك تبقيـان دون الأوليتين علوا وسـعة ونعيما ، فهنـاك قـال الله فيهما «**مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ**» ليس واحدة ، بل «**زَوْجانِ**». وهنا قال «**فِيهِما فاكِهَـــــةٌ**» فقط ، وربما قصـــــرت الكلمة عن اسـتيعاب الجنس بكل مفرداته وأنواعه ، وهـذه المفارقة تشـبه الى حد بعيد قوله في سـورة الواقعة يصف ما في جنـــــــــات الســــــــابقين المقـــــــــــربين : (**وَفاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ**) [3] ، وقوله يصف جنات أصحاب اليمين الأقل منهم درجة : (**وَفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ* لا مَقْطُوعَـةٍ وَلا مَمْنُوعَـةٍ**) [4]. فأولئك ما يتخــيرون ويشــتهون حــتى ولو لم يكن موجــودا قبل التخير والشهوة ، ودون ذلك هؤلاء ، ولا غرابة فربنا يقـول وهو الصـادق : (**لا يَسْـتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَـقَ مِنْ قَبْـلِ الْفَتْحِ وَقاتَـلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَـةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُـوا مِنْ**

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 201
(2) المصدر / ص 200
(3) الواقعة / 20
(4) الواقعة / 32

بَعْدُ وَقاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنى) [1].

ان الجنتين إذا نظرنا الى نعيمهما وان كانتا دون الأوليتين فهما حقا مظهر لاسم الرحمن ، انه غني أن يخلقنا ولكنه بلطفه وحكمته خلقنا ، ثم لم يدعنا هكذا انما فطرنا على الحق والمعرفة به ، فهدانا الى النجدين ، وعلمنا ، ثم أعطانا العقل ، وأمرنا بالطاعة له ، وفتح لنا باب التوبة حتى تبلغ النفس التراقي ، وهو قادر بعد الموت أن لا يبعثنا ، وان بعثنا عذبنا ، ولكنه خلق الجنة ليكرمنا لا بعملنا ، فنحن لا نستطيع أن نؤدي شكر نعمة واحدة من نعمه ، بل بفضله الذي لولاه ما دخل أحد الجنة حتى رسوله الأكرم (ص) وهو القائل : «والذي نفسي بيده ، ما من الناس أحد يدخل الجنة بعمله» قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : «ولا أنا إلّا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل» وقد وضع يده على رأسه وطوّل بها صوته [2].

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

وليس لنا امام هذه النعمة إلّا القول : «**لا بشيء من آلاء ربنا نكذب**».

[70 ـ 71] ثم يقول وصفا لنعيم الجنتين :

(**فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ**)

فلما ذا خرج عن التثنية الى الجمع فلم يقل فيهما؟! هناك وجوه :

الأول : ان ذلك يدل على تعظيم شأن هاتين الجنتين بالرغم من انهما دون ما سبق الحديث عنه في وصف الجنتين الأوليتين.

---

(1) الحديد / 10

(2) بح / ج 7 ص 11

الثـاني : ان الكلام متصل بـالآلاء في الآية السـابقة ، باعتبار الخيرات الحسان من الآلاء.

الثـــالث : ان الحـــديث هنا ليس فقط عن الجنـــتين الأخـــريين بل عن كل الجنـــان بما فيها الجنتـــان الاوليـــان. وهذا أقرب الى السياق ، بالـذات حينما نقـول بـأن معـنى الخيرات الحسان هن النساء المؤمنات باعتبارهن الأفضل والأجمل ، وهكـذا قـال الامـام الصـادق (ع) : «الخـيرات الحســان من نســاء أهل الــدنيا ، وهن أجمل من الحــور العين» [1] ، وبقوله : «**هن صوالح المؤمنات العارفات**» [2].

وفي الخبر حـدث الرسـول (ص) عن نعيم الجنة ، ثم ذكر الحـور العين فقـالت أم سـلمة : بـأبي أنت وأمي يا رسـول الله أما لنا فضل عليهن؟ قـال : «**بلى بصـلاتكن وصـــيامكن وعبـــادتكن لله ، بمنزلة الظـــاهرة على الباطنة**» [3].

ومن معـاني الآية ما قاله رسـول الله (ص) : «يعـني خـيرات الأخلاق ، حسـان الوجـوه» [4] وانما تسـمى ذوات الأخلاق بـالخيرات ، لأن صـلاح المـرأة يعـود على زوجها وعلى المجتمع بالخير الكثـير ، كما ان فسـادها يـؤدي الى شر كبير. وحينما يسـأل النـبي (ص) عن خـير الخـير وشر الشر يقول : «خير الخير المـرأة إذا صـلحت ، وشر الشر المرأة إذا فسدت».

وتتجلى هذه النعمة أكثر فأكثر في الجنة فقد جاء في الحـــديث المـــأثور عن النـــبي صـــلّى الله عليه وآله وهو الصـــادق المصـــدق يصف لنا جانبا من نعمة الخـــيرات الحسان في الجنة :

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 201
(2) المصدر
(3) بح / ج 8 ص 213
(4) المصدر

وان في الجنة لنهـرا حافّتـاه الجـواري قـال : فيـوحي إليهن الــرب تبـارك وتعـالى : اسـمعن عبـادي تمجيـدي وتسبيحي وتحميدي ، فيرفعن أصواتهن بألحـان وترجيع لم يســـمع الخلائق مثلها قط ، فتطـــرب أهل الجنة ، وانه لتشـــرف على ولي الله المـــرأة ليست من نســـائه من السجف فملأت قصوره ومنازله ضوءا ونـورا ، فيظن ولي الله أنّ ربه أشـــرف عليه ، أو ملك من ملائكته ، فـــيرفع رأسه فـاذا هو بزوجة قد كـادت يـذهب نورها نـور عينيه ، قـال : فتناديه : قد آن لنا أن تكـون لنا منك دولة ، قـال : فيقـول لها : ومن أنت؟ قـال : فتقـول : أنا ممن ذكر الله في القـــرآن : «**لَهُمْ ما يَشـــاؤُنَ فِيها وَلَـــدَيْنا مَزِيـــدٌ**» فيجامعها في قـوة مائة شـاب ويعانقها سـبعين سـنة من أعمـار الأولين ، وما يـدري أينظر الى وجهها أم الى خلفها أم الى ســـاقها؟! فما من شـــيء ينظر اليه منها إلّا رأى وجهه من ذلك المكـــان من شـــدة نورها وصـــفائها ، ثم تشرف عليه أخـرى أحسن وجها وأطيب ريحا من الأولى ، فتناديه فتقول : قد آن لنا أن يكـون لنا منك دولة ، قـال : فيقول لها ومن أنت؟ فتقول : أنا من ذكر الله في القرآن : «**فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَـزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ**»

قال : وما من أحد يدخل الجنة إلّا كـان له من الأزواج خمسمائة حـوراء ، مع كل حـوراء سـبعون غلاما وسـبعون جارية كأنهن اللؤلؤ المنثور ، كأنهن اللؤلؤ المكنون [1].

هذا نـزر قليل من آلاء الله ورحمته ، الـتي تنتظرنا لو آمنا وخفنا مقامه تعالى فلم نعصه ونتجاوز حدوده.

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

أيها الانس والجن.

---

(1) بح / ج 8 ص 214

[72 ـ 75] انهن يقلن ــ الحـور ــ : «**نحن الخالـدات فلا نموت ، ونحن الناعمات فلا نيأس ، أزواج رجــال كرام**» [1] ، لو أشـرفت إحـداهن على أهل الـدنيا لمـاتوا رغبة فيها.

(**حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ**)

قـال علي بن إبــراهيم : يقصر الطــرف عنها ، وتابعه صاحب المجمع ، وقيل : قصر طـرفهن على أزواجهن فهو شبه بقوله «**قاصِراتُ الطَّرْفِ**» واستلطف الفخر الرازي التعبير فقال : ان المؤمن في الجنة لا يحتاج الى التحــرك لشيء ، وانما الأشياء تتحرك اليه ، فالمأكول والمشــروب يصل اليه من غير حركة منه ، ويطاف عليهم ما يشتهون ، فالحور يكنّ في بيـوت ، وعند الانتقـال الى المؤمـنين في وقت إرادتهم ، تسير بهم للارتحـال الى المؤمـنين خيـام ، وللمؤمنين قصور تنزل الحـور من الخيـام الى القصـور [2] فهن يقصرن.

وفي حديث الامام الصادق (ع) يشير الى هذا المعـنى قـال : «الحـور هي الـبيض المضـمومات ، المخـدرات في خيام الدرّ والياقوت والمرجـان ، لكل خيمة أربعة أبـواب ، على كل بــاب سـبعون كاعبا (الجارية حين يبــدو ثــديها) حجابا لهن ، ويأتيهن في كل يوم كرامة من الله عز ذكــره ، يبشر الله عزّ وجلّ بهن المؤمنين» [3] وقال النبي (ص) : «**الخيمة درة واحدة طولها في السماء ستون ميلا**» [4] فهن ملكات الجنة وحولهن الوصائف.

وهـــــذا مما يعد الله الخـــــائفين مقامه ، ولا ريب أن الوعد الالهي يلتقي بعمق وشمول

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 202

(2) التفسير الكبير / ج 29 ص 135

(3) نور الثقلين / ج 5 ص 202

(4) المصدر

مع تطلعات الإنسان ، وان الجنة هي الصورة الفضلى التي يصيغها الإنسان بعمله في الدنيا ، وان المؤمن لا يتطلع الى أي زوجة ، وانما يبحث في شريكة حياته عن صفات معينة ، وأهمها العفة والطهر ، لأنهما عنوان الاسرة الصالحة ، وما هي قيمة العيش مع شريكة يمتد طرفها ، وتبيع طهرها ونفسها الى كل من هب ودبّ؟! أم كيف تكون الأسرة مصنعا للأجيال الفاضلة ، وتأخذ موقعها ودورها في بناء المجتمع إذا كانت الأم لا تعرف العفاف؟!

ان وعد الله للمؤمنين ان ينعم عليهم بالحور الباكرات ، ليس فقط إرضاء للتطلعات الجنسية عند الإنسان ، بل وقبل ذلك يحقق تطلعاته المعنوية إذ ان الفتاة العذراء أشد حبا لزوجها وإخلاصا من المرأة التي أعطت بكارتها لغيره.

وكلمة أخيرة : لعلنا نستفيد من ذكر القرآن لصفات الحور هنا وهي الأخلاق الطيبة «خيرات» ، والجمال «حسان» ، والعفة والطهر (**مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ**) * و(**لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ**) ، ان هذه الصفات هي غاية ما ينبغي للمؤمن التطلع إليها في زوجته ، لتكون حياته معها سعيدة فاضلة.

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ* لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌ**)

نعم .. هذا وعد الله ، وان المؤمن لتواجهه مختلف الضغوط باتجاه الانحراف عن الحق ، استجابة لشهواته ، وربما لعبت شهوة البطن ، والجنس ، وحب الراحة دورا في تخلفه عن مقام الخائفين من مقام ربهم ، ولكنه إذا ما تذكر الآخرة وما وعد الله المطيعين له الخائفين منه من النعيم ، فسوف يقاوم الضغوط ويميت فيه الشهوة الحرام ، ويستجيب لنداء ربه :

(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

يقـول : لا بشـيء من آلائك رب أكـذب ، ويعمل على تحقيق ذلك في حياته ، ثم لما ذا يكـــذب بها وهو يعلم ان ذلك النعيم لا ينال إلّا بالتصديق؟!

[76] لان المـؤمن يشـتري راحة الآخـرة بتعب الـدنيا لعلمه بان الذي يتخلف عن الحق هنا للراحة لا يجـدها في الآخـــرة ، أما المؤمنـــون وقد رهنـــوا أنفســـهم للحق ، وأجهدوها من أجله فإنهم يجلسون في غاية الراحة.

(**مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسانٍ**)

جاء في المنجد : الرف : ما تهدل من الشجر والنبات ، وكل ما فضل فثـني ، والرقيق من ثيـاب الـديباج ، وهي خرقة تحـاط في أسـفل الفسـطاط (والخيمـة) والعـرب تقول : ضربت الريح رفـرف الفسـطاط أي ذيله ، وهو ما تدلى من الدرع ، ورفرف الـدرع زرد يشد بالبيضة يطرحه الرجل على ظهـره [1] وقـالت العـرب لكل ثـوب عـريض رفـرف ، والـذي يجمع هـذه المسـميات انها تـرف بفعل الــريح أو الحركة ، ولعل الرفــرف المعــني في الآية هي الوسائد والمساند المصنوعة من الديباج ، والغير محشـوة كثيرا ، فهي ترف كلما اتكأ عليها ، بل الحرير يــرف لرقته ونعومته كلما حرك أو ضـربته الـريح ، أما العبقـري فهي : البسط الموشاة بـالحرير ، وتقـول العـرب للثيـاب الحرير المصـنوعة بدقة وإبـداع عبقريـات ، مبالغة في حسـنها ، ويقال للإنسان : عبقري إذا تفتق عقله ، وتفجـرت مواهبه بما هو فوق المألوف ، وربنا لم يقل : «**عَبْقَرِيٍّ**» وحسب بل أضاف إليها صـفة «**حِسـانٍ**» مبالغة في حسـنها ، كما وصف الرفـــرف بـــاللون الأخضر لأنه أجمل ما يمكن أن تكون عليه الوسائد لونا.

[77] (**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ**)

---

(1) المنجد مادة (رف) بتصرف

وان نعم الله التي تحيط بالإنسان والخليقة في الـدنيا ، ونعيمه الذي ينتظر المؤمنين به في الآخرة ، لدليل على أنه الرحمن.

[78] (**تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ**)

وتبـــارك من الأســـماء الاربعة الرئيســـية لله وهي «سـبحان ، تعـالى ، وتبـارك ، واللـه» ، وقـال العلامة المجلسي (ر ض) : واما تبـارك فهو من البركة ، وهو عـزّ وجـــــلّ ذو بركة ، وهو فاعل البركة وخالقها وجاعلها في خلقه ، وتبارك وتعالى عن الولد والصاحبة والشريك وعما يقـول الظـالمون علـوا كبـيرا [1] ولعله الاسم الـذي يتصل بجـانب الفعل الإلهي في الخلق ، فهو مســتمر ومتكامل ويـزداد بركة ، فهو إذا قـريب من اسم (الـرحمن) ولعلنا نسـتطيع القـول بـأن السـورة ابتـدأت بالجـانب المعنـوي لتبارك (الرحمن) وانتهت بالجانب الظاهر منه (تبارك).

كما يبـدو ان (الـرحمن ، وذو الجلال والإكـرام) من الأسماء الفرعية لتبـارك ، ومظهر له ، وحينما نجـاور الآية 27 «**وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ**» بهذه الآية ، نهتدي الى حقيقتين :

الاولى : ان وجه الله هي أســـماؤه ، كـــالرحمن ، والباقي ، وذو الجلال والإكرام.

الثانية : ان أسماء الله منزهة كما ذاته تعـالى. فهنـاك قال «**ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ**» يعني وجه الـرب ، وهنا قـال «**ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْـرامِ**» يعـني ذات الـرب ، ولكن تنزيه الأسـماء ليس ذاتيا انما هو بالله ، كما لا نعـني بـذلك أن أسماء الله هي ذاته .. كلا .. فقد قـال الامـام أبو عبد الله (ع) : الله غاية من غيّاه ،

(1) بح / ج 4 ص 208

فالمغيّا غـير الغاية ، وتوحد بالربوبية ، ووصف نفسه بغـير محدودية ، فالذاكر الله غير الله ، والله غير أسمائه ، وكل شيء وقع عليه اسم شـيء سـواه فهو مخلـوق ، ألا تـرى قوله : (**الْعِـــــزَّةَ لِلَّهِ**) ، العظمة لله ، وقـــــال : «**وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْـنى فَـادْعُوهُ بِها**» وقـال : «**قُـلِ ادْعُـوا اللـهَ أَوِ ادْعُـوا الـرَّحْمنَ أَيًّا ما تَـدْعُوا فَلَـهُ الْأَسْـماءُ الْحُسْنى**» فالأسماء مضافة اليه. وهو التوحيد الخالص [1].

والجلال اسم يحتـــــوي على كل معـــــاني العظمة والكبريـاء ، بينما الإكـرام يـدل على كل معـاني الجمـال ، فهو رحيم ، حنان ، غفور ، منان ، عطوف ، عالم ، قـادر ، وأسماء الرب أساسا تنقسم الى نوعين : الأول : تبين انه منزه عن النقص ، والثاني : تبين جوانب الكمال.

وكلمة أخيرة : هناك علاقة بين سـورة الـرحمن الـتي تحـدثنا عن ثلاث فئـات من النـاس (المجـرمين أصـحاب الجنتين الأوليين ـ وأصحاب الجنتين التاليتين) وبين سـورة الواقعة التي تحدثنا أيضا عن ثلاث فئات هي (السابقون ــ **أَصْحابُ الْيَمِينِ أَصْحابُ الْمَشْـئَمَةِ**) ، وبالتـدبر نكتشف أن المجـرمين هم أصـحاب المشـئمة ، والسـابقون هم أصحاب الجنـتين الأولـيين ، وأصـحاب اليمين هم أصـحاب الأخريين.

---

(1) المصدر / ص 160

سورة الواقعة

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

1 / عن الإمـام أبي جعفر (ع) : «**من اشـتاق إلى الجنة وصفتها فليقــرأ الواقعة ، ومن أحبّ أن ينظر إلى النّار فليقرأ سورة لقمان**» (نــور الثقلين ج 5 ص 203)

2 / وعنه عليه السلام : «**من قرأ الواقعة كلّ ليلة قبل أن ينام لقى الله عزّ وجلّ ووجهه كـالقمر ليلة البدر**» (البرهان ج 4 ص 273)

3 / ذكر القرطـبي في فضل الســورة نقلا عن أبي عمر ابن عبد الـبر في «التمهيـد» و «التعليـق» والثعلـبي أيضا : أنّ عثمان دخل على ابن مسعود يعـوده في مرضه الذي مات فيه فقال : ما تشكي؟ قال : ذنوبي. قال : فما تشـتهي؟ قـال : رحمة ربّي. قـال : أفلا نـدعو لك طبيبـا؟ قـال : الطـبيب أمرضـني ، قـال : أفلا نـأمر لك بعطائـك؟ قال : لا حاجة لي فيه ، حبسته عـني في حيـاتي ، وتدفعه لي عند ممـاتي؟! قـال : يكـون لبناتك من بعـدك؟ قـال : أتخشى على بنــاتي الفاقة من بعــدي؟ انّى أمــرتهنّ أن يقرأن سورة الواقعة كلّ ليلة ، فانّي سـمعت رسـول الله (صـلّى الله عليه وآله وسـلّم) يقـول : «**من قـرأ سـورة الواقعة كلّ ليلة لم تصبه فاقة**».

الإطار العام

إنّ فلاح الإنسان في الحياة ينطلق من وعيه بحقائقها ومعايشتها ، وأخذها بعين الإعتبار عمليّا بأخلاقه وسعيه ، ومع أنّه مطالب بوعي مختلف الحقائق ، إلّا أنّ الأمر يكون أشدّ ضرورة وأهمية بالنسبة للحقائق الكبرى ذات الأثر الحاسم في حياته ومصيره. (والواقعة) هذه السورة المكّية التي نستقبل آياتها تذكرنا بواحدة من أعظم الحقائق وأخطرها بالنسبة للإنسان وهي الساعة التي إذا وقعت تطبع آثارها على كل ذرة في الدنيا ، فالأرض والجبال تستحيل هباء منبثا ، وتنطوي صفحة هذه الحياة التي خلقت لابن آدم ، لتفتح صفحات الحياة الآخرة في فصول أوّلها هلاك هذا الوجود بما فيه من البشر ، وآخرها الجزاء الذي يمتازون فيه ، وبينهما البعث والحساب.

فبقدر حضور الواقعة في وعي الإنسان ومعايشتها عمليا تكون منزلته هناك ، فامّا مع السابقين من الأبرار في أعلى علّيّين ، وأمّا مع أصحاب الشؤم وللفجور في أسفل سافلين ، وأمّا بينهما حيث أصحاب الميمنة ، ولكن من أين له الوعي بالواقعة وهي

جزء من الغيب الذي حجب عنه؟!
بلى. إنّها غيب كما الملائكة والجن والمستقبل ، ولكن تعـالى الله أن يلزمنا الإيمـان بحقيقة حاضـرة أو غائبة إلّا والآيـــات الهادية إليها قائمة وكافية أن تكـــون حجة بالغة لمن ألقى الســـمع وأعمل النظر والفكر وهو شـــهيد. فما هي آيات الواقعة؟
أوّلا : وقبل كلّ شـيء ليس هنالك دليل ولا آية تكـذّب هذه الحقيقة «**لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَـةٌ**» ، وهـذه من طبيعة الحق أنّه لا دليل منطقي على خلافه ، والذي يكذّب به هو الذي يحتاج إلى تبرير موقفه.
ثانيا : إنّ الإنســان يــبرر غالبا ريبه في هــذه الواقعة بالشك في إمكانيتها ، لأنّه ينظر إلى هــــــــذه الحقيقة العظمى من خلال قدراته المحـــدودة فيكفر بهـــا. أمّا إذا تفكّر فيها من خلال قـــدرة الله الـــتي لا تحد ، وســـننه الحكيمة الـــتي لا تتبـــدل ، فإنّه ســـيراها (حق اليقين). والإيمــان بــإرادة الله يــأتي من التفكّر في آيــات قدرته المتجلّية في النفس وفي الآفـــاق ، فـــإن ذلك يهديه إلى عظمة ربّه وتنزيهه عن العجز ، والآيـات (57) تثـير العقل البشري بالحقائق وتجعل الشهود جسرا إلى الغيب.
ثالثا : والقـرآن الكـريم هو الآية العظمى الـتي تهـدي إلى كل حقيقة ، بشرط أن يكـون الإنسـان عند ما يتـدبره ويــأول آياته طــاهرا من كل دنس مــادي (خبثا وحــدثا) ، ونفسي (صفات وعقدا) ، وعقلي (الأفكـار الضـالة) وذلك لتجـــاوز الحجب الـــتي تمنعه من لمس معانيه وتأويلاته العميقة الحقة ، فإنّه يــرى بــالفطرة الســليمة ، والعقل المتقد الحقيقة مكشــوفا عنه غطاءها ، وبما أنّ مشــكلة البشر ليست عقلية وحسب ، بل هي نفســـية أيضا فقد يسّـــر الله هـــذه الحقيقة العظمى بالشـــواهد العقلية والوجدانية والواقعية ، بأســلوب أدبيّ بليغ ، ومنهج نفسي مؤثر تضمن الترغيب

والترهيب ، بما يقـود كله إلى التسـليم لها ، تسـليما واعيا وعميقا ، يحمل صـــــــــــاحبه على المعادلة بين الحاضر والمسـتقبل ، والسـعي بجد وفاعلية للفـوز في الآخـرة ، فإذا به وقد وقعت الواقعة مستعد للقاء ربّه والفوز بالجنة مع المؤمنين السابقين ، أولا أقل مع أصحاب اليمين.

ولأنّ الموت هو الواقعة الصـغرى لكـلّ إنسـان فـرد ، والحق الـذي يحـدّد به مصـيره ، يتعـرّض له السـياق في نهاية الســورة كآية على الجــزاء ، ومعــبر إلى المصــير والعلم اليقين بــذلك الغيب الــذي بكــذّب به الضّــالّون المكذّبون.

سورة الواقعة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَــةٌ (2)
خافِضَـةٌ رافِعَـةٌ (3) إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (4) وَبُسَّـتِ
الْجِبالُ بَسًّا (5) فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا (6) وَكُنْتُمْ أَزْواجــاً
ثَلاثَةً (7) فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَـةِ ما أَصْـحابُ الْمَيْمَنَـةِ (8)
وَأَصْـــحابُ الْمَشْـــئَمَةِ ما أَصْـــحابُ الْمَشْـــئَمَةِ (9)
وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11)

---

4 [رجّت] : أي حــرّكت حركة شــديدة بــالزلازل الــتي هي من علائم السّاعة.
5 [وبسّت] : فتّتت ، والبسيس هو السويق أو الدقيق يتخذ زادا.
6 [هباء] : الهبـآء الـذي يـرى من الـذرات في شـعاع الشـمس إذا دخل الشعاع في كوّة في غرفة مظلمة.

فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيـــلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14) عَلى سُـرُرٍ مَوْضُـونَةٍ (15) مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقابِلِينَ (16) يَطُـوفُ عَلَيْهِمْ وِلْـدانٌ مُخَلَّدُونَ (17) بِـــأَكْوابٍ وَأَبـــارِيقَ وَكَـــأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18) لا يُصَـــدَّعُونَ عَنْها وَلا يُنْزِفُـــونَ (19) وَفاكِهَـــةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْـتَهُونَ (21) وَحُـورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثـالِ اللُّؤْلُـؤِ الْمَكْنُـونِ (23) جَـزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (24) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْـواً وَلا تَأْثِيمـاً (25) إِلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً (26)

15 [موضونة] : محكمة ومضاعفة النسج.
19 [لا يصدون عنها] : أي لا يأخذهم الصداع وهو وجع الرأس.
[ولا يـنزفون] : لا تـذهب عقـولهم بالسـكر ، ومعناها لا يسـكرون فـان السكر يذهب بالعقل.

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ

هدى من الآيات :

تكـــاد فاتحة الســـورة تهـــزّ القلب حـــتى تقلعه من مراسيه حينما تصور واقعة القيامة الرهيبة التي لا تكـذيب لها ، هنالك عند ما تخفض فريقا إلى النـــــار ، وترفع آخر إلى الجنة ، عند ما تهـتزّ الأرض ، وتتفتت الجبـال ، وتنتـثر هباء في الفضاء.

ولكن لماذا هذه الكلمات في فواتح تلك السور ، التي تذكّر العباد بيوم المعاد الرهيب؟ ربما لأنّ الناس في غفلة شـاملة ، لا ينتفعـون شـيئا بـالعبر والعظـات ، فهم بحاجة الى هزّة عنيفة لعلهم يستمعون الى النذير.

ثم تمضي الســورة تحـدثنا عن الفـرق الثلاث الـذين تفرزهم عن بعضهم الواقعة : المقربون ، وأصحاب اليمين ، وأصحاب الشـمال. المقربـون الـذين هم ثلة من الأولين وقليل من الآخــرين في نعيم مقيم ، يتكئــون على ســرر منســوجة بالـذهب ، مشـبّكة بالـدر يتقـابلون مع بعضـهم براحة وسكينة ، وزوجاتهم حور عين كأمثال

اللؤلؤ المكنون ، يعيشون في صفاء وهناء بعيـدا عن اللّغو والتأثيم ، في حياة كلها سلام ووئام.

بينات من الآيات :

[2] حينما تقـــوم القيامة ، وينهـــار نظـــام الأفلاك ، وتنعـــــدم الجاذبية ، وتتلاقى الكـــــرات ، هنالك هل يمكن تكــذيبها؟ كلا ... أم ينفع التصــديق بها من كــذّب بها من قبل؟ أبدا.

دعنا إذا نصدق بها اليوم قبل ضياع الفرصة الوحيدة.

(**إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ**)

قال بعضهم : «**إِذا**» هنا صلة ، ومعنى الآية : (**وَقَعَتِ الْواقِعَةُ**) ولنا أن نقول : انها ظـرف زمـان معنـاه : حينما تقع الواقعة لا تكذيب لها.

والقـــــــرآن الكـــــــريم يجعلنا نعيش بآياته الكريمة المســتقبل كما نعيش الحاضر ، ذلك أنّه كلما كـــان وعي البشر للحقائق القادمة أشد وأنمى كلما كيّف حياته وفقها ، وهكـذا يتفاضل النـاس بينهم بما يسـتوعبون من حقـائق المستقبل في حاضـرهم فـيزدادون اجتهـادا إليها وسـعيا ، ويحذرون من الانحراف عنها ، والغفلة عنها.

[2] (**لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ**)

إنها وقعة صــادقة وليست كاذبة ، وقــال بعضــهم : لا نفس تكـذب بها ، والمعـنى الأوّل أشـدّ وقعا في الفـؤاد ، فليس شيء في الطبيعة قـادرا على تكـذيبها لأنها تفـرض نفسـها على كـلّ ذرّة من الكائنـات. بينما المعـنى الثـاني يخص البشر ، فانه لا أحـدّ يقـدر على التكـذيب بها ، ليس فقط حين وقوعها ، وإنما الآن أيضا لا يمكن التكذيب

بها لمن أوتي عقلا وإحساسا. أو ليست الحياة كلها تهـدينا إلى أنّها ذات هدف وحكمة ، أو يمكن تصوّر حكمة لها من دون الايمان بالساعة كما قال ربنا : «**أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَـةٌ لا رَيْبَ فِيها**».

[3] يومئذ تتموّج الكائنات كما البحر الهائج ، فتنخفض الأرض المرتفعة ، وترتفع الأرض المنخفضة ، وهكـــذا الناس.

(**خافِضَةٌ رافِعَةٌ**)

المســتكبرون الــذين علــوا في الأرض بغــير حــقّ تخفضــهم إلى حضــيض جهنم ، والمستضــعفون الــذين حرموا حقوقهم الواقعة تـرفعهم الى الـدرجات العلى في الجنة.

جاء في الحديث عن الامام زين العابدين عليه السلام : (**خافِضَـةٌ**) : خفضت ــ والله ــ بأعـداء الله في النـار ، (**رافِعَةٌ**) : رفعت والله ـ أولياء الله الى الجنة» [1]

[4] أرأيت كيف يتحرك المهد بالصبي ، كـذلك الأرض ترتجّ يومئذ بما عليها ، حتى ينهـدم كـلّ ما بـني ، ويتهـاوى كلّ قائم.

(**إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا**)

قال ابن عباس : الرجة : الحركة الشديدة ، يسمع لها صوت [2] ويبدو أن الرجّة أعظم من الزلزال ، لذلك روي : «**من ركب البحر حين تـــرتج فلا ذمة له**» [3] أي إذا اضـطربت أمواجه ، ولا ريب أن تمـوّج البحر حالة دائمة ، وإنما المراد بالارتجاج : اضطراب البحر وهيجانه.

(1) نور الثقلين / ج 5 / ص 204.
(2) القرطبي / ج 17 / ص 196.
(3) المصدر.

ولنا ان نتصـور رهبة النـاس عند ما تضـطرب الأرض من تحتهم ، فهل يبقى ما يعتمدون عليه؟!

[5] وإذا كـــانت الأرض أعظم ركـــائز الســـكينة والطمأنينة تتزلزل من تحتنا ، فان الجبال وهي أكبر ركائز الثقة والثبـات تتفـرق وتتبـدد ، فهل تبقى قائمة للمـاديين الذين خالفوا القيم ، وكذبوا بالحق اعتمـادا على الكائنـات الموجـودة ، على الـتراب اسـتخرج منه ، أو نبت فيه ، أو بني عليه ، وعلى الجبال وما شابهته من الصخر والحديد؟

(**وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا**)

أرأيت الحية كيف تذهب في الأرض ، كأنها تذوب فيها ، أرأيت المـاء كيف يتفـرق في الرمـال العطشـى؟ أرأيت كيف يتفتت الثـوب حينما يصـبح خلقا باليـا؟ هكـذا الجبـال الراســيات تتفـــرق في كل اتجـــاه ، كما يتفـــرق العهن المنفوش إذا تواصلت عليه الأعاصير الهوج.

[6] فاذا بسّت الجبال انتشرت في الفضاء كما الرهج الذي يسطع من حـوافر الـدواب ثم يـذهب حسب ما روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام).

(**فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا**)

وقـال البعض : الهبـاء : هو الشـعاع الـذي يكـون في الكـــوة كهيئة الغبـــار ، ولعل الجاذبية تنعـــدم مما تجعل الصـــخور تفقد تماســـكها الـــداخلي ، فتتفتت الى ذرأت متناهية في الصـغر ، ولعلها تتلاشى كما الشـرر المتطـاير من النار ، فاذا وقع على شيء لا تجده شيئا حسب تفسير آخر لكلمة الهباء.

وقالوا : المنبث المتفرق كما قــال ربنا : «**وَبَثَّ فِيها مِنْ كُـلِّ دَابَّةٍ**» [1] وحـال الجبـال في الواقعة يعكس واقع أعمال الكفار ، وما يعتمدون عليه في الـدنيا ، من سـلطة وثروة وجـاه. إنّ كل ذلك ليس في الحقيقة إلّا ضـلال كما ظلال الجبال ، تحسبها شامخة فـاذا اتكـأت عليها ما أغنت عنك شيئا.

[7] وإذا كــانت الماديــات بكل ضــلالها وغرورها كما الجبـال يـوم القيامة ، فـان أسـباب التفـاخر في الـدنيا ، وعوامل التمايز بين طوائف الناس ما هي إلّا باطل ، بلى. يتفاضل الناس بايمانهم وأعمـالهم ، لا بـألوانهم وألسـنتهم وثرواتهم ، ومناطق توالـدهم وتواجـدهم ، كما يـزعم أهل الدنيا.

(**وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً**)

كنتم في يـــوم القيامة ثلاثة أصـــناف ، كما أنتم في الدنيا ثلاثة أصـناف ، الا انكم اليـوم محجوبـون عن حقيقة أنفسكم وحقيقة ما به تتفاضلون.

قـالوا : إنّما سـمّوا «**أَزْواجـاً**» لأن كل صـنف يتماثل أبناؤه كما يتشابه الزوج زوجته [2]

وقال البعض : لا تعني كلمة الزوج دائما الذكر والأنثى ، بل قد تعني الجماعات المتقارنة وباعتبار تقارن الأصناف في القيامة سمّوا أزواجا [3] ويبدو أن هذا المعنى أقرب.

[8] (**فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ**)

---

(1) البقرة / 164 ـ لقمان / 10

(2) القرطبي / ج 17 / ص 198

(3) تفسير نمونه / ج 23 / ص 202

تفـاءلت العـرب بالجـانب الأيمن ، وانـتزعوا له اسـما من اليمن ، وانتظـار الخـير ، وربما سـموا التقـدم يمينا ، والتخلف شمالا ، فقـالوا : اجعلـني في يمينك ولا تجعلـني في شمالك ، أي اجعلني من المتقدمين [1].

ولأن أصحاب الجنة يؤتون كتبهم بأيمانهم فـان اليمين يصـبح يومئذ رمـزا لـدخول الجنة ، وقـال بعضـهم : إنّ الكلمة هنا تعـني أصـحاب اليمن في مقابل أولي الشـؤم في الآية الآتية ، ولكن يبـدو أنّ التفسـير الأول أظهر ، بالنظر إلى استخدام اليمين في أهل الجنة في النصـوص الإسلامية.

(**ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ**)

جاء هذا التعبير إشارة الى التفخيم ، والمـراد بيـان ما يتميّزون به عن أصحاب الشمال من الثواب العظيم.

[9] (**وَأَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ**)

قالوا : العرب تسمّي الشمال شـؤما ، لأنهم يعتبرونه نحسا ، ويقولـون : قعد فلان شـأمة (شـمالا) ، ويا فلان شـائم بأصـحابك (تياسر بهم) كما يسـمون اليد اليسـرى الشؤمى.

فـالمراد إذا بأصـحاب المشـأمة أولئك الـذين يؤتـون كتـابهم بشـمالهم ، ليكـون ذلك علامة على أنهم من أصحاب النّار.

وقيل ان المعنى أصحاب الشؤم والنحس.

(**ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ**)

---

(1) القرطبي / ج 17 / ص 199

وهذا التهويل يدل على ما أعدّ لهم من عذاب شديد ، ولعل الحكمة من التهويل هنا وهنـــــــاك هو الفصل بين الفريقين فصلا نهائيا بالرغم من اختلاطهم في الدنيا ، فقد يكـــون الولد من هـــؤلاء ، والوالد من أولئك ، ولكنهما لن يشتركا في مصـير الآخـرة ، وإنما بينهما مسـافة أبعد مما بين الأرض والسماء.

ويبـــدو من آيــات قرآنية عديـــدة أنها تهــدف تعميق الفصل بين أهل الصـــلاح والفســـاد ، لأنه إذا لم يعـــرف الفصل كـان من الطـبيعي سـقوط الإنسـان في وهـدة الفساد ، لما فيه من جاذبيّة مادّية ، ولأن ذلك السـقوط لا يحتـاج الى قـرار ، وانما يتم عـادة في غيبة من صـاحبه ، وبسبب انعدام الحذر عنده.

[10] (**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ**)

الذين يسارعون في الخـيرات ، ويبـادرون للاسـتجابة للحق أنّى دعوا اليه ، متجـاوزين عقبة التوافق الاجتمـاعي بقوة الإرادة ، وبصيرة الإيمان.

لقد كـان حـبيب النجـار سـابقا ، كما كـان حزقيل من السابقين ، أمّا سـيد السـابقين فقد كـان الإمـام علي (ع) الذي سبق الرجال في الإيمان بالإسلام.

ولنا أن نتصور ملامح السابقين الشخصـية ، وتحـدّيهم لظروفهم وتعرّضهم للآلام والضغوط الهائلة ، كل ذلك من خلال نظرة الى سيرة هذه القدوات الثلاث ، لقد تجــاوزوا أولا : عقبة التردد والشك بقـوة العقل ، ومضـاء التفكـير ، فلم يرتــابوا في الحقيقة بمجــرد غفلة النــاس عنها ، ولم يــأبهوا بــالرأي العــام الــذي خــالف الحق وناهضه ، ولم تسـاورهم الظنـون في الـداعي الى الحق بسـبب الاعلام المضلل ، أو الـدعايات الكاذبـة. كـانوا كما الجبل الأشـمّ ، يتحدون أعاصير التهم والافتراءات.

ان ثقة الإنسان بعقله واعتـداده بشخصـيته الداخلية ، ويقينه بـالحق ، وعزيمته في الانتمـاء اليه والـدفاع عنه ، وإيمانه بحتمية انتصـاره ، إنّ كل ذلك مكونـات شخصـية السابق.

وبعد تجـاوز شـكوك النّفس ، ووسـاوس الشـيطان ، والالتحاق بالحق يواجه السابق عناد المجتمع ، وتصلبه في الباطل ، مما يجعله وجها لوجه مع ضـغوط هائلـة. ابتـداء من الافـتراء والسـخرية ، وانتهـاء بـالتجويع ، والتعـذيب ، والنفي ، والقتل ، ومـــرورا بالمقاطعة الاجتماعية ، فـــاذا تحدّاها ، وانتصرت الرسالة ، برزت صعوبات جديـدة حيث تقبل الـــدنيا عليه بكل ما لها من إغـــراء النســـاء ، وزينة المال والأولاد ، وشـهوة الرئاسة والسـلطة ، فـاذا تحـداها واجه تيارا اجتماعيا جديدا من الذين التحقوا بالركب طمعا في الدنيا ، وانبهروا بزخارفها ، وأخذوا يفرّغون الـدّين من محتوياته ، ويبدّلون الكلم عن مواضعه.

وبكلمة : إن حيـاة السـابقين سلسـلة من الصـراعات التي لا تنتهي .. فهو إذا بحاجة الى جهاد متواصل ، كما أنه بحاجة الى مبادرات مستمرة ، وقرارات حاسـمة وتاريخية ، لا ينفك عنها حـــتى يأتيه اليقين ، وذلك عند ما يلقى ربه راضيا مرضيا.

و(**السَّابِقُونَ**) هم الأولـون قـدما نحو الخـير ، وإيمانا ومعرفة ببصـــيرتهم ووعيهم ، وعملا بتـــوكلهم على الله ، وثقتهم بأنفسهم ، وشجاعتهم حيث يكسرون بـذلك طـوق العـــادة ، ويخرجـــون عن جاذبية المحيط ، ويتجـــاوزون السـقوف المصـطنعة بالرّيـادة والمبـادرة والإبـداع ، (**وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ**) [1]

وهم الاسـبق كما ونوعا في الخـير ، ولا يـرون النـوع من زاوية التقـوى والإخلاص فقط ، إنّما من زاوية الإتقـان أيضا لقوله تعالى : (**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ**

---

(1) المائدة / 54

أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) [1]. أما فاعلية السبق فهي ترتكز عند هذا الفريق على الأمور التالية

1 ـ طموح الامامة والقيادة. وهو طمـوح مشـروع في الإسـلام ، قـال تعـالى يحكي صـفات عبـادة المقـربين : (**وَالَّذِينَ يَقُولُـــــونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً**) [2] ولكنهم لا يبحثون عن هـــــذا الطمـــــوح من خلال الحسب والنسب ، أو المقاييس المادية الاخرى ، انما يسـعون اليه عمليا بـالحق ومن خلال الكفاءة ، والسبق أهم شروطها ، كما قـال ربنا سبحانه : «**وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُـدْخَلَ صِـدْقٍ وَأَخْـرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً**».

2 ـ التنـافس في الخـير مما يفـرض عليهم الأخذ بكل أسباب التفوق ، ولكن بعيدا عن حـالات الصـراع النفسـية والعملية ، كقوله سبحانه : «**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ**».

3 ـ الرغبة في ثـــواب الســـابقين ، والخشـــية من التقصير. قال تعالى : (**وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُـوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ* أُولئِكَ يُسـارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ**) [3].

ويبـدو أن السـابقين في كل أمة هم طليعة تلك الامة وشهداؤها ، وهم الحواريـون الـذين يلتفـون حـول القيـادة الالهية الرشـيدة ، وقد جـاء في الحـديث عن الامـام أمـير المؤمنين (عليه السلام) :

«**السباق خمسة : فانا سـابق العـرب ، وسـلمان سابق الفرس ، وصهيب سابق الروم ، وبلال ســابق الحبش ، وخباب سابق النبط**». [4]

---

(1) الملك / 2
(2) الفرقان / 74
(3) المؤمنون / 57 ـ 61
(4) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 210

وجـاء في حـديث مـأثور عن رسـول الله (صلّى الله عليه وآلـــــــــــــــــه) انه قـــــــــــــــال : « **أتـدرون من السـابقون الى ظل الله يـوم القيامـة؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال : الذين إذا أعطـوا الحق قبلـوه ، وإذا سـألوه بـذلوه ، وحكمـوا للنـاس كحكمهم لأنفسهم** » [1].

وبالرغم من ان تطـبيق الحـديث على هـذه الآية غـير واضح إلّا أنّه يهدينا الى ميزات السابقين بصفة عامة.

[11 ـ 12] (**أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ* فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**)

إن أعظم جـزاء السـابقين القـربى من رب العـزة ، ويتجلّى في الكرامة العظيمة التي أعدّت لهم (**فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**).

(**ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ* وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ**)

قـــالوا في معـــنى الثلّة : إنها من ثللت الشـــيء ، أي قطعته ، ومعناها : فرقة ، لكن من هم الأولون والآخرون؟ قال بعضهم : من مضى من السـابقين في الأمم السـابقة أكثر لأن الأنبياء كانوا أكثر ، بينما السابقون في هذه الأمة قليلـون لأن النـبي واحد ، وكـأنهم زعمـوا أن السـابقين لا يكونون إلا من أصحاب النـبي الـذين سـبقوا الآخـرين في الايمان به.

وقال آخرون : الأولون والآخرون هم من هــذه الامة ، وإنما كان الأولون أكـثر لأنهم نهضـوا بأعبـاء الـدعوة أيّـام غربته ، بيد أن ظاهر الآية ينسجم مع التفسير الأول ، وقد اســتوحى بعض المفســرين من هــذه الآية الكريمة : أن القـــرون الاولى خـــير من الـــتي تلتها ، بينما العكس هو المفهـوم من الآية ، إذ كلما كـثر عـدد المؤمـنين قل عـدد السابقين لأن أهمية السـابق تحركه في الاتجـاه المخـالف للناس ، ولذلك كان

---

(1) تفسير نمونه / ج 23 ـ ص 205 نقلا عن تفسير المراغي / ج 27 ـ 134

الايمـــان والإنفـــاق قبل الفتح أعظم درجة من الايمـــان والإنفاق بعده.

وقد روى عن رسول الله (صلّى الله عليه وآلـه) : أنّه لما نـزل هـذا شق على أصـحاب رسـول الله (صـلّى الله عليه وآله وســـــلم) فـــــنزلت : (**ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ** * **وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِـرِينَ**) فقــال النــبي : «**انــني لأرجو ان تكونـــــوا ربع أهل الجنة ، بل ثلث أهل الجنة ، بل نصف أهل الجنة ، وتقاسمونهم في النصف الثاني**» [1].

ويستلهم من بعض النصوص : أن السـابقين هم بعض المقــربين ، فقد يكــون في الآخــرين من ليس بســابق ، ولكنه يتســـــاوى في الفضل معهم ، بما أوتي من درجة الايمــان ، وقــوة اليقين ، وبما وفق له من مســارعة في الخيرات.

نقـــرأ في نص مـــأثور عن الامـــام الصـــادق «عليه السلام» يقول لبعض اتباعه : «**أنتم السابقون الأولـون ، والسابقون الآخرون ، والسـابقون في الـدنيا إلى ولايتنا ، وفي الآخرة إلى الجنة**» [2]

ويــبين نص آخر مــروي عن الامــام الصــادق (عليه السلام) انه قال : «**فالسـابقون هم رسل الله وخاصة الله من خلقه ، جعل فيهم خمسة أرواح ، أيـــــدهم بـروح القـدس فبه عرفـوا الأشـياء ، وأيـدهم بـروح الايمـان فبه خـافوا الله عـزّ وجـلّ ، وأيـدهم بـروح القـوة فبه قـدروا على طاعة الله ، وأيـدهم بـروح الشهوة فبه اشـتهوا طاعة الله عـزّ وجـلّ ، وكرهـوا معصـيته ، وجعل فيهم روح المـدرج الـذي به يـذهب الناس ويجيئون**» [3].

ويعـدد حـديث آخر مـأثور عن الامـام موسى الكـاظم (عليه السلام) جواري

(1) القرطبي / ج 17 ـ ص 200
(2) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 209
(3) المصدر / ص 205

الرسول والأئمة عليهم السلام ويعتبرهم السابقين [1]

ويبدو من حديث آخر أن التفاضل في الايمان يتساوى فيه الأولــون والآخــرون ، فقد روى عن الامــام الصــادق (عليه السـلام) أنه سـئل : ان الايمـان درجـات ومنـازل ، يتفاضل المؤمنون فيها عند الله؟

قال : «نعم» فقال السائل صفه لي رحمك الله حـتى أفهمه ، قال : «**إن الله سبق بين المؤمنين كما يسبق بين الخيل يوم الرهان ، ثم فضلهم على درجات في السبق إليه ، فجعل كل امـرء منهم درجة سـبقه ، لا ينقصه فيها من حقه ، ولا يتقـدم مسـبوق سـابقا ، ومفضــول فاضلا ، تفاضل بــذلك أوائل هــذه الامة وأواخرها ...** (الحديث)» [2].

ومن ذلك كله نستوحي ان مفهوم السبق أشــمل من مجرد التقدم الزمـني الى الايمـان ، إذ يتسع للتسـارع في الخــيرات ، والمبــادرة الى درجــات الايمــان ، وقد ســأل الراوي الامام الصادق (ع) في ذات النص السابق آنفا عن درجات الاستباق فقال : اخبرني عما نـدب الله عـزّ وجـلّ المؤمنين اليه من الاستباق الى الايمان ، فقال : قول الله عــزّ وجــلّ : «**سـابِقُوا إِلى مَغْفِـرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَـرْضِ السَّـماءِ وَالْأَرْضِ أُعِـدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُـوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ**» وقال : «**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ* أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ**» [3].

فلا يجوز ان يقنط لاحق من روح الله ، وما أعـده الله للمقربين اليه من الدرجات الرفيعة ، ويبرر قنوطه بأنه قد تأخر زمنيّا عن الأولين. كلا .. إن معارج

---

(1) راجع المصدر / ص 210

(2) راجع المصدر / ص 208 ، والحديث مفصل

(3) المصدر

التكامل إلى الله معدّة لكل من شـاء ان يحلّق في أجـواء القرب من ربّ العباد.

[15] (**عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ**)

مصفوفة ، قالوا : الوضن النسج المضـاعف والنضد ، ودرع موضونة : محكمة في النسج ، والسرير الموضون : الذي سطحه بمنزلة المنسوج.

وقـال بعضـهم : إن أسـرة الجنة منسـوجة بخيـوط الذهب ، مشبكة بالدر والياقوت والزبرجد.

[16] (**مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقابِلِينَ**)

الاتكاء علامة الارتخاء ، وعدم وجـود ما يشـغلهم غـير التلـذذ بـألوان النعم الالهية ، والتقابل دليل المحبة والـود المتبـادل بينهم. أو ليست قلـوبهم طـاهرة من الغل ، والحسد ، والحقد؟

وراحتهم الخالـدة يومئذ هي جـزاء اجتهـادهم الـدائب في الـدنيا ، فكم أتعبـوا أجسـادهم في طاعة الله ، وكم قاوموا ضغوط الحياة ، وواجهوا الطغـاة والمـترفين ، وكم تحملوا من الأذى النفسي والجسدي؟!

[17] (**يَطُـوفُ عَلَيْهِمْ وِلْـدانٌ مُخَلَّدُونَ**) إن أفضل خدمة بين الأحباب خدمة الغلمـان ، وبالـذات حينما تكـون نضـارة شـبابهم أبدية ، فهم مخلـدون لا تعـتريهم خشـونة الرجال ، ولا تأتي على جمالهم وأنـاقتهم ، ودماثة أخلاقهم طوارق الليل والنهار.

[18] (**بِأَكْوابٍ وَأَبارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ**)

إنهم يصــبون لذيذ الشــراب من أكــواب وأبــاريق في كؤوس جميلة ، ويقدمونها لأهل الجنة.

قــــالوا : يختلف الكــــوب عن الإبريق في العــــرى والخــراطيم ، أما الكــأس فهي إنــاء الشــرب ، وقيل : لا يقـال : كـأس إلا إذا كـان فيها شـراب ، والا فهي زجاجة ، ولا يقال : كوز ، إلا إذا كانت له عروة ، وإلا فهو كوب [1] ، وتتسـاءل : ما هـذا الـترتيب؟ يبـدو أن الأكـواب هي الانية الكبيرة المليئة بالخمر ، وتغرف منها بالأبـاريق ، ثم تصـبّ الخمرة في الكـأس للتنـاول ، كل ذلك لاضـفاء جو المـرج واللذة والكرامة في جلسات المؤانسة.

وقالوا : المعين الجاري ، حيث أن خمرة الجنة تجـري من عيون ، ويبدو أن الوصف ليس فقط لما في الكـأس ، بل لما في الأكواب والأباريق أيضا. وقيل في جريان الماء : فاذا كان ظاهرا جاريا على وجه الأرض فهو معين وسنم [2].

[19] (**لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَلا يُنْزِفُونَ**)

فهي ليست كشـراب الـدنيا يصـيب الإنسـان بصـداع ودوار ، أو يذهب بعقولهم.

قـالوا : الـنزف : السـكر ، وقيل : لا ينفذ شـرابهم ، وتساءل الفخر الرازي : لماذا قيل : «**لا يُصَدَّعُونَ عَنْها**» ولم يقل (منها) فأجاب : لأن الصـفة هنا صـفة الشـراب ، ولو كان صفة الشخص لحسن القـول : فلان لا يصـدّع من الشراب [3].

ولعـلّ تقـديم الشـراب على الطعـام لان الاحسـاس بالعطش أشد ، والشراب أول

(1) فقه اللغة للثعالبي / ص 15
(2) المصدر / ص 285
(3) تفسير الرازي / ج 29 ـ ص 152

ما يكرم به الضيف والله العالم.

[20] وبعد بيــان نعمة المؤانسة والشــرب جــاء دور الطعام ، وربما قدّمت الفاكهة لأنها أذوق ، كما ان العــادة تقتضي تقديمها في الضيافة.

(**وَفاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ**)

فالفواكه موجـــــــودة بأنواعها ، ومبذولة بلا نصب ، ويبقى الاختيار بأيديهم ، ويبدوا ان نعمة الحرية تتجلى عند أهل الجنة في كل أبعادهــا. بلى. انهم عاشــوا في الــدنيا أحــرارا ، ورفضـوا التسـليم للطغـاة والمـترفين وشـهوات الذات ، فأسبغ عليهم ربهم نعمة الحرية بأوسع معانيها.

[21] الآن وقد ارتووا ، وفتحت الفواكه شهية الطعام عنـدهم ، تطـوف عليهم الموائد الـتي فيها أنـواع من لحم الطير.

(**وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ**)

ويبدو أن لحوم الطـير أشـهى وأطهر ، ولـذلك خصت بالذكر في الكتاب ، وجاء في الحديث المـأثور عن الامـام الصادق (ع) عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وســلم) انه قال : «**سيد إدام الجنة اللحم**» [1].

وروي عن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) : انه قـال : «ان في الجنة طـيرا مثل أعنـاق البخت ، تصـطف على يـدي ولي الله ، فيقـول أحـدها : يا ولي اللـه! رعيت في مـروج تحت العـرش ، وشـربت من عيـون التسـنيم ، فكل مـني ، فلا يـزلن يفتخـرن بين يديه حـتى يخطر على قلبه أكل أحدها ، فتخر بين يديه على ألوان

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 212

مختلفة ، فيأكل منها ما أراد فاذا شبع تجمع عظام الطائر ، فطار يرعى في الجنة حيث شاء» [1].

[22 ـ 23] وإذا فرغوا من جلسات المؤانسة ، ومن الشراب ، والفاكهة ، والطعام ، آووا الى فرشهم ليجدوا فيها فاكهتها المفضلة ، لقد أعدت لهم زوجاتهم من الحور العين.

(**وَحُورٌ عِينٌ* كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ**)

إن تلاقي روح الزوجين يتم عبر العين ولذلك فان أروع الجمال جمالها ، وحين تكون العين حوراء : سوادها شديد ، وبياضها شفاف ، ثم تكون واسعة ، فانها تكون جذابة ورائعة ، أما سائر أعضائهن فهي لامعة بيضاء ، أرأيت اللؤلؤ حين ينفتح عنه الصدف كيف يشعّ بياضا؟

[24] إن هذه النعم العظيمة توافيهم بفضل الله ، جزاء لأعمالهم ، لكي يزدادوا تلذذا بها ، وإحساسا بأهميتها. أرأيت الذي يحصل على نعمة بلا سعي لا يعتز بها ، كمن يتلقاها بسعيه فيحس انه كان على حق ، وأن اختياره كان حكيما رشيدا.

(**جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ**)

وقد روي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية ما يرغب عباد الله في الجنة ، حيث قال : خلق الله الحور العين ، من أصابع رجليها إلى ركبتها من الزعفران ، ومن ركبتها الى ثديها من المسك الأذفر ، ومن ثديها الى عنقها من العنبر الأشهب ، ومن عنقها الى رأسها من الكافور الأبيض ، عليها سبعون ألف حلّة مثل شقائق

---

(1) القرطبي / ج 17 ـ ص 204

النعمــان ، إذا أقبلت يتلألأ وجهها نــورا ســاطعا ، كما تتلألأ الشــمس لأهل الــدنيا ، وإذا أدبــرت يــرى كبــدها من رقة ثيابها وجلدها ، في رأســها ســبعون ألف ذؤابة من المسك الأذفر ، لكل ذؤابة منها وصــيفة ترفع ذيلها وهي تنــادي : هذه ثواب الأولياء ، (**جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ**) [1].

[25 ـ 26] بعد راحة الجسد يحدثنا السياق عما يــريح القلب ، فأوّله : اعــتزاز النفس بماضــيها ، وحسن انتخابها لســعيها ، والثــاني : طهــارة الجو من الكلام البــذيء ، فلا يتنابزون بالألقاب ، ولا يترامون التهم والغيبة ، ولا يمشون بالنميمة. كلا .. ولا يقولون لبعضهم : أثمت ، وفعلت كذا ، وتركت كذا ، كما يقول البعض للمؤمنين في الــدنيا ، وكما يتبادل غيرهم القول دائما.

(**لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً**)

من الغيبة والتهمة والنميمة.

(**وَلا تَأْثِيماً**)

فحشا ، واستهزاء وسخرية.

لقد صــــبروا أياما قليلة على جراحة اللســــان ، ولم ينهزموا أمام الدعاية البذيئة التي نفثتها أبواق الشياطين ، فأعقبتهم راحة طويلة من الحياة الهنيئة.

وإذا فكرنا في أســباب الشــقاء في الــدنيا لعلمنا أن أشدها أثــرا ، وأبلغها ألما هي ســموم الألســنة البذيئة ، ولا أثر لها في الجنــة. لما ذا؟ لان هــذه الالســـنة تنطق عن قلوب مليئة بالأحقاد ، والآلام ، والعقد ، والجنة نظيفة من كل ذلك ، فقد نزع الله سبحانه

---

(1) القرطبي / ج 17 ـ ص 206

عن قلوب أهلها كل غل ، وتحاسد ، وطمع ، وحرص ، كما رفع عنهم الآلام ، وأسـبغ عليهم النعم ، فانعـدمت عوامل اللغو والتأثيم.

(**إِلَّا قِيلاً سَلاماً سَلاماً**)

إن الاخطار التي تحيق بأهل الدنيا ، وتفرز الصراعات ، والعداوات ، والخـوف ، والقلق ، والنفـاق ، انها معدومة في الجنة ، فكل ما فيها طمأنينة ، وســــكينة ، وأمن ، وراحة ، ولا بد إذا أن تنعكس كل تلك النعم الظـاهرة في الافئدة وعلى الألسن في قول السلام ، هـذا يسـلم عليك وأنت ترد عليه السلام.

بلى. أهل الجنة صـنعوا لأنفسـهم في الـدنيا مجتمع السلام ، والحب ، والتعاون ، فلم يحسدوا أحدا على نعمة ، ولم يحقـدوا على أحد لمصـلحة ، ولم يحجبوها عن الله بالوسـاوس والظنـون ، ولم يدنسـوا ألسـنتهم بـالفحش والسباب ، فأعطـاهم الله كل ذلك كـاملا وافيا في الجنـة. رزقنا الله جميعا توفيق طاعته في الدنيا ، ونعيم جنته في الآخرة.

وَأَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ (27) فِي سِدْرٍ
مَخْضُودٍ (28) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (29) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (30)
وَماءٍ مَسْكُوبٍ (31) وَفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32) لا مَقْطُوعَةٍ
وَلا مَمْنُوعَةٍ (33) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (34) إِنَّا
أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً (35) فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً (36) عُرُباً
أَتْراباً (37) لِأَصْحابِ الْيَمِينِ (38) ثُلَّةٌ مِنَ

---

28 [سدر مخضود] : السدر شجر النبق ومخضود أي خضر شوكة فلا شوك فيه.

29 [وطلح منضود] : قيل شجر الموز ، ومنضود قد نضد ورتّب ثمره بعضه فوق بعض ، والمنضود أيضا ما نضد بعضه على بعض نضد بالحمل من أوّله إلى آخره فليست له سوق بارزة فمن عروقه إلى أفنانه ثمر كله.

35 [إنشاء] : بدون ولادة وبدون انتقال من حال إلى حال.

37 [عربا] : أي متحنّنات على أزواجهن متحببات إليهم ، وقيل عاشقات لأزواجهنّ وقيل العروب اللعوب مع زوجها أنسا به كانس العرب بكلام العربي.

[أترابا] : جمع ترب ، وهو أي المثيل.

**الْأَوَّلِينَ (39) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِـــرِينَ (40) وَأَصْـــحابُ
الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ
(42) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43) لا بـارِدٍ وَلا كَـرِيمٍ (44)
إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِـكَ مُتْـرَفِينَ (45) وَكـانُوا يُصِـرُّونَ
عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (46) وَكـانُوا يَقُولُــونَ أَإِذا مِتْنا
وَكُنَّا تُرابـاً وَعِظامــاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُــونَ (47) أَوَآباؤُنَا
الْأَوَّلُــونَ (48) قُــلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِــرِينَ (49)
لَمَجْمُوعُـونَ إِلى مِيقـاتِ يَـوْمٍ مَعْلُـومٍ (50) ثُمَّ إِنَّكُمْ
أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَـذِّبُونَ (51) لَآكِلُـونَ مِنْ شَـجَرٍ مِنْ
زَقُّومٍ (52) فَمـالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُـونَ (53) فَشـارِبُونَ
عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54) فَشـارِبُونَ شُـرْبَ الْهِيمِ (55)
هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (56)**

---

42 [سـموم] اليحمـوم الأسـود الشـديد السـواد بـاحتراق النـار ، وهو يعقول من الحم وهو الشحم المسود باحتراق النار يقال حممت الرجل إذا سخمت وجهه بالفهم ، وقيل دخان أسود شديد السواد ، فالكافرون في نار ذات دخان لا يرون مكانا.

46 [الحنث العظيم] : هو الشرك حيث لا يتوبون عنه.

55 [الهيم] : هو الإبل العطشان الذي لا يروي من الماء لداء يصيبه.

هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ

هدى من الآيات :

في هــذا الــدرس يحــدّثنا ربّنا عن مصــير الفــريقين الآخرين (أصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال) ، «وشـمائل ضد اليمين ، يقال : فلان عندي بالشمال إذا خسّت منزلته ، وهو عندي باليمين أي بمنزلة حسنة» [1].

وأصـــحاب اليمين يـــدخلون الجنة إلى نعيم مقيم ، ولكنّه دون نعيم الســابقين كــثرة وتنوّعا وكيفا ، كما أنّهم دونهم في الإيمــان والعلم في الــدنيا ، وينتمي إلى هــذا الفريق عامة المؤمـنين والمسـلمين من النـاس ، الـذين عنوان مسيرتهم الصلاح ، فهم وإن دخل بعضهم النـار ، أو تــأخّر في الحســاب ، إلّا أنّه لا يلبث أن ينقلب إلى نعيمه وأهله مسرورا برحمة من الله ، وبسبب أعماله الصالحة ، أو شــفاعة الســابقين. وهم ثلّة في كــلّ أمة وجيل ، ولا يطيل القــرآن الحــديث عنهم ، بل يختصــره في أربعة عشرة

(1) المنجد / مادة شمل

آية قصيرة ، ثم ينتقل بنا إلى بيان مصير أصحاب الشـمال ، حيث أنـواع العـذاب المـؤلم المهين (سـموم الحميم ، وظلّ اليحموم ، وشجر الزقوم ، وشـراب الحميم) ، وكـلّ ذلك تذكره السـورة في كلمـات تـرعب النفـوس ، وبلاغة تنفذ إلى أعماق من يلقي السمع شهيدا ، بما يكفي زاجرا للإنسان وعلاجا للترف ، والإصرار على الضلال والتكـذيب بالآخرة.

وحين يقسّم القرآن النـاس إلى هـذه الطوائف فلكي يكون التقسيم المشـروع هو القـائم على أسـاس الإيمـان والعمل ، أمّا الأسس الأخـرى فهي لا تصـلح سـببا لتفريق الناس مثل اللغة واللون والعنصر.

بينات من الآيات :

[27 ـ 30] ما هي صـفات أصـحاب اليمين ، وما هو جزاؤهم؟

(**وَأَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ**)

الميمنة من اليمن أي النصـــــيب الحسن ، وقد جعل الله إعطاء الكتاب للإنسان بيده اليمـنى يـوم القيامة دليلا على العاقبة الحسنى ، ولأنّ كـاتب الحسـنات على اليمين وكـاتب السـيئات على الشـمال فـإنّ أصـحاب اليمين هم الــذين زادت حســناتهم على الســيئات ، والصــحبة من التلازم والمقارنة ، فقد يكـون هـؤلاء ذوي الصـلة المتينة بملائكة الحســنات لكــثرة الصــالحات عنــدهم ، فهم لا يبرحون يصـلونهم بها بين الحين والآخر ، فيصـحبهم أولئك الملائكة عند الحساب ، يبيّنون حسـناتهم ، ويشـفعون لهم عند اللـه. ومن كـانت هـذه صـفته فإنّه يصـير إلى منزلة عظيمة من الجزاء والرضوان عند الله.

(**فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ**)

يعـني مـنزوع الشـوك ، ممّا يجعل قطف ثمـاره خـال من الأذى والمشقّة ، والمخضود : مثني الأغصان من غــير كسر (أيضا) إشارة إلى كثرة ثمارها وورقها اللـذان يثقلان الغصن فيثنيانه ، والسدر : شـجر النبق (الكنـار) [1] ، وله فوائد جمّة منها : ثمره ، وظلّه ، ومنظره الجميل.

جـاء في الحـديث عن سـليم بن عـامر قـال : كـان أصـــحاب النـــبي (ص) يقولـــون : إنّه لينفعنا الأعـــراب ومسـائلهم ، قـال : أقبل أعـرابي يوما فقـال : يا رسـول الله! لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية ، وما أرى في الجنة شجرة تؤذي صـاحبها؟ قـال رسـول الله : وما هي؟ قال : السدر فإنّ له شـوكا مؤذيـا؟ فقـال (ص) : أو ليس يقـول : «**فِي سِـدْرٍ مَخْضُـودٍ**»؟ خضد الله شـوكة فجعل مكان كلّ شـوكة ثمـرة ، فإنّها تنبت ثمـرا يفتق الثمر منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما فيه لون يشبه الآخر [2] وقال سعيد بن جبير : ثمرها أعظم من التلال. [3]

والحـــــرف «**فِي**» يفيد الإحاطة والـــــدوام ، فهم محاطون بما يذكر من النعم.

(**وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ**)

أي متسق منظّم مضموم بعضه إلى بعض ، وتنضّـدت الأسنان تراصفت [4] ، وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قــال : «بعضه إلى بعض» [5] وقــال تعــالى : (**وَالنَّخْـلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِـيدٌ**) [6] متسق ، واختلف في الطلح على أقوال

(1) قال صاحب المنجد : الكنار النبق (بالعامية والفارسية)
(2) القرطبي / ج 17 ص 207
(3) المصدر
(4) المصدر مادة نضد
(5) نور الثقلين / ج 5 ص 215
(6) ق / 10

أشهرها وأقربها أنّه الموز ، وهو من ألذّ الفواكه وأشهاها.

(**وَظِلٍّ مَمْدُودٍ**)

أي دائم متصل واسع ، وقال تعالى : (**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها**) [1].

وفي حديث آخر عن الرسول (ص) قال : «**في ظل ممدود في مثل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس**» [2] وفي الخبر : إنّ في الجنة شجر يسير الراكب في ظلّها مائة سنة لا يقطعها. اقرءوا إن شئتم : «**وَظِلٍّ مَمْدُودٍ**» [3] وكان الظل يعني شيئا كثيرا في محيط الجزيرة العربية حيث يتعرّض الناس عادة لأشعة الشمس الحارقة.

[31 ـ 33] ونعمة أخرى لأصحاب اليمين هي الماء (قوام الحياة) ، يشربونه ويتلذّذون بمنظره الرائع ، وهو ينحدر من عل منسكبا لا ينقطع.

(**وَماءٍ مَسْكُوبٍ* وَفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ**)

تنوّعا وعددا ، وهي لا تنفذ مهما بالغ المؤمنون في التفكّه بها ، كما أنّها ليست محدودة ثمرتها بموسم بل هي دانية قطوفها دائما ، ومن جانب آخر لا يمنعهم عنها ولا يمنعها عنهم مانع أبدا ، فهي مباحة شرعا ، نافعة أبدا ، لا شوك في أشجارها يمنعهم ، ولا ارتفاع يصعّب عليهم الانتفاع بها.

(**لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ**)

---

(1) الرعد / 35

(2) نور الثقلين / ج 5 ص 216

(3) المصدر

قال رسـول الله (صـلّى الله عليه وآله وسـلم) يصف شـجرة طـوبى : «وأسـفلها ثمـار أهل الجنة وطعـامهم متذلّل في بيوتهم ، يكون في القضيب منها مائة لـون من الفاكهة ممّا رأيتم في دار الـــدنيا وممّا لم تـــروه ، وما سمعتم به وما لم تسمعوا مثلها ، وكلّما يجتنى منها شـيء نبتت مكانها أخرى ، (**لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ**) [1].

وقـال (صـلّى الله عليه وآله وسـلّم) حاكياً حـال أهل الجنة : والثمار دانية منهم وهو قوله عـزّ وجـلّ : «**وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَـــذْلِيلاً**» ، من قربها منهم يتناول المـؤمن من النـوع الـذي يشـتهيه من الثمـار بفيه وهو متكئ ، وإنّ الأنواع من الفاكهة ليقلن لـولي الله : يا وليّ الله!! كلني قبل أن تأكل هذا قبلي [2].

وللمتـدبّر أن يلاحظ مـدى أثر الوعد بهـذه النعم في مجتمع يحلم بالمـاء ويتقاتل عليه ، ويتنقّل عـبر المفـاوز الشاسـعة بحثا عن المـاء بل سـعيا وراء السـراب! كما لا يعـــرف الفاكهة الـــتي لا تنبت في محيطه إلّا كـــبراؤه ، يجلبونها في تجارتهم وبكميّات قليلة محدودة ، أو يزرعون شـــجرها طمعا في بضع وحيـــدات منهـــا! وهي مع قلّتها تقطعها الأسباب ، وتمنعها الموانع المختلفة عنهم ، فكيف بهم وهم يجـــدون أنفســـهم أمـــام تلك النعم العظيمة الـــوافرة؟ إنّ العاقل منهم لا ريب يســـعى لنيلها حينما تطمئن بها نفسه.

وهنا فكرة لطيفة تفسّر اهتمام القرآن بـالتركيز على التـــذكير بجـــوانب من نعيم الآخـــرة ، والتفضـــيل فيه والتشـــويق إليه في كثـــير من المواضع ، وهي : إنّ ذلك يأتي لمقاومة كثـير من الانحرافـات المعنوية والعملية في حياة الإنسان ، والناتجة من

---

(1) المصدر

(2) المصدر

الاغـترار بنعم الـدنيا ، والخضـوع لجاذبيتها ، فقد جـاء في كلام الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) : «**فمن اشتاق إلى الجنّة سلا عن الشهوات**» [1].

[34 ـ 38] (**وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ**)

افترش الشـيء : وطئه ، وعرضه : اسـتباحه بالوقيعة فيه ، وحقيقته : جعله لنفسه فراشا يطـؤه [2] ، فالكلمة فيها دلالتان : الأولى : الفراش الذي ينـام عليه الإنسـان ، والثانية : الزوجة التي يسـتبيحها ويطؤها ، وهـذا من بلاغة القرآن أن يشير إلى نعمتين بكلمة. وقد ورد في النصوص الإسلامية استخدام للكلمة في المعنى الثاني. قال العلامة الطبرسي : ويقال لامـرأة الرجل هي فراشه ، ومنه قـول النـبي (صـلّى الله عليه وآله وسـلم) : «الولد للفـراش ، وللعاهر الحجر» [3] ، وقال الإمام الصادق (عليه السـلام) يصف إنـاث الجنة : «**نعم. ما يفـترش منهنّ شـيئا إلّا وجدها كذلك**» [4] (يعني باكرا).

و(**مَرْفُوعَـةٍ**) يعـني عالية المكـان ، وهي أصـلح في الفـراش من الآخر الـذي على الأرض ، كما تعـني الكلمة ارتفاع الشأن حسنا وكمالا أيّا كان المقصود ظاهر الفرش أو الزوجة.

(**إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً**)

والإنشـاء هو الإبـداع والصـناعة ، وقد خلق الله لكـلّ مـؤمن زوجـات مخصوصـات به ، وهـذا من عناية الله ولطفه بـالمؤمن ، وعلى هـذا المعـنى يكـون المـراد حـور العين ، وقال البعض : إنّهنّ من نساء الدنيا أنشـأناهن الله من جديد فتيات جميلات وأبكار ،

---

(1) قصار الحكم المعجم المفهرس لالفاظ نهج البلاغة ص 704
(2) المنجد مادة فرش
(3) مجمع البيان / ج 9 ص 219
(4) نور الثقلين / ج 5 ص 217

هكذا روي عن أمّ سلمة أنّها سألت النبي (صـلّى الله عليه وآله وسلم) عن الآية فقال لها : «يا أمّ سلمة هنّ اللـواتي قبضن في الدنيا عجائز شـمطا عمشـاء رمصا جعلهنّ الله بعد الكبر أترابا على ميلاد واحد في الإستواء» [1].

وهكــذا قيل حــور العين للســابقين ، بينما العــرب الأتراب لأصحاب اليمين.

(**فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً**)

وكلمة الجعل تشـير إلى أنّ بكـارتهنّ دائمة ، وهكـذا جـاء في الحـديث عن رسـول الله (صـلّى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال : «كلّما أتاهنّ أزواجهنّ وجـدوهنّ أبكـارا» فلمّا سمعت عائشة بذلك قالت : وأوجعاه! فقـال رسـول الله (صــــــــــلّى الله عليه وآله وســــــــــلم) : «ليس هنــاك وجــع» [2] ومن صــفة الحــور عروبتها وانسجامها.

(**عُرُباً أَتْراباً**)

في تفســير علي بن إبــراهيم : «لا يتكلّمــون إلّا العربيــة» [3] وهي لغة أهل الجنة ، والعروبة من النســاء الضاحكة [4] فهي تعرب وتفصح عن ثناياها حين الابتسام ، والبشاشة من جمال المرأة ، وقال الـراغب الأصـفهاني : وامرأة عروبة : معربة بحالها عن عفّتها ومحبّة زوجها [5].

وقيل الغنج والدلال عن أمير المؤمـنين (ع) في رواية هذا نصّها : قال عليه السلام

(1) القرطبي / ج 17 ص 210
(2) جوامع الجامع في الموضع
(3) تفسير القمي / ج 2 في الموضع
(4) المنجد / مادة عرب
(5) مفردات الراغب مادة عرب

يصف غـرف الفـردوس : «في كـلّ غرفة سـبعون خيمة ، في كـلّ خيمة سـبعون سـريرا من ذهب ، قوائمها الـدرّ والزبرجد (فهي مرفوعة إذا) موصـولة بقضـبان الزمـرد ، على كلّ سرير أربعون فراشا ، غلظ كـلّ فـراش أربعـون ذراعا ، على كــلّ فــراش زوجة من الحــور العين عربا أترابـا» فقـال (أحـد) : أخـبرني يا أمـير المؤمـنين عن عروبــة؟! قــال : «هي الغنجة ، الرضــية ، الشــهية ، لها سبعون ألف وصيف وسبعون ألف وصـيفة ، ضـعف الحلي ، بيض الوجــوه ، عليهنّ تيجــان اللؤلؤ ، على رقــابهنّ المناديل ، بأيديهنّ الأكوبة والأباريق» [1].

وفي الأتـراب أقـوال : فعن علي بن إبـراهيم : يعـني مستويات الأسنان ، وقيل أنّهن متماثلات ، يقول الرسـول (صـلّى الله عليه وآله وسـلم) لأمّ سـلمة : «**جعلهنّ الله أترابا على ميلاد واحد في الإستواء**» [2].

وقيل وهو الأشهر والأظهر والأشمل : أنّهنّ ينسـجمن مع أزواجهن من المؤمــنين في ظــاهر أجســامهن وفي خلقهن وسلوكهن ونفسيّاتهن.

وللام في «**لِأَصْــحابِ**» وجهــان : أحـــدهما : أنّها موصــولة بما قبلها مباشــرة فيكــون المعــنى المتقــدّم (متاربتهنّ لهم) ، والآخر : أنّها موصولة بكـلّ ما تقـدّم فهو ملك

(**لِأَصْحابِ الْيَمِينِ**) ومن أجلهم ، وهذا أظهر.

[39 ـ 40] أمّا عن نسـبة هـذا الفريق في البشـرية وفي كـلّ جيل من أجيـال المسـلمين فهي ثلّة (أكـثر من القليل) لأنّ المنتمي إليه هم عامّة المؤمنين والمسلمين.

(**ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ* وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ**)

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 218
(2) المصدر / ص 219

قال الإمام الصادق (عليه السلام)(يعـني (**الْأَوَّلِينَ**)) : من الطبقة الـتي كـانت مع النـبي (صـلّى الله عليه وآله وسـلم) ، (ويعـني (**الْآخِـرِينَ**)) : «بعد النـبي (صـلّى الله عليه وآله وسـلم) من هـذه الأمّـة» [1] ، وهـذه النظـرة الواقعية المتوازية تنفي موقف المغـالات في الأوّلين من المسلمين بأنهم كلّهم سابقون ، وأنّ الهداية تتحقق باتباع أيّ منهم ، على التفسـير المطلق للحـديث : «أصـحابي كالنجوم بـأيّهم اقتـديتم اهتـديتم» ، فـإنّ الجيل الأوّل وإن كانت الحضـارة الإسـلامية تأسست بجهـودهم ، وسـطّروا الملاحم والمجد ، إلّا أنّ بعضهم السـابقون وأقـلّ من ذلك أصحاب اليمين ، كما أنّ بعضهم المنافقون بصريح القرآن : (**وَمِمَّنْ حَـوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْـرابِ مُنـافِقُونَ وَمِنْ أَهْـلِ الْمَدِينَـــةِ**) [2] ، وهي تنفي موقف اليــأس من حـــال المســـلمين اليـــوم ، كلّا .. فقد يصـــبح الواحد منّا من الســابقين أولا أقل من أصــحاب اليمين كما الجيل الأوّل سواء بسواء.

ذلك لأنّ الأمة الإسـلامية كـانت ولا تـزال خـير أمّة أخرجت للناس ، وفي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال النبي (صـلّى الله عليه وآله وسـلم) : «إنّي لأرجو أن يكون من تبعني ربع الجنة» قال : فكبّرنا. ثم قـال : «إنّي لأرجو أن يكونوا ثلث أهل الجنة» فكبّرنا ، ثم قـال : «إنّي لأرجو أن يكونوا شطر أهل الجنة» ثم تلا (صـلّى الله عليه وآله وسلم) «الآيتين» [3]. وفي الخصال للشـيخ الصـدوق (ر ض) قـال رسـول الله (صـلّى الله عليه وآله وسـلم) : **«أهل الجنّة مـأة وعشـرون صـفا ، هـذه الأمّة منها ثمانون صفّا»** [4].

ويكفي بالثلّة هنا كـــثرة إذا اعتبرنا الأوّلين هم الأمم السابقة حسب بعض

---

(1) المصدر

(2) التوبة / 101

(3) مجمع البيان / ج 9 الموضع

(4) الخصال / ج 2 ص 601

الروايات ، والآخرين هي أمّة الإسلام ، وقد عدلها الله بهم ، فقال : ثلّة من أولئك وثلّة منها.

[41 ـ 42] ويبدأ السياق شوطا جديدا من الحديث يتمحور حول الفريق الثالث من الناس وهم أصحاب المشأمة والذين يتسلمون كتابهم بشمالهم أو من وراء ظهورهم ، والذكر الحكيم لا يكتفي بذكر مصيرهم البئيس وحسب ـ كما هو الحال بالنسبة للسابقين وأصحاب اليمين ـ بل يبيّن أهمّ الأسباب التي تصير بالبشر الى ذلك ، هداية لنا الى النجد الصحيح ، وإنذارا من التورط فيها.

(**وَأَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ**)

والشمال كناية عن الشؤم [1] ، وهذا المعنى واضح إذا فسّرنا الكلمة هنا بالآية التاسعة ، فهذا الفريق هم المعنيّون بالمشأمة ، ومع أنّهم يعطون كتابهم بشمالهم (**وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ**) [2] ، إلّا أن القرآن لا يسميهم بأصحاب اليسار ، لأنها مأخوذة من اليسر تفاؤلا كالمفازة للصحراء ، ذلك ان قوة الإنسان في يمينه ، ويستخدمها بيسر وسهولة ، بينما يواجه حرجا وعسرا في إعمال شماله ، فقيل يسار رجاء اليسر. ونستوحي من ذلك ان سيرة المتقين والمؤمنين هي المسيرة الطبيعية التي تنسجم مع واقع الإنسان والحياة ، وان مسيرة أهل النار هي الشذوذ عن مسيرة الخليقة. أو ليس كل شيء في العالم يسلم لله ويخضع لسننه ويسبح بحمده؟ وكيف لا يكونون كذلك (**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**) [3] ، بينما نجد هؤلاء يكفرون بالله ، ويشركون به ، وينكرون الحقائق الكبرى كالبعث ، ويخالفون سنن الله وأوامره.

---

(1) المنجد مادة شمل بتصرف

(2) الحاقة / 35

(3) الإسراء / 44

وإذا كـان تجلّي الشـمال واليمين والمشـأمة والميمنة في يــوم الــدين هو إعطــاء الكتــاب بإحــدى اليــدين فــان تجليهما في الواقع الاجتمـــاعي والسياسي هو القيــــادة الصـالحة بالنسـبة لليمين ، والفاسـدة بالنسـبة للشـمال ، وقد وردت بهــذا التأويل روايــات كثــيرة من بينها : قــول رســول الله (صــلّى الله عليه وآله وســلّم) للإمــام علي (عليه السلام) : «**هم شيعتك**» [1] يعني أصـحاب اليمين ، وقول أبي عبد الله (عليه السـلام) : «**والكتـاب الامـام ، ومن أنكره كان من أصحاب الشمال الذين قـال الله : الآيات**» [2] ، ومن هذه الاخبار وأمثالها استلهم علي بن إبراهيم (ر ض) تفسيره للآية : يعني من كان من أصـحاب أمــير المؤمــنين (عليه الســلام) [3] ، ومثل الشــمال : الجبارون والمشـركون والكـافرون والطـواغيت ومن أريد هوانه وشقوته» [4].

وهنا نجد السـياق القـرآني يختلف عما سـبق ، فحين ذكر أصحاب اليمين من بعد السـابقين لم يـبين صـفاتهم ، بينما هنا يذكر صفات أصحاب الشمال مما يثير التساؤل : لما ذا؟ ويبدو أنّ الاجابة تتوضّح إذا عرفنا أنّ الإنسان خلق أساسا ليكون من أصحاب الجنـة. أو ليس خلقنا ليرحمنـا؟ فدخول النـار شـذوذ عن هـدف الخلقة لا بد ان نبحث عن سبب له ، وهكذا يبيّن القرآن عوامل دخول النار التي من تجنّبها تفضّـل الله عليه بالجنة ، والأسـلوب القـرآني بـديع في بيـان موجبـات النـار حيث يجعل بيانها مسـبوقا ببيـان جانب من العـذاب الشـديد ، ثم يلحقه بإشـارة الى ألـوان اخرى منه أيضا ، وذلك لكي يخوفنا من مصيرهم ، فما هو مصيرهم؟ إنّهم :

---

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 229 نقلا عن روضة الكافي
(2) المصدر / ص 221
(3) تفسير القمي / ج 2 ص 350
(4) نور الثقلين / ج 5 ص 214

(**فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ**)

والسموم الريح الحارة التي تدخل مسام الجسم ، ولعلّه في الآخرة نوع من النيران يعذب به أصحاب المشأمة ، قال تعالى : (**وَالْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ**) [1].

ولعلّ اللفح بريح السموم يوم القيامة متولّدة من حركة السنة النار وتداخلها في بعضها (المرج) ، وهو يصيب (**أَصْحابُ الشِّمالِ**) بحره إضافة الى كونهم في جهنّم مباشرة تحيطهم من كلّ جانب وصوب.

أمّا الحميم فهو السائل الفائر المغلي الى درجة ، من حم الماء إذا وضعه على النار وسخّنه ، قال تعالى : (**فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ**) [2] ، وقال : (**كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ**) [3] ، من شدّة حرارته. والحرف «**فِي**» يفيد الاحاطة الشاملة.

والذي يظهر من تعبير القرآن بفي أنّه يسقط الزمن من الحساب ، بالرغم من انّ ظاهر الآيات الذي يلاحظه المتدبّر ـ أنّها تنصرف الى المستقبل «يوم الدين» ، وقد أراد ربنا بذلك هدايتنا الى حقيقتين :

الاولى : انّ العذاب والثواب حقائق واقعية يعيشها الإنسان في الدنيا فور مبادرته الى عمل الخير والشر ، لان ذات السيئات والحسنات هي التي تصير نارا أو جنة في الآخرة ، بيد ان الناس محجوبون عن هذه الحقيقة الحق. قال تعالى : (**كُلُّ أُمَّةٍ**

---

(1) الحجر / 27
(2) الواقعة / 54
(3) محمد / 15

تُدْعى إِلى كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) [1] ، وقال : (**إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**) [2] ، «**وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ**» [3].

الثانية : ان جزاء الإنسان ليس بعيدا عنه من الناحية الزمنية ، فالدنيا وان طال عمره فيها ـ الى المأة عام مثلا ـ لا تكاد تبين في ميزان الخلود الاخروي ، (**وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**) [4] ، ولكن أكثر الناس لا يستوعبون هذه الحقيقة ولا يدركونها بعمق الا في الآخرة (**إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً**) [5] ، «**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ**» [6].

[43 ـ 44] فلا يظنّ أصحاب الشمال ان العذاب بعيد عنهم ، فهم الآن وغدا محاطون به.

(**وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ**)

قال صاحب المنجد : الأسود من كلّ شيء (ويسمى بذلك) الدخان [7] ، وقال علي بن إبراهيم : ظلمة شديدة الحر [8] ، وهذا النوع يقابله الظل الممدود في جنان المؤمنين ، ولعلّه المشار اليه في قوله تعالى : (**لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ**) [9] ، وهو إن صحّ فاليحموم نار سوداء تجعلهم في ظلام حالك.

---

(1) الجاثية / 28
(2) الطور / 16
(3) الزمر / 24
(4) الحج / 47
(5) طه / 104
(6) الروم / 55
(7) راجع مادة حم
(8) تفسير القمي / ج 2 ص 349
(9) الزمر / 16

(**لا بارِدٍ**)

كظلال الجنة ، وظلّ الدنيا.

(**وَلا كَرِيمٍ**)

فهم يلقون من جهة عذابا للجسم بسبب الحرارة في ذلك الظل ، ومن جهة اخرى يتلقّون الاهانات والاذلال والخزي ، ويعيشون انعدام الكرامة على خلاف المؤمنين والسابقين الذين تتابع عليهم كرامات الله ونعمه ، ولا يسمعون ، «**إِلَّا قِيلاً سَلاماً سَلاماً**».

وقيل : الكريم : العذب ، وقال بعضهم : حسن المنظر ، وقال آخرون : كل ما لا خير فيه فليس بكريم.

[45 ـ 48] وهذه الألوان من العذاب التي تحيط بأصحاب المشأمة في الآخرة ، لا شك انها تجليات لما قدموه في الدنيا ، وما كانوا عليه من الأعمال السيئة والأفكار الضالة ، ونتيجة لمنهجهم فيها ، فما هي العوامل التي جعلتهم من هذا الزوج المشؤوم لعلّنا نتعرف عليها ونتجنّبها؟

أولا : الترف. قال تعالى :

(**إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ**)

قالوا : ترف النبات كثر ماؤه ونضر ، وانما سمي صاحب النعمة بالمترف لأنه كثرت لديه النعمة وظهرت عليه نضارتها ، ولعلّه لا يسمى كل صاحب نعمة مترفا ، انما الذي جاوز الحد في الاهتمام بنفسه ، وجعل النعم هدفه الاساسي ، وقد توالت آيات الذكر في ذم هذا الفريق ، وبيان صفاتهم الذميمة التي أبرزها كفرهم بكل

رسالة جديدة.

قال الله : (**وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ**) [1] ، وإنّهم يجعلون النعمة قبلتهم فيتبعونها أنّى كانت ، وهي ـ بالطبع ـ تجرّهم إلى ألوان من الظلم والانحراف والجريمة ، كما قال تعالى : (**وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَكانُوا مُجْرِمِينَ**) [2] ، كما انهم يعتمدون اعتمادا كليّا على ما أترفوا فيه فلا يسعون لعمل الصالحات ، (**وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**) [3] ، بل ويزداد المترفون ضلالا وذنوبا ، وبالتالي قربا من النار كلما ازدادت النعم عليهم ، قال تعالى : (**إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ**) [4] ، ولا يعلم هؤلاء بان اعتمادهم على المال والقوة وسائر صنوف النعمة كان خطأ إلّا في الآخرة ، حيث يغمرهم الندم ولا حيلة لهم يومئذ ولا هم ينصرون ، قال تعالى :

(**وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ* وَلَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ* يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ* ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ* هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ**) [5] ، وفي صفة المترفين من أهل الدنيا قال الامام علي (عليه السلام) : «**سلكت بهم الدنيا طريق العمى ، وأخذت بأبصارهم عن منار الهدى ، فتاهوا في حيرتها ، وغرقوا في نعمتها ، واتخذوها ربّا ، فلعبت بهم ولعبوا بها ، ونسوا ما وراءها**» [6].

والسؤال : لماذا يقول ربنا «**مُتْرَفِينَ**» بصيغة المبني للمجهول ، كأنّما قد

---

(1) سبأ / 34
(2) هود / 116
(3) سبأ / 35
(4) آل عمران / 178
(5) الحاقة / 25 ـ 29
(6) نهج كتاب / 31 ص 401

جرهم الى الترف شخص آخر ، وإذا كان الأمر كذلك الأمر فلما ذا يعـذبهم اللـه؟ والجـواب : ان الله هو الـذي ينعم على العبد ، ولكن الإنســان هو الــذي يختــار ان يجعلها وسـيلة يتسـابق بها الى الخـير والفضـيلة والرضـوان ، أو يصيّرها سببا للتسـافل والعـذاب ، وبتعبـير آخر : انه قـادر ان يبتغي بـالنعم ان شـاء الـدار الآخـرة ، وان شـاء الـدنيا فيتبع هو بنفسه ما يترف فيه.

وكلمة أخيرة :

إنّ المفسّـرين اختلفـوا في معـنى هـذه الآية ، فقـال بعضهم : المـراد انّهم تنعّمـوا بـالحرام ، وقـال الآخـرون : معـنى المــترفين المشــركين ، بيد ان كلمة المــترف قد أصـبحت علما لفئة معينة من النـاس ذكر القـرآن الكـريم صفاتهم وأعمالهم ، مما أخرج الكلمة عن وضـعها اللغـوي الى وضع جديد فلا نحتاج فيها الى تأويل.

ثانيا : الإصرار على الحنث.

(**وَكانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ**)

الْحِنْثِ : هو الميل الى الباطل ، وفي اليمين : لم يف بموجبها [1] ، وهو من الذنوب الكبيرة ، لذلك فسر البعض الكلمة بأنّها الكبـائر ، وقـال آخـرون منهم ابن عبـاس انّها اليمين الغمـوس ، وعليه كثـير من المفسـرين المتقـدّمين والمتأخرين ، ولعـلّ (**الْحِنْثِ**) هو مخالفة الميثـاق عموما ، ولكن بما انّ أعظم ميثـاق هو الـذي قطعه الإنسـان على نفسه امام الله في عالم الذر فـان أبـرز مصـاديق الحنث العظيم هو الشرك ، قـال تعـالى : (**إِنَّ اللـهَ لا يَغْفِـرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُشْـرِكْ بِاللهِ فَقَـدِ افْتَـرى إِثْمـاً عَظِيمـاً**) [2] ، وكيف لا يكـون المشرك من أصحاب المشأمة وقد قال

---

(1) المنجد مادة حنث

(2) النساء / 48

الله : (**إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْـهِ الْجَنَّةَ وَمَأْواهُ النَّارُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ**) [1] ، ولا ينحصر الشرك في قول النصارى : (**إِنَّ اللهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ**) [2] ، ولا في قولهم : (**إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِـيحُ ابْنُ مَـرْيَمَ**) [3] ، ولا في عبادة الأصنام والأوثان ، بل في التســليم لأيّ منهج أو قيـادة باطلة ، فقد يكـون الشـرك سـلوكا اجتماعيّا وقـولا باطلا ، قال الله تعالى : (**فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثـانِ وَاجْتَنِبُوا قَـوْلَ الـزُّورِ* حُنَفـاءَ لِلَّهِ غَيْـرَ مُشْـرِكِينَ بِـهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللـهِ فَكَأَنَّما خَـرَّ مِنَ السَّـماءِ فَتَخْطَفُـهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ**) [4].

والآية تـــبيّن لنا حجم الـــذنب الـــذي يمارسه فريق المشـأمة بثلاثة حـدود : الأوّل : هو الإصـرار الـذي يجعل الـذنب الصـغير كبـيرا ، فكيف وهو واقع على ذنب كبـير؟ والثـاني : الحنث أي مخالفة ما تعهّد به الشـخص ، وألـزم نفسه باتباعـه. ولا ريب ان مخالفته لا تنعكس على ضـياع حقـوق المجتمع ، بل على سـحق كرامة المحنث نفسه ، حيث يسقط اعتباره وشخصـيته فلا يعـود أحد يثق به ، بل لا يعـود يثق هو بنفسه ، ذلك انّ أسـاس الأخلاق احـترام الإنسـان لنفسه ، وثقته بكرامته ، فـاذا فقد ذلك فلا يبقى لديه أي أساس للالتزام بالقيم ، والثـالث : الشـرك الـذي هو أعظم الحنث ، وعموما كل حنث عظيم ، والـذي يهتك أعظم عهد ويمين في حياته هل تبقى عنـــــــــده حرمة واعتبارات لاي يمين وعهد آخر؟!

ثالثا : الجحود بالآخرة ، الذي كـان يتناسب مع الـترف الذي يحصر الإنسان في حدود الـدنيا ، ومع الشـرك الـذي يـــبرر للنفس انحرافاتها وتبرّيها من المســؤولية ، وهم لا يكفـــرون بها وحسب بل ويســـفّهون فكرتها وقيمها عند الآخرين بالتشكيك

---

(1) المائدة / 72
(2) المصدر / 73
(3) المصدر / 72
(4) الحج / 30 ـ 31

فيها ..

(**وَكانُوا يَقُولُونَ أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظامـاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ**)

للحساب والجـزاء ، وقـولهم هـذا يكشف عن شـكّهم في قــدرة الله ، وســعيهم لتشــكيك الآخــرين فيها ، بانّه تعـالى لا يقـدر على بعث الخلق ، وربنا يـردّ هـذه الشـبهة في الآيات القادمة : 57 ـ 74.

وليس القــول هنا مجــرّد الكلام ، بل يشــمل مجمل موافقهم وسلوكهم ، وكـانوا يتسـاءلون تعميقا لشـبهتهم : هل أنّ آباءنا الأولين الذين صاروا عظاما نخرة يبعثون؟!

(**أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ**)

وربما يستهدف تعرّضـهم لـذكر الآبـاء الأولين بالـذات اثارة ثقافة التخلّف التي كـانت تقـدّس الآبـاء في أعينهم ، إثارتها في نفوس الناس لتكون حاجزا دون الايمان بالبعث ، ذلك انّ الرسالة كانت تخبرهم بأنّ الآبـاء سـوف يبعثـون من جديد ، ويحــاكمون علنا ، ويلقــون الجــزاء العـادل إن خيرا فخير وان شـرا فشر .. وكـان من الصـعب على من يقدس آباءه انّى كانوا قبول فكرة محاكمتهم ومجـازاتهم ، على أنّ بعث الاباء أبعد في ذهن السـذّج من بعث من هم لا يزالون أحياء. والشيء الآخر أنّهم لا يــرون حــديثهم عن المســتقبل كافيا لتــدعيم فكــرتهم ونظــرتهم الشــيئية المغرقة بواقع محســوس ، والآبــاء الأوّلــون هم تــراب وعظــام بالفعل ، وهــذا يتناسب مع ضــلالهم وإضــلالهم غــيرهم عن فكــرة الآخــرة والــتي هي جــانب من الغيب المستقبل.

[49 ـ 50] ويرد ربنا على هذه الشـبهة ردا موضـوعيا صاعقا على لسان رسوله (ص) بالوحي :

(**قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ**)

وربما كــان في فعل الأمر «**قُــلْ**» تحقــيرا لهم بأنه تعـالى لا يكلمهم مباشــرة ، ولعل أهم ما يــوحي به ظلال «قل» أنّ هذه الحقيقة يجب ان تقـال صـراحة ، وأنّها من مفــردات الــدعوة الى الله ورســالاته ، كقوله ســبحانه : «**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**».

وقـال بعضـهم : إنّ كلمة «قـل» تـدل على أنّ هـذه الحقيقة من القضــايا العامة الــتي يشــترك فيها العــوام والخواص [1] ، وقدّم ربّنا (**الْأَوَّلِينَ**) على (**الْآخِرِينَ**) لأنّهم اسـتبعدوا بعثهم ، ولكي لا يتـوهّم أحد بـأن بعث الأقـدمين الذين تحلّلـوا وتبعـثروا ولم تبق منهم حـتى الآثـار أصـعب عليه (سبحانه) كلّا .. (**فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَـإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ**) [2] جميعهم ، لا فرق بين مالك ومملـوك ، وذكر وأنثى ، ولا أوّل وأخير ، وهذا هو القرآن يؤكّد مـرة أخـرى بعد «**إِنَّ**» على البعث ، وأنّ الناس :

(**لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ**)

عند الله ، وكونه جــــــزء من العلم فهو واقع ، وليس بظنّ أو تخرّص أو كـذب ، وبـالنظر إلى آيـات قرآنية فـإنّ علم الساعة اختصّ به الربّ ، ولعلّه سـبحانه لم يحـدّد لها وقتا كما يستوحى من قوله سبحانه : «**إِنَّ السَّـاعَةَ آتِيَـةٌ أَكـادُ أُخْفِيها**» ، من هنا فــإنّ اليــوم معلــوم الوقــوع لا معلوم الوقت. وهنالك يقف الجميع أمام الله للحساب ، لا فـرق بين أحد وأحد ، و(**لا يَجْـزِي والِـدٌ عَنْ وَلَـدِهِ ، وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً**) [3] ، فلما ذا الاعتماد إذا على الآباء بدل الحق؟! ولعلّ «**مِيقاتِ**» هنا اسم للمكـان ، بينما «**يَوْمٍ**» يشـير إلى الزمـان ، كما نقـول : مـواقيت الحج ، وربما تتسع الآية لمعــنى آخر : أنّ النــاس يبقــون مختلطين مع بعضهم وهكذا المجرمون إلى يوم

(1) راجع الرازي في تفسير الآية
(2) الصافات / 19
(3) لقمان / 33

القيامة حيث يصبح الناس أزواجا ثلاثة ، حسب التعبير الوارد في هذه السورة ، وتتقطّع الوشائج كما قال ربّنا سبحانه : (**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ**) [1].

وتوحي كلمة «**إِلى**» في هذه الآية بالسّوق ، وكأنّهم يجمعون ثم يساقون إلى ذلك الميقات ، كما قال سبحانه : (**مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ**) [2] ، ومثل التعبير في آية الواقعة نجده في قوله سبحانه : (**قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ**) [3].

[51 ـ 55] ويوجّه القرآن الخطاب إلى أصحاب المشأمة مثيرا إلى أهمّ صفتين تميّزهم :

(**ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ**)

فالأمر يومئذ لا ينتهي عند البعث ، فهناك ما هو أعظم ممّا يليه وهو الجزاء ، الذي يشكّل إنكاره العامل الحاسم والرئيس في كلّ انحرافات البشر. ويزعم البعض أنّ تكذيبه بالآخرة يخلّصه من مسئوليته ، وكأنّ من يصدّق بشيء هو وحده يتحمّل مسئوليته! كلّا .. انّ التكذيب ليس فقط لا ينجي صاحبه من عاقبة أفعاله ، بل هو بذاته جريمة توجب عقابا شديدا ، وكما التكذيب الضلالة فإنّها لا تبرّر الجرائم إذ أنّها من فعل الإنسان نفسه ، كما أنّ الهداية من مسئولياته. أو ليس قد وفّر الله لنا أسباب الهداية ، فمن ضلّ فإنّما يضلّ على نفسه.

ولعلّ تقديم التكذيب على الضلالة في آخر السورة (الآية 92) خلافا لما عليه هذه الآية يهدينا إلى أنّ (الضلال والتكذيب) كلاهما سبب للآخر ومسبّب له ،

---
(1) الروم / 12 ـ 14
(2) القمر / 8
(3) الجاثية / 26

فالمكـذّب بـالحق يضل ، والضـال يكـذّب بـالحق ، ولأنّ الضال ربما يهتدي بالحكمة البالغة والموعظة الحسنة إلى الحق ، ويعـــود عن ضـــلاله ، فقد وصف ربّنا المعـــنيّين بالمكـذّبين (صـيغة مبالغـة) ليـبيّن بـأنهم من المتعمّـدين الضلال المصرّين عليه. أمّا عاقبة تكـذيبهم وضـلالهم فهي العذاب الشديد. إنّهم :

(**لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ**)

قالوا : إنّها كريهة المنظر ، وثمرتها سوداء مـرّة منتنة ، وهي تنبت في قلب جهنّم ، ويمتد منها غصن إلى كـــلّ منزل وفرد فرد ، وجـاء في القـرآن (**إِنَّها شَـجَرَةٌ تَخْـرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ* طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ**) [1] ، والــذي يجعلهم ينجــبرون على الأكل منها زجر الملائكة ، وكــونهم لا يجــدون ســواها ، ولعلّهم بســبب السّــموم والحميم وظـــلّ اليحمـــوم قد بلغت حـــاجتهم إلى الأكل أقصى حدّها ، وقد جـاء في الحـديث : «إنّ الله عـزّ وجـلّ خلق ابن آدم أجوف لا بد له من الطعام والشراب» [2].

ولعلّ هذا العذاب يأتي جزاء الـترف الـذي اتبعـوه في الـدنيا ، على حسـاب حقـوق الله وحقـوق النـاس ، فلم يكونـوا يحسـون عند ما كـانوا يتلـذّذون بـألوان النعم بمن حولهم من المستضعفين والمحـرومين والفقـراء ، وكـانوا يجمعون المال ويكنزون الـذهب والفضة دون أن يتورّعـوا عن الحــرام ، فنظــامهم الاقتصــادي قــائم على أســاس الاستبزاز ، والظلم والربا والاحتكار و... ، والقـرآن يصـرّح بهذه الحقيقة حينما يحـدّثنا في سـورة الحاقة عمّن يـؤتى كتابه بشـماله : «**إِنَّهُ كـانَ لا يُـؤْمِنُ بِاللـهِ الْعَظِيمِ* وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْـكِينِ* فَلَيْسَ لَـهُ الْيَـوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ* وَلا طَعامٌ إِلَّا مِنْ**

(1) الصافات / 64 ـ 65 وللمزيد راجع تفسيرنا هناك
(2) نور الثقلين / ج 5 ص 222

غِسْلِينٍ* لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخاطِؤُنَ» [1] ، ولأنّهم كـانوا في الدنيا متخمين على حساب ملايين الجـائعين من حـولهم ، دون أن يشـبعوا من التهـام الحــرام ، يسـلّط الله عليهم الجوع حتى أنّهم ليملئون بطونهم من الزقّـوم على ما فيه من العـذاب ، فلقد قـال رسـول الله (ص) يصـفه : «**ولو أنّ قطرة من الزقّوم والضـريع قطـرت في شـراب أهل الدنيا مات أهل الدنيا من نتنها**» [2] ، وحينما يبلغ طعامها بطونهم يجدون الحاجة الملحّة إلى الشراب بما لا يمكن التصـــبّر عليها ، فلا يجـــدون إلّا الحميم فيشـــربون طمعا في ريّ ظمئهم ، وإطفاء التهاب الزقـوم واسـتعاره في أمعائهم.

(**فَمــالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُــونَ* فَشــارِبُونَ عَلَيْــهِ مِنَ الْحَمِيمِ**)

ولكنّهم لا يشـربون قليلا ويكتفـون أو يتوقّفـون ، إنّما يشربون كالرمـال الـتي لا تـروى ، أو كالإبل الـتي ضـربت في الصحراء هائمة (لا تدري إلى أين) [3].

(**فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ**)

قـالوا : (**الْهِيمِ**) الإبل العطشـان الـتي لا تـروى لـداء يصيبها ، وقيل : (**الْهِيمِ**) الأرض السهلة ذات الرمل (التي لا يسـتقرّ عليها المـاء) ويقـال لكل ما لا يـروى من الإبل والرمل أهيم [4].

ومن هذه الآية عكس الإمـام الصـادق (عليه السـلام) حكم الكراهة في الشرب بنفس واحـد. قـال أبو بصـير (ر ض) : سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول : «ثلاثة

(1) الحاقة / 33 ـ 37
(2) نور الثقلين / ج 5 ص 222 نقلا عن روضة الواعظين
(3) المنجد / مادة هيم
(4) القرطبي / ج 17 ص 215

أنفـاس أفضل في الشـرب من نفس واحـد. وكـان يكره أن يتشبّه بالهيم» [(1)].

[56] وإلى جانب هذا العذاب والسابق ذكـره (الآيـات 42 ـ 44) ألوان كثيرة ومريعة من العذاب المـؤلم المهين تصبّ كلّها على أصحاب المشأمة في النار.

(**هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ**)

قـالوا : الـنزل القـرى الـذي يقـدّم للضـيف ، وكـأنّهم ضيوف وقراهم هذا النـوع من الطعـام والشـراب ، وقـال بعضهم : النزل هو أوّل الطعام والشراب الذي يستقبل به الضيف.

أمّا المؤمنـون فـإنّهم يفـدون دار ضـيافة الله (**فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ**) [(2)] ، (**كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِـرْدَوْسِ نُـزُلاً* خالِـدِينَ فِيها لا يَبْغُـونَ عَنْها حِوَلاً**) [(3)]. ولك أن تقارن بين المنزلين : (**أَذلِكَ خَيْرٌ نُـزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ**) [(4)]؟

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 223
(2) السجدة / 19
(3) الكهف / 107 ـ 108
(4) الصافات / 62

نَحْنُ خَلَقْنــاكُمْ فَلَــوْ لا تُصَــدِّقُونَ (57) أَفَــرَأَيْتُمْ ما
تُمْنُـونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَـهُ أَمْ نَحْنُ الْخـالِقُونَ (59)
نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَـوْتَ وَما نَحْنُ بِمَسْـبُوقِينَ (60)
عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْشِـئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُـونَ (
61) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ (62)
أَفَــرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُــونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَــهُ أَمْ نَحْنُ
الزَّارِعُـونَ (64) لَـوْ نَشـاءُ لَجَعَلْنـاهُ حُطامـاً فَظَلْتُمْ
تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ

---

65 [حطاما] : الحطام هو الهشيم الذي لا ينتفع به في مطعم ولا غـذاء وأصل الحطم الكسر.
[تفكّهون] : تتكلمون في مجالسكم من جهة التعجّب ، والتنـدّم على ما أنفقتم في الأرض لأجل الزرع ، والمراد إنكم لا تقدرون أمام قدرة الله بجعله النبات هشيما إلّا التكلّم فقط.
66 [إنّا لمغرمـون] : المغـرم الـذي ذهب ماله بغـير عـوض ، والغـرام العذاب اللازم.

(67) أَفَـــرَأَيْتُمُ الْمــــاءَ الَّذِي تَشْـــرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ
أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشـاءُ
جَعَلْنـاهُ أُجاجـاً فَلَـوْ لا تَشْـكُرُونَ (70) أَفَـرَأَيْتُمُ النَّارَ
الَّتِي تُـــورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَــأْتُمْ شَــجَرَتَها أَمْ نَحْنُ
الْمُنْشِؤُنَ (72) نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَمَتاعاً لِلْمُقْوِينَ
(73) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (74)

---

70 [أجاجا] : مالحا يمجّه الطبع وقيل مرا مرارة شديدة.
71 [تورون] : أي تستخرجونها وتقدمونها بزنادكم من الشجر.
73 [للمقوين] : يقال أقويت منذ أيّـام أي لم آكل طعاما فـالمقوين هم الـذين يحتـاجون إلى الطعـام ، وقيل إنّ المقـوي من الأضـداد فيكـون المقوي الـذي صـار ذا قـوّة من المـال والنعمة والمقـوي أيضا الـذاهب ماله النازل بالقواء من الأرض أي التي ليس فيها أحد.

نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ

هدى من الآيات :

بعد أن درس أعقد مضامين الفلسـفة كنظرية الفيض والدور والتسلسل ، وقـانون العـدم والوجـود ، مر أحـدهم بعجـوز تحـرك المغـزل ، وسـألها : كيف عرفـتي مـدبر الكون؟ فأجابته بفطرتها وإيمانها البسيط ـ بعد أن أوقفت النسج ـ : هكذا عرفت أن للكـون مـدبرا. لكنه ظل حـائرا لم يـدرك شـيئا من قصـدها ، فبادرته : إن المغـزل يقف حينما لا أعمل ، فكيف لا يكـون لهـذه الأرض المدحية ، والسـماء المبنية على ما فيهما من الحيـاة والحركة والتحوّل مدبّر؟!

هكذا الكثير من الحقـائق الـتي نعيش معها كل لحظة نبقى سـاهين عنها دون أن نهتـدي إلى عبرها ، فـالخلق ، والمـوت ، والنشـأة ، والـزرع ، والمـاء ، والنـار كلّها من أقـرب الحقـائق إلينا وأكبرها شـهادة وهـدى لو وعيناها ، والإنسـان قـادر على أن يجعل الحيـاة كلها مدرسة ، وما فيها من الظـواهر والعـبر دروسا يكمل بها إيمانه ومعرفته ،

فيهتـدي بالشـهود الى الغيب ، وبالحاضر الى المسـتقبل ، وبالمخلوق الى الخالق ، الا ان المشـكلة لا تكمن في قلة العبر وانما هي في قلة الاعتبار والمعتبر ، فالمواعظ على كثرتها ووضـوحها كالشـمس هل يراها من غض بصـره أو استتر بحاجب؟!

من هنا فان أهم اهداف الرسالات الالهية رفع الحجب الـــــــــــــــتي بيننا وبين الحقـــــــــــــــــــائق (الإصر والأغلال) العلمية بـــالتعليم ، والنفســـية بالتزكية لنلمســـــــــــــها مباشـــــــــــرة ، قـــــــــــال الله : (**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَإِنْ كـانُوا مِنْ قَبْـلُ لَفِي ضَـلالٍ مُبِينٍ**) [1]. أرأيت الـذي ضل عن ابنه فدل عليه؟ أرأيت كيف يعرفه؟ كذلك الذي عـاش في ضـلال مـبين عن حقـائق يعشو عنها وهي قريبة منه كيف يهتـدي إليها لو كشف عن بصـره السـتار؟ وقد لا تكـون حاجة الإنسان لكي يستوعب الحقائق الـتي تهـدي الآيـات إليها ، ويؤمن بها الى المعلومات والمعارف ، بقـدر حاجته الى يقظة الضمير وإثارة العقل.

وانما يـترف الإنســان ، ويصر على الشـرك ، ويكفر بالآخرة بسبب ضلاله عن ربه ، وقـدره حق قـدره. ولـذلك يـذكره القـرآن بآيـات معرفته الدالة اليه ، وقد تكـون تلك الآيات أقرب شيء اليه (كالخلق) ولكنه غافل عنها.

بينات من الآيات :

[57] لان الإنســان مخلــوق فــان خلقه هو أقــرب الأشياء.

هل حـدث أن بحثت عن شـيء ثم اكتشـفت انه كـان في يــدك أو جيبك وأنت سـاه عنــه؟ أو تــدري أين كـان الخطـــأ؟ إنه في المنهج. لقد بحثت عنه طـــويلا في درج مكتبك ، أو رفوف مكتبتك ، أو عند أهلك وأصـدقائك ، لقد حسبته بعيدا عنك

(1) الجمعة / 2.

فضللت عنه ، وحين عـدت الى نفسك وفتشت عنه لـديها وجدته ، كذلك الحقـائق الكـبرى إنما ضل عنها البشر حين فتشوا عنها بعيدا ، بينما هي أقرب إليهم من حبل الوريـد. هل سـمعت عن ذلك الفيلسـوف الـذي بحث عن الحقيقة في النظريـــات المعقـــدة فلما وقف على عجـــوز تغـــزل وســـألها بم عـــرفت ربها أوقفت مغزلها وقـــالت بهـــذا ، وأضـافت : أنا حينما تـركت المغـزل وقـف. فكيف لا تقف السـماء عن الحركة أليس لها محركا مـدبرا؟ وكـان درس العجوز أقرب الى قلبه من كل نظريـات الفلسـفة لمـاذا؟ لأنها تحـدثت معه بلغة الوجـدان .. بـأقرب الأشـياء اليه ، كذلك نحن امام حقيقة الخلق ، من الـذي خلقنا وأوجـدنا؟ حيث أن الإنسان يجد نفسه أمام افتراضات ثلاث :

أولا : فهل الإنسان هو الذي أوجد نفسه ، فيكون ذاته الـذي خلق ذاتـه؟ وهـذا لا يقـره عقل ولا علم ، فقد بـدأ نطفة لا علم له ولا إرادة ، ثم نشأ حتى صار طفلا سويا لا حـــول ولا طـــول لديه ، وكفى بجهله نفسه وعقله وبدنه دليلا على أنه ليس الخـــالق. أم أن والديه خلقـــاه مع أننا نعلم يقينا بـــأن تقلّبه في صـــلب أبيه ، ثم تناميه في رحم أمه قد تم بعيدا عن علمهما وإرادتهما.

وثانيا : ويقـــول البعض أنه الـــدهر يميتنا ويحيينا ، وقد يعبّر عنه البعض بالطبيعة ، هـذه السـماء والأرض والمـاء والطين. أفلا يرجعـون الى أنفسـهم ويسـألون : من الـذي خلق الطبيعة ، وأركز فيها قوانينها ، وفتقها بعد رتقها ، وألف بين أزواجها ، ونظّم شـؤونها. أوليس الخـالق العليم المدبّر الحكيم؟

ثالثا : ويقولـون أنّ الكـون جـاء صـدفة ويسـير بغـير دليل. سبحان الله! ما هي الصدفة؟ أو لا تعني الصدفة ان حادثتين وقعتا في حالة واحـدة ، وكـان لكل واحـدة منهما سببا ، إلا أنه كـانت في وقوعهما معا نتيجة جديـدة؟ هـذه هي الصدفة

التي نعرفها ، ولا نعرف الصدفة عملا بغير عامل ، أو خلقا بدون خالق ، أو حادثا بدون سبب [1].

ويسخر بعض الباحثين من هذا الزعم ويضرب مثلا ويقول : لو فسر أحد ظهور دائرة المعارف البريطانية بمجلّداتها الضخمة وعلومها المتنوّعة بان انفجارا وقع في مطبعة ، ففاض الحبر على الأوراق صدفة ، وارتسمت عليها صور الكلمات صدفة ، وخرجت مجلدات دائرة المعارف بما فيها من ثقافة العصر ، لو فسّر أحد نشوء أعظم موسوعة عصرية بهذه الصدفة كم يكون كلامه باعثا للسخرية؟! كذلك الذي يدّعي وجود خلية واحدة صدفة.

وإن شواهد العمد والتصميم السابق متوافرة في كل حركة في الكون ، فبالرغم من وجود سنن كونية تجري عبرها الكواكب والمنظومات ، فانها ليست كآلة ميكانيكية ، بل انما هي كسيارة في عراء قد استوى عليها صاحبها ، وسيّرها بقدرة وخبرة بالغة [2]. (وحتى الحركة الميكانيكية تحتاج الى محرك).

رابعا : ان الكون ومن ضمنه الإنسان لم يحدث بل كان أزليا. هل هذا صحيح؟ كلا .. إن جميع شواهده تدل على حدوثه (تطوره ، تناميه ، تناقصه ، حاجة بعضه الى بعضه ، تركيب أجزائه بدقة وتناسق) إن هذه آيات الحدوث .. بل كل اكتشافات العلم تهدى الى أن للوجود عمرا محدودا ، فالحرارة المتاحة للحياة تتناقص ، وعمر النجوم محسوب [3].

(**نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ**)

(1 ، 2) للمؤلف بحوث طويلة في كتابه (الفكر الاسلامي مواجهة حضارية) تقع في مئات الصفحات بهذا الشأن فراجع.
(3) المصدر / ص 167.

كل شــيء في الإنســان وفي الافــاق يهديه الى تلك الحقيقة العظمى ، وحـــتى أولئك الجاحـــدون لا ينكرونها بقناعة إنما كفروا (**وَجَحَـدُوا بِها وَاسْـتَيْقَنَتْها أَنْفُسُـهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَـةُ الْمُفْسِـدِينَ**) [1].

إذا فنحن نحتـــاج فقط الى النظر والتفكر في آيـــات الله بعيدا عن الحجب والخلفيات الخاطئة ، حتى نصدق بذلك.

[58 ـ 59] ويبــدد القـرآن الحجب الـتي تحـول دون رؤية هذه الحقيقة والتصديق بها ، فيقول :

(**أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ**)

هذه القطرات التي تنـدفق منك والـتي لا تعـرف منها شيئا كثيرا ، هل تزعم أنك الذي تصنعه في صلبك ، أو تهيأ أدوات قذفه حتى تحسب أنك الذي تخلقه؟

وكان يستطيع القـرآن أن يلقي علينا الحجة البالغة لو ســاءلنا عن خلقة آدم وحــواء ولكنه يــدع ذلك الغيب إلى شـهود يـراه ويعايشه كل بشر (الأمنـاء) ويطـرح السـؤال التالي

(**أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ**)

من الذي أنشأ المـني وهل كـان بامكانك إيجـاده قبل البلوغ؟ وحين بلغت هل تكون بتـدخل منك وعلم وتخطيط وإرادة؟ ثم كيف تطـــــــور الحيمن ونمى من مرحلة الى اخرى حتى يصير إنسانا سـويا ، إنه لا ريب ليس من صـنع الإنسان ، ولا بعلمه. انما يتطـور ضـمن القـوانين والسـنن الالهية ، وبـإرادة الهيـة. إذ لا تعمل القـوانين إلّا باذنه ذلك بأن (**لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشـاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ* أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً**) [2]. ثم إذا

(1) النمل / 14.
(2) الشورى / 49 ـ 50.

خرجنا من بطـون أمهاتنا الى الحيـاة ، فاننا لا نملك امـام نمونا الا التسليم بأنه ليس بفعلنا ، انما بفعل ارادة خارجة عن اختيارنا ، هي إرادته عـزّ وجـلّ ، فنحن لا نسـتطيع ان نمنع نمو شـعرة واحـدة في رأسـنا ، ولا ظفر واحد لأنهما ينموان بعيدا عن إرادتنا.

[60 ـ 61] ومن حقيقة الخلق تنطلق بنا الآيـات الى الموت ، انه أيضا مفـروض علينا فرضا فلا نعلم أجلنـا. ولا نقـدر على دفعه إذا حل بسـاحتنا ، ولو كنّا الـذين خلقنا أنفسنا فلما ذا لا نخلقها بطريقة تتحدى المـوت؟ إذا فربنا هو الذي خلق الموت والحيـاة ، وهو الـذي يحـيي ويميت ، متى يشاء وأين وكيف.

(**نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ**)

فهو يجـري بحكمة إلهية دقيقة ، فبـالرغم من تعـرض البشـرية لألـوان من المـوت الجمـاعي ، بسـبب الوبـاء ، والحروب الطاحنة ، أو الفـردي بالأسـباب الطبيعية إلا أنها تـزداد يوما بعد يـوم وتبقى في تـوازن من الحفـاظ على الجنس. ولو كـان يجـري المـوت اعتباطا وبلا حكمة لربما انقـرض النـوع البشـري منذ زمن بعيد ، في مثل طوفـان نـوح (ع). إنما الله هو الـذي يقـدر المـوت بين النـاس ، ويقهـرهم به (**وَهُـوَ الْقـاهِرُ فَـوْقَ عِبـادِهِ وَهُـوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**) [1] ، (**فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ**) [2].

(**وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ* عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ**)

والسبق هنا بمعنى الغلبة والعجز ، فربنا القاهر فـوق عباده ، وليس سبحانه مقهورا بقوة أنى كان نوعها ، فكما سـبق الأشـياء بـالخلق لا من شـيء فهو سـبحانه يعـدمهم متى ما شـاء كيف شـاء ، لا يسـبقه شـيء ، ولا يعجـزه أو يغلبه. وتأتي كلمة

---

(1) الانعام / 18.
(2) النحل / 61.

مسـبوقين لتـوحي إلى حقيقة تظهر قـدرة الله من زاوية اخرى ، وهي انه تعالى ابتداعا ، من غـير مثـال يحتـذي به سبقه به غيره والسؤال ماذا يعني تبديل الأمثال؟

1 ـ هلاك الإنسان أو جيل واستبداله بغيره ، والبشر لا يقـدرون على الوقـوف امـام الارادة الالهية ومنع تبـديلها قال تعالى : (**فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشـارِقِ وَالْمَغـارِبِ إِنَّا لَقـــادِرُونَ* عَلى أَنْ نُبَـــدِّلَ خَيْـــراً مِنْهُمْ وَما نَحْنُ بِمَسْـبُوقِينَ* فَـذَرْهُمْ يَخُوضُـوا وَيَلْعَبُـوا حَتَّى يُلاقُـوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ**) [1].

2 ـ تبـديل مثل الإنسـان بـالنظر الى صـفاته المادية والمعنوية ، فان مثل الإنسان المحـدود لا تسـتحيل عودته عند المقتـــدر القـــوي ، فانها ليست بـــأعظم من خلق السـموات والأرض ، وتـدبير شـؤونهما ، وتنظيم عمليـات التغيير والتبديل الـتي تجـري كل لحظة فيها الا تـرى كيف يدبر الرحمن امر الحيـاة فيميت الأرض ثم يحيها بـالغيث ، أو يعجزه اعادة الإنسان بعد الممات في الحياة بمثل هذه الطريقــة؟ قـال الله تعـالى : (**قـالُوا أَإِذا كُنَّا عِظامـاً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً* أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَـقَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ قـادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُـقَ مِثْلَهُمْ**) [2] ، وقـال عز من قائل : (**أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَـقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقـادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُـقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ* إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ* فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**) [3].

3 ـ وقد يكـون المثل الآبـاء الـذين مـاتوا وتـآكلت أجسامهم ، حيث ضربوهم مثلا لانكار البعث ، وزعموا بأنه يســتحيل نشـــرهم كما قـــال الله يصف ذلك الخصـــيم (**وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قـالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظـامَ وَهِيَ رَمِيمٌ**) [4]. ويشير القرآن

(1) المعارج / 40 ـ 42.
(2) الإسراء / 99.
(3) يس / 81 ـ 83.
(4) يس / 78.

إشارة واضحة الى هذا المعنى إذ يقول تعالى يخاطب نبيه : (**انْظُــرْ كَيْــفَ ضَــرَبُوا لَــكَ الْأَمْثــالَ فَضَــلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً* وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً* قُلْ كُونُـوا حِجـارَةً أَوْ حَدِيـداً* أَوْ خَلْقــاً مِمَّا يَكْبُــرُ فِي صُــدُورِكُمْ فَسَــيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُـونَ إِلَيْـكَ رُؤُسَــهُمْ وَيَقُولُـونَ مَـتى هُـوَ قُـلْ عَسى أَنْ يَكُـونَ قَرِيباً**) [1]

(**وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ**)

فكما يبــدل الله جيلا مكــان جيل ينشئ الجيل الغــابر في صـورة جديـدة لا يعلم عنها شـيئا وهي نشـأة الآخـرة. وهكــذا تـوحي الآية بـأن عملية تبـديل الأجيـال دليل على وجود تـدبير حكيم في نظـام الخلق يهـدينا بـدوره الى أن ربنا سبحانه لا يذهب بالجيل الماضي الى العــدم ، بل الى نشأة اخـرى لأنه حكيم كما لا يـأتي بالجيل الجديد عبثا بل للامتحان وتكـون الـدنيا كقاعة امتحـان يـدخلها جماعة بعد جماعة والـذين يخرجـون منها يـذهبون للحسـاب ، كما ان الذين يدخلون فيها يتعرضون للامتحان.

ولعل المعنى ان حقيقة الإنسان لا تتغير بعد المـوت ، وانما تتبدل صورته الظاهرية فقط ، حيث ينتقل الى حيـاة تتغير فيها المقاييس ونحن لا نعلم عنها شيئا.

[62] وكفى بجهل الإنسان اين يصير بعد المـوت دليلا على أنه مــدبر مخلــوق وانه ليس القــادر المتصــرف في نفسه ، وكفى بعلمه بالخلق الأول إثباتا للبعث. وان الــذي خلقه من نطفة من مني يمنى ، قادر على بعثه للجزاء إذا وقعت الواقعة.

(**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ**)

ان الإنسان لا يستطيع ان ينكر قدرة الله على الأحياء في خلقه الاول ، فلما ذا

---

(1) أسراء / 48 ـ 51.

يشك فيه تعالى وفي قدرته على البعث؟ (**أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى * ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى* فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى * أَلَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى**) [1]؟! بلى إنه قادر وكفى بالنشأة الاولى مذكرا لنا بهذه الحقيقة المودعة في فطرتنا وعقولنا.

ودعوته الى التذكر هنا بعد قوله : ((**فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ**) الآية 57)ـ ، يهدينا الى ان المسافة بين الإنسان وبين التصديق بالله وباليوم الآخر قريبة جدا لا تحتاج الا الى التذكر وذلك بالتوجه الى مقاييسه العقلية التي يمارس بها فعاليات حياته.

[63 ـ 64] ويلفتنا الذكر الحكيم الى آية اخرى تهدينا لو تفكرنا فيها الى الخالق اللطيف عزّ وجلّ والذي يتجلى لخلقه في كل شيء حتى لا يجهلوه في شيء ، انها آية الزراعة ، التي تعرفنا من جهة بربنا ، وتضع أمامنا من جهة ثانية صورة واضحة وقريبة لواقع البعث والنشور ، حيث نضع البذرة في التراب ، فلا تلبث بعد ان نصب عليها الماء أن تصير نبتة ، ثم تستوي على سوقها تحكي الحياة بكل روعتها وعنفوانها.

(**أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ**)

انه لا يحدثنا عما لا نزرعه من الأشجار والنباتات لان عدم صنعنا فيها ثابت فهي إذا من عند الله ، إنما يحدثنا عما نزرعه بأيدينا ونحرث له ، والحرث هو قلب الأرض ووضع البذور فيها ، والرؤية في الآية منصرفة الى رؤية البصيرة كما هي في الآيات (58 ، 68 ، 71) ، ونحن بعد ان نرى بهذا المعنى ينبغي لنا ان نجيب على السؤال :

(**أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ**)

---

(1) القيامة / 37 ـ 40.

فنحن حينما نعمل بصرنا وبصـيرتنا ونطلع على الواقع الـــذي تتم فيه الزراعة حيث مئـــات الآلاف من العوامل والقوانين التي نجهل أكثرها ، ولسنا نحن الذين اوجدناها ، أو نسيرها فانه حينئذ يتأكد لنا بأنه تعالى الـذي يـزرع ، أما دورنا في الحقيقة فليس إلّا الحـرث والسـقي وما أشـبه وكل ذلك يكون بنعم الله وحوله وقوته.

وحين تصفو رؤية الإنسان وتجلو بصيرته يلامس قدرة الله وتدبيره ويؤمن بمـدى سـعة القـدرة وحسن التـدبير ، خصوصا المــزارع حيث تحيط به آيــات الخليقة ، ويتعامل مع الأنـواء والـتراب والمـاء ويتعـايش نمو النبـات وجماله وتجليات القدرة الالهية فيه.

وتــرغب النصــوص الدينية المؤمــنين في التعامل مع الزراعة بهذه البصيرة ، قال الامام أبو عبد الله (ع) : «**إذا أردت ان تزرع زرعا فخذ قبضة من البـذر واسـتقبل القبلة ، وقل (الآيتان 63) ثلاث مـرات ، ثم تقـول : بل الله الــزارع ثلاث مــرات ، ثم قل : اللهم اجعله مباركا ، وارزقنا فيه الســــــلامة ، ثم انشر القبضة التي في يدك في القراح**» [1] الأرض الخالية.

وقـــال (ع) : «ان بـــني إســـرائيل أتـــوا موسى (ع) فسألوه ان يسأل الله عـزّ وجـلّ ان يمطر السـماء عليهم إذا أرادوا ، ويحبسها إذا أرادوا ، فسأل الله عـزّ وجـلّ لهم ذلك ، فقـال الله عـزّ وجـلّ : لهم ذلك ، فـأخبرهم موسى فحرثوا ، ولم يتركوا شـيئا الا زرعـوه. ثم اسـتنزلوا المطر على إرادتهم وحبســوه على إرادتهم ، فصـــارت زروعهم كأنها الجبال والآجام (الشجر الكثير الملتـف) ، ثم حصـدوا وداسوا وذروا فلم يجـدوا شـيئا ، فضـجوا الى موسى (ع) وقالوا : انما سألناك ان تسأل الله ان يمطر السماء علينا إذا أردنا ، فأجابنا ثم صيّرها علينا ضررا ، فقال : يا رب ان بني إسرائيل ضجوا مما صـنعت بهم ، فقـال : وممّ ذاك يا موسى؟ قال سألوني ان

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 223.

أسـألك ان تمطر السـماء عليهم إذا أرادوا وتحبسـها إذا أرادوا فـأجبتهم ثم صـيرتها ضـررا ، فقـال : يا موسى انا كنت المقدر لبني إسرائيل فلم يرضوا بتقديري ، فـأجبتهم الى إرادتهم فكان ما رأيت» [1].

ومن دقيق عبـارة القـرآن انه لم يقل أأنتم تخلقونه كما هو حـال الحيمن والجـنين لأنه ليس من عاقل يـدعي ذلك وعملية النمو من البذرة حتى الثمرة تتم خارج ارادتنا وبعيـدا عن أيـدينا ، ولان نفي مجـرد الزراعة ينفي الخلق بالتأكيد.

[65 ـ 67] والدليل إلى أننا لسـنا الـزارعين ، ان الله قـادر على منع المطر ، أو ان يسـلط على حرثنا وبـاء فلا تقـوم له قائمة ، (**كَمَثَـلِ رِيحٍ فِيها صِـرٌّ أَصابَتْ حَـرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْـهُ**) [2]. ولا أحد يمنع قدرته عزّ وجلّ.

(**لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ**)

قـالوا : تتكلمـون في مجالسـكم ، من جهة التعجب والتنـدم على ما أنفقتم في الأرض لأجل الـزرع ، والمـراد انكم لا تقـدرون امـام قـدرة الله بجعله النبـات هشـيما إلا (على) التكلم فقط [3]. ولعل أصل الكلمة (فكه) يدل على الحـديث غـير الضـروري وغـير الجـاد وغـير الحق ، ومنه سمي المزاح تفكها باعتباره لا يهـدف بيـان الحقيقة ، كما سـمي بالباطـل. ومنه أيضا سـميت (الثمـرات) بالفاكهة باعتبارها غـير ضـرورية. ومن هنا قيل : التفكه : التكلم فيما لا يعنيك ومنه قيل للمزاح فكاهة وهذا المعنى أقـرب الى الآية.

حيث ان الإنسـان يفقد الارادة امـام المشـاكل ، ويتراكم عليه الهم والغم عند

(1) المصدر.
(2) ال عمران / 117.
(3) تقريب القرآن الى الأذهان آية الله الشيرازي.

الخسارة ويلحقه النــدم والشــعور بــالهوان (**فَيَقُولُ رَبِّي أَهـانَنِ**) [1] ، حــتى ليصــبح حديثه عن ذلك أكله وشــربه ومحوره الذي يدور حوله في كل لحظة ، لعله يروح بـذلك عن نفسه بعض الشيء.

والآراء الــتي ذكرها المفســرون في هــذه الآية قريبة من هذا المعنى إذ قالوا : تعجبون ، وقالوا : تندمون وقـال بعضـهم تتلاومـون نـادمين على ما حل بكم [2]. وربما كـان المعنى الأخير أقرب والسياق التـالي يـدل عليه حيث انهم كانوا يقولون :

(**إِنَّا لَمُغْرَمُونَ**)

وفي اللغة غــرم أي خسر في التجــارة ، والغــرم ما يعطى من المــال على كــره [3]. فالله القــادر على جعل المزارع حطاما ، وفرض الغرم علينا ، بأن يرسل الســماء بماء منهمر يغرق الحقـول ، أو يرسل أسـراب الجـراد فلا تبقي زرعا ولا ضــــرعا ، أو يبعث ملايين الفــــئران تقضم الأخضر واليابس فنجد أنفسـنا مغـرمين خاسـرين لكننا إذا تفكرنا بمنهج سليم ، نكتشف أن الخسارة (الغرامة) الـتي فرضت علينا ليست بالصدفة ، بل هي بإرادة متصرف في الحياة ويمضي في مصائرنا وأرزاقنا ما يشــاء ، فيرزقنا أو يمنعنا ويحرمنا متى شاء وكيف.

(**بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ**)

إذن فارزاقنا يقسـمها مقسم هو الخـالق تعـالى ، وما دام هو الــزارع ، فبيــده الحرمــان ، فلما ذا نشــرك به أو نكفــر؟ وما دامت إرادته نافـذة في الحيـاة لا يمنعها مـانع فلما ذا نشك في البعث ونصير في لبس من خلق جديــد؟ أو لا يكفي ذلك دافعا الى

---

(1) الفجر / 16.
(2) القرطبي / ج 17 ـ ص 216.
(3) المنجد / مادة غرم.

التصديق به واليقين برسالته؟

[68 ـ 70] ثم للنظر الى المـاء وبالـذات ذلك الـذي نشر به وترتكز عليه حياتنا وحيــاة كل كــائن حي ، إننا لم ننزله من السحاب.

(**أَفَـرَأَيْتُمُ الْمـاءَ الَّذِي تَشْـرَبُونَ* أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُـوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ**)

ولا ريب اننا لا نســـتطيع الادعــــاء بانزاله من قبلنا ، وأكبر دليل على ذلك اننا لا نـدري مـتى يـنزل. وإذا غطت الســحب ســماءنا لا نملك التصــرف في انزاله وبالكيفية والمقـادير الطبيعية ، وهـذه الحقيقة يقبلها الجميع ، ولكن أورد البعض هنا شـــبهة ، فقـــالوا إن المطر نتيجة عوامل وقوانين طبيعية ، تبـدأ من تبخر ميـاه البحـار والمحيطـات والأنهـار بفعل الشـمس ، وتنتهي بـالغيث مـرورا بصـعود الأبخــــرة في طبقــــات الجو العليا ، وهي عملية يفعلها النظام المجرد ، ولا نحتاج معها الى افـتراض وجـود ارادة (الخالق) تجري العملية بسـببها ، وهـذه من أعقد مشـاكل الإنسان مع العلم.

يقول الـدكتور بخـنر الألمـاني بما اننا لم نجد ظـاهرة واحدة في هذا الكـون الـرحيب من أبعد نقطة اكتشـفناها في الفضـاء والى أقـرب جـرم إلينا لم نجـدها شـاذة عن النظام الكوني. فليس لنا الحاجة الى افتراض وجود الله.

(ولكنّ الحقيقة) أن عدم وجود شذوذ في النظـام ، أو شمولية النظام في الكون لا يكـون دليلا على عـدم وجـود الخالق ، بل يكون دليلا قاطعا على وجود من خلق النظام وهو الله الخالق العظيم وإلّا فمن جعل هذا النظام وقدّره وأجــراه وبعد هــذا فهل كله خاضع للنظــام ، أو هل أثبت العلم الحديث هذا النظـام ، لنسـمع «هـايز نـبرغ» العـالم الفيزيائي يقول ـ في نظـام الـذرة ـ : إنّ من المسـتحيل علينا أن نقيس

بصورة دقيقة كمية الحركة الـتي يقـوم بها جسـيم بسـيط وأن نحدد في الوقت عينه موضـعه في الموجة المرتبة به بحسب الميكانيكا الموجبة الـــتي نـــادى بها «لـــويس دوبـروغلى» فكلما كـان مقيـاس موضعه دقيقا كـان هـذا المقيــاس عــاملا في تعــديل كمية الحركة ، ومن ثم في تعديل سـرعة الجسـيم بصـورة لا يمكن التنبؤ بها ، ومهما تعمقنا في تــدقيق المقــاييس العلمية ابتعــدنا أكــثر عن الواقع الموضوعي.

هذا في الذرة الذي نادى فيها بعض بمبدإ النظــام في اللانظام. وأما في المجرة أكبر وحدة وجودية فـإنّ أحـدث النظريــات الفلكية أثبتت أنّه بــالرغم من وجــود نظــام متناسق فيها فان فيها مجالا واسعا لما نسميه بالصدف؟ [1].

فالنظـام إذا ليس كل شـيء ، حـتى نتخـذه ربّا ــ فهو بالاضافة إلى كونه دليلا الى العليم العزيز الذي قـدّر ، كما أنّ الأثر دليل على المؤثر ـ فإنّ هنـاك إرادة فـوق النظـام تمضــيه أو تعطله مــتى ما شــاءت وهي إرادة الله ، ولقد أودع الله ثغرة في كل نظام وسنة تـدل عليه ، فهـذا مـاء المزن العذب يصيّره ربنا أشد ملوحة من الملح إن شــاء ، فلا نقدر على شربه ، أو يسـتحيل من سـبب للحيـاة ، الى وسيلة للموت والدمار.

(**لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً**)

يعـني أشد ما تكـون الملوحة ، وربّنا قـادر على جعله كذلك حال كونه غيثا أو في مخازن الأرض ، بحيث لا يـؤثر قــانون التبخر في فصل مــاء البحر عن أملاحه ، أو يجعل أسـاس تـركيب المـاء قـائم بـالملح فلا يمكن فصـله عنه بالتحليل والتحلية كما يفعل الآن لميــاه البحــار ، أو أنّه لا ينزله من السـحاب فلا يجد النـاس إلّا مـاء البحر الأجـاج ، ولكنه بلطفه جعل درجة تبخر المـــاء تختلف عن الأملاح ، كما نظم دورة

____

(1) الفكر الاسلامي مواجهة حضارية / ص 188 ـ 189 للمؤلف.

سقوط الغيث وجميع جوانب الحياة بالصورة التي تنسـجم مع متطلبـات حياتنـا. وعـدم جعله مـاء شـربنا أجاجا ليس لعجز في مشيئته ، أو لأنّ القـانون يفـرض نفسه عليه بل لرحمته بنا ، فلم يـرد ذلك حيث وضع القـوانين الأساسـية للغيث وإذا شاء في المستقبل تغييرها فله البداء «**يَمْحُـوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ**».

وإدراكنا لهـذه الحقيقة يعرّفنا بخالقنا ويسـوقنا إلى التصـديق به وبقدرته المطلقة ، وما يجب هو أن يصـير التصديق مسئولية وبرنامجا عمليا في حياتنا ، يفرض علينا التزامات يعبر عنها القرآن بالشكر.

(**فَلَوْ لا تَشْكُرُونَ**)

إذ لا فائدة من معرفة لا تقـود إلى العمل ، ولا معـنى للتصـديق إذا فـرّغ من أهم مضـامينه وأهدافه أي الشـكر. والمهم هنا التذكير بـأن الشـكر لا ينحصر في تلك الأذكـار المتعـارف عليها ، فهي جـانب منها أو هي رمز لها أما الشـكر الحقيقي فهو معرفة المنعم وتـذكر نعمته عليه ، والتصـرف في النعمة حسب تعاليمـه. وبالتـالي التسـليم الشامل له.

قـال الامـام الصـادق (ع) : «**ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فعـرف أنّها من عند الله إلّا غفر الله له قبل أن يحمـده**» [1] وقـال : «شـكر النعمة اجتنـاب المحـارم ، وتمـام الشـكر (أي ما يكمله) قـول الرجل الحمد لله رب العـالمين» [2] وقال في تفسير الآية : (**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيـدَنَّكُمْ**) : «**نعم من حمد الله على نعمة ، وشـكره ، وعلم أن ذلك منه لا من غيره**» [3].

(1) أصول الكافي / ج 2 ـ ص 96.
(2) بح / ج 71 ـ ص 40.
(3) المصدر / ص 53.

وقـال الإمـام العسـكري (ع) : «**لا يعرف النعمة إلّا الشاكر ، ولا يشكرها إلّا العارف**» [1] وقال الإمـام زين العابدين (ع) : الحمد لله الذي لو حبس عن عبـاده معرفة حمـــده على ما أبلاهم من مننه المتتابعة ، وأســبغ عليهم من نعمه المتظـاهرة ، لتصـرفوا في مننه فلم يحمـدوه ، وتوسّعوا في رزقه فلم يشكروه ، ولو كانوا كذلك لخرجوا من حـدود الإنسـانية إلى حد البهيمة ، فكـانوا كما وصف في محكم كتابه : «**إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعـامِ بَـلْ هُمْ أَضَـلُّ سَبِيلاً**» [2].

وما شــكر الله من أســرف في نعمه ، أو تقــوّى بها على معصيته ، ونستوحي من أمر الله بالشكر بعد الإنـذار المبطن المتمثل في قـدرة الله على تحويل المـاء أجاجا ، أنّ ســلوك الإنســان فيما يتصل بربّه أو بنعمه ســبحانه ينعكس على الطبيعة من حوله. فربما ضرب الجفاف بلدا ، فقلّت المياه وانعدمت لعدم شكرهم ربّهم.

[71 ـ 72] والنـار هي الأخـرى نعمة هامة وأساسـية تتدخل في كثـير من مرافق حياتنا ، فهي مصـدر للطاقة ، ووســيلة للتدفئة والطبخ والإضــاءة ، وعامل أساسي في الصناعة إلّا أنّ القرآن في هـذا السـياق لا يريد الفاتنا إلى هـذه الجـوانب على أهميتها ، بقـدر ما يريد الحـديث عن النـار باعتبارها آية من آياته ونعمة عظيمة لا بد من شـكر الله عليها.

(**أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ**)

أي توقدون وتشـعلون ، والملاحظ أنّ الله يوجهنا إلى أشـياء متمـيزة (الحيمن والجـنين ، والمـوت ، والحـرث ، والمـاء ، والنـار) ، وتميّزها ليس فقط في كونها من أبـرز وأهم الأشياء ، بالنسبة للإنسان أو لأنها من أعظم تجليات الله في الخليقة ، بل لأنها قد أصـــبحت لا تثـــير اهتمامنا كثيرا ولا تدعونا إلى التذكرة والاتعاظ ، إنّما

---

(1) المصدر / ج 78 ـ ص 378.

(2) الصحيفة السجادية الدعاء الاول.

نتعامل عادة معها باعتبارها متوفرة قد تعودنا عليها ، فمنذ أن بدأنا ندرك الحياة تعايشنا مع الماء والنار وما أشبه ، ولكن ألا فكرنا في مدى حاجتنا أليها؟ وكيف أنّ الله وفّرها لنا؟ وماذا لو انعدمت عنا؟ هنالك يتحول موقفنا منها تماما .. إنّها سوف تنطق بأسرار الحياة وتسبّح بحمد الرّب الذي وفّرها وتصبح جسرا بيننا وبين معرفة الخالق العظيم.

(**أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ**)

قالوا إنّها المرخ والعقار الذين كانت العرب توقد النار بضربهما ببعضهما ويبدو أنّها كل شجرة تتقد فهل كنا نحن الخالقين لها أم الله؟ أفلا نؤمن بقدرة ربّنا الذي خزن النار في هذه الأشجار الخضر أولا نصدق بأنّه قادر على إحياء الموتى؟

مشكلة البشر في قضية البعث أنّه يقيس الأمور حسب قدراته ، فحيث يجد في نفسه الضعف والعجز ينكر الآخرة ، أما إذا نظر إلى القضية من خلال إرادة الله المتجلية في الكون فلن يرى البعث إلّا أمرا هينا وربما تكشف هذه الفكرة سر التساؤل المتكرر (**أَأَنْتُمْ أَمْ نَحْنُ**) ، فلو كانت الإجابة فرضا أننا نحن (البشر) نخلق ونزرع وننشئ وننزل لأمكن الكفر بالبعث ، بينما الإجابة المعروفة لدى كل بشر أن من يفعل ذلك غيرنا ، هنالك نسعى لمعرفته ، والإيمان به ومعرفة أسمائه وبالتالي نعرف واقع البعث والنشور.

[73] وربّنا لم يخلق النّار وينشئ شجرتها وحسب ، وإنّما جعل لخلقها أهدافا محددة.

(**نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً**)

للنـاس بـربّهم من حيث هي نعمة إلهية عظيمة ، كما أنّها تـذكرنا بنـار جهنم الكـبرى فهـدفها الأول والأهم هو تزكية نفس الإنسان ، ففي الخبر عن الإمام الصادق (ع) : «**إنّ ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم ، وقد أطفيت سبعين مرّة بالمـاء ، ثم التهبت ، ولو لا ذلك ما استطاع آدمي أن يطفيها ، وإنّها ليـؤتى بها يوم القيامة حتى توضع على النار فتصرخ صـرخة لا يبقى ملك مقـرب ولا نـبي مرسل إلّا جـثى على ركبتيه فزعا من صرختها**» [1].

أما الهـدف الآخر للنـار فهو الانتفـاع المـادي بها في مختلف مرافق الحياة ، والمجالات الـتي يكتشف الإنسـان منافعها فيها وطرق استخدامها سـواء بصـورتها المباشـرة (اللهب والشعلة) ، أو غير مباشرة (عموم الطاقة).

(**وَمَتاعاً لِلْمُقْوِينَ**)

قالوا : المقوي الذي ينزل القي وهو الصحراء القاحلة ، وإنّما جعلت متاعا لهم بالخصـوص لمزيد حـاجتهم إليها ليس للتدفي والطبخ فقط وإنما لطرد الوحوش في الليل أيضا.

وقال بعضهم : المقوي الجائع كما قال الشاعر :

وإنّي لأختـار القـوي طـاوي الحشى ... محافظة من أن يقال لئيم

ويقـال : أقـوى الرجل إذا لم يكن معه زاد. [2] وهـذا أقرب ، ولعل القي سمي كذلك لانعدام الطعام فيه. وفي حالة الجوع وفناء الـزاد تكـون النـار متاعا عظيما خصوصا للمسافر.

[74] ويختم ربّنا هـذا الـدرس القـرآني بـدعوة إلى التسبيح باسمه للخلاص من

(1) نور الثقلين / ج 5 ـ ص 224.
(2) القرطبي / ج 17 ـ ص 223.

النــار ومصــير أصــحاب الشــمال وكوســيلة للتقــرب إلى رضوانه.

(**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**)

وهــذه الــدعوة هي محصــلة طبيعية لحــديث الآيــات الســابقة ، ومتممة لها ، فتلك دعتنا إلى التصــديق وعرفتنا بربّنا من خلال نعمه وآياته المتجلي فيها ســـــــــبحانه ، وحرضتنا على التذكر والشكر ، وهذه الخاتمة أوضـحت لنا البرنــامج العملي لتلك المعرفة والتــذكر والشــكر المتمثل في تنزيه الله عن الشريك وعن أي نقص وعجز وحد.

ولأننا لا نعــرف كنه ذاته ســبحانه فليست لنا وســيلة اليه وإلى تســـبيحه إلّا أســـماؤه الحســـنى المتجلية في الطبيعة ، والمـذكورة في كتابه ، وأســمى أذكـار التسـبيح قـــول العبد (ســـبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلّا الله والله أكــبر) وهو ســبحانه عظيم واســمه كــذلك عظيم ، وتنكشف لنا عظمته وعظمة اسمه كلما تقـدمت وتعمقت معرفتنا بآياته وآثار عظمته في الخليقة كلها.

والملاحظ في هــذه الآيــات (58 ـــ 73) ذكرها لأهم النعم الفطرية والحضارية بالنسـبة للإنسـان ، فـاهم النعم الفطرية هي خلقة الإنسان التي تبدأ من المني وتسـتمر ، وبنعمة المطر ، وأهمها حضـــاريا مما يعتـــبر اكتشـــافها انعطافات كـبري في تـاريخ الحضـارة البشـرية. اكتشـاف الزراعة والنار ، ولا ريب أنّ لنعمة الزراعة تأثيرا في سائر مرافق حيــاة الإنســان ، فهي مرتكز لحاجاته الأساســية كالتغذية والبنـاء ، والكمالية كالزينة والظل والتمتع ، حـتى قالوا إنها أصل كل حضارة.

ومعرفة هـذه الحقـائق يهـدينا إلى أنّ الحضـارة الـتي بأيدينا الآن ظاهر الأمر أنّنا الذين صـنعناها وأوجـدناها ، إلّا أنّها من صنع الله وفضله ، لأنّ الحضارة المادية

(الإنســان+ الزراعــة+ المــاء+ الطاقــة) هي من خلقه وتنشــئته ، ثم إنّها لا تكتمل إلّا بالإيمــان مما يــأتي التأكيد عليه في الدرس القادم.

فَلا أُقْسِــمُ بِمَواقِــعِ النُّجُـومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَــمٌ لَــوْ
تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتابٍ
مَكْنُونٍ (78) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنْزِيلٌ مِنْ
رَبِّ الْعـالَمِينَ (80) أَفَبِهـذَا الْحَـدِيثِ أَنْتُمْ مُـدْهِنُونَ (
81) وَتَجْعَلُـونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَـذِّبُونَ (82) فَلَـوْ لا إِذا
بَلَغَتِ الْحُلْقُــــومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُــــرُونَ (84)
وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ (85) فَلَوْ لا
إِنْ كُنْتُمْ غَيْـــــرَ مَـــــدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ
صــادِقِينَ (87) فَأَمَّا إِنْ كــانَ مِنَ الْمُقَــرَّبِينَ (88)
فَــرَوْحٌ وَرَيْحــانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (89) وَأَمَّا إِنْ كــانَ مِنْ
أَصْحابِ

---

81 [مدهنون] : متهاونون ـ كمن يـدهن في الأمر أي يلين جانبه تهاونا ، وأصله استعمال الدهن للين الجسم.

86 [مـــدينين] : أي محاســـبين ومبعـــوثين ، وقيل مربـــوبين من دان السلطان الرعية إذا ساسهم.

الْيَمِينِ (90) فَسَــلامٌ لَــكَ مِنْ أَصْحــابِ الْيَمِينِ (91)
وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّــالِّينَ (92) فَنُــزُلٌ مِنْ
حَمِيمٍ (93) وَتَصْــلِيَةُ جَحِيمٍ (94) إِنَّ هــذا لَهُــوَ حَــقُّ
الْيَقِينِ (95) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (96)

إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ

هدى من الآيات :

إنّ خلقنا وموتنا ، والزراعة والغيث ، وكــذلك النــار ، من الآيــات التكوينية الهادية إلى الإيمــان بالله الخــالق ، وباليوم الآخر ، أمّا الآية التشـريعية فهي القـرآن الـذي هو انعكـاس لسـائر سـنن الحيـاة وواقعياتها في صـورة نهج شـامل وكامل ، وهو أعظم آية تجلّى فيها الخـالق لخلقه ، إذ لا ينتفع البشر من سائر آيـات الله في الخليقة من دون القرآن الـذي ترتفع به حجب الغفلة والشـهوات ، وتتكامل به التـذكرة والتبصـرة ، وتتنـامى المعرفة والإيمـان بتلاوة آياته المبصرات.

وفي أوّل هـذا الـدرس يطالعنا الـذكر قسـما مؤكّـدا وعظيما على كرامة القرآن ، وأنّه حفظ في كتـاب لا تناله إلّا الأيـدي الطـاهرة ، وأنّه ليس إلّا من عند خـالق الوجـود ومبدعه ، الأمر الــــذي يجعل الإيمــــان به مفروضا على الإنسان المخلوق فرضا.

ثم تلخّص الآيـات الأخـيرة حـديث السـورة عن البعث (الواقعة) ، وتبدأ

بالاســـتنكار على البشر اســـتخفافهم بحـــديث الواقعة ، وتتحدّاهم بالموت الذي قهر الله به عباده ، والـذي هو في نفس الــوقت دليل الجــزاء والمســؤولية اللــذان يــزعم الإنســان القـدرة على تحـدّيهما. ثم تؤكّد الآيـات انقسـام الناس إلى ثلاثة أزواج ، وأنّ التحاق كل امرء بأصحابه يتمّ عند الموت ، فأمّا من المقربين ، وأمّا من أصحاب اليمين ، وأمّا من أهل الشؤم والنار. وهذه الحقيقة واقعية ، وحق يقين لا يغيّر فيه تكـذيب المكـذّبين وضـلالهم شـيئا ، كـأيّ واقع آخر لا ينتفي بمجرّد إنكاره. وكفى بحتمية وقوعه أنّه وعد من ربّنا القادر العظيم.

وفي الأخـير يأمرنا بالتسـبيح لأنّه السـبيل إلى النجـاة من النـار ، وإلى المزيد من القـربى اليه والـتي ينتمي بها الإنســان إلى المقــربين أفضل الأزواج ، أوليس هو النهج الأنجح لمقاومة دواعي الشرك به والتكذيب بوعده؟

بينات من الآيات :

[75 ـ 76] إنّ عظمة الله وأســـمائه تتأكد لـــدى الإنســـان كلّما لاحظ الوجـــود من حوله وتفكّر فيه ، لأنّه بكلّه آيـــات هادية إلى تلك الحقيقة ، وعرصة تتجلّى فيها العظمة والأســماء ، فبعظمة الخلق وروعته نهتـــدي إلى أســـمائه الجمالية فهو الحيّ القـــوي المقتـــدر الجميل الرحمن.

وبما في الخلق من صـــــفات التحـــــوّل ، والعجز ، والضــعف ، والمحدودية ، نهتــدي إلى صــفات الخـــالق الجلالية ، وأنّه القدّوس السبحان المتعالي الواسع ، ولعـلّ هــذا ما يفسر إشـــارته بالقسم إلى الكـــواكب والنجـــوم المتوزعة في الفضـــاء الـــرحب ، فإنّها بحســـنها ونظامها الـــدقيق وعلاقتها بالحيـــاة على الأرض تكشف جانبا من عظمة الخـالق عـزّ وجل وربّنا يفتح أفق البشـرية ويثيرها نحو التطلع إلى علم الفضـاء ، ولكن ليس في هـذا العصر الذي تقدّمت فيه معارف الإنسان بهذا الجانب من

العلم ، وتخصّص فيه الباحثون والمراقبون ، إنّما قبل عدّة قــرون ، وفي وقت كــانت معلومــات البشر بهــذا العلم وتوجّهاته ضــئيلة ومحـــدودة ، بل ومخلوطة بالخرافــات والأساطير.

(**فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ**)

ولم يقل بــذات النجــوم ، وذلك ليــبيّن حقيقة علميّة مهمة وهي أنّ الكـــواكب ليست منثـــورة في الســـماء اعتباطا ، كما يظنّ الجاهل بنظرته الخاطفة إلى ظاهرها ، بل هي خاضعة لنظام دقيق ومحكم بحيث تأخذ كـلّ نجمة موقعها فيه ، بما يجعل النظــام متكــاملا ، ويجعلها تــؤدّي دورها المطلوب والمناسب في الوجـود. ولا ريب أنّ هـذه الحقيقة حريّة بالدراسة والبحث من جانب المختصـين لما فيها من فوائد علمية تهمّ الإنســـان ، وتجلّيـــات لعظمة خالقها ومدبّرها تزيد إيمانه وتصديقه وتسبيحه.

«ويقـول الفلكيـون : إنّ من هـذه النجـوم والكـواكب الـتي تزيد على عـدّة بلايين نجم (تـزداد كلّما تقـدّم العلم بالإنسـان) ما يمكن رؤيته بـالعين المجـرّدة ، وما يـرى إلّا بالمجاهر والأجهـزة ، وما يمكن أن تحس به الأجهـزة دون أن تـراه ، هـذه كلها تسبح في الفلك الغـامض ، ولا يوجد أيّ احتمــال أن يقــترب مجــال مغناطيسي لنجم من نجم آخر ، أو يصــطدم بكــوكب آخر ، إلّا كما يحتمل تصـــادم مـــركب في البحر الأبيض المتوسط بـــآخر في المحيط الهادي ، يسيران في اتجاه واحد ، وبســرعة واحـدة ، وهو احتمال بعيد ، جدا ، إن لم يكن مستحيلا» [1].

ويقـول العلمـاء المختصـون أنّهم اكتشـفوا لحـدّ الآن نصف مليـارد مجـرّة ، ولا يزالـون يكتشـفون المجـرّة تلو الأخرى في هذا الفضاء الرحب ، وإنّما يـدرك عظمة قسم الله بمواقع النجوم الـذي يطّلع على مثل هـذه الحقـائق ، أمّا الذي يجهلها فانّ القسم بها

(1) في ظلال القرآن / نقلا عن كتاب : الله والعلم الحديث ص 33

عنده ليس ذا أهمية.

(وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

فكلّما تقـدّم الإنسـان خطـوة في العلم كلّما ظهـرت وتأكّـدت له عظمة هـذا القسم ، وكفى بـذلك عظمة أنّه قسم منه تعـالى بمواقع النجـوم. ونخلص الى القـول بـأنّ عـدم قسـمه مباشـرة بها يعـود الى أمـرين رئيسـيين : أحـدهما : أنّ القسم بشـيء يحقّق غرضه حينما تكـون عظمته معروفة عند الطـرف المقابل ، والآخر : لأنّ النـاس في الجاهلية كـانوا يعتقـدون في النجـوم ومواقعها بالخرافـات والشـرك فلم يقسم الله بها لكي لا تتعمّق اعتقـاداتهم الباطلة ، أو يتخذونه مـبرّرا لهـا. قـال الامـام الصـادق (عليه السـلام) : «**إنّ مواقع النجـوم رجومها للشياطين ، فكان المشركون يقسمون بها ، فقـال سـبحانه : فلا أقسم بها**» [1] ، وقـال (عليه السـلام) : «كـان أهل الجاهلية يحلفـون بها ، فقـال الله عزّ وجل : الآية» [2].

ولعلّ في الآية ايحاء واشارة من قبل الله الى النـاس بعدم جواز حلفهم هم بها ، حيث لا يصح للمخلـوق القسم إلّا بالخـالق ، وفي الروايـات تصـريح بـذلك ، قـال الامـام الصـادق (عليه السـلام) بعد ان تلى الآية : «عظم إثم من يحلف بهـا» [3] ، وفي هـاتين الآيـتين دعـوة الى نبذ الظنـون والأسـاطير في موقف الإنسـان من النجـوم ، والـتي تضر أكـثر مما تنفع ، الى العلم ، مما يظهر اهتمـام الإسـلام وموقفه من العلم ، ودعوته الرائـدة اليه ، وأنّه ليس كما يظن البعض أو يصوّرونه يعارض العلم والحضارة.

[77 ـ 79] وبعد التمهيد الآنف بالقسم يصـارحنا الوحي بتلك الحقيقة

(1) مجمع البيان / ج 9 الموضع.
(2) نور الثقلين / ج 5 / ص 225.
(3) المصدر

العظمى ، والتي كانت الغرض من القسم العظيم.

(**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ**)

أليس يتجلّى فيه ربنا بكـلّ جماله وجلاله ، وأي كرامة اسـمي من كتـاب تنفتح آياته عن جمـال الخـالق ، وروعة المخلوق ، وعن جلال الخالق ، وعظيم خلقه؟

قالوا : الكرم مجمل الصفات الحميدة [1].

وكيف لا يكـون القـرآن كريما وقد رغبنا الى مكـارم الأخلاق وحسـان الآداب ، الى العـدل والحرية والفضـائل الانسانية ، كما نهانا عن الخبائث والرذائل والسيئات؟

وإذا عدنا الى أنفسنا وما فطرت عليه من حب الخـير والفضـيلة لعرفنا ان القـرآن كتـاب ربنا أوليس يـدعو الى ذات الصـفات الحسـنى الـتي نحبها ونعتقد ان ربنا يحبها ، فكيف يكفرون به وكل آية آية منه شاهد على انه من عند الله؟

والسؤال هنا : ما هو وجه ذكر السياق للقـرآن وبهـذه الصورة المؤكدة؟

أولا : لان الـدرس السـابق ذكرنا بالآيـات الهادية الى التصديق بالخالق. فكان من البديهي ان يـأتي ذكر القـرآن ، لأنه السبيل الى معرفة الآيات ، والبصيرة لرؤية تجليـات الرب. ومن لا يهتدي بالقرآن كيف يتسنى له وعي حقـائق الخليقة ، وفك رموزها ، ومشـاهدة غيبها ، والعـروج منها الى معرفة خالقها؟

ثانيا : لان التصـديق بالخـالق ، والتـذكر ، والشـكر ، وبالتـالي التسـبيح باسم الـرب العظيم الـذي دعا اليه الدرس السابق ، لا يتم بالوجه الأكمل إلّا بالقرآن ،

---

(1) راجع مفردات الراغب

فـالقرآن معـراج السـابقين ، ومنهج أصـحاب اليمين. انه شريعة سـمحاء لمن أراد الـذكر ، وابتغى الشـكر ، وبحث عن سبيل التقوى. إنّك تسأل كيف أصدّق بالخالق؟ وكيف أتذكّر وأشكر؟ وكيف أسبّح؟ كل ذلك بالقرآن (**يَهْـدِي بِـهِ اللهُ مَنِ اتَّبَـعَ رِضْـوانَهُ سُـبُلَ السَّـلامِ وَيُخْـرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمــاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِــهِ وَيَهْــدِيهِمْ إِلى صِــراطٍ مُسْتَقِيمٍ**) [1] فالتسبيح الحقيقي الذي يأمر به الله بقوله : (**فَسَـبِّحْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**) [2] لا يتلخّص في الـذكر ، انما يكـــــون باسم الله العظيم وقرآنه أعظم أســــمائه الظاهرة ، بل وفيه الاسم الأعظم.

قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : «من أعطـاه الله القرآن فرأى ان أحـدا أعطي شـيئا أفضل مما أعطي فقد صغر عظيما وعظّم صغيرا» [3] وقال (صلّى الله عليه وآله) : «فضل القرآن على سـائر الكلام كفضل الله على خلقه» [4] وقال : «القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم إن هذا القرآن هو حبل الله ، وهو النور المبين ، والشفاء النافع ، فاقرأوه فان الله يأجركم على كل تلاوته بكل حـرف عشر حسـنات. أما اني لا أقـول (الم) حـرف واحد ، ولكن الف ، ولام ، وميم ثلاثون حسنة» [5] وقـال : «القـرآن أفضل كـلّ شـيء دون الله ، فمن وقّر القـرآن فقد وقر الله ، ومن لم يوقّر القـرآن فقد اسـتخفّ بحرمة الله ، وحرمة القرآن على الله كحرمة الولد على والده» [6] وقـال : «إن أردتم عيش السـعداء ، ومـوت الشـهداء ، والنجاة يوم الحسرة ، والظل يوم الحـرور ، والهـدى يـوم الضلالة ، فادرسوا

---

(1) المائدة / 16
(2) الواقعة / 74
(3) بح / ج 92 / ص 13
(4) المصدر / ص 19
(5) المصدر
(6) المصدر

القرآن فانه كلام الرحمن ، وحرز من الشيطان ، ورجحان في الميزان» [1] وقـال : «من اسـتظهر القـرآن وحفظه ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، أدخله الله به الجنة ، وشفعه في عشرة من أهل بيته ، كلهم قد وجب له النار» [2] وقال (صـلّى الله عليه وآلــه) يعظ ســلمان المحمــدي : «**يا سلمان! المؤمن إذا قرأ القرآن فتح الله عليه أبواب الرحمة ، وخلق الله بكل حـرف يخـرج من فمه ملكا يسـبّح له الى يـوم القيامة .. وان أكـرم العبـاد الى الله بعد الأنبياء العلماء ثم حملة القـرآن ، يخرجـون من الدنيا كما يخرج الأنبياء ، ويحشرون من قبورهم مع الأنبيــاء ، ويمــرون على الصــراط مع الأنبيــاء ، ويأخــذون ثــواب الأنبيــاء ، فطــوبى لطــالب العلم وحامل القــــــــرآن مما لهم عند الله من الكرامة والشرف**» [3].

ولكننا نحن المســلمين لا زلنا بعيــدين عن القــرآن ، بـالرغم من هـذه التأكيـدات ، وبـالرغم من تجربتنا معه ، أوليس قد أنقذنا من ظلمات الجاهلية ، وشـيد لنا حضـارة كانت ولا زالت منارا للبشرية ، فلما ذا هجرنـاه حـتى عـاد بيننا غريبــا؟ أفكارنا لا تشــير إلى بصــائره ، وســلوكنا لا تستوحى من قيمه. وبكلمة : خسرنا كرامة القـرآن وعـزّه ، ولا يزال يدعونا الى مأدبته وكرامته ، بيد اننا لن نبلغه الا بسعي منّا ، ذلك لأنه كما يصفه الله عزّ وجلّ :

(**فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ**)

فلا بد إذا نستظهره كما يقول رسول الله (صـلّى الله عليه وآله) [4] ، ونسـتنطقه كما يقـول الامـام علي (عليه الســلام) ، حــتى نطلع على مكنونه ، فهو بــالرغم من اشتماله على تبيان لكل شــيء لن ينطق ، «**ذلك القرآن فاستنطقوه ، ولن ينطق ،**

---

(1) المصدر
(2) المصدر
(3) المصدر / ص 18 وللمزيد راجع المصدر
(4) المصدر / ص 13

ولكن أخبركم عنه ، فيه علم ما يأتي ، والحديث عن الماضي ، ودواء دائكم ، ونظم ما بينكم» [1] ، وقد أراد الامام (عليه السلام) من قوله : «ولن ينطق» أننا لن نقرأ في ظاهر القرآن كل المناهج الحضارية للحياة ، ولا مضامينه العلمية ، انما نجدها بالتفكير والتدبر في آياته ، الذي يفتح لنا كن الذكر الحكيم ويبصرنا محتوياته وتأويلاته الواقعية في جوانب الحياة المختلفة ، والعقل إذا أعمل على هدى الآيات والسنة والعلم الصحيح هو مفتاح القرآن. قال تعالى : (**وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ**) [2] ، وقال : (**وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ**) [3] ، وقال : (**كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ**) [4]

ولأننا تعوّدنا على الأفكار الجاهزة ، ولان العملية الفكرية عملية مجهدة ، ولان مناهجنا في فهم القرآن وتفسيره متخلّفة وخاطئة في أغلبها ، فلا زلنا بعيدين عن الثقافة القرآنية التي نحتاجها في حياتنا الفردية والاجتماعية ، ولم ننتفع عمليا بالرغم من الحاجة الملحّة إليها. وما أشبه حالنا بظمآن يجري بقربه نهر فرات لم يكتشفه ، أو فقير تحته كنز كبير!

ولا يفوتنا القول بان من معاني «**مَكْنُونٍ**» محفوظ ، لم ولن تصل اليه يد التحريف ، ولن يطفئ نوره المشركون ولا الكافرون. وقال بعض المفسرين ان معنى الاية انه كتاب محفوظ عند الله ، والكتاب هنا كتاب في السماء [5] ، ولكن

---

(1) المصدر / ص 23 عن أمير المؤمنين (ع)
(2) آل عمران / 7
(3) العنكبوت / 43
(4) ص / 29
(5) القرطبي / ج 17 / ص 224

يبدو ان الاية التالية تفسر هذه الاية ، فهو مكنون عن غـير المطهرين.

(**لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**)

قال المفسرون والفقهاء تبعا للآيات يعني لا يجـوز ان يمس القرآن الا من كان مسلما طـاهرا. قـال أبو الحسن (عليه السلام) : «المصـحف لا تمسه على غـير طهر ، ولا جنبا ، ولا تمس خطه ولا تعلّقه. ان الله يقول : الآية» [1] ، وسـئل الامـام الصـادق (عليه السـلام) عن التعويذ تعلّقه على الحائض؟ قـال : «**نعم لا بـأس ، تقـرأه ، وتكتبه ، ولا تصيبه يدها**» [2].

وهـذا التفسـير هو ظـاهر الاية ، وإذا تـدبرنا في الاية أكثر لعرفنا ان الطهارة الجسدية بعد واحد من الطهـارة ، والبعد الاخر هو طهارة الروح التي هي الأهم.

ولا يمس حقـائق القـرآن الا المطهـرون ، عن الإثم والفـواحش ، البعيـدون عن العقد والأفكـار الدخيلة والمسبقة ، والأغلال والإصر ، وسائر الأدران الـتي تحجب الإنسان عن كتاب اللـه. قـال ربنا سـبحانه : (**وَإِذا قَرَأْتَ الْقُـرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَـكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُـونَ بِـالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً* وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِذا ذَكَـرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُـرْآنِ وَحْـدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبـارِهِمْ نُفُـوراً**) [3] وقـال : (**أَفَلا يَتَـدَبَّرُونَ الْقُـرْآنَ أَمْ عَلى قُلُـوبٍ أَقْفالُها**) [4] ، كما جاء أمره تعالى بالاسـتعاذة من الشـيطان في قوله : (**فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْـتَعِذْ بِاللـهِ مِنَ الشَّـيْطانِ**) [5] لأنه لون من ألوان النجاسة المعنوية التي تحجب الإنسـان عن الآيات.

---

(1) نور الثقلين / ج 5 / ص 226
(2) المصدر / ص
(3) الإسراء / 45 ـ 46
(4) محمد / 24
(5) النحل / 98

وأئمة الهدى الذين تنزل الوحي في بيوتهم هم الأعلم بمعاني القرآن ، لأنهم أظهر مصاديق الطهر لقوله تعالى : (**إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**) [1].

ومن الدقة في التعبير انه تعالى لم يقل الطاهرين انما قال «المطهرين» مما يؤكد تأويل هذه الآية في أهل البيت العصمة (عليهم السلام) حيث طهرهم الله ، ولذلك قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : «**فان القرآن الذي عندي لا يمسه الا المطهرون والأوصياء من ولدي**» [2] ولعل المراد مما عنده القرآن بتفسيره وتأويله وما تلقى من الأحاديث عن النبي (صلّى الله عليه وآله) فيه.

وقد قال الامام الصادق (عليه السلام) : «وانما القرآن أمثال لقوم يعلمون دون غيرهم ، ولقوم يتلونه حق تلاوته ، وهم الذين يؤمنون به ويعرفونه ، فاما غيرهم ، فما أشد اشكاله عليهم وأبعده من مذاهب قلوبهم ، ولذلك قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) : إنه ليس شيء بأبعد من قلوب الرجال من تفسير القرآن ، وفي ذلك تحير الخلائق أجمعون الا ما شاء الله .. الى ان يقول يخاطب السائل .. وإيّاك وتلاوة القرآن برأيك فان الناس غير مشتركين في علمه كاشتراكهم فيما سواه من الأمور (يعني كعلم الائمة) ، ولا قادرين عليه ولا على تأويله الا من حده وبابه الذي جعله الله له ، فافهم ان شاء الله ، واطلب الأمر من مكانه تجده إنشاء الله» [3].

[80 ـ 82] وانما يقصر غير المطهرين عن مسه ولا يجوز لهم ذلك لأنه كلام الله رب العالمين.

---

(1) الأحزاب / 33
(2) نور الثقلين / ج 5 / ص 226
(3) بح / ج 92 / ص 100 وص 101

(**تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ**)

وقد تجلى فيه الـرب فيه بأسـمائه ، وآياته ، ورسـالاته ، وشـرائعه ، وكتـاب هـذا شأنه يحجب عنه من اتبع هـواه ، وتمكّنت الشـهوات من قلبه ، لان معرفة الله معـراج القلب اليه ، وحضـور النفس في مقامه الأعلى ، فكيف يسمح لمن تراكمت عقد الذنوب على قلبه بـذلك؟! حاشا بذي العرش ان يسمو الى مقامه الذين اخلدوا الى الأرض واتبعوا أهواءهم!

(**أَفَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ**)

انه حـديث عظيم لا بد من أخـذه بقـوة وعـزم ، والاستقامة عليه في مواجهة الضغوط. أما اللين في أمره ، والاستسـلام للضـغوط بـالاعراض عنه ، فهو لا يتناسب وعظمة القـرآن. وهـذا المعـنى هو المفهـوم من مختلف الآراء في تفسـير المـدهن ، قـالوا : مكـذبون ، وقـالوا : منافقون ، وقال بعضهم : ممالقون الكفار على الكفر به ، وقـال آخر : المـدهن الـذي لا يعقل ما حـقّ الله عليه ويدفعه بالعلل ، وقـال بعض اللغـويين : مـدهنون تـاركون للجـزم في قبـول القـرآن [1]. وقـال آية الله الشـيرازي : متهـاونون ، كمن يـدهن في الأمر أي يلين جانبه تهاونا ، وأصله استعمال الدهن للين الجسم [2] ، ومنه قول الله : (**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ* فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ* وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ* وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ**) [3].

ونستفيد من الاية انه لا يجوز لأحد التهاون في احكـام القـرآن في اي حـال ، ولأي سـبب ، لأنه حـديث الله المفروض تطبيقه والالـتزام به على الخلق ، ولا يجـوز ان يبرر

---

(1) القرطبي / ج 17 / ص 228
(2) تفسير تقريب القرآن للأذهان / الموضع
(3) القلم / 7 ـ 10

ذلك بأنه قد تعــرض للضــغط لان علامة الايمــان تحــدي الضغوط ، وتفضيل الاخرة على مصالح الدنيا وشهواتها.

وانما ســقط الغــابرون عند ما خــارت عــزائمهم عند مواجهة التحــديات فأخــذوا يتهــاونون في أمر الــدين ، ويلينون أمام الصعاب.

(**وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**)

كذب الذي يزعم ان رزقه من العبـاد فأخذ يـداهنهم ، أو من الأنواء فطفق يستدرها بـدل ان يشـكر بارئها ، فقد يكون الناس سببا للرزق ، ولكن الله هو الرزاق ذو القــوة المتين ، فلا يجوز مداهنتهم وتكـذيب الحق للحصـول على لقمة الخـبز ، بل الله يجب ان يخـاف ويتقى ، لأنه إذا منع الــرزق لا يقــدر أحد على منحه ، وإذا منح فلا يقــدر أحد على منعـه. وبهـذا نعـرف ان تفاسـير الاية المختلفة تعـود بالتالي الى تفسير واحد : انهم قد زعمــوا خطأ ان رزقهم بالتكــذيب مداهنة للنــاس ، ولعل هــذا الــزعم هو مــورد استشــهاد النصــوص الـتي جعلت الـرزق بمعـنى الشـكر حسب مورد الـنزول المـروي ، ذلك ان زعم أهل الجاهلية بأنّ الأنواء هي التي تمطرهم هو كزعم هؤلاء ان التكـذيب سبب لرزقهم.

وهـذا التفسـير ينسـجم مع السـياق الـذي يسـتهدف تركيز الايمان بالله وحـده والتصـديق بأنه الخـالق الـرزاق (الآيــــات 57) وبــــالأخص إذا لا حظنا قوله : «**فَلَــــوْ لا تَشْكُرُونَ**» في الاية (70).

قال الامام علي (عليه السلام) : «**تجعلون شــكركم انكم تكذبون ، (وأضاف يعني أهل الجاهليـة) وكـانوا إذا امطروا قـالوا : أمطرنا بنـوء كـذا وكـذا ، فـأنزل الله الآية**» [1] ، وجاء في تفسير القرطبي يعلل استبدال كلمة الرزق بالشكر في

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 227

المعنى : (لأن شكر الرزق يقتضي الزيادة فيه ، ويكون الشكر رزقا على هذا المعنى ، فقبل «**وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ**» أي شكر رزقكم الذي لو وجد منكم لعاد رزقكم ، انكم تكذبون بالرزق ، اي تضعون الكذب مكان الشكر ، كقوله تعالى : «**وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَتَصْدِيَةً**» اي لم يكونوا يصلون ، ولكنهم كانوا يصفّرون ويصفقون مكان الصلاة. ففيه بيان ان ما أصاب العباد من خير فلا ينبغي ان يروه من قبل الوسائط الذي جرت العادة بان تكون أسبابا ، بل ينبغي ان يروه من قبل الله تعالى ، ثم يقابلونه بشكر ان كان نعمة ، أو صبر ان كان مكروها).

وروي عن ابن عباس قال : مطر الناس على عهد النبي (صلّى الله عليه وآله) فقال النبي (صلّى الله عليه وآله) : أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر ، قالوا : هذه رحمة الله ، وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا (أي نجم) ، فنزلت الآيات (**فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ**) .. (حتى بلغ قوله :) (**وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**) [1] أي تجعلون رزقكم انكم تكذبون بالله ، وتصدقون بالأنواء.

[83 ـ 87] ويعالج القرآن الانحراف الذي يقع الإنسان فيه بالشرك ، سواء الصريح منه كالاعتقاد بالأنواء ، أو المبطن كالاسترزاق والمداهنة اللذان هما من ألوان الشرك ، حيث يساوم الإنسان بالحق ، ويتنازل عنه الى الباطل ، أو يكذّب به استجابة لعوامل معينة داخلية أو خارجية ، يعالج هذا وذاك بوضعه امام الموت الواقعة الصغرى التي هي أخطر وأصعب وأحسم حوادث الدنيا ، فهو حينئذ لا ينفعه شيء ولا شخص ، ويأتي التأكيد على هذين الأمرين لان مداهنة الإنسان بالحق وتكذيبه به وشركه ينطلق من كفره بالآخرة والحساب ، واعتماده على الآخرين.

(**فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ**)

(1) تفسير القرطبي / ج 17 ص 230

يعـني النفس عند الأجل ، وبلوغها الحلقـوم كناية عن قــرب خروجها ، بل هي حقيقة يعاينها كل من حل اجلــه. اما الجالسـون حـول المنـازع للمـوت فـإنهم لا يـرون من الأمر الا ظاهر صاحبهم ، إذ يلف ساقا بساق ، ويقبض يـدا ويبسط أخرى.

(**وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ**)

بـأعينكم اليه لا تسـتطيعون الا التسـليم للواقع ، بينما تستل رسل الله روحه على أقرب من حبل الوريد.

(**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ**)

كما أنّهم إذا صاروا إلى مثل أمر من ماتوا سـيدركون بيقين ويـرون رسل المـوت بأبصـارهم وبصـائرهم ، وإنّما يـــدعونا ربّنا إلى الاتعـــاظ بمن يمضـــون قبل أن نكـــون بأنفسـنا الموعظة ، والإمـام علي (عليه السـلام) يؤكّد لنا هـذه الحقيقة إذ يقـول : «**فـإنّكم لو قد عـاينتم ما قد عـاين من مـات منكم لجـزعتم ووهلتم ، وسـمعتم وأطعتم ، ولكن محجـــوب عنكم ما قد عــــاينوا ، وقريب ما يطرح الحجاب! ولقد بصّرتم إن أبصرتم ، وأسمعتم إن سمعتم ، وهـديتم إن اهتـديتم ، وبحـقّ أقـول لكم : لقد جـاهرتكم العـبر ، وزجـرتم بما فيه مزدجر ، وما يبلغ عن الله بعد رسل الســـــماء إلّا البشر**» [1]

ومن دقيق عبـارة القـرآن أنّه لا يقـول هنا : «ولكن لا تنظـرون» ، لأنّ ما يريد بيانه عمى البصـيرة وليس البصر وحسب ، فالمؤمنون الموقنـون لا يـرون الملائكة بـأعينهم إذا قضى أحد نحبه على مقربة منهم ، ولكنّهم لا شك يدركون المـوت ، ويسـلّمون لهـذا الحق ، كتسـليمهم بكل الحقائق الأخرى ، ويبصرون بقلوبهم حتى ملائكة الله.

---

(1) نهج / خ 20 ص 62

وحيث تبلغ الــروح الحلقــوم يــتيقن الإنســان بكثــير من الحقائق الـتي طالما داهن بها وكـذّب واسـترزق ، فيـذهل عن كـلّ شـيء ، ويأسف على ما فـرط ، ويـرى أنّ الواقع الذي يعانيه هو نفسه الذي جـاء في حـديث الله ورسـالته للعـالمين. «**وإنّه لــبين أهله ينظر ببصــره ، ويســمع بإذنه ، على صــحّة من عقله ، وبقــاء من لبّه ، يفكّر فيم أفنى عمره ، وفيم أذهب دهره ، ويتذكّر أمـوالا جمعها ، أغمض في مطالبها ، وأخـــــــــــذها من مصــرّحاتها ومشــتبهاتها ، قد لزمه تبعــات جمعها ، وأشــــرف على فراقها ، تبقى لمن وراءه ينعمـــون فيها ، ويتمتعون بها ، ... ثم ازداد المـوت التياطا به فقبض بصره كما قبض سمعه ، وخـرجت الـروح من جســـده ، فصـــار جيفة بين أهله ، قد أوحشـــوا من جانبه ، وتباعدوا من قربه**» [1]

هكــذا قهر الله عبــاده بــالموت ، وبه يتحــدّى غــرور البشر وضلالهم ، ويعالج كفرهم بالجزاء فيقول :

(**فَلَوْ لا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ**)

أي إن زعمتم أنّكم غـير مجـزيّين بأعمـالكم ، وقيل : أنّكم غير مملوكين.

(**تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

ولكن كيف يكون الموت دليل الجزاء؟ والجـواب : إنّ هذا وذاك حق واقع مفروض ، والموت كما الجزاء يخشـاه الإنسان فيتهرّب من الاعتراف به حـتى يكذّبه ، حـتى جـاء في الحــديث أنّه الحق الــذي يشــبه الباطل حيث لا يكــاد يصدّق به أحد لعظيم شأنه في نفـوس النـاس ، ولكن هل ينتفي الموت بتكذيبه ، أو يمكن الفرار منـه؟ كلّا .. كـذلك الجزاء. إنّ الله يأخذ الروح ويدفعها للجزاء ، فإذا كان أحد يدّعي قدرة على تحدي سنّة الجزاء فليردّها ممّن أخذها؟

(1) نهج / خ 109 ص 161

[88] وحينما يحـــلّ الأجل يزهق كـــلّ باطل إلّا الحق الذي بشّرت به رسالة الله ، فإنّه يصير ماثلا أمام ابن آدم ، فما أخـبر به الله من انقسـام النـاس إلى ثلاثة أزواج لا يعـود كـذبا ولا ظنّا ولا حـتى مجـرّد إيمـان بل يجـده واقعا ماثلا أمامه.

(**فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ**)

إلى الله بإيمانهم وأعمالهم.

(**فَرَوْحٌ**)

أي راحة واطمئنان وسعادة.

(**وَرَيْحانٌ**)

جـاء في الأخبـار أنّه من أزهـار الجنة وروائحها يشـمّه ملك الموت المـؤمن فلا يحس بمنازعة الـروح وخروجهـا. ويلقى المـؤمن هـذين الجـزائين عند موته ، قـال الإمـام الصادق (عليه السلام) وقد تلا الآية : «**يعني في قبره**».

(**وَجَنَّةُ نَعِيمٍ**)

«**يعني في الآخرة**» [1] ، وقد تعرّضت السـورة في أوّلها إلى ذكر شـيء من نعيم السـابقين المقـرّبين. قـال رسـول الله (صـلّى الله عليه وآله وسـلم) : «إذا أراد الله تبـارك وتعـالى قبض روح المـؤمن قـال : يا ملك المـوت انطلق أنت وأعوانك إلى عبدي فطـال ما نصب نفسه من أجلي ، فـأتني بروحه لأريحه عنـدي ، فيأتيه ملك المــوت بوجه حسن ، وثياب طـاهرة ، وريح طيبة ، فيقـوم بالبـاب فلا يســـتأذن بوّابا ، ولا يهتك حجابا ، ولا يكسر بابا ، معه خمسمائة ملك أعوان ، معهم طنان الريحان ، والحرير

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 228

الأبيض ، والمسك الأذفر ، فيقولون : السلام عليك يا وليّ الله أبشر فـإنّ الـربّ يقـرؤك السـلام ، أمّا إنّه عنك راض غير غضبان ، وأبشر بروح وريحـان وجنة نعيم ، قـال : أمّا الــروح فراحة من الــدنيا وبلائها ، وأمّا الريحــان من كــلّ طيب في الجنة ، فيوضع على ذقنه فيصل ريحه إلى روحه ، فلا يــزال في راحة حــتى يخــرج نفسه ، ثم يأتيه رضـوان خـازن الجنة فيسـقيه شـربة من الجنة لا يعطش في قبره ولا في القيامة حتى يدخل الجنة ريّانا ، فيقـول : يا ملك الموت ردّ روحي حتى يثني على جسدي وجســدي على روحي ، قـال : فيقـول ملك المـوت : ليثن كـلّ واحد منكما على صاحبه ، فيقول الـروح : جـزاك الله من جسد خـــير الجـــزاء ، لقد كنت في طاعة الله مســـرعا ، وعن معاصيه مبطئا ، فجزاك الله عني من جسد خـير الجـزاء ، فعليك السلام إلى يوم القيامة ، ويقول الجسد للروح مثل ذلك.

قـــال : فيصـــيح ملك المـــوت : أيّتها الـــروح الطيبة أخرجي من الدنيا مؤمنة مرحومة مغتبطة ، قـال : فـرقّت به الملائكة ، وفرّجت عنه الشدائد ، وسهّلت له المــوارد ، وصـار لحيـوان الخلد ، قـال : ثمّ يبعث الله له صـفّين من الملائكة غير القابضين لروحه ، فيقومون سماطين ما بين منزله إلى قــبره يســتغفرون له ويشــفعون له ، قـــال : فيعلّله ملك المـــوت ويمنّيه ، ويبشّـــره عن الله بالكرامة والخير ، كما تخادع الصبي أمّه ، تمرّخه بالدهن والريحــان وبقاء النفس ويفديه بالنفس والوالدين ، قال : فـإذا بلغت الحلقوم قال الحافظان اللذان معه : يا ملك الموت ارأف بصـــاحبنا وارفق فنعم الأخ كـــان ونعم الجليس ، لم يمل علينا ما يسخط الله قط ، فإذا خرجت روحه كنخلة بيضـاء وضـعت في مسـكة بيضـاء ، ومن كـلّ ريحـان في الجنة فأدرجت إدراجا ، وعرج بها القابضون إلى السماء الــدنيا ، قال : فيفتح له أبواب السماء ويقـول لها البوّابـون : حيّاها الله من جسد كـــانت فيه ، لقد كـــان يمــرّ له علينا عمل صــالح ، ونســمع حلاوة صــوته بــالقرآن ، قـال : فبكى له أبواب السماء والبوّابون لفقده ويقولـون : يا ربّ قد كـان لعبدك هذا عمل صالح ، وكنّا نسمع

حلاوة صـوته بالـذكر للقـرآن ، ويقولـون : اللهمّ ابعث لنا مكانه عبدا يسمعنا ما كان يسمعنا ، ويصنع الله ما يشاء ، فيصـــــعد به إلى عيش رحب به ملائكة الســــماء كلّهم أجمعـون ، ويشـفعون له ، ويسـتغفرون له ، ويقـول الله تبـارك وتعـالى : رحمـتي عليه من روح ، ويتلقّـاه أرواح المؤمنين كما يتلقّى الغائب غائبه ، فيقول بعضهم لبعض : ذروا هذه الروح حتى تفيق فقد خرجت من كـرب عظيم ، وإذا هو استراح أقبلـوا عليه يسـائلونه ويقولـون : ما فعل فلان وفلان ، فإن كان قد مات بكوا واسـترجعوا ويقولـون : ذهبت به أمّه الهاوية (**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ**) ، قـال : فيقـول الله : ردّوها عليه ، فمنها خلقتهم وفيها أعيـدهم ومنها أخـرجهم تـارة أخـرى ، قـال : فـإذا حمل سـريره حملت نعشه الملائكة ، واندفعوا به انـدفاعا ، والشـياطين سـماطين ينظـرون من بعيد ليس لهم عليه سـلطان ولا سبيل ، فإذا بلغوا القبر تـوثّبت إليه بقـاع الأرض كالريـاض الخضر ، فقالت كـلّ بقعة منها : اللهمّ اجعله في بطـني ، قال : فيجاء به حتى يوضع في الحفرة التي قضاها الله له ، فـإذا وضع في لحـده مثّل له أبـوه وأمّه وزوجته وولـده وإخوانه ، قال : فيقول لزوجته : ما يبكيك؟ قال : فتقول : لفقدك ، تركتنا معلولين ، قال : فتجيء صورة حسنة قـال : فيقــول : ما أنت؟ فيقــول : أنا عملك الصــالح ، أنا لك اليوم حصن حصين وجنة وسلاح بأمر الله.

قـــال : فيقـــول : أما والله لو علمت أنّك في هــــذا المكان لنصبت نفسي لك ، وما غرّني ما لي وولدي ، قال : فيقـول : يا وليّ الله أبشر بـالخير ، فو الله إنّه ليســمع خفق نعال القوم إذا رجعوا ، ونفضهم أيـديهم من الـتراب إذا فرغــوا ، قد ردّ روحه وما علمــوا ، قـال : فيقــول له الأرض : مرحبا يا وليّ الله ، مرحبا بك ، لأحسننّ جوارك ، ولأبرّدنّ مضجعك ، ولأوسّعنّ مـدخلك ، إنّما أنا روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار» [1]

(1) بح / ج 1 ص 207 ـ 209 وفي الرواية بقية في المصدر

[90 ـ 94] هـذا كـان حـال الإنسـان إذا كـان من المقرّبين عند الموت وبعده.

(**وَأَمَّا إِنْ كـانَ مِنْ أَصْـحابِ الْيَمِينِ* فَسَـلامٌ لَـكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ**)

قيل المعـنى أنّ الملائكة تبشـره بـالأمن والسـلام والعافية ، وهو أكبر ما يطمح إليه الإنسـان ، فهم يؤمنونه من غضب الله وعذابه الـذي يحـلّ بأصـحاب المشـأمة ، فيقولون له : أنت في سلام لأنّك من أصحاب اليمين.

وقيل : يعني إن سألت عنه فهو سلام : كقولنا : أحمد إليك ربّي ، أي إن سـألت عنّي فأنا أحمد الله ، وكما لو سألت شخصا عن صاحبك فيقـول : كما تحب في عافية ، أو يقـول : يـدعو لك إنّه بخـير ، أو : يسـلّم عليك هو في عافيـة. قـال القرطـبي : أي لست تـرى منهم إلّا ما تحب من السلامة فلا تهتم لهم ، فإنّهم يسلمون من عذاب الله ، ويبدو أنّ هذا المعنى هو الأقرب.

ويحتمل أنّ الكلام هنا عن صـفة علاقتهم بالرسـول (ومن خلاله كلّ مؤمن تال للقرآن) في الدنيا قبل الموت. إنّها ليست علاقة العـداء والتكـذيب ، وإنّما هم في تسـليم له ، وسـلام تجاهه ، وليسـوا كأصـحاب المشـأمة الـذين يعادونك يا رسـول الله ويكـذّبون برسـالتك. وفي روضة الكـافي (ر ض) : قـال رسـول الله (ص) لعليّ (عليه السلام) : «هم شيعتك فسلم ولدك منهم أن يقتلوهم» [1] ، والآية تتسع إلى هذا المعنى بدليل هذه الرواية.

(**وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ**)

الذين كذّبوا الرسالة والرسـول ، وأنكـروا البعث فلم يستعدوا للقاء الآخرة ، بل

(1) نور الثقلين / ج 5 ص 229

أسرفوا في السيئات والذنوب فضلوا ..

(**فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ* وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ**)

قال الإمام الكاظم (عليه السلام) : إذا مات الكافر شيّعه سبعون ألفا من الزبانية إلى قبره ، وإنّه ليناشد حامليه بقول يسمعه كلّ شيء إلّا الثقلان ، ويقول : لو أنّ لي كرّة فأكون من المؤمنين ، ويقول : «**رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ**» فتجيبه الزبانية : «**كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ أنت قائِلُها**» ويناديهم ملك : لو ردّ لعاد لما نهي عنه ، فإذا أدخل قبره وفارقه الناس أتاه منكر ونكير في أهول صورة ، فيقيمانه ثم يقولان له : من ربّك وما دينك ومن نبيّك؟ فيتلجلج لسانه ولا يقدر على الجواب فيضر بأنه ضربة من عذاب الله يذعر لها كلّ شيء ، ثم يقولان له : من ربّك وما دينك ومن نبيّك؟ فيقول : لا أدري ، فيقولان له : لا دريت ولا هديت ولا أفلحت ، ثم يفتحان له بابا إلى النار وينزلان إليه الحميم من جهنّم ، وذلك قول الله جلّ جلاله : «الآيتان» [1]

وكونه من الضّالين المكذّبين يبيّن أنّ ضلالته متعمّدة اصطنعها بتكذيبه ، وليست عفويّة أو بسبب جهله بالحق وغفلته عنه.

[95 ـ 96] وفي نهاية السورة يؤكّد ربّنا بأنّ الحقائق التي ذكّر بها القرآن وأهمّها حقيقة الجزاء الأخروي ليست خيالا ، ولم تذكر لمجرّد التخويف إنّما هي واقع وسوف ينكشف بعينه للإنسان عند الموت.

(**إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ**)

وحيث لا يصل كثير من الناس إلى درجة اليقين إيمانا وعلما فإنّهم يضيعون هذا

---

(1) أمالي الصدوق / ص 239

الحق ، ويكفـرون به ، بينما يتجلّى لقلـوب الصـادقين من المؤمنين وهم في دار الدنيا ، ولذلك تكـاد أرواحهم تطـير من أجسادهم فرحا لذكر الجنة ، وتزهق خوفا لذكر النار ، والســبب أنّهم ليســوا في كفر ولا شك بــالآخرة ، إنّما يتعاملون مع ذلك الحقّ الغيب ، كما يتعاملون مع أيّ حــقّ محسـوس ، فهم حاضـرون ببصـائرهم هنـاك كحضـورهم ببصرهم هنا.

(**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**)

تنزيها له عمّا يصف المشركون والكـافرون ، كوصـفه بالعجز عن البعث والجزاء ، أو تبرير أخطائهم وخطيئـاتهم وإلقـاء المسـؤولية على الله سـبحانه بصـورة أو بـأخرى كالذين يسبّون الدهر ويعيبون الزمان ، وما الدهر إلّا سـنّة الله القائمة فيه ، وما الزمـــــان إلّا وعاؤهـــــا! إنّما هم المسـؤولون ، وقد جـاء التسـبيح عند ذكر الـذنب كما في قوله سبحانه (**وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِـباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْـدِرَ عَلَيْـهِ فَنـادى فِي الظُّلُمـاتِ أَنْ لا إِلـهَ إِلَّا أَنْتَ سُـبْحانَكَ ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**) ولعــلَّ حكمة ذلك إلّا نلقي اللوم على الله سبحانه ، وهكذا نسبّح الله لكي لا نظنّ به جــورا تعــالى ربّنا عن ذلك كبــيرا ، فنعــود إلى أنفسـنا ونحرّضـها على العمل لنصـبح من أصـحاب اليمين بحوله وقوّته. نسـأل الله أن يوقظنا من سـبات الشـهوات وغفلة الأهـــواء ، ويوفّقنا للعمل الصـــالح ، وينزلنا منزلة المقرّبين. إنّه سميع الدعاء.

الفهرس

سورة الذاريات

سورة الطور

سورة النجم

سورة القمر

سورة الرحمن

سورة الواقعة